النثر العربي في الأندلس والمغرب

وقل رب زدني علما
Damascus University

منشورات جامعة دمشق
كليّة الآداب والعلوم الإنسانية

النثر العربي في الأندلس والمغرب

تأليف

الدكتور علي دياب
أستاذ في قسم اللغة العربية

الدكتورة سراب الباز جي
أستاذة في قسم اللغة العربية

الدكتورعلي كردي
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية

الدكتور دياب راشد
أستاذ مساعد في قسم باللغة العربية

الدكتورة حسناء أقدح
أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية

١٤٣٦-١٤٣٧ هـ
جامعة دمشق
٢٠١٤ - ٢٠١٥ م

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩ – ١١
الفصل الأول	١١– ٤٦
فن الخطابة	
تمهيد	١٣
خطبة طارق بن زياد	١٦
خطبة عبد الرحمن الداخل	١٩
خطبة عبد الرحمن الأوسط	٢١
خطبة منذر بن سعيد	٢٢
خطبة المنصور بن أبي عامر	٣٠
خطبة القاضي عياض	٣٣
خطبة ابن تومرت	٣٧
خطبة ابن الخطيب	٤٠
خطبة ابن الزيات الغرناطي	٤٣
الفصل الثاني	٤٧-٩٠
فن الرسائل	
تمهيد	٤٩
الرسائل الديوانية	٥١
الرسائل الذاتية الخاصة :	٥٥
الرسالة الجدية لابن زيدون	٥٧
الرسالة الهزلية لابن زيدون	٦٣
الرسائل الدينية	٦٦
الرسائل الأدبية الخالصة	٧٠

التوابع والزوابع لابن شهيد ٧٤
حي بن يقظان لابن طفيل ٨١
طوق الحمامة لابن حزم ٨٣

الفصل الثالث ١٧٦-٨٩

فن المقامات

تمهيد : معنى المقامة و نشأتها ٩١
حدّها ٩٣
المقامات الأندلسية والمغربية ٩٥
مقامات الوصف : ٩٩
١-وصف الحلوى ٩٩
٢-وصف برغوث ١٠٣
٣- وصف الثعلب ١٠٤
مقامات الغزل : ١٠٥
١ مقامة في الغزل العفيف ١٠٥
٢ مقامة في الغزل الصريح ١٠٧
٣ الدوحية ١١٠

مقامات المدح : ١١٢
١ مدح ابن عباد ١١٢
٢ مدح ابن صمادح ١١٨
٣ مدح ابن ميمون ١٢٣

مقامات الهجاء : ١٢٥
١ القرطبية ١٢٥
٢ تسريح النصال إلى مقاتل الفصال ١٢٨

المقامات الرحلية ١٣١
١ رحلة صيد ١٣١

٢ طي المراحل ١٣٧
٣ مقامات ابن الخطيب ١٤٢
المقامة السياسية ١٤٣

مقامات النقد الأدبي : ١٤٩
١ الموازنة بين البديع والصابي ١٤٩
٢ محاسن الأدباء ١٥٢
٣ منازل الشعراء ١٥٤
كتب في المقامات: ١٥٧
١ مقامات السرقسطي الأندلسي ١٥٧
٢ مقامات الوهراني ١٦٦

الفصل الرابع ١٧٧ - ٢٤٨

فن المناظرات

تمهيد : معنى المناظرة ونشأتها ١٧٧
شروطها وآدابها — مكانها — قواعدها ١٧٩
أشكالها وأنواعها : ١٨٢
مناظرة السيف والقلم ١٨٣
مناظرات الأزهار ١٨٨
مناظرات المدن ٢٠٠
مناظرات القصور ٢٢٢
مناظرات الشعوبية ٢٢٥
السمات العامة للمناظرات ٢٣٥

الفصل الخامس ٢٤٧

أدب الرحل

تمهيد ٢٥٠
أعلام الرحالين ٢٥٨

رحلة أبي بكر بن العربي	٢٦١
رحلة أبي حامد الغرناطي	٢٦٥
رحلة ابن جبير	٢٧٠
رحلة التجاني	٢٧٦
رحلة ابن رُشَيد	٢٨١
رحلة القاسم التجيبي	٢٩٠
رحلة ابن بطوطة	٢٩٦
رحلة الفلصادي	٣٠٣
نموذج مدروس : رحلة العبدري	٣٠٨
السمات العامة للنثر الأندلسي	٣٤٥
خاتمة	٣٥٠
المصادر والمراجع	٣٥٢

جامعة دمشق Damascus University

مقدمة

قمنا بتأليف هذا الكتاب استجابة للحاجة الملحة إليه ليغطّي جانبا معرفيًا مهمًا من جوانب حضارتنا العتيدة ، فيُكمل ماجاء في كتاب (الشعر العربي في الأندلس والمغرب) من القصائد والموشحات والأزجال .

وسمّيناه (النثر العربي في الأندلس والمغرب) مجازاً ؛ مع أنه من الصعب أن نُحيط علما بما أنتجته قرائح الأدباء الأندلسيين والمغاربة على مدار القرون الثمانية وعلى مساحة تمتد من شمال أفريقيا إلى جنوب أوربا ، لكنّا نختار من نثر المشاهير ما نعتقده محققاً للغاية المرجوة .

ولم نفصل بين النثر المغربي والنثر الأندلسي ؛ بسبب تجاور القطرين المغربي والأندلسي وخضوعهما لسلطة مركزية واحدة في الشام أو المغرب أو الأندلس ، ما سمح بانتقال الأدباء بين مدن المغرب والأندلس بغير حدود ، فتلاقحت ثقافتهم وتقاربت أساليبهم في إنتاجهم الفني ، ونتيجة لذلك تلازم الإنتاج الأدبي تلازماً يصعب فصله.

ورسمنا خطة البحث ليتوزع على خمسة فصول متكاملة ، الفصل الأول للخطابة ، والفصل الثاني للرسالة ، والفصل الثالث للمقامة ، والفصل الرابع للمناظرات ، والفصل الخامس والأخير للرحل ، نتعرف فيها على الفنون النثرية الرئيسية ، ونستل من المصادر الأندلسية والمغربية الشهيرة أجمل النصوص ، وأكثرها تعبيرا عن هذا الفن،ونقوم بدراستها وتحليلها ونقدها

ونأمل أن يكون هذا الكتاب معينا للدارسين على توسيع دائرة الرؤية ، وفهم حقيقة النثر الفني ، واتّخاذ الرأي الصحيح في استقلاليته وجدّته ، أو تبعيّته للنثر المشرقي ، ومعرفة أسباب اهتمام الأوربيين به ؛ بدليل ما نجد من الشهود والشواهد في كتابات الغربيين ، ولاشكّ في أنّ الوصول إلى هذه النتائج العلمية يسهم في إيضاح وحدة الفكر

العربي في مشرق الوطن ومغربه ، وما تقسيم الأدب بحسب الجغرافيا والتاريخ إلا بغية التيسير على الدارسين ، مع أن منهجنا لا يحتاج إلا القسمة التاريخية أو الجغرافية ، فالبحث معنيّ بالفنون النثرية وأعلامها ، والتجديد الحاصل فيها .

---

١ - انظر ما قاله الأستاذ د. علي ذيب في مقدمة كتابه " في الأدب العربي الأندلسي والغربي " محاضرات عامة ألقيت ٢٠٠٢-٢٠٠٣

دمشق في ٢٠١٥/٢/٢

المؤلفون

الفصل الأول

فن الخطابة

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد

تُعَدُّ الظُّروف السِّياسيَّة مِنْ أبرز الدَّواعي لانتشار فنّ الخطابة في الأندلس ، ولا سيَّما في المراحل الأولى من قيام الدَّولة العربيَّة في عصر الولاة ، وكانت لإيقاظ الهمم للجهاد ، وإشعال الحماسة في النُّفوس للقتال .

فلمَّا نشأت الصِّراعات السِّياسيَّة تحوَّلت الخطابة السِّياسيَّة إلى ما فَرَضَتْهُ النِّزاعات القَبَليَّة بين اليمانية والقيسيَّة ، والخلاف بين العرب والبربر ، إضافة إلى تشاحن أمراء الأندلس فيما بينهم .

واستمر الحراك السِّياسيّ بين العرب والعجم المسيطرين على حُكم الأندلس أو أجزاء منها ، مما استدعى الخطابة السياسية الدينية . وغير ذلك من القضايا التي فرضتها مقتضيات السِّياسة، وبذلك أسهمت الحال السِّياسيَّة في توطيد دعائم الحاجة إلى هذا الفنّ النثريّ ، ورسخت أصوله في النَّثر الأندلسيّ ، فأدَّى ذلك إلى تطوُّره وانتشاره في الأندلس.

لكنَّ الخطابة في الأندلس لم تقتصر على موضوعها السِّياسيّ ، فقد نشأت الخطب في أنواعٍ أخرى من الأغراض، وهذا كلُّه دليلٌ على أنَّ هذا الفنَّ قد تطوَّر في الموضوعات بحسب ما اقتضتْهُ أحوال الحياة في الأندلس من اضطرابٍ أو استقرارٍ على الصَّعيد السِّياسيّ ، أو بحسب ما اقتضتْهُ الضَّرورة الاجتماعيَّة أحياناً .

فحين مالت الدَّولة العربيَّة في الأندلس في بعض مراحلها التَّاريخيَّة إلى الاستقرار شهدْنا إلى جانب الخطابة السياسيَّة أنماطاً أخرى من الخُطَب ، من ذلك خطبة النُّصح ، وخطبة التَّهنئة ، والخطبة الدِّينيَّة، وبذلك يمكننا القول إنَّ للخطابة أغراضاً عُرِفَتْ بها، منها ما يتعلَّق بشؤون الدَّولة ، من الشؤون الأميريَّة، وتجهيز الجيوش للفتوح ، واستقبال الوفود ، وعَقْدِ الأحلاف ، ومنها ما يتعلَّق بالشُّؤون الاجتماعيَّة، كخطبة الوالد في أولاده ، أو خطبة المؤدِّب فيمن يؤدِّبهم ، ومنها ما يتعلَّق بالشُّؤون الدِّينيَّة، كخطبة الوعظ والإرشاد ، وغير ذلك من الشؤون.

أمَّا من ناحية الأساليب الفنيَّة فقد كانت الخطابة الأندلسيَّة أوَّل أمرها مطبوعةً، تقوم على الإيجاز والوضوح والسَّلاسة، لأنَّ الولاة حرصوا على سهولة الوصول بها إلى المقصودين بالقول من الأنصار أو الأجناد أو العامَّة، ولذلك نفروا من التكلُّف في خطبهم، ثمَّ إنَّ الولاة في المراحل الأولى للحكم العربيّ في الأندلس كانوا من العرب المطبوعين أيضاً، وهؤلاء يرتجلون الكلام من غير تعسُّفٍ أو تنميقٍ، فلمَّا قامت الدَّولة الأمويَّة في تلك البلاد بدأنا نلمس عروق الصَّنعة تمتدُّ إلى هذا الفنّ رويداً ، حتَّى صارت الخطبة في عصر الطَّوائف مضماراً للتَّنافس والتَّباهي بالقدرة على ارتقاء صهوة القول.

ولما برزَ عصرُ المرابطين أخذ الخطباء يستعينون بأفانين الكلام الذي لم نكن نجده من قبل في الخطابة الأندلسيَّة، فظهر التكلُّف والاستعانة بالزَّخارف اللفظيَّة في كثيرٍ من الخطب على نحو واضحٍ، ولم ينج من هذا التكلُّف غيرُ النَّزْرِ اليسيرِ من الخُطب، ثمَّ طغى ذلك على خطب أدباء عصر بني الأحمر فصيرُنا نقرأ خطباً يظهر فيها التكلُّف بوضوح ، من مثل بناء خطب منزوعة النقط، أو منزوعة الألف، وغير ذلك، لكنَّنا لم نعدم خطباً أخرى بقيت أصيلة تراعي مضمون الفكرة وتُعنى بالمعاني.

وبقي هذا الفنُّ أقلَّ حضوراً في النَّثر الأندلسيِّ من فنِّ الرِّسالة، وهذا الحكم يندرج على فنون النَّثر كلِّها إذا ما أردنا قياسَها إلى فنِّ الشِّعر، الذي يُعدُّ الفنَّ الأثير لدى الأديب الأندلسيِّ، وعلى الرَّغم من قلَّة حضور هذا الفنِّ في أصول الأدب الأندلسيِّ ومتونه فإنَّنا نجد خطباً لها قيمتها التَّاريخيَّة وقيمتها الفنِّيَّة أيضاً، وليس من الادِّعاء القول إنَّ كثيراً من الخطب قد ضاع ، وعلى الرَّغم من أنَّ الخطب في المراحل الزَّمنيَّة اللاحقة لعصر الطَّوائف كانت أقلَّ جودةً ،فقد كان للخطابة وجودها في الأنماط النَّثريَّة الأندلسيَّة منذ الفتح حتَّى نهاية عصر دولة بني الأحمر في غرناطة، وكان لقب (الخطيب) شائعا لدى الأندلسيِّين في طبقة الأدباء، ممَّا يدلُّ على أهميَّة هذا الفنِّ لديهم، وإن لم يرقَ في المكانة إلى منزلة الشِّعر

لكنَّنا إذا سألنا عن علَّة قلَّة الخطب في الأصول الأدبيَّة الأندلسيَّة القديمة فإنَّنا نردُّ ذلك إلى ضياع كثيرٍ منها، إذ يذكر المصنفون مثلاً أنَّ لهذا الأديب أو ذاك خطب، ثمَّ لا يذكرون من ذلك غير نماذج قليلة ، وقلَّما يذكرون الخطب تامَّةً ، ويعود ضياعُ الخطب الأندلسيَّة إلى عواملَ ثلاثة:

اعتماد الخطابة على الارتجال على خلاف فنِّ الرسائل.

طول بعض الخطب تبعاً لطول نَفَسِ الخطيب في الارتجال.

اقتصار المدوِّنين للخطب في الأصول الأدبيَّة على الاجتزاء منها، والعزوف عن إثباتها تامَّةً في كثيرٍ من المدوَّنات.

ولا يغيب عن هذه العوامل كلِّها طبيعة النَّثر التي تختلف عن طبيعة الشِّعر، إذ إنَّ للشِّعر أوزاناً تُعين الرُّواة والحفَّاظ على حَمْلِ الشِّعر في الصُّدور، في حين يبقى حفظ الخطب في الصَّدر نادراً وقليلاً، ولا سيَّما أنَّ كثيراً من الخطب تُلقى مشافهةً.

ولا يُستبعَدُ أن يكون بعضُ الخطب معتمداً على مناسبةٍ طارئةٍ، فيحمل السّامع من الخطبة شيئاً ويترك منها أشياء، تبعاً لقدرته على الحفظ ، وما يُذكّر من رواة النّثر المسموع قلّة قياساً إلى رواة الشعر وحفّاظه.

وحظُّه من الجمع والعناية لا يعادل في الوفرة حظَّ الشّعر ، بل إنّ عناية المصنّفين بالشّعر أعظم من عنايتهم بالخطابة، وإنّ النظر في المصادر الأدبيّة الأندلسيّة يفضي إلى أنّ فنّ الخطابة لديهم لا يستقلّ بمؤلّفٍ خاصٍّ به، في حين يستقلُّ الشّعر بذلك، وتكثر فيه المؤلّفات..

ولا ننسى أنّ للشّعر سلطاناً على النّثر في تاريخنا العربيّ ، وإن كنّا لا ننكر أهمّيّة النّثر في تراثنا العربيّ القديم ، لكنّنا لا نستطيع أن نجعله على قدر المساواة مع الشّعر .

وعلى الرّغم من ذلك يبقى فنّ الخطابة أحد فنون النّثر العربيّ في الأندلس، وله أعلامه الذين اشتُهروا به، وإن قلّت خطبهم وآثارهم المنقولة، أو ضاع بعضها، وسنقف في هذا الفصل من الكتاب عند أبرز أعلام الخطابة الأندلسيّة، لنعرض نماذج من خُطَبِهم لدَرْسِها وتحليلها، وسنراعي التّسلسل الزّمنيّ لتلك الخطب، ما يُسَهّلُ علينا النّظر إلى التّطوّر التّاريخيّ لهذا الفنّ فيها.

خطبة طارق بن زياد(٥٠ -٩٠٢هـ)

أوّل الذي نطالعه في فنّ الخطابة الأندلسيّة خطبة من **عصر الولاة** منسوبة إلى طارق بن زياد، صاحب الشّرف العظيم في فتح الأندلس، إذ تذكر بعضُ المصادر التّاريخيّة أنّ طارقاً عَبَرَ بجنده إلى جزيرة الأندلس، فلمّا وصل إلى برّ الجزيرة قام فيهم خطيباً، فخطب **خطبة الجهاد**، واستهلها بحمد الله، والثناء عليه بما هو أهلُه ، ثمّ حثّهم على قتال العدوّ، ورغّبهم في الشّهادة، فقال:

" أيُّها النّاس، أين المفرُّ؟ البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصّدق والصّبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام، في مأدبة اللّئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورةٌ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدّت بكم الأيّام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبتْ ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعْبِها منكم الجراءةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمُناجَزَةِ هذا الطّاغية، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحصينة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لَمُمْكِنٌ، إنْ سَمَحْتُمْ لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أحذّركم أمراً أنا عنه بَنَجْوَةٍ، ولا حَمَلْتُكُمْ على خطّةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النّفوسُ إلاّ وأنا أبدأُ بنفسي، واعلموا أنّكم إنْ صبرتم على الأشقّ قليلاً، استَمْتَعْتُم بالأرْفَهِ الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظُّكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بَلَغَكُم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُور الحِسان، من بنات اليونان، الزّافلات في الدُّرّ والمرْجان، والحُلَلِ المنسوجةِ بالعِقْيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التّيجان، وقد انتخبكم الوليدُ بنُ عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُريانا، ورَضِيَكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحكم للطّعان، واستِماحِكُمْ[1] بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكونَ حظُّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مَغْنَمُها خالصةً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادِكُمْ على ما يكون لكم ذِكْراً في الدّارين، واعلموا أنّي أوّلُ مجيبٍ إلى ما دعوتُكُمْ إليه، وأنّي عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذَريقَ فمُقاتِلُهُ إنْ شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإنْ هَلَكْتُ بعدَهُ فقد كَفَيْتُكُمْ أمرَهُ، ولم يعوزكم بطلٌ عاقلٌ تسندون أموركُمْ إليه، وإن هَلَكْتُ قبلَ وصولي إليه، فاخلفوني في عزمتي هذه، واحْمُوا بأنفسكم عليه، واكْتَفُوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتلِهِ، فإنّكم بعدَهُ تُخْذَلُون"[2].

---

١ الاستماحة: الاستمالة والميلان.

٢ المقري: نفح الطيب ١/٢٤٠-٢٤١

يشكُّ كثيرٌ من المؤرِّخين في نسبة هذه الخطبة إلى طارق بن زياد، ويعود هذا الشَّكُّ إلى أسباب منها: أوّلاً: لم يكن طارق حين الفتح على دراية باللغة العربيَّة التي تؤهّله لنسج مِثْل هذه الخطبة، فأصله من قبيلة (نفزة) من البربر، وكان مولى موسى بن نُصير من سَبْي البربر، فأسلم على يديه، فولاَّه طنْجة سنة (٨٩هـ)، ثمّ أرسله لفتح الأندلس أوائل سنة (٩٢هـ) في جيشٍ مُعْظَمُ رجاليه من البربر، وكان حديثَ عهدٍ بالإسلام، والقارئ لهذه الخطبة يجدها في منزلةٍ من الصَّنعة النَّثريَّة لا يصل إليها حديثُ عَهْدٍ بالعربيَّة، وطارق ما عَرَفَ العربيَّة إلا منذ سنواتٍ قليلةٍ بعد إسلامه، وإذا أمكنه تحصيلُ شيءٍ منها فلا يخرج عمَّا يقيم بها شعائر العبادة والمعاملات اليوميَّة، وإنَّ قراءة نصِّ الخطبة يغني عن التَّفصيل في مرتبتها من الصَّنعة الكلاميَّة.

ثانياً: أضف إلى ذلك أنَّ معظم جيش طارق كان من البربر، وهم لا يتقنون العربيَّة ليخطب فيهم بها، لأنَّ جُلَّ جيشه من البربر، وقد ولاَّه موسى عليهم ليكون أقرب إليهم، ولاسيَّما أنَّه قائدٌ شجاعٌ وكان محلَّ ثقتهم ومَنْزِلَ طاعتهم، فكانت حكمةُ موسى بتوليته عليهم ليُطاعَ فيهم، ولا ننفي أن يكون طارق بن زياد قد خطَبَ في جنده على عادة القادة في المعارك، لكنَّه خطب بلغةٍ يَعِيْها أولئك الجُند وهي البربرية، ثمّ تُرْجِمَ كلامُهُ إلى العربيَّة أَحَدُ مَنْ كان في إمْرَتِهِ ليفهمَهُ العربُ الذين كانوا قِلَّةً في ذلك الجيش، أمَّا هذه الخطبة التي بين أيدينا فقد أفسدَتْها أهواءُ البلاغيِّين الذين تصنَّعوا في حَوْكِها ونَسْجِها، حتَّى كشفَ ذلك عن زيفها.

ثالثاً: إذا نظرنا إلى المضمون الفكريِّ لهذه الخطبة وجدنا أنها معطَّلة من القرآن ومن الحديث الشَّريف، وهذا ليس من أسلوب خطبة الجهاد في القرن الهجريِّ الأوَّل، كما أنَّ كثيراً مما جاء فيها لا يتلاءم ومقاصدَ الجهادِ التي كانت في ذلك القرن، وأوَّل مقاصده فتح الطريق لنشر الدعوة الإسلاميَّة، في حين نجد أن قائل الخطبة يشير إلى الزواج ببنات ملوك الأندلس: "وقد يَمَّمَكُم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُور الحِسان، من بنات اليونان، الرَّافلات في الدُّرِّ والمرْجان، والحُلَلِ المنسوجةِ بالعِقْيان، المَقْصورات في قصور الملوك ذوي التِّيجان،وقد انتخبكم الوليدُ بنُ عبد الملك أمورُ المؤمنين من الأبطال عُربانا، ورَضِيَكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً" فهل يُعقل أن تُجهِّز جيوش الفتح الإسلاميِّ لمصاهرة ملوك الأندلس حتَّى ترجع البلاد المفتوحة إليهم عند الزَّواج بينهم؟ وكيف يكون القائد بربرياً ولا يشير إلى فضل البربر، بل يقتصر على العرب من دونهم، على الرَّغم من أنَّ البربر هم الكثرة الغالبة في بنية الجيش، ثمّ إنَّ طارقاً يتبع في الإمرة لموسى بن نصير، وهو الذي ولاَّه إمرة الجيش، في حين تقتصر الخطبة على ذكر العرب وذكر الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي.

رابعاً: إذا تأمّلنا الأسلوب اللغويّ لهذه الخطبة نجد التكلّف في الصّنعة النّثريّة، من مثل قوله: " من الحُور الحِسان، من بنات اليونان، الرّافلات في الدُّرّ والمَرْجان، والحُلَلِ المنسوجةِ بالعِقْيان، المخصورات في قصور الملوك ذوي التّيجان" ولا يخفى أنّ مثل هذا الأسلوب اللغويّ على هذا النّحو من التكلّف في الخطابة كان شائعا في القرون المتأخّرة من الهجرة، منذ أواخر القرن الثامن الهجريّ، ولا يحاكي الأسلوب النّثريّ في القرن الأوّل.

ويرجح أن تكون هناك إضافات من المؤرخين المتأثرين بأواخر العصر العباسي والعصر المملوكي، إذ إن هذه الفترة قد كثر فيها الوضع، ومزج التاريخ بالقصص والأساطير، وهذا يؤكّده سندٌ تاريخيٌّ هو أنّ هذه الخطبة على هذه الصّورة لم تظهر إلا في قرون متأخّرة عن الفتح العربيّ للأندلس تصل إلى القرن العاشر، فلم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذريّ ولا غيرهما من المؤرّخين للفتوحات من المتقدّمين، ولا يُعقَل أن يهملوا ذكرها على أهمّيّتها، ولا تظهر على صورتها إلا في كتب المتأخّرين من مؤرّخي الفتوحات الإسلاميّة من أمثال المقّري وغيره. وربما كان السبب في النظر إلى فتح الأندلس وما أحاطوه به من هالة هو الدافع لكل ذلك.

إن الشّك فيما نسب إلى طارق حول هذه الخطبة ، لا يقلّل من أهمية هذا الأدب ، الذي أغنى مكتبتنا العربية بالرائع الجميل ، وإن بدّل فيه بعض المؤرخين أو أضافوا إليه في زمن متأخر عنه ما هيّئ لهم ، وفق ما حصلوه واطلّعوا عليه من بطولات طارق ، و لا ينعكس على ما كان لطارق من دور كبير في فتح تلك الربوع ، ولن ينقص هذا من قدر طارق وعبقريته وشجاعته وقد اقترن اسمه باسم الأندلس .

خُطَبُ عبد الرّحمن الدّاخل(١١٣ - ١٧٢هـ)

عبد الرّحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أوّل أمراء بني أميّة في الأندلس، به انْتَبَخ **عهد الإمارة الأمويّة** فيها، بعد أن انقرض ملك الأمويّين في الشّام، كان مُفَوَّهاً في الخطابة، وله خطبٌ كثيرةٌ نجد ذِكْرها في المصادر،

وهي في أكثرها خطبٌ سياسيّة تتعلّق بشؤون الفتح، لكنّ نصوصها مفقودة، لأنّ المصادر لم تذكر من تلك الخطب إلا نتفاً يسيرة، أو أنّها اكتفَتْ بالإشارة إليها من دون ذِكْر نصوصها.

من ذلك ما ذُكِرَ من **خطبة الجهاد** يوم حَرْبِهِ مع يوسف الفهريّ أوّل دخوله الأندلس، فقد ذكرت المصادر أنّه بعد أن أفلتَ من العبّاسيّين في الشّام وهرب إلى إفريقيّة جمع أنصاره ودخل إلى الأندلس وأسّس إمارته هناك، وكانت أولى معاركه الكبرى مع يوسف بن عبد الرحمن الفهريّ والي الأندلس، وحين اشتدَّ الكربُ بين يدي عبد الرحمن الدّاخل في حربه مع يوسف، ورأى شدّة مقاساة أصحابه خطبَ في الجند خطبةً عظيمةً لم تذكر المصادر منها سوى قوله:

" هذا اليوم هو أمسُّ ما بُنِي عليه، إمّا ذلُّ الدّهر، وإمّا عزُّ الدّهر، فاصبروا ساعةً فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقيّة أعماركُم فيما تشتهون"[٢].

وله خطبٌ في غير شؤون السّياسة، منها **خطبة تأديب** في النّهي عن المسألة، والكفّ عنها، حفظاً لماء الوجوه، ومناسبتُها أنّ رجلاً أقبل عليه يسـأله إلحافاً، فقال له:

" قد فَهِمْنا مقالتَك، وقضينا حاجتَك، وأمَرْنا بِعَوْنِك على دهرِك، على كرهنا لسوء مقامَتك، فلا تعودنَّ ولا سواكَ لِمِثْلِهِ مِنْ إراقة ماء وجهِك، بتصريح المسألة، والإلحاف في الطَّلَبة، وإذا ألمّ بك خَطْبٌ، أو حَزَبَكَ أمرٌ فارفعه إلينا في رقعةٍ لا تَعْدُوك، كيما نستمرَّ عليك خلّتَك، ونكفَّ شماتةَ العدوّ عنك، بَعْدَ رَفْعِك لها إلى مالِكِك ومالِكِنا، عزَّ وَجْهُهُ، بإخلاص الدُّعاء، وبصدقِ النِّيّة"[٣].

---

٢ -المقري: نفح الطيب: ٣ / ٤٢.

٣ -المصدر نفسه: ٣/ ٢٩.

أَلَمْ تكنِ الدِّماء مسفوكةً فحَقَنَها؟" وقوله: " ناشَدْتُكُمُ اللهَ أَلَمْ تكن خلافتُه فُتْنَةَ الفتنةِ بعد انطلاقِها من عِقالِها؟" وقوله: " أَمْ يتلافَ صلاحَ الأمورِ بنفسه بعد اضطرابِ أحوالِها، ولم يَكِلْ ذلك إلى القوّاد والأجناد، حتّى باشره بالقوّة والمهجة والأولاد؟"، وهذا كلُّه دليلُ عناية باللفظ والمعنى، واتّباع لِسَنَنِ القول في مثل هذا الموقف، حتى جاءت ألفاظ الخطبة وتراكيبها وفقرها كالبنيان المُحْكَمِ المُتْقَنِ تعضدُ كلُّ لَبِنَةٍ فيه أختها.

ولا يخفى أيضاً عنايته بالآيات من القرآن واستحضارها موافقة لمقتضى المعاني اللازمة، وكثر ذلك في خطبته، فمنه ما صرّح به كقوله: " فإنّه تبارك وتعالى يقول: ﴿أطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسول وأُولي الأمرِ منكم﴾[٢٢]" وقوله: " وتلك أسباب ظاهرةٌ بادية، تدلُّ على أمور باطنةٍ خافية، دليلُها قائم، وحجّتُها غيرُ نائم ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[٢٣] وليس في تصديقِ ما وعد الله ارتياب" ، ومن ذلك الاستشهاد بالقرآن الكريم ما جاء تلميحاً في سياق الكلام، نحو قوله : " أمرَ كليمَه موسى، صلّى الله على نبيّنا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أنْ يذكّر قومَه بأيّام الله، جلّ وعزّ، وفيه وفي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أسوةٌ حسنةٌ، وإنّي أذكّرُكم بأيّام الله عندكم، وتلافيهِ[٢٤] لكم بخلافة أمم المؤمنين التي لمّتْ شَعْثَكم[٢٥]، وأنّثتْ بِزّتَكم[٢٦]، ورَفَعَتْ قَرْفَكُم، بعد أن كنتم قليلاً فكثّرتْكُمْ" وهذه المعاني من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢٩].

ولم يستثنِ الخطيب المَثَلَ العربيَّ، وحضوره في الخطبة دليلُ عنايتِه به، وعِلْمِه به، مع حسن حضوره في سياقه من الكلام من دون استجلابٍ له في غير محلّه، ومن ذلك قوله:" حتّى صِرْتُم في مِثْلِ حَذَقَةِ البعير"، وهذا مضربُ مَثَلٍ لكلِّ

---

٢٢ سورة النساء: الآية ٥٩.

٢٣ سورة النور: الآية ٥٥.

٢٤ التلافي: التدارك.

٢٥ شعث: تفرق من الأمر ونحوه.

٢٦ البزة: الثوب.

٢٧ سورة إبراهيم: الآية ٥.

٢٨ سورة الأحزاب: الآية ٢١.

٢٩ سورة الأعراف: الآية ٨٦.

رغدٍ ونعيمٍ[٣٠]، مما يدلُّ على غنى ثقافة منذر بن سعيد ، ولاسيَّما أنَّه أطال في هذه الخطبة فحسنت إطالته، لاستدعاء مقام الاحتفال بالخليفة، فضلاً عن ارتجالها لها.

ولمنذر بن سعيد **خطبة وعظيَّة** ، من فصولها:" حتَّى متى وإلى متى أعِظ ولا أتَّعظ؟ وأزجرُ ولا انزجر، أدلُّ الطَّريق إلى المستدلِّين، وأبقى مقيماً مع الحائرين. كلا إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبين، ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[٣١] اللَّهم فَرَغِّبني لِمَا خلقْتَني له، ولا تَشْغَلْني بما تَكَفَّلْتَ لي به، ولا تُحرِمْني وأنا أسألك، ولا تُعَذِّبْني وأنا أستغفرك، يا أرحمَ الرَّاحمين"[٣٢].

ويتَّضح في هذه الخطبة على قصرها في الوعظ إحسانُ الخطيب، وعنايته بأسلوب الاستفهام الذي حملَ دلالةَ الإنكارِ على الذات، واستهجان إعراضها عن جادَّة الحقّ: "حتَّى متى وإلى متى أعِظ ولا أتَّعظ؟ وأزجرُ ولا أنزجر"، ولا يغفل عن الاستشهاد بالقرآن في خطبة الوعظ، وهو من ضرورتها ولوازمها، وتظهر فرادة أسلوب الواعظ، إذ توجَّه بالوعظ إلى نفسه فأحسن، فكان هذا الوعظُ أدعى للوقوع في نفس السَّامع، وأقرب إلى التَّأثير في نفسه من طريق غير مباشر، لأنَّ السَّامع مقصودٌ به، لكنَّ قَصْدَ الخطيب إلى السَّامع لم يكن بضمير المخاطب، بل كان بضمير المتكلم، فلا يبدو الخطيبُ مترفِّعاً معصوماً عن اقتراف الذَّنب، وهذا أسلوبٌ في الوعظ لطيف، تظهر فيه دراية الخطيب بالتوجُّه إلى العامَّة توجُّهاً فيه الالتفاف.

وتظهر في أسلوبه الوعظيِّ الخشونة أحياناً في غير هذه الخطبة، يكون ذلك إذا توجَّه إلى الخاصَّة، حين يبدو منهم العُجْبُ والتِّيه بما حصلوا عليه من النِّعم والارتقاء في مدارجها، ويعظُ منذر بالتَّرغيب عن هذا السُّلوك، فيغلظ القول، وإن كان المقصود به الخليفة، وممَّا تذكره المصادر في ذلك **خطبةٌ وعظيَّة** قصدَ بها الخليفةُ النَّاصر عبد الرَّحمن، وكان الخليفة النَّاصر كَلِفاً بالعمارة، وإقامة القصور الدَّالَّة على عزِّ سلطانه، ولما ابتنى مدينة الزَّهراء أسرفَ في بنائها، وأنفق جهدَه في الإشراف على ذلك، حتَّى انهمك فعَطَّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاثَ جُمَعٍ متوالية، فأراد القاضي منذر أن يعظه بما صنعه، فخطب في حضرته وحضرة غيره خطبةً عظيمةً لم تذكرها المصادر تامَّة، لكنَّها اجتزأتْ منها، وحَكَتْ لنا مناسبتَها، وكان منها أن ابتدأ فصْلَها بقوله: " ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ

---

٣٠ وذلك لأنَّ حدقة العين الخضراء ما لونه، لأنَّ ما يحرف عنها. انظر مجمع الأمثال: ٢ / ٢٨٥.

٣١ الأعراف: الآية ١٥٥

٣٢-الضبي، الزهرة العلية: ٦٩.

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣٣]، ولا تقولوا: سواءٌ علينا أوَعظتَ أم لم تكن من الواعظين، فمتاعُ الدُّنيا قليل، والآخرةُ خيرٌ لِمَنِ اتَّقى، وهي دارُ القرار، ومكانُ الجزاء"[٣٤].

وهذا الاستفتاح يدلُّ على براعة الخطيب مع جرأته في وعظ الخليفة النَّاصر، لكنَّه بدأ بكلام الله تعالى الذي لا يستطيع الخليفةُ ردَّه أو إظهارَ الغضب منه، لعلمه أنَّه المقصود به، وهذا من حكمة (منذر) في دَفْعِ بطشِ الخليفةِ به إنْ بدأ بغيرِ كلامِ الله في تقريع انشغالِه عن حضورِ الجُمَعِ بتشييد البنيان، ثمَّ انظرْ كيف انتزع قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾، فصرف الخليفة عن رفض النُّصح، بأنْ قال في خطبته: " ولا تقولُوا: سواءٌ علينا أوَعظتَ أم لم تكنْ من الواعظين"، وهذا مِنْ حُسْنِ تصرُّفه وبراعته في الخطبة.

وتابعَ خطبتَه بكلامٍ ذمَّ فيه تشييد البُنيان، والاستغراق في زخرفته، والإسراف فيه، وانتزع قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ...﴾[٣٥] إلى آخر الآية، ليقوِّيَ حجَّته بين يدي الخليفة والحاضرين، فأحسن، وفي ذلك قال صاحب المرقبة العليا:

" وأتى بما يُشاكل المعنى من التَّخويف بالموت، والتَّحذير من فُجاءته، والدُّعاء إلى الزُّهد في هذه الدَّار الفانية، والحضِّ على اعتزالها، والرَّفض لها، والنَّدْب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللَّذات، ونهي النُّفوس عن اتِّباع هواها، فأسهب في ذلك كلِّه، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقُه، وجلبَ من الحديث والآثار ما يُشاكله، حتَّى أذْكَر مَنْ حَضَرَهُ من النَّاس، وخشعوا ورقُّوا، واعترفوا وبكوا، وضجُّوا ودعوا، وأعلنُوا في التَّضرُّع إلى الله في التَّوبة، والابتهال في المغفرة، وأخذ خليفتُهم من ذلك بأوفر حظٍّ، وقد علمَ أنَّه المقصود به، فبكى وندم على ما سَلَفَ له، واستعاذ بالله من سَخَطِهِ، إلاَّ أنَّه وَجَدَ على منذر بن سعيد لِغِلَظِ ما تقرَّعه به، فشكا ذلك لولدِهِ الأمير الحكم بعد انصرافه، وقال: والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عَنَى بها غيري، فأسرف عليَّ وأفرطَ في تقريعي، ولم يُحسن السِّياسة في وعظي، فزعزعَ قلبي، وكاد يعصاه يقرعني، واستشاط غيظاً عليه، فأقسم ألاَّ يصلِّيَ خلفَهُ صلاةَ الجمعة خاصَّة، فجعل يلتزم صلاتَها وراء أحمد بن مطرِّف صاحبِ الصَّلاة بقرطبة، ويجانبُ الصَّلاة بالزَّهراء، فقال له الحكم: فما الذي يمنعك

---

٣٣ سورة الشعراء: ١٢٨ - ١٣٥.

٣٤ - المراكشي، المرقبة العليا: ٦٩.

٣٥ سورة التوبة: الآية ١٠٩.

من عَزْلِ منذر عن الصَّلاة بك، والاستبدال منه إذْ كرهته؟ فزَجَرَه وانتهرَه، وقال له: أمثلُ منذر بن سعيد في فضله وعمله وخيره _ لا أمَّ لك _ يُعزَلُ لإرضاءِ نَفْسٍ ناكبةٍ عن الحقِّ؟ هذا ممَّا لا يكون، وإنِّي لأستحي منَ الله ألاَّ أجعلَ بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثلَ منذر في وَزْنِه وصِدْقِه، ولكنَّه أحرجني فأقسمْتُ، ولَوَدِدْتُ أنِّي أجدُ سبيلاً إلى كفارة يميني، بل بصلِّي بالنَّاس حياتَه وحياتَنا"[٢٦].

لولا معرفة منذر بن سعيد بتقوى الخليفة لله لَمَا وَعَظَه هذا الوعظ، لكنَّه لم يجرؤ عليه بأن يعظه بكلامه، وتمثُّل فوعظه بكلام الله تعالى، إذ أكثرَ من آي القرآن ليُقِرَّه بتقوى الخليفة، فإنْ حَمَلَ الخليفة عليه فلن يصل ذلك إلى البطش به، وما كان له أن يعظ الخليفة بغير كلام الله تعالى إكراماً لمقامه في النَّاس، وما كان له أن يَسْكُتَ عن النُّصح له، وهو القائم بأمرِ الدِّين في دولته، وهذا كلُّه من حسن تخلُّص منذر بن سعيد مع تقواه ولزومه النُّصحَ للخليفة.

ويُلحظ في فنِّ الخطابة في عهد الخلافة أنَّ الصَّنعة أخذت تدبُّ في أوصال كثيرٍ من الخطب، وتتسرَّب إلى عروقها، فصارت لها مشاربُ من ضروب البديع، مع بروز العناية بخطبة الوعظ، ومردُّ هذا كلِّه إلى بزوغ التَّرف وظهوره.

٢٦- الذهبي، الوفيا العلمية: ٧٠

خطبة المنصور بن أبي عامر(٣٢٦ - ٣٩٤هـ)

محمّد بن عبد الله بن عامر بن محمّد أبي عامر المعافريُّ القحطانيُّ، المعروف بالمنصور ابن أبي عامر، أوّل أمراء **عصر الحجابة** في الأندلس، كان خطيباً مفوّهاً، وله خطبٌ كثيرةٌ، ذكرت منها المصادر خطبة له في جلسائه ينهاهم عن الوشاية والنّكاية، وهي **خطبة تأديب**، ومناسبتُها أنّ الحاجب المنصور سأل شاعرَهُ الرماديّ (ت ٤٠٣هـ)، وكان مختفياً لديه، فقال له: كيف ترى حالكَ معي؟ فقال: فوقَ قدري ودونَ قدرك، ويبدو أنّ هذا الجواب لم يعجب المنصور فأطرق غضبانَ منه، فانسلّ الرماديُّ من مجلسه نادماً، وكان في المجلس من يحسد الرّماديَّ على مكانه من المنصور فوجدَ فرصةً لانتقاص قَدْرِه، والإساءة للشُّعراء عامّة ووَصْفِهِمْ بالكذب والنِّفاق، ونصح للأمير بأنّ الابتعاد عنهم أوْلى من الاقتراب منهم، فخطب المنصور في الحضور خطبة ذكرت المصادر منها قوله:

" ما بالُ أقوامٍ يحضرون في شيءٍ لم يُستشاروا فيه، ويُسيئون الأدبَ بالحُكْمِ فيما لا يدرون أيُرضي أم يُسخط، وأنت أيُّها المُتَمَنِّعُ للمُثْرِ دون أن يُبعَث، قد عَلِمْنا غرضَكَ في أهل الأدب والشِّعر عامّة، وحَسَدَكَ لَهُمْ، لأنّ النّاس كما قال القائل:

مَنْ رَأَى النَّاسُ لَهُ فَضْلاً عَلَيهِمْ حَسَدُوه

وعَرَفْنا غَرَضَكَ في هذا الرَّجلِ خاصّةً، ولسنا - إنْ شاء الله - نُبَلِّغُ أحداً غرضَهُ في أحدٍ، ولو بَلَّغناكُمْ بَلَّغْنا في جانبِكُمْ، وإنّك ضربْتَ في حديدٍ باردٍ، وأخطأتَ وَجْهَ الصَّواب، فَزِدْتَ بذلك احتقاراً وصَغاراً، وإنّ ما أطرقْتَ من كلامِ الرّمادي إنكاراً عليه بل رأيْتُ كلاماً يَجِلُّ عن الأقدار الجليلة، وتعجّبْتُ مِنْ تَهَدِّيهِ له بسرعةٍ، واستنباطِهِ له على قِلّةٍ من الإحسانِ الغامرِ مالا يستنبطُهُ غيرُه بالكثير، والله لو حكّمْتُه في بيوت الأموال لرأيت أنّها لا ترجعُ ما تكلّم به قلبُهُ ذرّةً، وإيّاكم أن يعود أحدٌ منكم إلى الكلام في شخصٍ قبل أن يُؤخَذَ معه فيه، ولا تحكّموا علينا في أوليائنا، ولو أبصرتُم منّا التّغيُّرَ عليهم، فإنّنا لا نتغيّرُ عليهم بُغْضاً لهم، وانحرافاً عنهم، بل تأديباً وإنكاراً، فإنّا مَنْ نريد إبعادَهُ لم نُظْهِرْ له التّغيُّرَ، بل ننبذُهُ مرّةً واحدةً، فإنّ التّغيُّرَ إنّما يكون لِمَنْ يُرادُ استبقاؤُه، ولو كُنْتُ مائلَ السّمعِ لكلِّ أحدٍ منكُمْ في صاحبه لتفرّقْتُم في أيدي سَبَا، وجُونِبْتُ أنا مجانبةَ الأجرب، وإنّي قد أطلَعْتُكُم على ما في ضميري فلا تَعْدِلُوا عن مرضاتي، فتَجنّبُوا سُخطي بما جَنَيتُموهُ على أنفسِكُم"[1].

١- المقري، نفح الطيب ٣٦١/٢

٢ الصفدي، معجم الشعراء: ١٢٦/١

هذه من خطب التأديب، يقصد إليها سيد القوم بحق حاشيته وخدّامه وجلسائه، ممّن هم دونه مرتبةً، وأقل منه منزلةً، ومثل هذه الخطب لا تعدم النُّصح والتوبيخ، مع حضور الحجّة والأدلّة العقليّة على صحّة ما يذهب إليه الناصح، ولذلك نجد المنصور يوبّخ صاحب الوشاية، مُظهراً له الحكمة من إعراضه عن كلامه، فقال له: " ولسنا - إنْ شاء الله - نُبَلِّغُ أحداً غرضَهُ في أحدٍ، ولو بلّغناكم بلّغنا في جانبكم"، ومن المعلوم أنّ الخطيب لابدّ له من وفرة الحكمة وعُلوّ الحجّة ما يبلغُ به العقول، يُضاف إليه حسن المنطق في ترتيبه وتبويبه وتفصيله، وهذه كلُّها من أدوات الخطابة، والمنصور لم يعدم من ذلك شيئاً.

يستعين المنصور بثقافته في بناء مضمون الخطبة، من ذلك المثلُ يضربه تأييداً لرأيه، أو تفنيداً لرأي غيره، والخطيب في حاجة إلى الاستعانة بثقافة واسعة تكون حجّةً له في الكلام، إضافةً إلى ما تسبغه تلك الثّقافة من جِلْيَةٍ على المعاني المستفادة من الخطبة، فمن ذلك قولُه: "وإنّك ضربْتَ في حديدٍ باردٍ"، وأصلُ هذا القول من المثل المعروف: " تَضْرِبُ في حَدِيدٍ بارِدٍ"[1] ويُضْرَبُ هذا المثلُ لِمَنْ طَمِعَ في غيرِ مَطْمَعٍ.ومنه المثل الذي ضربه بقوله: " ولو كُنْتُ مائلَ الشّمعِ لكلِّ أحدٍ منكُمْ في صاحبه لتفرَّقْتُم في أيدي سَبَا" وأصل هذا القول من المثل المعروف: " ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَا وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا"[2] أي تفرّقوا تفرُّقاً لا اجتماعَ معَه.

كما استعان بالشّعر في موضع ردّ حكاية الرّجل ووشايته بالرّمادي، وحسده له، لأنّه شاعرٌ، فحين عاب الشّعر بين يدي المنصور، ردَّ المنصور زعمه بقوله: " قد عَلِمْنا غرضَكَ في أهل الأدب والشّعر عامّةً، وحسَدَكَ لهُم، لأنّ النّاس كما قال القائل: مَنْ رَأى النّاسُ لَهُ فَضْلاً عَلَيهِمْ حَسَدُوه" فجاء الشّاهد من الشّعر في موضعٍ صحيحٍ من الاستشهاد، وحَسُنَ ذلك في الخطبة، ودلّ على منزلة المنصور واتّساع ثقافته..

في الخطبة حسن التّعليل للأحكام التي أطلقها المنصور، وهي علل عقليّة تصدر عن حكمة صاحبها وتدلُّ على رجاحة عقله، والخطيب أحوج ما يكون إلى مِثْلِ ذلك ليبلغ القَصْدَ من خطبته، فمن ذلك قوله معلّلاً تغيُّرَه على الرّماديّ، وهذا التغيُّر أساءَ فَهْمَه أحدُ الحضور فأراد النكاية بالرّمادي على مسمع الأمير المنصور فردَّه خائباً حين قال: "ولا تحكّموا علينا في أولياءنا، ولو أبصرتُم منّا التّغيُّرَ عليهم، فإنّنا لا نتغيَّرُ عليهم بُغْضاً لهم، وانحرافاً عنهم، بل تأديباً وإنكاراً، فإنّا مَنْ نريد إبعادَهُ لم نُظْهِرْ له التّغيُّرَ، بل نبذُهُ مرّةً واحدةً، فإنّ التّغيُّرَ إنّما يكون لِمَنْ يُرادُ استبقاؤُه، ولو كُنْتُ

[1] المستقصى في أمثال العرب: 2/ 277

مائلَ السَّمعِ لكلِّ أحدٍ منكُمْ في صاحبه لتفرُّقُكم في أيدي سَبَا، وبُحوثِكَ أنا بجانبةَ الأجرب"، فانظر إلى حُسنِ عَرْضِ الفكرة، مع الاستدلال عليها بالأدلَّة المنطقيَّة.

تظهر الرَّتابة اللغويَّة العالية لهذه الخطبة، وفيها اتِّساق اللفظ مع شرف المعنى، وتَطوُّلُ التَّراكيبُ اللغويَّة لتؤدِّيَ دلالةَ الإفهام من غير حشوٍ مُمِلٍّ، مع التَّعليل للأحكام، فمن ذلك قوله: " إنِّي ما أطرقْتُ من كلامِ الزِّمادي إنكاراً عليه، بل رأيْتُ كلاماً يَجِلُّ عن الأقدار الجليلة" فالجملة الثانية من ضروريات الأولى، وقد تَقْصُرُ التَّراكيب أحياناً لاقتضاء المعنى، ولا سيَّما في موطن الغضب، ومحلِّ التَّوبيخ، من مثل قوله:" وإنَّك ضربْتَ في حديدٍ باردٍ" فالمثل إنَّما يُجعَل للإيجاز، ولا ضرورة للإطناب في محلِّه، وقوله: "أخطأْتَ وَجْهَ الصَّواب" وهذا القول وحده دالٌّ على معناه، لا يقتضي الزِّيادة فيه، وقوله: "بل ننبذُهُ مرَّةً واحدةً" فاقصرْ ليدلَّ على العزم بالفعل مع القول" .

خطبة للقاضي عياض(٤٧٦- ٥٤٤ هـ)

عياض بن موسى بن عياض اليَحْصُبيُّ، أبو الفضل، صاحب الكتاب المشهور (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى)، وَلِيَ القضاء في قرطبة ثمّ غرناطة، وهو من أبرز الخطباء في عصر المرابطين، ذكره لسان الدِّين بن الخطيب في (الإحاطة)، وقال: "كتاب خُطَبِه سِفْرٌ"[٣٧].

اشتُهِرَ القاضي عياض بخطبه في الوعظ، وكان تَقِيّاً وَرِعاً، ونضرب مثالاً من خطبه هذه **الخطبة الوعظيّة**[٣٨]:

" الحمدُ للهِ الذي سبق كلَّ شيءٍ قِدماً، ووَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعِلْماً ونِعَماً، وهَدَى أولياءه طريقاً نَهْجاً أَمَماً[٣٩]، و﴿ أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[٤٠] أَحْمَدُهُ على مواهبه، وهو أحقُّ مَنْ حُمِد، وأسألُه أن يجعلنا أجمع مَنْ حَظِيَ برضاهُ ومَنّ، وأستعينُه على طاعته، فهو أعزُّ مَنْ أُستعين وأُستنجِد، وأستهديه توفيقاً، فإنَّ ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٤١] وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، شهادةً فاتحةً لأقفالِ قلوبِنا، راجحةً بأثقالِ ذنوبِنا، منزّهةً له عن التّشبيه والتّمثيل بنا، ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾[٤٢] وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُه، أنزلَ عليه الفُرقان، وبعثَهُ بالهدى والإيمان، وأخزى بدعوته دعوةَ أولياءِ الشّيطان، وأبعدَهُم مقاعدَ عن السّمع، ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٤٣]

أيُّها السّامع: قد أيقظَكَ صَرْفُ القَدَرِ من سِنَةِ[٤٤] الهوى ونِيَاراته، ووعظَكَ كتابُ الله بزواجره وعِظاتِه، فتأمّل حدودَهُ، وتدبّر مُحْكَمَ آياتِه، و﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[٤٥].

---

٣٧ ابن الخطيب، الإحاطة: ٤ / ٢٢٨.

٣٨ المصدر نفسه: ٤ / ٢٢٦.

٣٩ أمماً: موالياً رفيقاً.

٤٠ سورة الكهف: الآيات ١ - ٣.

٤١ سورة الكهف: الآية ١٧.

٤٢ سورة الجن: الآية ٣.

٤٣ سورة الجن: الآية ٩.

٤٤ السِّنة: النعاس.

أين الذين عتَوا على الله وتعظَّموا، واستطالوا على عباده وتحكَّموا، وظنُّوا أنَّه لن يقدر عليهم حتى اصْطَلَمُوا[٤٤]؟ و﴿ تِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[٤٧] غرَّهُمُ الأملُ وكواذبُ الظُّنون، وذهلوا عن طوارق القدر ونُوَب المنون، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾[٤٨]، ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾[٤٩]، فهذِّبوا - رحِمَكُمُ الله - سرائرَكم بتقوى الله، وأخلصوا، واشكروا نعمتَه، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾[٥٠]، واحذروا نقمتَه واتَّقوه، ولا تعْصُوا، واعتبروا بوعيده، ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾[٥١]، وأخلِصُوا لطاعته الهِمَمَ العاجزة، واركضُوا في ميدان التَّقوى، وادَّخروا ما يُخلِّصكم يومَ المحاسبة والمناجزة، وانتظروا قولَه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[٥٢]، ذلك يومٌ تَذْهَلُ فيه الألباب، وترجفُ القلوبُ رجفاً، وتُبَدَّلُ الأرضُ وتُسفُ الجبالُ نسْفا، ولا يقبلُ الله فيه من الظَّالمين عَدْلاً ولا صرْفا،﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾[٥٣]، ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[٥٤]، اللَّهم انفعْنا بالكتاب والحكمة، وارحمنا بالهداية والعصمة، وأوزعنا شكرَ ما أوليْتَ من النِّعمة، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[٥٥]

تظهر في هذه الخطبة الصَّنعة الكلاميَّة في استحضار آيات القرآن الكريم، وكثرة الشَّواهد منه، مع ربطها بكلام الخطيب، وتَسُود الشَّواهد من سورة الكهف على غيرها من السُّور، ونجد إضافةً إليها آياتٍ من سور أخرى، هي سور

---

٤٤ سورة الكهف: الآية ٥٩.

٤٤ اصطلامها: أبادها.

٤٧ سورة الكهف: الآية ٥٩.

٤٨ سورة القصص: الآية ٣٩.

٤٩ سورة الجن: الآية ٢٤.

٥٠ سورة النحل: الآية ١٨.

٥١ سورة طه: الآية ١٣٥.

٥٢ سورة الكهف: الآية ٤٧.

٥٣ سورة طه: الآية ١٠٢.

٥٤ سورة الكهف: الآية ٤٨.

٥٥ سورة الكهف: الآية ١٠.

(القصص، الجنّ، النّحل، طه) ولا تأتي الشّواهد من سورة الكهف على ترتيبها، فقد عمد الخطيب إلى التّقديم فيها والتّأخير بحسب ما يقتضيه كلامه.

إنّ هذا النّمط من الاستشهاد بالقرآن يَظْهَرُ فيه التكلُّف في الصّنعة، بل إنّ الخطيب لجأ إلى انتزاع آياتٍ من سياقها القرآني، وأتى بأجزاء منها وأدغمَ بعضَها في درج كلامه في الخطبة، فمن ذلك قوله: " وأخزى بدعوته دعوةَ أولياءِ الشّيطان، وأبعدَهُمْ مقاعدَ عن السّمع، ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[٥٦]"، فقوله: "وأبعدَهُمْ مقاعدَ عن السّمع" هو منتزَعٌ من معنى الجزء السّابق للآية المذكورة، والآية بتمامها هكذا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[٥٧]، فانظر كيف انتزعَ الجزء الأول من الآية فحمّله في كلامه، ثمّ استكمل المعنى بجزئها الأخير، ومثل هذا دليل صنعة، لا يُحتمَل معه عفو الخاطر، ولا سيّما أنّ كثرة الشّواهد من سورة الكهف دلّت على تعمُّد الخطيب أن يصنع خطبته على معانيها.

مهما يكن من أمر فلا تخفى على القارئ براعة القاضي عياض في استمالة القلوب بهذه الخطبة الوعظيّة، حتّى إنّ القارئ لها يجد كثيراً من الخطباء في زماننا يستفتحون بمثل ذلك في الجُمَع، حتّى سار هذا الاستفتاح في خطباء الزّمان.

من العلامات الفارقة لهذه الخطبة أنّ الخطيب بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله شرعَ في موضوع خطبة الوعظ، فبدأ ذلك بقوله: "أيّها السّامع" ومحلّ هذا القول عند غيره أن يُقال: "أمّا بعد"، وهذا نهج كثيرٍ من الخطباء حين الشّروع في موضوع الخطبة بعد الاستفتاح، فكانت هذه المخالفة من القاضي عياض، لكنّها ليست مذمومة، وليس فيها ما يسوء، ولاسيّما أنّ الخطبة في الوعظ، وإن مثل هذا النّداء يستجلب سَمْعَ المتلقّي للخطبة، ويلفت انتباهه إلى الخطيب، وقد أراد الخطيب من ذلك أن يستحضر بنعمة السّمع ما يلزمُها من نعمة التدبُّر والتعقُّل، فيَسْلَم السّامع من الغَفْلَة، ولذلك وصلَ هذا النّداء بقوله: " أيّها السّامع: قد أيقظَكَ صِرْفُ القَدَرِ من سِنَةِ الهوى وتَبَاراته، ووعظَكَ كتاب الله بزواجره وعِظاتِه، فتأمّل حدودَهُ، وتدبّر مُحْكَمَ آياتِهِ".

٥٦ سورة الجن: الآية ٩.

٥٧ سورة الكهف: الآية ٩.

ثمَّ شرع الخطيب في التَّذكير والتَّحذير: " أين الذين عتَوا على الله، وتعظَّموا، واستطالُوا على عباده وتحكَّموا..."، ومضى في ذلك إلى الحثِّ على الطَّاعة والتَّوبة، ثمَّ ختم الخطبة بالدُّعاء، وهذا نهجٌ محمودٌ في خطبة الوعظ.

لغة الخطبة بعيدة عن الحوشيّ الغريب، وليس فيها ما يَغُصُّ فَهْمُهُ، فإنْ كانَ من ذلك شيءٌ فلفظةٌ واحدةٌ (اصطلمُوا)، والوضوح حسنٌ في خطبة الوعظ، لأنَّها مخصوصة بالعامَّة من النَّاس غالباً، والإغراب فيها يفسد الغاية المرجوة منها.

خطبة ابن تومرت(ت ٥٢٤هـ)

محمّد بن عبد الله بن تومرت المَصْمُودِيُّ البربريُّ، أبو عبد الله، الملقّب بالمهديّ، مؤسّس دولة الموحّدين، آلَ إليه حُكم الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين فيها، ونأتي بهذه الخطبة لتكون مثالاً على نمط الخطابة في عصر الموحّدين ، ومناسبتُها أنّه لما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف عبد المؤمن بن عليّ، أمرَ باستقدام خواصّه، فلمّا حضروا بين يديه قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلّى على محمّد نبيّه، ثمّ أنشأ يوصّي عن الخلفاء الرّاشدين، ثمّ قال:

" فانقرضتْ هذه العصابة، نضّر الله وجوهَها، وشكر لها سَعْيَها، وجزاها خيراً عن أمّة نبيّها، وخَبَطَتِ النّاسَ فتنةٌ تركَتِ الحليمَ حيران، والعالمَ متجاهلاً مُداهِناً، فلم ينتفع العلماءُ بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبُوا به الدُّنيا، وأمالُوا وجوهَ النّاس إليهم، في أشباهٍ لهذا القول ،إلى هلمّ جرّا.

ثمّ إنّ الله – سبحانه ولَهُ الحمدُ – منّ عليكم بتأييدِهِ وخصّكُمْ مِنْ بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيدِهِ، وقيّض لكم مَنْ ألْفاكُمْ ضُلاّلاً لا تهتدون، وعُمْياً لا تُبصرون، لا تعرفون معروفاً، ولا تُنكرون منكراً، قد فشتْ فيكمُ البِدَعُ، واستهوتكمُ الأباطيل، وزيّن لكمُ الشّيطانُ أضاليلَ وتُرّهات، أنزّه لساني عن النُّطق بها، وأربأ بلفظي عن ذِكْرِها، فهداكم الله به بعد الضّلالة، وبصّركم بعد العمى، وجمّعكُمْ بعد الفُرقة، وأعزّكم بعد الذِّلّة، ورفع عنكم سلطانَ هولاء المارقين، وسَيُورِثُكُمْ أرضَهُمْ وديارَهم، ذلك بما كسبَتْهُ أيديهم، وأضمرَتْهُ قلوبُهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥٨] فمجّدُوا الله سبحانه خالصَ نيّاتِكم، وأزُوهُ مِنَ الشّكر قولاً وفِعْلاً ما يُزكّي به سَعْيَكم، ويتقبّل أعمالَكم، وينشر أمرَكُمْ، واحذروا الفرقة، واختلافَ الكلمة، وشتاتَ الآراء، وكونُوا يداً واحدةً على عدوّكم، فإنّكم إنْ فَعَلْتُمْ ذلك هابَكُمُ النّاسُ، وأسرعُوا إلى طاعتكم، وكَثُرَ أتباعُكم، وأظهرَ اللهُ الحقَّ على أيديكم، وإلاّ تفعلوا شملَكُمُ الذُّلُّ وعمّكُمُ الصّغار واحتقرتْكُمُ العامّة، فتَخطّفُكُمُ الخاصّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرّأفة بالغِلْظَةِ، واللّين بالعنف، واعلمُوا مع هذا أنّه لا يصلحُ أمرُ آخرِ هذه الأمّة إلاّ على الذي صَلُحَ عليه أمرُ أوّلِها.

وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم، هذا بَعْدَ أنْ بَلَوناهُ في جميع أحواله، مِنْ ليلِهِ ونهارِهِ، ومَدْخلِهِ ومَخْرَجِهِ، واخبرنا سريرتَهُ وعلانيَتَهُ، فرأيناه في ذلك كلّه ثَبْتاً في دِينِه، متبصّراً في أمره، وإنّي لأرجو أن لا تُخْلِفَ

---

٥٨ سورة فُصّلت: الآية ٤٦.

الظَّنَّ فيه، وهذا المشارُ إليه هو عبدُ المؤمن، فاسمعوا له وأطيعوا، ما دام سامعاً مطيعاً لربّه، فإنْ بدَّلَ أو نكَّصَ على عقبيه، أو ارتابَ في أمره، ففي الموحِّدين أعزَّهم اللهُ بركةٌ وخيرٌ كثيرٌ، والأمرُ أمرُ الله يقلِّدُهُ من شاءَ من عبادِهِ"[٢٩].

هذا الضَّرب من الخطبة يُسمَّى **خطبة البيعة**، إذ يجعل ابن تومرت البيعة من بعدِهِ لعبد المؤمن بن علي، أحدِ رؤوسِ الموحِّدين المعروفين، وليصل ابن تومرت إلى غرضه من حشد الناس على مبايعة عبد المؤمن نجده يشرع في ذِكْرِ ما كان من أحوال الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم، ثمَّ يلتفت بعد ذلك إلى ذِكْرِ ما وقع من الفتن، وتقلُّب الأمراء في المُلْك إلى أن وصل إلى الموحِّدين، فيحملهم على الشُّكر وإخلاص النِّيَّة في القول والعمل، وتحذيرهم من الفرقة، وهذه الأمور التي ساقها ابن تومرت من موجبات توحيد كلمة النَّاس على البيعة، وقد مهَّد بها حديثه ليصلَ إلى بيعة عبد المؤمن من بعده، فجاء بعد ذلك كلِّه قولُه الذي من أجله سيقت الخطبة، فقال: "وقد اختارنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم"، ثمَّ سوَّغَ هذا الاختيار، وساق أسبابَهُ، ممَّا عرفه من أخلاق المبايع وأحواله، وجعلَ الكلمةَ له ما دام تقيّاً، وأحلَّ أصحابه من بيعته إن نكصَ وخالفَ ذلك.

نقف عند الخصائص المعنويَّة لهذه الخطبة، وأوَّل اللافت للنَّظر أنَّ أفكارها مبنيَّةٌ على تسلسلٍ منطقيٍّ، من الافتتاح إلى الختام، على نحو ما بيَّناه سابقاً في سردٍ مضمونها، وهذه المزيَّة واجبةٌ في كلِّ خطبة، ذلك أنَّ الخطيب إن لم يُحْسِن بناءَ كلامِهِ وترتيبَهُ مُسَلْسَلاً وقع ذلك ريبةً في سَمْعِ السَّامع، فلا يكاد يدري ما يُقال، ولذلك يحسن الاستطراد في الرسائل، لأنَّها مقروءة، ويسوء في الخطب، لأنَّها مسموعة، لا ضابطَ لها في ذهن المتلقِّي غير ما تُمليه المشافهةُ، ويستدعيه السَّماع.

تظهر في هذه الخطبة مناسبةُ اللَّفظ للمعنى، ووضوح العبارة، وجزالة التَّركيب، وتماسك الجمل، مع البعد عن الحشو، والنَّأي عن المبالغة في التَّعبير، والعناية بالمعنى، وقيام الخطبة على شرطه.

لم تبالغ هذه الخطبة في استحضار شواهد القرآن الكريم مبالغةَ خطبة القاضي عياض في ذلك، فجاء الشَّاهد في محلِّه، آية واحدة من سورة فُصِّلت، حملت دلالة الوعيد في حال المخالفة، وربط الخطيب الآية بأعناق الكلام السَّابق لها، وربطه بما جاء بعدها.

---

٢٩ - المراكشي، المعجب: ٢٦٠.

ولم نجد من حضور السّجع ما يفسد الخطبة، فلا تكلّف في ذلك، وما جاء منه كان طبعاً لا صنعةً، ومثل هذه الخصيصة تجعلنا نؤكّد هذه الملحوظة المهمّة، وهي أنّ السجع الذي كان سمة ظاهرةً في كثيرٍ من الخطب الموجّديّة، لا يعني انتفاء وجود بعض الخطب التي تنفر من استجلابه تكلّفاً، فتُعنى الخطب بالمعاني أكثر من عنايتها بالألفاظ، وإنّ هذه الخطبة ضربٌ من ذلك القليل النّادر الذي سُقناه مثالاً على العزوف عن العناية الشكليّة والزّخارف اللفظيّة.

واشتمالُ كثيرٍ من الخطب على السّجع المتكلّف (كخطبة صفوان بن إدريس) لا ينفي خلُوَّ غيرها منه، وإنْ مَلْ هذا الضّرب من الخُطب فياساً إلى النّوع المصنوع المتكلّف، ولاسيّما أنّ الخطيب (ابن تومرت) مشغول بإيضاح الفكرة وبيانها، ولذلك لا يأخذ من ضروب أفانين الخطباء في الكلام شيئاً إن لم يكن فيه ضرورة معنويّة للخطبة التي أراد لها أن تقع في عقول سامعيه لمبايعة من اختاره لهم، لذلك لا نكاد نجد فيها شيئاً من البديع إلا ما جاء عَرَضاً من دون مبالغة، كقوله: " وقيّض لكم مَنْ ألفاكُمْ ضُلاّلاً لا تهتدون، وعُمْياً لا تبصرون، لا تعرفون معروفاً، ولا تُنكرون منكراً، قد فَشَتْ فيكمُ البِدَعُ، واستهوتكمُ الأباطيل، وزيّن لكمُ الشّيطانُ أضاليلَ وتُرّهات، أنزّه لساني عن النُّطق بها"، ولو قصَدَ الخطيبُ المباهاة بالسّجع لأسقطَ من كلامه لفظة (ترهّات) لأنّها أخرجت الفاصلة عن السّجع المعهود قبلها.

لذلك وجبَ القول إنّ حضور الصّنعة اللفظية في بعض الخطب في عصري المرابطين أو الموحّدين يعدُّ سمةً عامّة.

خطبة الوزير لسان الدين بن الخطيب(٧١٣ ... ٧٧٦هـ)

محمّد بن عبد الله بن سعيد السّلماني الغرناطيّ الأندلسيّ، الشهير بلسان الدّين بن الخطيب، كان وزيراً لأبي الحجاج يوسف بن إسماعيل سنة (٧٣٣هـ)، ثمّ لولده الغنيّ بالله، حتّى سعى به الوشاة، فرحل من الأندلس جِنْسةً إلى تِلِمْسانَ، واستوزرَ فيها لعبد العزيز بن عليّ المرينيّ، ويُعَدُّ لسان الدّين بن الخطيب رأسَ أدباء عصره، وشهمَ دولةِ بني الأحمر في الأندلس. نضرب مثالاً من خطبه ما خاطبَ تُرْبَةَ السُّلطان الكبير أبي الحسن المرينيّ، من قوله عند قبره:

" السّلامُ عليكَ ثمّ السّلام، أيُّها المولى الهُمام، الذي عرفَ فضلَه الإسلام، وأوجبَتْ حقَّه العلماءُ الأعلام، وخفقَتْ بعزّ نصره الأعلام، وتنافستْ في إنفاذ أمره ونَهْيِه السُّيوفُ والأقلام.

السّلام عليك أيُّها المولى الذي قسمَ زمانَه بين حُكْمٍ فَصْل، وإمضاءِ نَصْل، وإحرازِ حَصْل، وعبادةٍ فاضَتْ من اليقين على أصل.

السّلام عليك يا مقرِّرَ الصَّدقاتِ الجارية، ومُشْبِعَ البطون الجائعة، وكاسيَ الظُّهور العارية، وقادحَ زِنادِ العزائم الوارية، ومُكَثِّبَ الكتائب الغازية في سبيل الله تعالى والشّراءِ الشّارية.

السّلام عليك يا حُجّةَ الصّبر والتّسليم، ومُتَلَقِّيَ أمرِ الله تعالى بالحُلْوِ المُرّ بيّ والقلبِ السّليم، ومُفَوِّضَ الأمر في الشّدائد إلى السّميع العليم، ومُعْمِلَ البَنانِ الطّاهر في اكتساب الذِّكْرِ الحكيم، كرّم الله تعالى تُرْبَتَك وقدّسَها، وطيّبَ روحَكَ الزّكيّةَ وأنسَها، فلقد كنتَ للدّهر جمالاً، وللإسلام كمالاً، وللمُستجير مُجيرا، وللمظلوم وليّاً ونصيراً، لقد كنتَ للمحارب صدرا، وفي المواكب بَدْرا، وللمواهب بَحْرا، وعلى العباد والبلاد ظِلاًّ ظليلاً وسِتْرا.

لقد قَرَعَتْ أعلامُ عِزِّك الثّنايا، وأجزلت هِبَتُك لملوك الأرض الهدايا، كأنّك لم تَعْرِض الجنود، ولم تَنْشُر البنود، ولم تَبْسُط العدلَ المحمود، ولم توجد الجُود، ولم تزيّن الرُّبَع السُّجود، فتوسّدْتَ الثّرى، وأطلّتْ الكَرى، وشربْتَ الكأس التي يشربُها الورى، وأصبحْتَ ضارعَ الخدّ، كليلَ الحَدّ، سالكاً سَنَنَ الأبِ والجَدّ، لم تَجِدْ بعد انصرام أجَلِك إلا صالحَ عَمَلِك، ولا صَحِبْتَ لقبرك إلا رابحَ تجْرِك، وما أسلفْتَ من رضاك وصبرك، فنسألُ الله تعالى أنْ يُؤْنِسَ اغترابَك، ويجودَ بسحاب الرّحمة ترابَك، وينفعلَكَ بصدقِ اليقين، ويجعلَكَ من الأئمة المتّقين، ويُعلي درجتَك في عِلّيّين، ويجعلَكَ مع الذين أنعمَ الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين.

ولْيَهْنِكَ أنْ صيَّرَ الله تعالى مُلْكَكَ مِنْ بَعْدِكَ إلى نَيْرِ سَعْدِكَ، وبارقِ زَنْدِكَ، ومُنْجِبِ وَعْدِكَ، أرضى وَلَدِكَ، وريحانةَ خَلَدِكَ، وشِقْةِ نَفْسِكَ، والسُّرْحةَ المباركةَ مِنْ غَرْسِكَ، ونُورَ شَمْسِكَ، ومُوصِلَ عَمَلِكَ البَرِّ إلى رَمْسِكَ، فقد ظهرَ عليه أثرُ دعواتِكَ في حَلَواتِكَ وأعقابِ صلواتِكَ، فكلمتُكَ والثِّنَةُ لله تعالى باقيةٌ، وحسنتُكَ إلى محلِّ القَبول رافعةٌ، يرعى بكَ الوسيلةَ، ويتمِّمُ مقاصدَكَ الجميلةَ، أعانه الله تعالى ببركةِ رضاكَ على ما قلده، وعَمَّرَ بتقواه يومَه وغدَه، وأبعدَ في السَّعْدِ أمدَه، وأطلقَ بالخيرِ يدَه، وجعلَ الملائكةَ أنصارَه والأقدارَ عددَه.

وإنِّي أيُّها المولى الكريمُ البَرُّ الرَّحيمُ لما اشتراني وراشَني[٦٠] وبَرَاني، وتعبَّدني بإحسانه، واستعملَ في استخلاصي خطَّ بنانِه، ووصيَّةَ لسانِه، لم أجدْ مكافأةً إلا التقرُّبَ إليكَ وإليه برثائكَ، وإغراءَ لساني بتخليدِ عليائكَ، وتعفيرَ الوَجْنَةِ في حَرَمِكَ، والإشادةَ بعدَ لَمَساتِ بمجدِكَ وكَرَمِكَ، ففتحْتُ البابَ في هذا الغرضِ، إلى القيامِ بحقِّكَ المفترضِ، الذي لولاه لانْصلتِ الغفلةُ عن أدائه، وتمادتْ فما يبستِ الألسنُ ولا كادتْ، منحِّزاً بالسَّبْقِ، إلى أداءِ هذا الحقِّ، بادئاً بزيارةِ قبرِكَ، الذي هو رحلةُ الغربِ ما نوَّبْتُه من رحلةِ الشَّرقِ، وما أعرضْتُ عنه فأَقْطَعُهُ أثرَ مواقعِ الاستحسانِ، وقد جمعَ بين الشُّكرِ والتَّنويهِ والإحسانِ، والله سبحانه يجعلُه عملاً مقبولاً، ويبلِّغُ فيه من القَبولِ مأمولاً، وينفِّسُ مَنْ ضاجعَتْهُ من سَلَفِكَ الكرامِ بالمغفرةِ الصَّيِّبةِ، والتَّحياتِ الطَّيِّبةِ، فَنِعْمَ المَلوكُ الكبارِ، والخلفاءُ الأبرارِ، والأئمةُ الأخيارِ، الذين كَرُمَتْ منهمُ السِّيَرُ وحَسُنَتِ الأخبارُ، وسَعِدَ بعزمائهم الجهاديَّةِ المؤمنونَ وشَقِيَ الكفَّارُ، وصلواتُ الله تعالى عَوداً وبدءاً على الرَّسولِ الذي اصطفاه واختاره، فهو المصطفى المختارُ، وعلى آلِهِ وأصحابِه الذين همُ السَّادةُ الأبرارُ، وسلَّمَ تسليماً[٦١].

تندرج هذه الخطبة تحت نوع **خطبة الرِّثاء**، وقد جعلها الخطيب عند قبر المرثي، وبدأها بالمعتاد من الحمد والثناء والصَّلاة، ثمَّ انصرف إلى غرض الخطبة فذكر جملةً من السَّلام على المرثي، فأطال، وانقلب بعد ذلك إلى تعداد مناقب صاحب القبر، ووصل إحسانه بإحسان وَلَدِهِ، وعدَّه بقيَّة عمله الصالح بعد رحيله إلى دار الآخرة، وجعل الخطيب خطبتَهُ عِرفاناً بجميل وَلَدِ المرثي وإحسانه إليه، ثمَّ ختم بالدُّعاء والصَّلاة على النبيِّ.

إذا تدبَّرنا أساليب عرض الخطيب لأفكاره وجدنا أنَّه مال في ذلك إلى العناية بالإنشاء، ولاسيَّما النِّداء لاستحضار مقام المرثي في درج الخطبة، فكرَّر جملة (أيُّها المولى) في خطبته على غير صورة واحدةٍ، وفي غير موضعٍ من الخطبة ، ونادى بغيرها أيضاً، فقال: "يا حجَّةَ العُصْرِ والتَّسليم"، أمَّا الجمل التي بناها على الخبر، فنجد أنَّه حمَّلها

---

٦٠ راشني: شهَّرني وأدَّب عقله الزجل.

٦١ المقري، نفح الطيب: ٦ / ١٠٨.

مقاصد بلاغيّة كثيرة، أهمُّها بيان قدر المرثي، وتفصيل صالح عمله، واتصال عمله الصالح بولده من بعده، وهذا منهج كلاميٌّ حسنٌ في ترتيب الفكرة في موضوع الرّثاء.

إذا تأمّلنا الصّنعة البديعيّة وجدنا السّجعَ أكثر ما يطغى منها على الخطبة، فقد راعى الخطيب حضور ذلك في الخطبة كلّها، ونوّع فواصل السّجع، فجعلها على حروف عدّة، وجاءت تلك الفواصل بين الجمل المتوازنة، كقوله: "ضارعَ الخَدِّ، كَليلَ الحَدِّ"، وقوله: "ولا ضَجِجْتُ لقبرك إلا راجع نُحْرك"، وقوله: "وبنفعك بصدق اليقين، وجعلك من الأئمة المتّقين، ويُعلي درجتك في عِلّيين".وجاء بعض ذلك السّجع في الجمل غير المتوازنة، كقوله: " وبتغمّد مَنْ ضاجعْتَهُ من سَلَفِكَ الكرام بالمغفرة الصّبّبة، والتّحيات الطّيّبة".

اللغة متينة السّبك، جميلة الصياغة، لا نجد لفظةً مُقْحَمةً ينبو بها مكانها من الجملة، فضلاً عن وضوح المعاني وسهولة اللفظ، والنّأي عن الغريب، وتبدو الأخيلة قريبة التصوُّر، ليست بعيدة الغور، وأكثر ما ورد من الصُّور في سياق الخطبة معتاد، ومن الصور المأخوذة، من مثل قوله: "وبجودِ سحابِ الرّحمة ترابَك"، لكنّه أحسن إذ شبّه نفسه بالسّهْمِ راشَتْهُ وبَرّتْهُ نِعَمُ وُلْدِ المرثي، فوقف عند خبر أبيه مُقِرّاً بفضله معترفاً به، وذلك في قوله: " لما اشتراني وراشني وبَراني، وتعبّدني بإحسانه، واستعملَ في استخلاصي خطَّ بنانِه، ووصّلَ لسانِه، لم أجدْ مكافأةً إلا التقرُّب إليك وإليه برثائك".

نجد من خلال هذه الخطبة قدر ما وصلت إليه الخطابة في عصر بني الأحمر من العناية اللفظيّة، ونجد طغيان السّجع، وجُلُّ ذلك السّجع مقصودٌ لذاتِه مستجلَبٌ لتحلية الخطبة.

ابن الزَّيّات الغرناطيّ (٦٤٩ - ٧٢٨هـ)

أحمد بن الحسن بن عليّ بن الزّيات الغرناطيّ، أبو جعفر، شاعرٌ وخطيبٌ، من أدباء عصر بني الأحمر في غرناطة، كانت وفاته بمالقة. أنشأ خطبة أُلّفت الألف من حروفها، على كثرة تردُّدها في الكلام، وكثرة الحاجة إليها فيه، وهذا نصُّها:

" حَمِدْتُ ربّي جلّ من كريم محمود، وشكرتُهُ عزّ من عظيم موجود، ونزّهتُه عن جهل كلّ مُلْحِدٍ كفور، وقدّسْتُه عن قول كلّ مُفْسِدٍ غرور، كبيرٌ، لو تقدّم في فهم أحَدٌ، قديرٌ، لو تصوّر في رسم أحَدٌ، لو عَدَتْهُ فكرةٌ لِتَصَوُّرٍ لتصوّر، ولو حَدَتْهُ فكرةٌ لتعذّر، ولو فُهِمَت له كيفيّة لَبَطُلَ قِدَمُه، ولو عُلِمَتْ له كيفيّة لَحَصَلَ عَدَمُه، ولو حصَرَهُ طَرْفٌ لَقُطِعَ بِتَجَسُّمِه، ولو قَهَرَهُ وَصْفٌ لَصَدَعَ بِتَقَسُّمِه، ولو فُرِضَ له شَبَحٌ لَرَفَعَه كَيْفٌ، ولو عَرَضَ له لَلِحَقَ عَجَلٌ وَرَيْثٌ، عظيمٌ من غير تَرَكُّب قُطِّر، عليمٌ من غير تَرَتُّبٍ فِكَر، موجودٌ من غير شيءٍ يُمْسِكُه، معبودٌ من غير وهمٍ يُدْرِكُه، كريمٌ من غير عِوَضٍ يُلْجِئُه، حكيمٌ من غير عَرَضٍ يُلْحِقُه، قويٌّ من غير سَبَبٍ يَجْمَعُه، عَلِيٌّ من غير سببٍ يَرْفَعُه، لو وُجِدَ له جنسٌ لَعُورِضَ في قُيُومِيَّتِه، ولو ثَبَتَ له جِسْمٌ لَتَوزّع في دَيْمُومِيَّتِه.

تقدّسَ عَنْ لِمَ فَعَلَه؟ وتَنَزَّهَ عن سَمِّ فَصْلَه، وجَلّ عن ثُمَّ قَدَرُتُه، وعزّ عن عمّ عِزَّتُه؟ وعظُمَتْ عَمَّنْ صِفَتُه؟ وكَثُرَتْ عن كَمْ مِنَّتُه؟ فَتَقَ ورَتَقَ، صوَّرَ وخَلَقَ، وقَطَعَ ووَصَلَ، ونَصَرَ وخَذَلَ، حَمِدَتْهُ حَمْدَ مَنْ عَرَفَ ربَّه، ورَهِبَ ذَنْبَه، وصَدَقَتْ حقيقةُ يقينِه قلبَه، وذكرَتْ بصيرةُ دِينِهِ لُبَّه، فنهضَ لوعيِ بشروطِ تَفْضِيَتِهِ وحَدِّ، وربطَ سِلْكَ سُلوكِهِ وشَيَّدَ، وهَدَمَ صَرْحَ عُتُوِّهِ وهَدَّ، وخَرَمَ مَعْقِلَ عَقْلِهِ وخَدَّ، طَرَدَ غُرورَ غُرَّتِهِ وزَلَّه، عَلِمَ عِلْمَ تحقيقٍ فنحا نحوَه، وتفرَّدَ له عزّ وجلّ بثبوتِ ربوبيَّتِهِ وقِدَمِه، ونعتقدُ صدورَ كلّ جوهرٍ وعَرَضٍ عن جودِهِ وكَرَمِه، ونشهدُ بتبليغِ محمّد صلّى ربّه عليه وسلّم، رسولُه وحِبرُ خلْقِه، ونعلنُ بنهوضِهِ في تَبْيِينِ فَرْضِه، وتبليغِ شَرْعِه، ضربَ قُبَّةَ شَرْعِهِ فَنَسَخَتْ كلّ شَرْعٍ، وجدَّدَ عزيمَةَ فَقَمَعَ عدوَّه خيرَ قَمْعٍ، قَوَّمَ كلّ مقوَّمٍ بقويمِ سَنَنِه، وكريمِ هَدْيِه، وبيَّنَ لقومِهِ كيفَ يركنونَ فَوْرَةَ بِقَصْبِه، وسديدِ سَعْيِه، بشَّرَ مُطيعَه، فَظَفَرَ بِرُكْنِه، وحذَّرَ عاصِيَهِ فَشَفِيَ بِنَقْبِه. وبعد:

فَقَد نُصِحْتُمْ لو كنتم تعقلون، وهُديتم لو كنتم تعلمون، وبُصِّرْتُم لو كنتم تبصرون، وذُكِّرْتُم لو كنتم تذكّرون، وظَهَرَتْ لكم حقيقةُ نَشْرِكم، وبَرَزَتْ لكم خبيئةُ حَشْرِكُم، فَلِمَ تركضون في طَلَلِ غفلتكم، وتَغْفُلُونَ عن يومِ بَعْثِكُم، وللموتِ عليكُمْ سيفُ مسلول، وحُكْمُ عَزْمٍ غير مَعْلُول، فكيفَ بكم يومَ يُؤخذ كلّ بِذَنْبِه، وتُخْبِرُ بجميعِ كَسْبِه، ويُفْرَقُ بينَه وبينَ صَحْبِه، ويَعْدَمُ نُصْرَةَ حِزْبِه، ويُشْغَلُ بِهَمِّه وكَرْبِه، عن صديقِهِ وبَرِّيه، وتَسْتُرُ له رُقْعَتُه وتُغَيِّرُ له بُقْعَتُه، فَرَبِحَ عَبْدٌ

نَظَرَ وهو في مَهَلٍ لِنَفْسِه، وتَرَسَّلَ في رِضى عَمَلِه جُنَّةً لِخَلَلِ رَمْسِه، وكَسَرَ صُمَّ شهوتِهِ لِيَفُرَّ في مجوحةِ قُدْسِه، وخَصَرَ بِنَظَرٍ يُنْزِلُه سريرَ سُرورِه بينَ عقلِهِ وجِسْمِهِ.

فتنبَّهْ وَيْحَكَ مِنْ سِنَتِكَ ونومِك، وتفكَّر فيمن هَلَكَ مِنْ صَحْبِك وقَوْمِك، هتفتَ بهم مَنْ تَعْلَم، وشبَّ عليهم مِنْه حَرَقٌ مُظْلِم، فَحُرِّبَتْ بصبحتِهِ ربوعُهم، وتفرَّقت لِهَوْلِهِ جموعُهم، وذلَّ عزيزُهم، وخسِيَ رفيعُهم، وصُمَّ سَمِيعُهم، فخرجَ كلٌّ منهم عَنْ قَصْرِه، ورُمِيَ غيرَ موسَّدٍ في قبره، فَهُمْ بينَ سعيدٍ في روضتِهِ مُقَرَّب، وبين شَقِيٍّ في حُفْرَتِهِ مُعذَّب، فاستوهبْ منه عزَّ وجلَّ عِصْمَتَه من كلِّ خطيئة، وخصوصيَّةً تَقِي من كلِّ نفسٍ جريئة"[٦٢].

هذا ضربٌ من الخطب التي وصلت إلى درجة من التكلُّف البعيد، فغادرت الصَّنعةُ إلى التصنُّع، وجانبَ صاحبُها القصدَ عن المعنى إلى الاعتناء بمحاسن اللفظ، فكان أوَّل محلِّ عنايته أن يبني خطبة منزوعة من حرف الألف، ومن المعروف أن هذا الحرف كثير الورود في الكلام، على نحو يُفضي التَّفكير في استثنائه من الخطبة إلى إعمال العقل في اللفظ، وتكلُّفه، على نحو أفسد بعض المعاني، فلم تنج الخطبة من اللبس في المعنى الذي وقع فيه الخطيب التماساً لِضَرْبٍ محدَّدٍ من الألفاظ، مع مخالفة الأساليب المعهودة في الكلام، فمن ذلك قوله:" وصَفَتْ حقيقةُ يقينِهِ قلبَه، وذكَرَتْ بصيرةُ دِينِهِ لُبَّه" فالفعل (صفا) فعلٌ لازمٌ جعلَه متعدِّياً، والأصل أن يقول: (أصفا) فوقع في ذلك الخطأ بسبب مجانبة الألف في الخطبة، ولو قال (أصفت) لاستقامت اللغة، وفَسَدَت الخطبة بخروجه على ما ألزم نفسه به من نزع الهمزة لوقوعها على الألف.

مثل هذا التكلُّف فتح باباً من الخلل اللفظيِّ في الخطبة كان سبباً في وجود كثيرٍ من الألفاظ غير المستقرَّة في التَّراكيب، نحو قوله:" ، كبيرٌ، لو تقدَّم في فهمٍ نَجْدَ، قديرٌ، لو تصوَّر في رسمٍ لَحَدَّ"، أضف إلى ذلك أنَّ بعض السَّجع جاء طلباً للفاصلة في آخر الجملة من غير موافقة المعنى المقصود، من ذلك قوله: "ولقمونتِ عليكُمْ سيفٌ مسلول، وحُكْمٌ عَتْمٌ غير مَعْلُول"، والمعروف أنَّ لكلِّ موتٍ عِلَّةً، والعِلَّة السَّبَبُ، فالموت واحدٌ وأسبابُه متعدِّدة، , وأوضحُ عِلَلِهِ عند ذوي البصيرة انقضاءُ أجل المرء بأن يكون قد استوفى أيَّامه المقدورة، وكان ينبغي للخطيب أن يقول: "غير معلوم" فيُوافق اللفظ المعنى، لأن الموت على الإنسان حتمٌ من غير عِلْم.

جاء بعض السَّجع داخليّاً ضمن تركيب الجملة، فثقُل على السَّامع بإحداث تلك الفواصل الداخليَّة، وهذا مُخالفٌ للطَّبع، مجانبٌ لِقَصْدِ المعاني، من ذلك قوله: "حَمِدْتُ ربِّي جلَّ من كريمٍ محمود، وشكرتُهُ عزَّ من عظيمٍ موجود،

٦٢ابن الخطيب، الإحاطة: ١ / ٢٩٠.

ونزّهتُه عن جهلِ كلِّ مُلحِدٍ كفور، وقدّستُه عن قولِ كلِّ مُفسِدٍ غَرور " فهنالك فواصل داخليّة (كريم، عظيم، ملحد، مفسد) وفواصل خارجيّة (محمود، موجود، كفور، غرور) وهذا التكلُّف في بناء السَّجعة واضحٌ.أضف إلى ذلك أنَّ بعض الفواصل تتقارب على نحوٍ لا يخلو من النُّبوِّ اللفظيِّ، فتؤدي إلى الاضطراب المفسد لجمال التَّعبير، من مثل: " لَتَقٍ ورَتْق، صوَّرَ وخلَق، قَطَعَ ووَصَل، نَصَرَ وخَذَل".

ولا يخفى أثر حضور بقيّة ضروب البديع في هذه الخطبة، وقد تكلَّف الخطيب ذلك، من مثل الجناس والطباق وغيره، فمن الطباق قوله: "فَهُمْ بينَ سعيدٍ في روضتِهِ مُقَرَّب، وبين شَقِيٍّ في حُفْرَتِهِ مُعذَّب" ومن الجناس ما كان بين (قصره) و(قبره) في قوله:" فخرجَ كلٌّ منهم عَنْ قَصْرِه، ورُمِيَ غيرَ موسَّدٍ في قبره".

أمّا الأساليب فجاء بعضها غير حسن في سياق الخطبة، من مثل استحضار أسلوب الاستفهام على نحو من التكلُّف الذي أدّى إلى الإغراب في المعاني، ويمكننا للدلالة على ذلك أن نشير إلى قوله: " تقدَّسَ عَنْ لِمَ فَعَلَه؟ وتَنَزَّهَ عن سَبْرِ فَضْلِه، وجَلَّ عن ثَمَّ قُدْرَتُه، وعزَّ عن عمَّ عِزَّتُه؟ وعَظُمَتْ عَمَّنْ صِفَتُه؟ وكَثُرَتْ عن كَمْ مِنَّتُه؟".

هذه المشكلات اللفظيّة والعيوب المعنويّة كلُّها سببُها التكلُّفُ في أمرين ألزمَ الخطيبُ نفسه بهما، الأوّل: بناء ألفاظ الخطبة على نزع الألف، والثاني: عقد السَّجع على التكلُّف في بناء فواصل داخليّة في التراكيب اللغويّة.

وفي نهاية مطافنا في دراسة فنّ الخطابة يمكننا القول:

إنّ الأندلسيّين عرفوا هذا الفنّ معرفتهم لكثير من الفنون النثريّة المشرقيّة، وجعلوه في أغراض كثيرة، منها العامّ، كخطبة الجهاد، وخطبة الوفادة، ومنها الخاصّ، كخطبة الرثاء، وخطبة الاعتذار، وغير ذلك، لكنّنا نلحظ سيادة خطبة الوعظ على غيرها من ضروب الخطابة وأنواعها، ويرجع ذلك إلى أهميّة هذا الموضوع في خطبة الجمع الإسلاميّة، إضافة إلى أنّ الاضطرابات السّياسيّة في مراحل من حكم المرابطين المتأخّرين وقبل مجيء بعدهم فرضت هذا الموضوع على غيره من أنواع الخطابة، فكثُر الحضّ على الرّجوع إلى الله خلاصاً من الكرب والحروب.

يجب أن نشير إلى أنّ فنّ الخطابة الأندلسيّة، أقلّ حضوراً من فنّ الرّسالة في النّثر الأندلسيّ، وهذا أمرٌ تدلُّ عليه النُّقول الكثيرة من الرّسائل التي وصلت إلينا قياساً إلى ما وصل من فن الخطابة.

من ناحية أخرى، نقرأ في متون الأدب الأندلسيّ ومصادره القديمة خطباً مجتزأة ضاعَتْ أصولها، ونقف على نتفٍ يسيرةٍ من خطبٍ ضائعةٍ لا تكاد تقدّم لنا تصوُّراً كافياً عمّا بقي منها، وذلك على الرّغم من أنّ تلك المصادر تذكر أنّ بعض الأدباء الأندلسيين اشتُهروا بالخطابة، فأكثروا منها، وعُرِفُوا بها، أو أنّ خطب أحدهم مجموعة في سِفْرٍ، ثمّ لا نجد من هذا القول غيرَ خطبةٍ أو خطبتين، من غير أن تقف تلك المصادر على الخطب المطوّلة التي تذكرها، إلاّ ما نَدَرَ من ذلك، وهذا دليلٌ على ضياع كثيرٍ من الخطب الأندلسيّة أيضاً.

بدأت الخطابة الأندلسيّة في مراحلها الأولى المبكرة جاريةً على الطّبع، أو أنّها تأخذ من الطّبع قسماً ومن تطيف الصّنعة قسماً آخر، حتّى بدأت الصّنعة تمدُّ يديها إلى الخطابة فتسري في عروق ألفاظها، وذلك منذ عصر الخلافة، ونلحظ أنّ الخطب في تلك المرحلة وما جاء بعدها من مراحلَ قد كَثُرَ فيها الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، أو تأوّل معنى آياته وحلّها في الخطبة، إضافةً إلى كثرة حضور الاستشهاد بالأمثال والشّعر، لكنّ الشّعر صار أكثر حضوراً في الخطبة، مع غيره من أنواع البديع كالجناس والطباق وغيرهما، حتى إذا وصلت الخطبة إلى عصر بني الأحمر ظهر التصنُّع في ذلك، وبدا بعضُه مذموماً ممجوجاً، وظهرت أفانينُ من الخطابة التي تنبو عن الذّوق لدى بعض الخطباء من دون آخرين، كالخطبة التي تنزع حرفاً من حروف الهجاء، فتستثنيه من الكلام، وهذا لا يجعلنا نتعت الخطابة في عصر بني الأحمر كلّها بهذا النّعت، إذ لا نعدم في مرحلة انتشار التصنُّع في ذلك العصر بعض الخطباء الذين عرفوا عن التّكلُّف اللفظيّ في الخطابة، أو التزام ما لا يلزم في بناء لغة الخطبة، أو في بناء فواصل سجعاتها .

الفصل الثاني
فنُّ الرّسائل

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد

الرّسالة ضربٌ من ضروب النّثر الفنيّ الذي يقوم على التّدوين، على النّقيض من الخطابة التي تنشأ في أصلها معتمدةً على المشافهة، ولا نكاد نجد فرقاً بين مفهوم المشرقيّين للرّسالة ومفهوم الأندلسيّين لها، حتّى إنّنا نجد الأندلسيّين يتابعون المشارقة فيصطلحون على (الرّسالة) باصطلاح (الكِتاب) أيضاً، ويُكثرُ هذا الاصطلاح في مكاتباتهم، ويُكثر اصطلاح (الكِتاب) في المكاتبات الرّسميّة الأندلسيّة، وقد نجده في غيرها، كما في المكاتبات الإخوانيّة، وكذلك وافق الأندلسيُّون المشارقةَ في الاصطلاح على بعض المؤلّفات باصطلاح (الرّسالة) وكثر لديهم ذلك، من مثل رسالة (طوق الحمامة) ورسالة (التّوابع والزّوابع)، وهما كتابان، وهذا يعني أن حجم الرّسالة يختلف في الطُّول أو القِصَر، ولا ضابطَ لذلك عند المترسّلين، سوى ما يقتضيه الحال من الكلام في الإسهاب أو الإيجاز.

ترتبط نشأة فنّ الرّسائل في الأندلس بدوافع المكاتبات الرسميّة التي تتعلّق بها أمورُ الفتح وشؤون الحكم، وأنشِئت دواوينُ الرّسائل لهذه الغاية، وجُعل عليها أديبٌ له صفةُ الوزير، وكَثُرت أسماءُ الأدباء الأندلسيّين الملقّبين بلقب (الوزير الكاتب)، وجُلُّهم في طبقةٍ رفيعةٍ من طبقات الأدباء، كما ارتبط ازدهارُ فنّ الرّسائل بنشاط حركة الأدب والتّصنيف، إضافةً إلى نشاط الأدباء في اتصال بعضهم ببعض من طريق المكاتبة الإخوانيّة.

إذا نظرنا إلى **أنواع الرّسائل** وجدناها تختلف باختلاف الغرض الذي تقوم به (الغرض السياسيّ، الغرض الاجتماعيّ، الغرض الدّينيّ، الغرض الأدبيّ)، وفي الإمكان تصنيفها تحت أنواعٍ رئيسةٍ، يندرج تحت كلّ نوعٍ منها جملةٌ من الأنواع الفرعيّة الأخرى، وهذه الأنواع الرّئيسة هي:

١-**الرّسائل الدّيوانيّة:**

تقتصر على ما يتعلّق بشؤون المُلْك والسّياسة، ويُشرِّفُ الأديبُ الذي يحظى بوظيفة الكتابة السُّلطانيّة بلقب (الوزير)، تكريماً له وإبرازاً لأهمّيّة العمل الذي أُسند إليه، ويقرُب اصطلاح (الرّسائل الدّيوانيّة)، ممّا يُسمّى في عصرنا **بالرّسائل الرّسميّة**، وتتفرّع إلى أنواعٍ منها :

-الرّسائل السُّلطانيّة للولاة - ورسائل الوعيد إلى الخارجين على السُّلطان - ورسائل الأوامر الإداريّة

- ورسائل التّولية -والرّسائل الحربيّة

٢-الرّسائل الذّاتيّة الخاصّة:

تطغى على هذه الرّسائل صفة الأديب الذّاتيّة بالجانب الاجتماعيّ، إذ تَظْهَرُ فيها علاقاته الذّاتيّة بأفراد مجتمعه من الخاصّة والعامّة، وهذه الرّسائل مجالٌ خصْبٌ لشجونٍ نَفْسِهِ على الصّعيد الاجتماعيّ، لأنّها ترسمُ صورةً اجتماعيّة للخاصّة والعامّة من منظور الأديب، إضافة إلى موقفه ممّا يراه أو يسمعه في مجتمعه، وهذه الرّسائل أنواعٌ كثيرةٌ نذكر منها الرّسائل الإخوانيّة على اختلاف أنواعها من : **العتاب والتّهادي والشّوق** إلى الخلاّن ، وتغلب عليها النّزعة (الذّاتيّة) في رسم صورة تلك العلاقات الاجتماعيّة للأديب ، ومنها :

-رسائلُ الشّكوى من الدّهر

- ورسائل الاستعطاف إلى الخاصّة

- ورسائل السّخرية والتّهكّم من الأفراد

٣-الرّسائل المذهبيّة:

تعالج الرّسائل المذهبيّة الارتباط الوثيق للأندلسيّين بالجانب الرّوحيّ من العقيدة الإسلاميّة، وقد ظهرت في نثرهم أنواعٌ من هذه الرّسائل لها خصوصيّتُها،وأكثرُها شيوعاً :

-رسائلُ الوصايا المختصّة بالوعظ

-رسائل التّشوّق النّبويّ

-ورسائل التّحميد

٤-**الرّسائل الأدبيّة الخالصة** :

لا نستطيع أن ننفيَ الصّفة الأدبيّة عن الرّسائل التي تُكْتَبُ لأغراضٍ سياسيّة أو اجتماعيّة أو دينيّة، لكنّ تلك الرّسائل المذكورة سابقاً تتّخذ من الأسلوب الأدبيّ وسيلةً لغايةٍ أخرى، أمّا الرّسائل الأدبيّة فهي رسائلُ أُنْشِئَت أدبيّةً خالصة، ويمكننا تقسيم الرّسائل ذات الغرض الأدبيّ إلى صنفين :

-الرّسائل الوصفيّة التي تقوم على وصف الطّبيعة الصّامتة والحيّة

-والرّسائل القصصيّة التي تقوم على العنصر الحكائيّ.

الرّسائل الدّيوانيّة

لا نجد أمثلةً تدلُّ على هذا الضّرب من الرّسائل أو غيره في عصر الولاة في الأندلس، ويرجع ذلك إلى أنّ مرحلة البداية النّثريّة للأدب العربيّ في الأقاليم البعيدة كالأندلس يكتنفها شيءٌ من الغموض يعود إلى ضياع الآثار الأولى، ولا سيّما أنّ النّثر أقلُّ حفظاً في الصّدور من الشّعر، على أنّ المصادر تذكر لنا أسماء بعض الكُتّاب الذين أُسندت إليهم وظيفة (الكاتب) لدى بعض الولاة في الأندلس، من ذلك أميّة بن يزيد[٦٣] وكان كاتبا ليوسف الفهريّ آخر ولاة الأندلس، لكنّنا لا نقف على شيءٍ من آثار رسائلهم، ويبدو أنّ ضياع الكُتب الأولى التي صَنّفتْ للحركة النّثريّة والحركة الشّعريّة في الأندلس كان عاملاً في فقدان كثيرٍ من الآثار الأدبيّة الأندلسيّة، فمن ذلك ضياع كتاب (الحدائق) لابن فرج الجيّانيّ، وقد جعله مؤلّفه للكلام على الأدباء في الأندلس في تلك المراحل الأولى المبكرة.

لكنّنا نجد أمثلةً قليلةً للرّسُل الدّيواني في مرحلة الإمارة الأمويّة، وأكثرُها مُختَزَلٌ، لكنّه كافٍ لمعرفة ما كانت تجري عليه الرّسائل الدّيوانيّة من أساليب الكتابة، وسنقف هنا عند أبرز أنواعها:

١–رسائل الوعيد :

تُنشأ بعض الرّسائل الدّيوانيّة في التّهديد والوعيد، ويقع ذلك في حقّ الخارجين على أمر ذوي السّلطان من الخارجين وغيرهم، فمن ذلك رسالةُ وعيدٍ أملاها الأمير الأمويّ عبد الرّحمن بن معاوية الدّاخل على كاتبه سليمان بن الأعرابي إلى بعض الخارجين عليه[٦٤]:

" أما بعدُ، فَدَعْني من معاريض المعاذير، والتعسُّف عن جادّة الطريق، لَتَمُدَّنَّ يداً إلى الطّاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقينّ بنانها على رَضْفِ[٦٥] المعصية نكالاً بما قدّمت يداك، وما الله بظلاّم للعبيد".

كان عبد الرّحمن الدّاخل يقصر الرّسالة في التّهديد والوعيد، ولا يُطيل فيهما فصول الكلام، على نحو ما رأينا في رسالته السّابقة، وهذا من مراعاة مقتضى الحال في الرّسُل، وهو أمر حسنٌ، ويدلُّ على ذلك ما رواه صاحب (البيان المغرب)، قال:

---

٦٣ المقري، نفح الطيب: ٣ / ٩٦.

٦٤ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٢ / ١٦٤.

٦٥ الرّضْف: الحجارة المحماة والشديد.

" وكتب عنه أميّة بن زيد كتاباً إلى بعض عمّاله، يستقصره فيما فرّط من عمله، فأكثر وأطال الكتاب، فلمّا لحظَهُ عبد الرّحمن بن معاوية الدّاخل، أمرَ بقطعه، وكتب بخطّ يدِهِ: أمّا بعد، فإنْ يكن التّقصير لك مُقدّماً، فعُدَّ الاكتفاءَ أن يكون لك مُؤخراً. وقد علمتُ بما تقدّمْتَ، فاعتمدْ على أيّهما أحْبَبْتَ"[٦٦].

وقد جرت رسائل الأمويّين على هذه الخصوصة من الاختزال في موضع المقال في الوعيد وما يشبهه، من دون التفات إلى الصّنعة، أو طلبٍ لها، فمن ترسُّل أمراء بني أميّة الدّالّ على ذلك، رسالةٌ صدرَتْ عن ديوان عبد الرّحمن بن الحكم جواباً عن شكايةٍ وردت إليه، وهذا نصُّ جوابه:

" أمّا بعد، فقد بلغنا كتابُكم، تذْكُرونَ فيه أمرَكم، وإغارةَ المسلمين الذين وجّهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفرتم عليه من الهلاك، وسألتم التّدارك لأمركم، وقبول الجزْيَة منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطّاعة، والنّصيحة للمسلمين، والكفّ عن مكروههم، والوفاءِ بما تحملونه عن أنفسكم، ورَجَونا أن يكون فيما عوفيتم به صلاحُكم، وقَمْعُكُم عن العَوْدِ إلى مثل الذي كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهدَ اللهِ وذمّتَه"[٦٧].

٢-رسائل الأوامر الإداريّة :

يشبه هذا الفرع من الرّسائل الدّيوانيّة ما يُسمّى في أيّامنا بالمرسوم الرّسميّ أو المنشور الإداريّ، ونشطت مثل هذه الأوامر الإداريّة في الأندلس في عهد الخليفة النّاصر وما بعده، وقد كان لإعلان الخلافة أثرٌ واضحٌ في ارتقاء الكتابة الدّيوانيّة، وتعدُّد الفروع النّاتجة منها، وارتقى الكُتّاب في الألقاب الوزاريّة، وأُقيمَ ديوان الكُتّاب لتنظيم شؤون إدارة الدّولة، ولا سيّما شؤون الخلافة، ومن التّرسّل الإداريّ الرّسميّ ممّا يمكن تصنيفه تحت نوع رسائل الأوامر الإداريّة رسالةٌ من النّاصر عبد الرّحمن يُعْلِنُ فيها قيامَ الخلافة والتّسمّي بألقابها، وكان ذلك سنة ست عشرة وثلاث مئة للهجرة، وهاك نسخة الأمر بذلك[٦٨]:

---

٦٦ ابن عذاري، البيان المغرب: ١ / ١٦٤.

٦٧ المصدر نفسه: ١ / ١٧٨.

٦٨-ابن عذاري، البيان المغرب: ١/ ٢٢٨.

بسم الله الرّحمن الرّحيم.

أمّا بعد، فإنّ أحقّ من استوفى حقّه، وأجدرَ من استكملَ حظّه، وليس من كرامة الله ما ألبسَه، للذي فضّلنا الله به، وأظهرَ أثَرَنا فيه، ورفعَ سلطانَنا إليه، ويسّرَ على أيدينا إدراكَه، وسهّلَ بدولتنا مَرامَه، وللّذي أشاد في الآفاق من ذِكْرِنا، وعُلُوِّ أمرِنا، وأعلنَ مِنْ رجاءِ العالمين بنا، وأعادَ من انحرافِهم إلينا، واستبشارِهم بدولتنا.

والحمد لله وَلِيّ النِّعمة والإنعام بما أنعم به، وأهلِ الفَضْلِ بما تفضّل علينا فيه، وقد رأينا أن تكون الدعوةُ لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنّا وورودها علينا بذلك، إذْ كانَ مَدْعُوٌّ بهذا الاسم غيرنا مُنْتَحِلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومتّسمٌ بما لا يستحقّه. وعَلِمْنا أنّ التّمادي على تَرك الواجبِ لنا من ذلك حقٌّ أضعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه. فَأْمُرِ الخطيبَ بموضعِكَ أن يقول به، وأجرِ مخاطباتِك لنا عليه، إنْ شاءَ الله، والله المستعان".

نلاحظ في هذا الأمر الإداريّ قوّة العبارة، وسلامة السّبك اللغويّ، ومضمونه يُظْهِرُ أثَرَ هيبةِ الخلافة، ومَبْلَغَ ما وصلت إليه من القوّة في الأندلس، ولا نجد في نصّه من التكلّف شيئاً مذكوراً، ولا سيّما أنّ هذا الأمرَ يمثّلُ فاتحة الكتابة الدّيوانيّة في عهد الخلافة الأمويّة في الأندلس.

٣ـ الرّسائل الموجّهة إلى الولاة :

من الكتابة الدّيوانيّة أيضاً ذلك النّوع من الرّسائل التي تُنْشَأ بأمر الأمراء والخلفاء إلى وُلاتِهم على النّواحي والأمصار، كالرّسالة التي خطّها صاحبُ الدّيوان بأمر الحَكَم المستنصر إلى بعض وُلاتِه يُبَشِّرهم بالقبض على أحد الخارجين عليه، ووقوعِه بين يديه، ومنها:

" بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله الذي لا يُحاط به، والظّاهر الذي لا يُظْهَر عليه، الواحد الذي لا يُكاثَر، والقادر الذي لا يُقادَر، مقدّرِ الأقدار، ومصرّفِ الإعصار، ومكوّرِ الليل على النّهار، المتعالي عن العيان، المُمْكِن بكلّ مكان، الموصوف بما علّمنا من صفاته، المعروف بما أرانا من آياته، المعين على طاعته بقدرته، الميسّر لموجبات جنّته برحمته.

والحمد لله ربّ العالمين الذي اصطفى من عباده صفوة اختصَّهم بكرامته، وأعزَّهم بفضيلة نبوّته، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده، فأيَّدهم بالسُّلطان والبرهان، وعضَدَهم بالآيات البيّنات والشَّواهد والمعجزات، ثمَّ خصَّهم بأكرمهم عنده مكانة، وأرفعهم لديهم منزلة، محمَّد صلّى الله عليه وسلّم.

والحمد لله الذي اصطفى من عِتْرَتِهِ، وانتخب من دوحته، خلائف في أمّته، حملةً لسنّته، حفظةً على شريعته، رُعاةً لخَلْقِهِ، وجعلهم خلفاء على عباده، ذادةً عن حزبه، حتّى أورث الله تعالى مقامهم وارث شرف أنسابهم، وحائز كرم أحسابهم، أميرَ المؤمنين، فأيّد الله تعالى جنده ونصره وأعلاه، وأظفره بمن قد كان جاهراً بمعصيته، وأعلنَ مخالفته، ونحانف عن طاعتِهِ، وأخذ له بناصيتِهِ، وأوقعها تحت رغبتِهِ ورهبتِهِ"[٦٩].

نلاحظ في هذه الرّسالة العناية بالسّجع، والتكلُّف اللفظيّ؛ ويظهر ذلك في فاتحة الرّسالة وفي موضوعها الرّئيس، وتعدُّ هذه الرّسالة مثالاً للرّسائل الدّيوانيّة التي أخذت تُعنى بالمحاسن اللفظيّة على نحوٍ لافتٍ، ولا سيّما بعد أن عمَّ التّرف في عهد الخليفة النّاصر، وظهرت العناية بمظاهر الحياة الأدبيّة، على نحو ما ظهر ذلك في كثير من جوانب الحضارة الأندلسيّة أيضاً، وتُمثّل الرُّسُل الدّيوانيّ في عصر الخلافة الأمويّة، وما بعده من عصور خير مثالٍ على هذه الظاهرة، وبذلك خرج الرُّسُل من الطّبع إلى الصّنعة اللفظيّة، ويجب أن ندرك أنّ الرّسائل الدّيوانيّة في تلك العصور التي أشرنا إليها أخذت نصيبها من العناية بالسّجع في أجزائها كلّها، مع اختلافها في الإيجاز والإسهاب.

٦٩ ابن حيان، المقتبس: ١٧٨.

الرَّسائل الذَّاتيَّة الخاصَّة

تقدِّمُ هذه الرَّسائل صورةً من علاقة الأديب الخاصَّة بمجتمعه، كعلاقته بأصدقائه، أو علاقته ببعض ذوي السُّلطان فيما يتعلَّقُ بشؤونه الشَّخصيَّة الخاصَّة، إضافةً إلى موقفه الذَّاتيّ الخاصّ من المجتمع والنَّاس، وسنقف في هذه الدِّراسة عند بعض أنواع الرَّسائل الذَّاتيَّة الإخوانية الخاصَّة، وتكون الرِّسالة إخوانيَّة إذا كانت صادرةً إلى رُتبة الأصحاب والخلاَّن، أو ردّاً على رسالة صاحبٍ أو خليلٍ، ممَّا يكون بين النُّظراء المتساوين في الرُّتبة، وتُعَدُّ الرَّسائل الإخوانيَّة في مقدِّمة ما يمثِّل أنواع الرَّسائل الذَّاتيَّة، وهي رسائل تدور بين الأديب وخلاَّنه أو أصحابه، وتتعدَّد أغراضُها، فتكون لعتاب الخليل، أو لإظهار الشَّوق إليه، أو التَّهادي، أو غير ذلك من الأغراض، وسندرس بعض أنواع الرَّسائل الإخوانيَّة:

١ – رسائل العتاب :

تختلف الرَّسائل الإخوانيَّة في حجمها، فمنها القصير الموجز، ومنها الطَّويل الممتدّ، ويغلب القصر والإيجاز على رسائل العتاب، فمن تلك الرَّسائل القصيرة **رسالة أبي حفص بن بُرْد الأصغر**، وهي رسالةٌ إخوانيَّةٌ يُعاتِبُ فيها أحدَ أخلاَّئه:

" أظلمَ لي جوُّ صفائك، ونوعَّرتْ عليَّ أرضُ إخائك، وأراكَ جَلَّدَ الصَّمم على العِتاب، فمرَّ ناقع الغُلَّة من الجَفاء، فلبئس شِعْري ما الذي أقسى مُهْجَة ذلك الوُدّ، وأذوى زَهْرَة ذلك العَهْد · عهدي بك – وصِلَتُنا تَفْرَقُ[٧٠] من اسم القطيعة، ومودَّتُنا تسمو عن صفة العِتاب وبشبَهِ الجفاء.

واليومَ هي آنسُ بذلك من الرَّضيع بالثَّدي، والخليع بالكأس، وهذه ثغرةٌ إنْ لمْ تَحرسْها المراجعة، وتذْكُ فيها عيونُ الاستبصار، توجَّهتْ منها الحِيَل على هَدْم ما بَنَيْنا، ونَقْض ما فَتَلْنا، وتلك ناعيةُ الصَّفاء، والصَّارخة بموتِ الإخاء.

لا أستبدُّ – أعزَّك الله – من الكتابة إليك، وإنْ رَغِمَ أنفُ القلم، وانزوَتْ أحشاءُ القرطاس، وأُخرِسَ فمُ الفِكْر، فلم يبقَ في أحدها إسعادٌ لي على مكاتبتك، ولا بشاشة عند محاولة مخاطبتك، لفوارض عتابك، وقوارع مَلامك، التي قد أكلَّتْ أقلامَك، وأغصَّتْ كُتُبَك، وأضجرَتْ رُسُلَك. وضميري طاوٍ لم يطعم تجنِّياً عليك، ونفسي وادعةٌ لم تجنِ ذنباً إليك، وعقدي مُستَحْكِم لم يَمْسَسْه وهنٌ فيك . وأنا الآنَ على طرفٍ من إخائك معك، فإمَّا أنْ تُدْلِيَ بحجَّةٍ فاتَّصِلَ

---

٧٠ : تفرق: تفرق.

عندك، وإمّا أن تُنبئ بحقيقةٍ فأستديمَ خُلّتك، وإمّا أنْ تأزِمَ[٧١] على فأيأس فأقطعَ حبلي منك، كثيراً ما يكون عِتابُ المتصافيَيْنِ حيلةً تسيرُ المودّة بها، وتستثار دفائنُ الأخوة عنها، كما يُعرَضُ الذّهب على اللّهب، وتُصَدَّقُ المِدام بالمِدام[٧٢]. وقد يَخْلُصُ الودُّ على العَتْبِ، خلاصَ الذّهب على السّبْك، فأمّا إذا أُعيد وأُبْدِيَ، ورُدّدَ وولِيَ، فإنّه يُفسِدُ غرمَ الإخاء، كما يُفسِدُ الزّرعَ توالي الماء"[٧٣].

هذه الرسالة مثالٌ للرّسالة الإخوانيّة المقتضبة الموجزة في باب العتاب ، وأبرز ما يميّزها العاطفة التي تذكو بإيقاد الشّعور، وتحفل بمكنون الوجدان ؛ حيث تعمل الصّور عملها في مُخَيّلة المتلقّي، لتوصل إليه مقدار ما يعتملُ في صدر كاتبها من المشاعر، وتلك الصّور كثيرةٌ في الرّسالة على الرّغم من قصر حجمها . ومثلُ هذه الرّسائل تحفل بخصائص النّثر الأدبيّ الفنّيّ فالتّوسّل الدّيوانيُّ الرّسميُّ نكاد تنعدم فيه العواطفُ، أو تخبو في كثير منه، لكنّ الرّسائل الإخوانيّة تفيضُ بالعاطفة.

ويبدو أنّ موضوع العتاب في الرّسائل الإخوانيّة يفرض الاختزال والاقتضاب في كثير من الأحيان ، لأنّ طول العتاب يفسد المودّة، وغالباً ما يكون العتاب أملاً في تجديد عهد المودّة بعد الذي أصابه من وَهْنٍ، وليس الهدفُ منه قطْعَ حبل الودّ. فالإيجاز .

٢-رسائل الاستعطاف :

يقع في الرّسائل الذّاتيّة ما كُتِبَ على سبيل الاسترحام، وهذا النّوع يُسمّى رسائل الاستعطاف، ويكون بعضه موجّهاً من الأديب إلى الخاصّة، ممّن له علاقة بهم أو صلة، والفرق بين هذه الرّسائل والرّسائل الإخوانيّة هو اختلاف منزلة المرْسِل عن منزلة المرْسَل إليه، فهذه الرّسالة تكون بين متباينين في المنزلة الاجتماعيّة أو الحال الشّخصيّة، فمثالُ ذلك رسالة ابن زيدون المشهورة باسم (الرّسالة الجدّيّة).

---

٧١ تأزم: تعرض وتشدّ.

٧٢ المِدام: صفاة الكرم أو الإبريق.

٧٣ ابن بسام، الذخيرة: ١ / ١ / ٥٠١.

الرسالة الجدية

هي رسالة ابن زيدون إلى أبي الحزم بن جهور صاحب قرطبة ، كتبها إليه في سجنه يستعطفه، وكان ابن زيدون أحد أعوان الجَهْوَرِيّين للوصول إلى حكم قرطبة، لكنَّ الوشاة أوقعوا بين أبي حزم وابن زيدون فأمر بسجنه، فكتب ابن زيدون هذه الرّسالة يسأله فكَّ قيده من الأسر.

وقد لقيت (الرّسالة الجديّة) اهتمام القدماء والمُحْدَثين، واعتنى بها الشُّرّاح، ومن أبرزهم خليل بن أيبك الصّفديّ، الذي صنَّف في شرحها كتابه (تمام المنون في شرح رسالة ابن زيدون)، ونقتبس من أوّل الرّسالة قولَ ابن زيدون في استعطاف ابن حزم:

"يا مولايَ وسيّدي الذي وِدادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه، أبقاك الله ماضيَ حدِّ العَزْم، وارِيَ زَنْدِ الأمل، ثابتَ عَهْدِ النِّعمة. إنْ سَلَبْتَني - أعزَّك الله - لباسَ إنعامك، وعطَّلْتَني من حَلْي إيناسك، وأظْمَأْتَني إلى تُرودِ إسعافك، ونَقَضْتَ بي كفَّ جياطتك، وخَضَضْتَ عنّي طَرْفَ حمايتك، بعد أنْ نظرَ الأعمى إلى تأميلي لك، وسَمِعَ الأصمُّ ثنائي عليك، وأحسَّ الجماد بإسنادي إليك، فلا غروَ فقد يَغُصُّ بالماء شاربُه، ويقتل الدَّواء المستَشْفِيَ به، ويُؤتى الحَذِرُ من مَأْمَنِه، وتكون منيّة المتحمّي في أمنيّته، والحين قد يسبق حرص الحريص:

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى ... وتهون غيرَ شماتة الحسّاد

وإنّي لأتجلّد، وأُري الشّامتين أنّي لريب الدّهر لا أتضعضع، فأقولُ: هل أنا إلا أدماها جِوارُها، وجبينٌ عَضَّه إكْليلُه، ومَشْرِفيٌّ الصقَهُ بالأرض صاقِلُه، ومِنْهَرِيٌّ عَرَّضَهُ على النّار مُثَقِّفُهُ، وعبدٌ ذَهَبَ به سيّدُه مَذْهَب الذي يقول:

فقسا ليَزْدجروا ومَن بكَ حازماً ... فليقسُ أحياناً على من يَرْحَمُ

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقبُه، وهذه النُّبْوَةُ غمرةٌ ثمّ تنجلي، وهذه النُّكبة سحابةُ صيفٍ عَنْ قليلٍ تَقَشَّعُ، ولن يُرَيِّبَني من سيّدي أنْ أبطأ سَيْبُه[٧٤]، أو تأخّر غيرَ ضنينٍ عَطاؤه، فأبطأُ البُلاء فيضاً أملؤها، وأثقل الشّحائب مشياً أحفلُها، وأنفع الحيا ما صادف جدباً، وألذُّ الشّراب ما أصابَ غليلاً، ومع اليوم غدٌ، ولكلِّ أجلٍ كتاب، له الحمد على اختباله[٧٥]، ولا عَتْبَ عليه في إغفاله:

فإنْ يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحداً ... فأفعالُه اللاتي سَـرَرْنَ أُلوفُ

---

٧٤ سيبه: عطاؤه.

٧٥ الاختبال: الإسراع.

وأعود فأقول: ما هذا الذَّنبُ الذي لم يَتسعْهُ عَفْوُك، والجهل الذي لم يأت من ورائه حِلْمُك، والتَّطاوُل الذي لم يستغرقه تطوُّلُك، والتَّحامل الذي لم يفِ به احتمالُك، ولا أخلو من أنْ أكونَ بريئاً فأين العدلُ ؟ أو مسيئاً فأين الفضلُ؟

إلاَّ يكن ذنبٌ فعدلك واسعٌ أو كان ذنبٌ ففضلك أوسعُ

حنانَيْك، قد بلغ السَّيلُ الزُّبى، وبالغ ما حسبي به وكفى، وما أراني إلاَّ أُمِرْتُ بالسُّجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرت، وقال لي نوح: ﴿ارْكَب مَعَنا﴾[٧٦] فقلت: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[٧٧] وأُمِرْتُ ببناء صرح لعلِّي أطَّلع إلى إلهِ موسى، وعَكَفْتُ على العِجْلِ، واعتديتُ في السَّبت، وتعاطَيْتُ فَقَمَّرْتُ، وشربْتُ من النَّهر الذي ابتُلِيَ به جيوش طالوت، وفُدْتُ الفيلَ لأبرهة، وعاهدْتُ قُريشاً على ما في الصَّحيفة، وتأوَّلْتُ في بيعة العَقَبة، ونَفَرْتُ إلى العِير بِبَدْرٍ، وانحزلتُ بِكُلِّ النَّاس يومَ أُحد، وتخلَّفْتُ عن صلاة العصر في بني قُريظة، وجلت بالإفك على عائشة الصِّدِّيقة، وأبْيْتُ من إمارةِ أُسامة، وزَعَمْتُ أنَّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتَة، ومن أدلَّة القرآن على خلافة أبي بكر، وزوَّيْتُ رُمْحي مِنْ كتيبةِ خالدٍ .. فكيف ولا ذنب إلا نَميمةٌ أهداها كاشحٌ ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمّازون المشّاؤون بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديما صحيحا ، والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال : ما ظنُّك بقومٍ الصدق محمودٌ إلاَّ منهم "[٧٨] .

هذا القدر الذي اقتطفناه من الرِّسالة كفيلٌ بتقديم صورةٍ واضحةٍ لأسلوبها، ومن الملاحظ أنَّ موضوع الاستعطاف من الموضوعات التي تُحْسُنُ فيها التَّفصيل والتَّطويل استرحاماً لِلْمُسْتَعْطِفِ، وترقيقاً لقلبه، وهذا يعوزه الإسهابُ لا الاقتضاب، ولذلك جاءت هذه الرِّسالة في أصل متنها طويلةً.

كما نلاحظ أنَّ ابن زيدون بسطَ في هذه الرِّسالة قدراً واسعاً من ثقافته العالية في القرآن والحديث الشَّريف والأمثال والأشعار والرِّجال الأعلام، والأخبار والآثار والسِّيَر من التَّاريخ، وجاء ذلك محتشداً في رسالته على نحو يصعب على القارئ البسيط إدراكه تاقاً، ولذلك انصرف الشُّرَّاح إلى بسط القول في شرح الرِّسالة.

---

٧٦ سورة هود: الآية ٤٢.

٧٧ سورة هود: الآية ٤٣.

٧٨ . الضَّبِّي، تمام المؤنق في شرح رسالة ابن زيدون: ٣٠.

ولا يأتي ابن زيدون بالآية الكريمة من القرآن الكريم بلفظها الصّريح، بل إنّه يحمّل ذلك في النّثر، على نحو يُلمَح في درج الكلام، نحو قوله: "وأمّرتُ بناء الصّرح" ففي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٧٩]، وكثُرَ ذلك في موضع الاستشهاد بقصص القرآن في الرّسالة، فمن ذلك قوله: " وما أراني إلاّ أُمِرتُ بالسّجود لآدمَ فأبيتُ" فذلك من قصّة السّجود لآدمَ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٨٠]، وقوله "وعَكَفْتُ على العِجْلِ" فذلك من قصّة اليهود واتّخاذهم العجل ربّاً لما ذهب موسى للقاء ربّه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[٨١]، وقوله: "واعتديتُ في السّبت"، من قصّة اعتداء اليهود بالصّيد يوم السّبت: ﴿واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٨٢]، وقوله: "ونعاطيتُ فعقَرْت" فذلك من قصّة عقر النّاقة، ناقة النّبيّ صالح: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[٨٣]، وقوله: "وشربتُ من النّهر الذي ابتُليَ به جنودُ طالوتَ"، وهو من قصّة النّهر في جند طالوت ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٨٤].

أما استحضار الشّعر في الرّسالة فهو كثيرٌ، وله شواهدُ كثيرةٌ فيها، ولاستحضار الشّعر في هذه الرّسالة النّثريّة ضربان:

الضّرب الأوّل جاءت فيه الأشعار بلفظها الصّريح، من مثل قول استشهاده بقول أبي تمام:

فَفُسا لِتَزدَجِروا وَمَن بَكَ حازِماً فَليَقسُ أَحياناً على مَن يَرحَمُ

---

٧٩ سورة غافر: الآية ٣٧.

٨٠ سورة البقرة: الآية ٣٤.

٨١ سورة البقرة: الآية ٥١ .

٨٢ سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

٨٣ سورة القمر: الآيات ٢٧ – ٢٩.

٨٤ سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

الضَّرب الثَّاني يلجأ فيه ابن زيدون إلى استحضار معنى البَيْت، فيحلُّ معنى البيت في النَّثر، من مثل قوله: " بعد أنْ نظرَ الأعمى إلى تأميلي لك، وسَمِعَ الأصمُّ ثنائي عليك"، فذلك من بيت المتنبي المشهور:

أنا الَّذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وَأسمَعَتْ كَلِماتي مَن بِهِ صَمَمُ

ومثل ذلك يدلُّ على سعة ثقافة ابن زيدون، فضلاً عن مهارته في استحضار تلك الثَّقافة لتكون مادَّة إبداعيَّة جيِّدة لإنشاء هذه الرِّسالة.

وتأتي الأمثال في الرِّسالة كثيراً، ويضرب ابن زيدون هذه الأمثالَ لتدلَّ على مقاصده المعنويَّة، نحو قوله: "بلغ السَّيلُ الزُّبى"[٨٥]، وقوله: " يَغَصُّ بالماء شاربُه" وهو مأخوذٌ من قول العرب: "لو بغير الماء غَصَصْتُ"[٨٦]، وقوله: "يُؤتى الحَذِرُ من مَأْمَنِه" وأصْلُهُ من قولهم: "من مأمنه يُؤتى الحَذِر"[٨٧]، وغير ذلك من الأمثال. ونشهد في الرِّسالة حضوراً للسِّيَر والأخبار والآثار على نحو حاشدٍ، يغلب عليه الإكثار من ذلك، من مثل ذِكْره لتفصيلاتٍ من تاريخ السِّيرة النَّبويَّة، والخلافة الرَّاشدة، إضافةً إلى سير الأوَّلين من الأنبياء والأقوام السَّابقين.

٣-رسائل الدعابة والفكاهة :

وهذه الرسائل تندرج ضمن الرسائل الإخوانية ، ونجد فيها الكاتب مجالاً واسعاً للتعبير عما يجول في نفسه ، وتثير الضحك مع شيء من التعريض الخفيف الذي لا يصل إلى حد الهجاء المقذع.

وهذه الرسائل كثرت في أدبنا العربي ، ومن الأدباء الذين خاضوا في هذا المجال : الجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وابن زيدون. أما لسان الدين بن الخطيب الذي يعد رائد الحركة الفكرية في عصر ملوك بني الأحمر فلم يتوان عن الخوض في هذا الجانب على الرغم مما عرف به من اتزان ووقار . فقد كان وزيراً مرموقاً في بلاط ملوك بني الأحمر وسفيراً لهم إلى ملوك إفريقية وتونس ، وعلى الرغم من كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته كان يراسل أصدقاءه مداعباً حيث وجد في الدعابة ما يخفف عنه متاعب الحياة . كما طبعت البيئة الأندلسية بكل ما فيها من تأنق ومرح شخصيته بطابع الفكاهة التي كانت تتبدى خلال المجالس المرلية التي كان يرتادها . وفي كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) يظهر ميله

---

٨٥ . أبو هلال العسكري ، جمهرة الأمثال: ٢ / ٢٢٠.

٨٦ المصدر نفسه: ٢ / ٢٠٣.

٨٧ المصدر نفسه: ٢ / ١٧١.

للمداعبة ، من خلال ترجمانه ورسائله لبعض الشخصيات ، من ذلك ما كتبه إلى صديقه ابن الحاج وكان شديد البخل ، على لسان القاضي أبي الحسن وكان معروفاً بطمعه وشدة نهمه ، وأظهر لسان الدين بن الخطيب هذه المفارقة بين القاضيين حين خاطب أبا إسحاق بلسان أبي الحسن حيث قال :

" سيدي جعل الله أكوار[1] العمائم تتضاءل لكور عمامتك ، والنفوس الطائحة الهمم على اختلاف الأمم تقر بوجوب إمامتك ، وسر الإسلام باتصال سلامتك ، وتبرأ الملا من ملامتك ، وصلتني رسالتك التي أخبت في ميدان البلاغة فأوضعت ، وأخلاف الفنون ارتضعت ، وعلى ارتفاع القدر اتضعت ، ووضعت الحكمة المشرقية بنت ساعة والله أعلم بما وضعت ، لكنها تناقست الجوارح كما

غصت بنعمها المسارح ، وتعارض **السانح والبارح**[2] والرامز والسارح في صلت الأذن على المغنى ، وأنجبت من اللفظ البديع بأعذب المنى ، واستولت العين من الخط على الحسن البعيد الشط ، ونتيجة ما أودع الباري بين مقدمتي البري **والقط**[3] وعظمت حسرة الخلق إذ بقي بابه مسدوداً ، وأصبح مسلكه من المسالك غير النافذة معدوداً ، واشتد أسف الضرس إذ أصبحت أرحى طواحنه عاطلة ، وسحاب الدين عليها غير هاطلة ، ومذاهبها باظلة ، ومواعيدها بالمضغ ماطلة. وما ضر سيدي — والله بقيه الضر ، ويحفظ منصبه الحر — وبحره الذي يقذف الدر أن لو ضاعف **الطول**[4] وجمع الفعل والقول ، فوجه من الكتان ما يثقل ظهر الأتان ومن الزيت ما يملأ ركن البيت ، ومن الدجاج والعسل **المجاج**[5] ما يتكفل بصلاح المزاج ، ومن **الأترج**[6] والليم ما يخل بحلم الحليم فجانب الورع عن هدية سيدي لا يضيق، فهو الرفيق الشفيق ، والعدل الذي وضح من فضله الطريق... فلواجع سيدي عادة الكرم ، ولا يحسب الشحم في الورم

١– كور العمامة : لفه على جهة الاستدارة ، وتكورت الشمس : جمع ضوؤها ولف كما لف العمامة .

٢ –السانح : الطائر ، والظبي (يمر من مسار الرامي إلى يمينه) ، والعرب تتفاءل به والبارح : الطائر ، والظبي (يمر من يمين الرامي إلى يساره) والعرب تتشاءم به

٣–القط : قط الشيء ، قطاً : قطعه عرضاً

٤– الطول : الفضل والغنى واليسر .

٥–المجاج : مجاج النحل : عسلها ، ومجاج القصب : ما سال من عصيره .

٦–الأترج : شجر ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون ، زكي الرائحة ، حامض الماء .

والله يطلع من تلقائه الأدمة ، التي تضيق عن أحمالها عراض الأزقة ، **والعسول** المتكلفة بالسول ، والزبيب الذي يسر قلب الحبيب ، والأجبان التي تشجيع قلب الجبان ، **والجلديان** التي تروي بالخبر عن العبان ، والبيض التي تشهد بالفيض ، والزيت الذي يخلف حياة الميت " [٨].

وينهي رسالته بالدعاء لأبي إسحاق : " والله يبقي سيدي للقضاة زيناً ، وفي العلماء عيناً ، ويفضي بجودك على الدهر الذي سمح بجوده دينا ، والسلام عليه ما استسمح جواد وأطرف بالفكاهة فؤاد " [١]

والرسالة في الدعابة والفكاهة ، داعب فيها لسان الدين بن الخطيب صديقه ابن الحاج من دون تجريح أو هجاء ، فهو أراد أن يظهر بخله وشحه ، فيدعوه بشكل غير مباشر إلى أن يكون كريماً معطاء ، ولا يخفى ما في هذه المداعبة من التعريض اللطيف . وتأتي أهمية هذه الرسالة من بروز العنصر الجاحظي فيها بشكل واضح ، فهي تقوم على السخرية البريئة بقصد التندر والإضحاك والتفكه.

وتبنى الرسالة على السجع مع توخي المحسنات البديعية الأخرى التي تعينه على إبراز المفارقة بين الشخصيتين . يكثر الأديب من استخدام التشبيهات والاستعارات مع المبالغة والتهويل في التصوير والعرض . ويلجأ ابن الخطيب إلى نثر بيت شعري في رسالته عندما قال : " فلماجيع سيدي عادة الكرم، ولا يحسب الشحم في الورم " ، وهنا أخذ الشطر الثاني من بيت المتنبي وأورده نثراً في رسالته ، يقول المتنبي :

أعيذها نظرات منك ثاقبة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقد اعتمد ابن الخطيب أيضاً على الألفاظ الواضحة السهلة المأنوسة ، وهذا يتلاءم مع ما عرف عن الأندلسي من حب للجمال والأناقة . كما أورد صيغ الدعاء في بداية الرسالة وختامها ، على عادة كتاب الرسائل . والرسالة تمثل حالة النثر الأندلسي في ذلك العصر ، الذي غلبت على الكتاب فيه طريقة القاضي الفاضل بكل سماتها وخصائصها .

---

٨ – ابن الخطيب ، ريحانة الكتاب: ج٢/٢١٣..

٤-رسائل الهجاء والسُّخرية:

ويندرج تحتَ الرَّسائل الذَّاتيَّة الخاصَّة ما كُتب على سبيل التَّهكُّم من بعض الخواصّ، ويُسمَّى هذا النَّوع رسائل الهجاء والسُّخرية، وخيرُ مثالٍ لذلك رسالة ابن زيدون المشهورة باسم (الرِّسالة الهزليَّة).

الرسالة الهزلية

هي رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس، خصمه في حُبّ ولأدة، والطَّريف في الأمر أنَّ ابن زيدون جعلها على لسان ولأدة، فجاءت أبْلَغَ في الخَصْم، وأوقعَ أثراً في نفسيه.

وقد اعتنى بها الشُّرَّاح أيضاً، ومن أبرزهم ابن نُباتة، الذي فصَّلَ شرحها في رسالة ضمَّنها بعنوان (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون)، فمنها قولُ ابن زيدون في حقّ ابن عبدوس يهزأ به:

" أمَّا بَعْدُ: أيُّها المُصابُ بعَقْله، المَوْرُطُ بجهله، البَيِّنُ سَقَطُه، الفاحشُ غَلَطُه، العالِقُ في ذيلِ اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، السَّاقطُ سقوطَ الذُّباب على الشَّراب، المُتهافِتُ تَهافُتَ الفَراش في اللَّهاب، فإنَّ العُجْبَ أكْذَب، ومعرفةُ المرء بنَفْسه أصوب، وإنَّك راسَلْتَني مُستَنْهِضاً مِنْ صِلَتِي ما صَفَرَتْ منه أيدي أمثالك مُنصَبّاً مِنْ خُلُقِي لِمَا قُرِعَتْ دونه صنوف أشكالك، مُرسِلاً خَليلَتَكَ مُرتادة، مُستَعْمِلاً عشيقَتَكَ قوّادة، كاذباً نفسَكَ أنَّك منتزل عنها إليَّ وتُخْلِفُ بعدَها عَلَيَّ:

ولستَ بآوٍ ذي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا ليس بالنَّائلِ

ولا شكَّ أنَّما قَتَلَتْكَ إذْ لم تَصِرْ بك، ومِلْتَكَ إذ لم تمرّ عليك، فإنَّما أعْذَرَتْ في السفارة لك، وما قَصَّرَتْ في النِّيابة عنك، زاعماً أنَّ المروءةَ لفظٌ أنتَ معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جِسْمُهُ وهُيُولاه، فاطعةً أنَّك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ في مراتب الخلال، حتَّى خيَّلَتْ أنَّ يوسف عليه السَّلام حاسَدَكَ، فَغَضَضْتَ منه، وأنَّ امرأةَ العزيز رائدُكَ فَسَلَتْ عنه، وأنَّ قارونَ أصابَ بعضَ ما كَنَزْتَ، واللُّطفَ عَثَرَ على فَضْلِ ما رَكَزْتَ، وكِسْرى حملَ غاشيتَكَ، وقيصر رعى ماشيتَكَ، والإسكندر نَزَلَ دارا في طاعتك وأزْدَشِيرَ جاهَدَ ملوكَ الطَّوائف بخروجهم عَنْ جماعتك والضَّحَّاكَ استدعى مُسالمتَك، وجذيمة الأبرش تمنَّى مُنادمتَك، وشِيرين قد نافَسَتْ بُوَرانَ فيك، وبلقيس غايرتِ الزَّبَّاءَ عليك، وأنَّ مالكَ بنَ نُويرة إنَّما أردفَ لك، وعُروةَ بن جعفر إنَّما رحل إليك، وكُليبَ بنَ ربيعة إنَّما حمى المرعى بعزّتك،

وجشماً إنّما قتلته بأنامتك، ومنهلّهلاً إنّما طلبت ثأرهُ بِشَبَك ، والسموءل إنما وفى عن عهدك ، والأحنف إنما احتبى في بردتك ، وحاتما إنما جاد بوفرك ..."

ثمّ يقول معنّفا ، مصرّحا بلومه وخسّته:" حقّى إنّ باقلاً موصوف بالبلاغة إذا قُرِن بك ، وهبنّقة مسنوجبٌ لاسم العقل إذا أُضيف إليك ، وطُويساً مأثورٌ عنه يُمن الطائر إذا قيس عليك . فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والحزبة منك ظفر ،والجنّة معك سقر ، كيف رأيت لؤمك لكرمي كِفاء ، وضعتك لشرفي وفاء ؟ وأيّ جهلت بأنّ الأشياء إنّما تنجذب لأشكالها ، والطير إنما تقع على ألفها ؟ وهلاّ علمت أنّ الشرق والغرب لايجتمعان ، وشعرت أنّ المؤمن والكافر لا يتقاربان ، وقلت : الحبيث والطيب لا يستويان ، وتمثلت :

أيّها المنكحُ الثريّا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهُ ، كيفَ يلتقيان ؟!

وينتقل بعد ذلك إلى نُصحه بالإقلاع عمّا هو فيه من أوهام ، والرجوع عمّا تحلّى به نفسه من آمال كاذبة ، وأمنيات خادعة :

" ما كان أخلقك بأن تقدر بذرعك ، وتربع بذلك على طبعك ، ولاتكن براقش الدالة على أهلها ، وعنز السوء المستطيرة لحتفها ، فما أراك إلا سقط بك العشاء على سرحان ، وبك لا بظبي أعفر ، قد أعذرت إن أغنيت شيبا ، وأسمعت لو ناديت حيا :

إن العصا قرعت لذي الحلم والشيء تحقره وقد ينمي "

وينتهي إلى تحذيره من العودة إلى ما نُهي عنه ، فإن عاد وقع في وبال ما فعل ، بقول :

" ...فعدت لما نُهيتَ عنه ، وراجعتَ ما استُعفيتَ منه ، بعثتُ من يُرعجك إلى الخضراء دفعا، ويستحثّك نحوها وكُزاوصفعا ، فإذا صيرت عليها عبثَ أكّاروهابك ، وتسلّط نواطيرها عليك ، ذلك بما قدّمت يداك لتذوق وبال أمرك ، وترى ميزان قدْرك :

فمن جهلَتْ نفسُه قدرَهُ رأى غيرُه منهُ ما لا يَرى " [٨٨]

٨٨= ابن باكة، مرج الغيوث = شرح رسالة ابن زيدون: ص ٨ وما بعدها.

تبدأ الرّسالة بهجاء صريح لابن عبدوس، ثمّ ينقلب الهجاء إلى السُّخرية منه بأسلوب المدح الذي يُراد به الذّمّ، من مثل قوله: "كِسْرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا في طاعتك" ، ويبدو ابن زيدون في هذه الرّسالة الهزليّة على عادته السّالفة في رسالته الجديّة مُغرماً باستحضار ثقافته الواسعة في النّصّ النّثري، ولذلك حَشَدَ أسماء الأعلام والآثار والأخبار والأشعار في هذه الرّسالة، وجرى على هذه الخصيصة من أول الرّسالة إلى آخرها، وفي إمكان الدّارس لهذه الرّسالة أن يرجع إلى شرح ابن نباتة لها، الذي سبق أنْ ذكرْناه، للوقوف على ترجمة ما لم يعرفه عن كلّ عَلَم من الأعلام، أو خبرٍ أو سيرةٍ أو أثرٍ.

وحشد ذِكْرَ الأعلام في رسالته، ولا سيّما في مواطن السُّخرية ليصل إلى مقاصده في انتقاص قدر غريمه ابن عبدوس ، حتّى أذكرْنا طريقتُه هذه برسالة الجاحظ الموسومة بعنوان (التّربيع والتّدوير) التي سخر فيها الجاحظ من أحمد بن عبد الوهّاب، فأرسل الكلام في مدحه على إرادة الذّمّ في رسالته.

ونهج ابن زيدون النّهج ذاته، لكنّه أكثر من الشّواهد القرآنية والحديث الشّريف والأمثال والأخبار والأشعار على نحوٍ لا نجده في رسالة (التّربيع والتّدوير) فتراه يذكر كبار الأعلام المشهود لهم بالفضل، ثم ينسب إلى ابن عبدوس ما انتهوا إليه من الفضل، فكأنّهم لم يُحَصِّلوه من دونه .

وتشترك رسالتا الجاحظ وابن زيدون في:توليد المعاني والإكثار من التّشبيهات، والجمع بين الهجاء الصّريح والهجاء غير الصّريح، وتشتركان في العناية بفواصل السّجع، واستحضار ضروب مختلفة من الثّقافة في بناء معاني السُّخرية.

الرّسائل الدّينيّة

نشهد لدى الأندلسيّين عامّة ميلاً إلى الشّعور الدّينيّ، واحتراماً لشعائر الدّين، وقد كان لذلك أثرٌ في نشاط الحياة الدّينيّة في الأندلس، وأثر آخر في ازدهار الرّسائل التي تُعنى بهذا الجانب، وقد غَنِيَت الرّسائل الدّينيّة الأندلسيّة بموضوعاتٍ كان من أبرزها ما يُسمّى برسائل الوعظ والوصيّة، ورسائل التّشوّق النّبويّة، ورسائل التّحميد، وسنقف عند هذه الأنواع لدراسة نماذج منها.

آ-رسائل الوصيّة والوعظ :

هذا النّوع من الرّسائل في أصله وصايا في الوعظ، تشمل كثيراً من الموضوعات المتداخلة، ويجمعها الحضُّ على التّقوى والاعتبار، كالتّرغيب في العزوف عن مظاهر التّرف الدّنيويّ، والدّعوة إلى البرّ والتّقوى، والتّحصّن بالعفّة، والتّمسّك بعُروة الدّين والرّضا، والتّدبّر في أحوال الدّنيا، وما يتمخّض عنها من تَقلُّب الصّروف، ولا شكّ في أنّ الحال السّياسيّة أسهمت في نشاط هذا النّوع من الرّسائل الدّينيّة التي تغذّي روح الزّهد وقيم الوعظ، ولا سيّما في ظروف الاضطراب والفتن والقلاقل السّياسيّة والاجتماعيّة.

يحتاج الواعظ في رسالته من بلاغة القول ما يصل به إلى ألباب النّاس، ولذلك تراه يتفنّن في عرض أساليب القول في ذلك، ومن الملاحظ أنّ رسائل الوعظ الأندلسيّة تتميّز بصدق العاطفة في كثيرٍ من نماذجها، وقد تكون رسالة الوعظ خاصّةً إنْ قُصِدَ بها كاتبُها أحداً على وجه الخصوص، وقد يلتفت الكاتب في هذه الرّسائل إلى نفسه بالوعظ، فيخاطبها في سياق وَعْظِهِ لغيره، ثمّ ينصرف بعد ذلك إلى وعظ غيره، فمن أمثلة ذلك رسالة لسان الدّين بن الخطيب إلى أولاده يَعِظُهُم:" اعلموا - هداكُمُ الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضُّلاّل، وبرضاه تُرفَع الأغلال، وبالتماس قُربه يحصلُ الكمال، إذا ذهبَ المال، وأخلفَتِ الآمال، ونمرأتْ من بينها الحِبال - أنّي موقّعُكم وإنْ سالمني الرّدى، ومفارقُكم وإنْ طالَ المدى، وما عدا ممّا بدا، فكيفَ وأدواتُ السّفر تُجمّع، ومُنادي الرّحيل يُسمّع...

فلا تَستَنزِلَنّكُمُ الدّنيا عن الدّين، وابذلوا دونَهُ النّفوسَ فِعْلَ المهتدين، فلن ينفعَ متاعٌ بعد الخلود في النّار أبدَ الآبدين، ولا يَضُرُّ مفقودٌ مع الفوز بالسّعادة، والله أصدقُ الواعدين، ومتاعُ الحياةِ الدّنيا أحسنُ ما وَرِثَ الأولادُ عن الوالدَين، اللّهمّ قد بلّغتُ، فأنت خير الشّاهدين، فاحذروا المعاطب التي توجبُ في الشّقاء الخلود، وتستدعي شوّهَ الوجوهِ ونُضجَ الجلود، واستعينوا برضا الله من سَخَطِه، وارْتَوُوا بنفوسكم عن غَمْطِهِ، وارفعوا آمالكم عن الدّنوع بغُرورٍ قد خدَعَ أسلافَكُم، ولا تُحمّدُوا على جيفةِ الغَرَضِ الزّائلِ اتّلافَكُمْ، وانْتَفِعُوا منه بما تَيَسّر، ولا تَأسَوا على ما فاتَ وتَعذّر،

فإنَّما هي دُجُنَّة[1] يَنْسَحُها الصَّباح، وصَفْقَةٌ يتعاقبُها الخُسَار والرِّبَاح، ودونكم عقيدة الإيمان فشُدُّوا بالنَّواجذ عليها، وكَفْكِفُوا الشُّبَه[2] أنْ تَدْنُوا إليها. واعلمُوا أنَّ الإخلال بشيءٍ من ذلك خَرْقٌ لا يَرْفُوْهُ[3] عَمَلٌ، وكلُّ ما سوى الرَّاعي هَمَل، هَمَل، وما بعد الرَّأس في صلاح الجسم المَيْتِ أَفَل، وتمسَّكُوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة، واجعلُوا حَمْلَهُ على حَمْلِ التَّكليف علاوة، وتفكَّروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأوَّلوه ولا تُعْلُوا[4] فيه"[5].

تفيض الرِّسالة بالشُّعور الدِّيني، وتحضُّ جُمَلُها على ابتغاء رضوان الله تعالى، والتزام أوامره، والزُّهد بما سوى ذلك من مظاهر الدُّنيا الزَّائفة، والاعتبار بالأحوال، والتَّفكُّر في الخَلْق.

وتُراوح الجُمَلُ في الرِّسالة بين التَّوسُّط والقِصَر، وتندر الجمل الطَّويلة، وهذا من مقتضيات الإنشاء في موضوع الوعظ، وتكثر في الرِّسالة الجمل الإنشائيَّة، ويستدعي كثرتها وجود الجمل الطلبيَّة، كالأمر والنَّهي: (وتمسَّكُوا ... واجعلُوا ... وتفكَّروا ... وامتثلوا ... ولا تتأوَّلوه ... ولا تُعْلُوا...).

ويأتي ذلك كلُّه مع التزام السَّجع، وتنويع فواصله، وعقد التَّوازن بين جمل السَّجع، نحو قوله: "مودِّعُكم وإنْ سالمني الرَّدى، ومفارقُكم وإنْ طالَ المدى"، والاستعانة ببعض ضروب البديع الأخرى كالطِّباق، نحو: " فإنَّما هي دُجُنَّة يَنْسَحُها الصَّباح، وصَفْقَةٌ يتعاقبُها الخُسَار والرِّبَاح"، وغير ذلك.

ب–رسائل التَّحميد:

هناك نوعٌ من التَّرسُّل الدِّينيِّ يُسَمَّى التَّحميدات، وهي رسائل تقوم على استفتاح جُمَلِها بحمد الله تعالى، ويتفنَّن المترسِّلون في بناء أساليبها، وإنشاء تراكيبها، ومن أبرز من عُرف بذلك من الأندلسيِّين أبو حفص بن بُرْد الأصغر، وله تحميدات ذكرها ابن بسَّام، منها: " الحمد لله الَّذي عَلا وقَهَر، وبَطَنَ وظَهَر، وبحكمتِهِ قَدَر وأمَر، وبعَدْلِه فدَّم وأخَّر...، الحمد لله الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[6]، المحجوب عن الأبصار، والفائت إحاطة الأفكار، تعالى

---

1 الدُّجُنَّة: الظَّلام.

2 الشُّبَه: الشُّبهات، وهي الأمور الملتبسة.

3 يرفوه: يزقه ويصلحه.

4 تُعْلُوا: تجدُّوا وتتطرَّفوا.

5 - القري: نفح الطيب: ٧ / ٣٩٦.

6 - سورة الرَّحمن: الآيات: ٢ – ٤.

تعالى في الحُجُب العُلا، واطّلع على النّجوى، وعَلِمَ السِّرَّ وأخفى، خلقَ الخَلْقَ للفناء، ثمّ يُعيدها للبقاء...، الحمد لله الكائنِ قبلَ المكان، والموجودِ في عدم الزّمان، الحيِّ الذي لا يدركه الموت، والدّائم الذي لا يَلْحَقُه الفَوْت، والفرد الذي ليس له نظير، والصّمد دون وَلِيٍّ ولا ظَهِير، وارثِ الأرض ومَنْ قَطَنَها، والسّماء ومَنْ سَكَنَها، مُميتِ كلِّ حيٍّ وباعثِهِ، ومُحْيِي كلِّ مَيْتٍ ومُنْشِرِه...، الحمد لله خالقِ العوالم على تفاوتٍ في الصِّفات شديد، وتباينٍ في التّركيبات بعيد، فَمِنْ صلصالٍ كالفَخّار، ومِنْ مَارِجٍ مِنْ نار، ومن جواهرَ رُوْحانيّة وأنوار، وكلُّ عالمٍ منها ناطق بأنّه خالق، وشاهد بأنّه واحد"[1].

نجد في هذه الرّسالة نمطين من الاستشهاد بالقرآن الكريم؛ الاستشهاد الصّريح، كما في الآيات المذكورة في الرّسالة من سورة الرّحمن، والاستشهاد بالتّلميح إلى أجزاء الآية من مثل قوله " فَمِنْ صلصالٍ كالفَخّار، ومِنْ مَارِجٍ مِنْ نار" ، فذلك من قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخّار * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مارِجٍ من نّارٍ﴾[2]، ويسيطر السّجع على الرّسالة، فمنه السّجع الذي يستقلُّ المعنى بفاصلته ويتمُّ بها، من مثل قوله: " فَمِنْ صلصالٍ كالفخّار، ومِنْ مَارِجٍ مِنْ نار، ومن جواهرَ رُوْحانيّة وأنوار"، فكلّ فاصلة قائمة بمعنى جملتها، ومنه السّجع المتداخل الفواصل، من مثل قوله:"وكلُّ عالمٍ منها ناطق بأنّه خالق، وشاهد بأنّه واحد"، ولا تستقلُّ الفاصلة (ناطق) إلا بتمام الجملة عند (خالق)، وكذلك لا تستقلُّ الفاصلةُ (شاهد) إلا بتمام المعنى عند (واحد).

ويقع في رسائل التّحميد ما سمّاه ابن بسّام في (الذّخيرة) بقوله: "فصول في شكر النّعم"، وفصول الشّكر فرعٌ من رسائل التّحميد، وإنْ كانت رسائل التّحميد تستفتح بعبارة (الحمد لله)، ففصول الشّكر تحمل معاني (الحمد) لله تعالى بألفاظٍ أخرى، ومن مثل ذلك قول أبي حفص بن بُرْد الأصغر:

" إنّ للنِّعم عُيوناً إذا كُحِّلْنَ بالشُّكر أبْصَرَ المُنْعَمَ عليه السّبيل التي يأتي المزيدُ منها، وتنحدر المَوادُّ عليها، والمناهجُ التي تفضي بها إلى دار إقامتِها، وتبليغِها مَأْمَنَها ومَلْقَى عَصَاها...، نِعَمٌ حاضنُ النِّعمةِ الشُّكْرُ، يَفْدُوها فَتَنْمِي، ويَحْرُسُها فَتَحْتَمِي، ويُلْطِفُها فَتُلْقِي عَصَاها، ويَعْطِفُها فَتُعْطِي جَنَاها، ولَيْسَ الجَارُ لها الكُفْرُ، يُطيِّرُها عَنْ مَوضِعِها ، ويُنَفِّرُها عَنْ

---

4 الذخيرة: ١ / ١/ ٤٩٢.

١ - ابن بسام، الذخيرة: ١ / ١/ ٤٩٢.

٢ سورة الرّحمن: الآيات ١٤ - ١٥.

مَشْرَعِها، ويُبقي صاحبَها مُبْلِساً مِنَ إلباسها، وَحْشاً مِنَ إيناسها...، مَنَّ ربُّ النِّعمة في جِحْرِ الشُّكر، وأَرْضَعَها ثَدْيَ الحَمْد، وكَفَلَها بأداءِ الحقِّ، رأى في شَخْصِها النَّماء، وتعرَّف من عُمْرِها البقاء، وأمِنَ عليها التحوُّل والالتواء"[1].

ويظهر في التَّحميدات وفصول الشُّكر صدق العاطفة، ورقَّة العبارة، وحرارة الوجدان، ناهيكَ عن جمال الصُّورة البيانيَّة في كثير منها، وسَعَة الخيال وطرافته، من مثل قوله: "ربُّ النِّعمةِ في جِحْرِ الشُّكر، وأَرْضَعَها ثَدْيَ الحَمْد"، أضفْ إلى ذلك اشتمال كثير من الفِقَرِ لمعاني القرآن الكريم، من مثل قول: "إنَّ للنِّعم عُيوناً إذا كُحِّلْنَ بالشُّكر أَرِنَ المُنْعَمَ عليه السَّبيل التي يأتي المزيدُ منها"، فضلاً عن جمال الصُّورة لجد النَّاثُر في لفظ (المزيد) بقوله تعالى:﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

الجامع بين رسائل الحمد ورسائل الشُّكر هو ذلك تهذيب النَّفْس بالعِرفان لمخالق تعالى، وتحمل أمثال تلك الرَّسائل صورةً واضحةً للشُّعور الدِّينيِّ لدى كُتَّاب الرَّسائل في الأندلس، حتَّى إنَّ الرَّسائل على اختلاف فنونها، قلَّما تخلو من افتتاحٍ بالحمد، وقد ذكر ابنُ سعيد في (المغرب) أنَّ أبا حفص بن بُرْد الأصغر قد جعل هذه التَّحميدات في كتابٍ رَفَعَه إلى ابن صمادح، وهذا دليلُ اهتمامٍ بمثل هذا الفنِّ.

---

١ -ابن بسام، الذخيرة: ١ / ١/ ٤٦٤.

٢ -سورة إبراهيم: الآية ٧.

الرّسائل الأدبيّة

لا نُنْكِرُ أنّ الرّسائل التي تُكْتَبُ لأغراضٍ سياسيّة أو اجتماعيّة أو دينيّة تحمل صفاتٍ أدبيّة، لكنّها تبقى أسيرةً لقيودٍ تفرضها تلك الأغراض المذكورة، فالكتابة الدّيوانيّة مثلاً تفرض جفاف العبارة أحياناً، وتقيّدها رغائب السّلطان وأوامره ونواهيه ومقتضيات السّياسة والإدارة، ولا تخلو الرّسائل الإخوانيّة من بعض القيود الكتابيّة التي تفرضها حاجاتُ الكاتب وقضاياه، وتبرز الكتابة الأدبيّة الخالصة فيما يُسمّى بالرّسائل الأدبيّة، لأنّها تتّخذ من الأدب ميداناً لها ومضماراً لمقاصدها، ولا يتّضح هذا القول إلا بدراسة نماذج من الرّسائل الوصفيّة ، والرّسائل القصصيّة ، والرّسائل الأدبيّة التّأليفيّة.

أ- الرّسائل الوصفيّة

تتناول الرّسائل الوصفيّة في النّثر الأندلسيّ وصف الطّبيعة على اختلاف مَظْهَرَيْها، الطّبيعة الصّامتة، كوصف الرّياض والزّهور والثّمار وغيرها من مظاهر الطّبيعة النّباتيّة ، والطّبيعة الحيّة الصّائتة، كوصف الطّيور وسائر الحيوان. وقد كثرت رسائل الطّبيعة الصّامتة في نثر الأندلسيّين ، ومنها:

أولاً : (**الرّوضيّات**) أو وصف الطّبيعة النّباتيّة العامّة ، وهي رسائل تتناول وصف الرّياض بصورة عامّة، بما تشتمل عليه من النّبت والماء، وما برويها من السّحاب الممطر، وما يجري فيها من الأنهار، وما يعبقُ فيها من النّسيم،والطّبيعة النّباتيّة الخاصّة، وتختلف أسماؤها بحسب ما تختصّ به من الموصوفات، فالمختصّ منها بضربٍ محدّد من الزّهر، تسمّى الرّسالة باسمه، كـ(النّرجسيّات). فمن أمثلة رسائل وصف الطّبيعة النّباتيّة العامّة ممّا يُسمّى (الرّوضيّات) رسالة لابن خفاجة في وصف روضةٍ، ومنها قوله[1]:"ولما أكبّ الغَمَامُ إكبابا، لم أجِدْ معه إغبابا[1]، وانّصل المطر اتّصالا، لم ألْفَ معه انفصالا، وأذِنَ الله تعالى لمصْحو أنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَه، ويَنْشُرَ صحيفتَه، فَمَشْعَتِ الرّيحُ السّحاب، كما طوى البَيْجلُّ الكِتاب، وطفِقَتِ السّماء تَخْلَعُ جِلْبابَها، والشّمسُ تَحُطُّ نِقابَها، وتَطَلَّعَت الدُّنيا تَبتهجُ كأنّها عروسٌ تجلّت، وقد تحلّتْ.

ذهبْتُ في لمّةٍ من الإخوان نستبقُ إلى الرّاحة رَكْضا، ونطوي للتفرّج أرضا ونَنْشُرُ أرضا، فلا نُدْفَعُ

---

١ الإغباب: الانقطاع.

إلاّ إلى غديرٍ نمير، قد استدار منه في كلّ قرارة سماء، سحابته عَمَاء[1]، وانساب في كل تَلْعَةٍ[2] خباب[3]، جِلْدَتُهُ حَبَاب[4]، فَتَرَدَّدْنا بتلك الأباطح، تتهادى تهادي أغصانها، وتتضاحكُ تضاحُكَ أقْحُوانِها، والنَّسيم أثناء ذلك المَنظرِ الوسيم، تُراسِلُ مَشْي، على بساطِ وَشْي، فإذا مرَّ بغديرٍ تَمنجه دِرْعا، وأحْكَمَهُ سَرْدا، وإن عَثَر بجدولٍ شَطَبَ منه نَصْلا، وأخلَصَه صَقْلا، فلا ترى إلا بطاحا، مملوءة سلاحا، كأنّما انهزمتْ هنالك كتائب، فألقتْ مما لَبِسَتْه من درعٍ مصقول، وسيف مسلول، فاحتلّنا قبّةً خضراء، ممدودةَ أشطانِ الأغصان، سُنْدُسِيَّة رواق الأوراق، وما زلنا نَلْتَحِف منها ببُرْدِ ظلٍّ ظليل، ونشتمل عليه برداءِ نسيمٍ عليل، ونُجيلُ النَّظر في نمرٍ فسيح، صافي لُجَينِ الماء، كأنّه مِرْآةُ السَّماء"[5] .

وهذه الرّسالة الوصفيّة تختصُّ بوصف الطّبيعة العامّة الصّامتة ، بكلّ مظاهرها فبصف الغمام الذي أظلّ الرّوضة وأمطرها بمائه، ثم يصف الشّمس وقد انقشع عنها الغيم، وشبّهها بالعروس وقد ضعت نقابها فتجلّى جمالُها للنّاظرين ، ثمّ يترك سماء الرّوضة ليصف أرضها، وما في تلك الأرض من الغدران الجارية،والأغصان المتهادية، وبساط العشب الموشّى بالأقحوان، ويشبّه أنهارها بالسّيوف الصّقيلة المتكاثرة التي تملأ أحناءها، ويصف نسيمَها العليل، وكلّ ما في تلك الرّوضة وما أحاط بها، مستعيناً بلغة أدبيّة رفيعة، وجادت الأوصاف مجرّدة ، ما لها من غاية سوى إظهار السّرور بالمشاهدات المرئيّة من تلك الرّوضة ، ولم تحمل شيئاً من إسقاط النّفس عليها .

ثانياً : رسائل وصف الطّبيعة النّباتيّة الخاصّة ، ومنها رسائل في وصف ضربٍ واحدٍ من الزّهور كالنّرجس أو النّرجس أو الأقحوان.ومن تلك الرسائل رسالة نثرها ابن حسداي على لسان زهرة النّرجس، وأرسلها إلى الخليفة المقتدر بن هود ، وفيها من نوازع الوجدان ما ليس في وصف الرّوضة الحفاجية.

ونجد في النّثر الأندلسيّ ضربين من وصف الحيوانات الدّابّة والحيوانات الطّائرة :

---

١ - سحابة عماء: غيوم مرتفعة.

٢ - التلعة: مجرى الماء من أعلى الوادي إلى باطن الأرض.

٣ - الخباب: موج الماء، أو الماء الذي يعلو على سطحه.

٤ - جلدته حباب: تراد أنه على ظهره فقاقيع الماء تطفو عليه.

٥ - ابن بسام، الذخيرة: ٣ / ٢ / ٩٤٣ - ٩٤٤

-الوصف المجرّد للحيوان ما كان لغرض الوصف وحسب، فغايته إبراز مهارة الكاتب في رسم صورة نثريّة للموصوف، واشتُهر أبو عامر بن شُهيد بهذا الفنّ الوصفيّ حتى شاعت عنه أوصافٌ لم نجدها لدى أحد من قبله، تقوم على التّصوير الطّريف، وكلُّها حسنةٌ تشهدُ له بالبراعة في هذا الفنّ، يدلُّ على ذلك ما قاله ابن بسّام في (الذّخيرة):

"وقد ضارع أبو عامر هذا محاسنَ الطّبقة العالية البغداديّة المضارعة التي بانت فيها قوّته، ولَدُنَت اختراعاتُه ومقدرتُه، فصار يتناول المعنى الحسن فيصيّره مُحَسّناً بِحُسْنِ مَساقِه... " وعرض ابن بسام بعض موصوفاته البارعة ، ومنها وصفه النّحل والعسل بأنّها (واسعة الأكفال، والصّدور مرهفة) ، ووَصَفَ البرغوث فقال :(أسود زنجيٌّ) ، ووَصَفَ البعوضة بأنّها (مَليكةٌ لا جيشَ لها سواها) ،ووصفَ الثّعلب فقال: (أدهى من عَمرو) ثم قال : " وهذه أوصافٌ لو رامها غيرُه لكبا جوادُ بَنانِه، ونَبا حُسام لِسانِه" [1]

وهذا وصفٌ لا يخلو من طرافة ، إلاّ أنّ الكاتب لا يريد منه سوى إظهار مهارته الوصفيّة، ومن هنا أسميناه وصفاً مجرّداً، وليس له غرض من وراء ذلك سوى ما ذكرناه .

والوصف الإسقاطيّ ، والغرض منه أبعدُ من الوصف ذاته ، فهو من أنواع النّورية ، ومن ذلك ما يُسمّى في النّثر الأندلسيّ (الزّرزوريّات)، وهي رسائل تتّخذ من وصف الحيوان وسيلةً لمقاصدَ دلاليّة أخرى، وسمّيت بذلك لأنّها تقوم على وصف ضربٍ من الطّيور معروفٍ باسم الزّرزور [2]، وقد اتّخذه بعض الأندلسيّين مثلاً يشبّهون به بعضَ النّاس على سبيل الفكاهة، أو لغرض آخر، وهذا يعني أنّ أغراض هذا الوصف متعدّدة، ولذلك لا نعدُّ هذا الوصفَ مجرّداً، بسبب تعدُّد أغراضه ولقيامه على الإسقاط الإنسانيّ، فالزّرزور هنا ليس الطّائر المعروف، بل إنّه شخصٌ تنصرف إليه صفاتُ ذلك الطّائر، فتسقط عليه تلك الصّفات سقوطَها على الطّائر ذاته.

ويُعدُّ ابن سراج أوّل الأندلسيّين ابتداعاً لهذا الفنّ الوصفيّ، ثمّ تبعَهُ فيه كثيرٌ منهم . وتقتطف من الرّسالة الزّرزوريّة لابن سراج هذه القطعة النّثريّة التي اتّخذ فيها من صورة طائر الزّرزور وسيلةً للشّفاعة لرجلٍ يُعرف بهذا اللّقب، فمضى في وصف المشفوع له على أنّه ذلك الطّائر:

---

١ ابن بسام، الذخيرة: ١ / ١ / ٢١٦. "انظر تفاصيل أوفى في فصل تقدّمت : تقدّمات الوصف"

٢ـ الزّرزور : طائر أزرق الأعلى أبيض البطن، طائر صغير حقير أعلى الرّأس.

" شخصٌ من الطُّيور يُعْرَفُ بالزَّرْزُور، أقام لدينا أيّام التَّحسير[1]، وزمانَ التبلُّغ بالشُّكير[2]، فلما وافى ريشُه، ونَبَتَ بأفراخِه عُشوشُه، أزمعَ عنّا نُطوعا، وعلى ذلك الأفق الدُّنْدن تدلّياً ووقوعا، رجاء أن يَلْقَى في تلك البساتين مَعْمَرا[3]، وعلى تلك الغصون حبّاً وثمراً، وأنت بجميلِ تأتِّيك، وكَرَمِ معاليك تصنعُ له هنالك وُكُونا، وتستمع من نَغَمِ شُكْرِه على ذلك أغاريدَ ولُحونا"[4].

تُظهِر هذه الرِّسالة مبلغ ما وصل إليه فنُّ الوصف لدى الأندلسيّين من القيمة الفنيّة والخصائص الأسلوبيّة، فقد استثمروا هذا الفنَّ فجعلوا له مقاصدَ أخرى غير الوصف المجرَّد، وصرفوه إلى التفكُّه أو الشَّفاعة أو الوساطة، وهذا دليلُ مهارتهم في عَطْفِ أعناقِ الوصفِ ليؤدّيَ الأغراضَ التي يريدونها منه.

نلاحظ في رسائل الوصف براعةَ الأندلسيّين في تصوير الموصوفاتِ، فتبدو الموصوفاتُ المجرَّدة في صورٍ ناطقةٍ بنَبْضِ الحياة وجَلَبَةِ الحركة، ونلاحظ أيضاً قدرتهم على الإبداع في الإسقاط الفنيّ للموصوف على غيره، في صورٍ تشخيصيّة بديعة، وبذلك تختلط صورة الإنسان ببعض الصُّور المختلفة للكائنات الحيّة الأخرى، فيبدو الزَّرجسُ مُنادِما لسيّده، أو يبدو الطَّير مُستَرْجِعاً بين يَدَيِ وَلِيّ نِعْمَتِه.

---

١ أيام التحسير: أوان إلقاء الزرع للتقديم

٢ الشكير: الزغب.

٣ معمراً: منزلاً.

٤ ابن بسام/الذخيرة: ٢ / ١/ ٣٤٧.

ب–الرّسائل القصصيّة :

تقوم الرّسائل على عنصر الحكاية، وتختلف في تناول موضوعاتها، وتعدُّ هذه الرّسائل ثروةً تراثيّةً حقيقيّةً، لأنّها تطلعنا على أمثلةٍ لفنّ القصّ الخالص عند الأندلسيّين ، ولاسيّما أنّ القصّ في هذه الرّسائل يقوم على عنصر الخيال ، إضافةً إلى عناصر الحدث والسّرد والحوار وتحديد البيئة المكانية ورسم الظّرف الزّماني للأحداث . وندرس من هذه الرّسائل رسالتي (التّوابع والزّوابع) ، و(حي بن يقظان) .

رسالة التّوابع والزّوابع[1]

أرسل ابن شُهيد ، أديبُ الأندلس المعروف إلى صديقه أبي بكر بن حزم رسالةً ، نهج فيها نهجاً متميزاً، إذ كانت رحلة إلى عالم آخر فيه التابع وفيه الشيطان، وأول ما يبدو لنا في مدخلها نهجُ ابن شهيد في خطابه لصديقه أنه: "أوتي الحكم صبياً، وحزّ يجذع نخلة الكلام، فاسّاقط رطباً جنياً"[2] . وجعل رسالته في مدخل وأربعة فصول :

المدخل

يذكر فيه لصاحبه أبي بكر بن حزم كيف التقى بجنّية زهير بن نُمير، وكيف تأكدت بينهما الصحبة ، " لله أبا بكر ظنٌّ رميتَهُ فأصميْتَ، وحرسٌ أملتَهُ فما أشويْتَ[3]، أبديت بها وجة الجنّيّة، وكشفت عن غُرّة الحقيقة ، حين ضمّت صاحبك الذي تكسّبْتَهُ ، قد أخذ بأطراف السماء، فألّف بين قسريها، ونظّم فرقديها، فكلّما رأى ثُغْراً سدّهُ بسهاها[4]، أو لمح خرْقاً رمّه بإبانا[5] " [6].

---

١ ..رسالة مشهورة في الأدب الأندلسي، تصدى في التأليف على رسالة الغفران أبو العشرين سنة، والتوابع جمع تابع وتابعة، هاتفين جنّي والتابعة جنيّة يكونان مع الإنسان يتبعانه حيثما ذهب، والزوابع: جمع زوبعة وهو اسم شيطان مارد أو رئيس من رؤساء الجن، وهو اسم لبعض الأعصار أيضاً.

٢ ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع: ٨٧.

٣ أصميت: أي رميت فأثبتّ الصيد في مكانه. ما أشويت: ما أخطأت، الشوى: الخطأ. يقال أشوى: أصاب شواة أي أطراف، لا مقتلاً.

٤ السها: كوكب خفي، يجاور المقنب، كانوا العرب يختبرون به أبصارهم.

٥ رقد: أصلحه. الرباني: واحد من الربانيين، وهم كواكبان يران في شرق برج العقرب، معترضان بين الشمال والجنوب، بينهما قيد رمح يزولان المغرب في ليلة فتسابقا عليه.

٦ ابن شهيد ، التوابع والزوابع :٨٧.

الفصل الأول

توابع الشعراء

يذكر فيه توابع الشعراء من جاهليين كامرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وعباسيين كأبي تمام والبحتري وأبي نواس وأبي الطيب المتنبي.

شيطان امرئ القيس

" تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقلت: هل حيلةٌ في لقاء من اتفق منهم ؟ قال : حتى أستأذِنَ شيخنا . وطار عني ثم انصرف كلمح بالبصر، وقد أذِنَ له ، فقال: حُلّ عنى مانِ الجواد. فصرنا عليه؛ وسار بنا كالطائر يجتاب الجوّ فالجوّ، ويقطع الدّو فالدّو، حتى النسحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جواً لا كجوّنا، متفرّعَ الشّجر، عَطِرَ الزّهَرِ ، فقال لي: حلّلتَ أرضَ الجنّ أبا عامر، فيمن تريد أن نبدأ ؟ قلت: الخطباء أولى بالتقديم..." [1]

شيطان طرفة :

" فقال لي زهير: مَنْ تريدُ بعْدُ؟

قلت: صاحبَ طَرَفة. فجزعنا [2] وادي عُتَيْبَةَ ، وركضنا حتى انتهينا إلى غَيْضَةٍ شَجَرُها شجران: سامٌ · يفوحُ بهاراً ، وشِيحٌ، يَعْبَقُ هنديأوغاراً " [3].

شيطان قيس بن الخطيم :

---

١ -ابن شهيد ، الرسالة : ٩١

الدّو: الفلاة.

٢ المصدر نفسه : ٩٢

السام: الدوم.

البهار: نبت طيب الرائحة يبدو أيام الربيع ويذال له الغزال.

والشيح يعبق هندياً : نوع من العنبر الهندي طيب الرائحة .

" فقال لي زهير: إلى من تتوقُ نفسُك بعدُ من الجاهليين؟

قلتُ: كفاني من رأيتُ؛ اصْرِفْ وجْهَ قصدنا إلى صاحبِ أبي تمام. فركضْنا ذاتَ اليمين حيناً، ويشتدُّ في إثرنا فارسٌ كأنه الأسَد، على فرسٍ كأنها العُقاب وهو في عدوه ذلك ينشد:

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ لها نَفَذٌ ، لولا الشعاعُ أضاءها " [1]

صاحب أبي تمام :

" ثم انصرفْنا وركضْنا حتى انتهينا إلى شجرةٍ غَيْنَاء يتفجّر من أصلها عينٌ كمثلةٍ حوراء. فصاح زهيرٌ: يا عتّابُ بنَ خَبْناء، حلّ بك زهيرٌ وصاحبُه فبعمْرٍو والقمرِ الطالعِ، وبالرُّقعةِ المفكوكةِ الطّابع. إلا ما أريْتَنا وجهك! "[1].

صاحب البحتري :

"ثم قال لي زهير: من تريدُ بعده ؟ قلتُ: صاحبَ أبي نُواس ، قال: هو بدَيْرِ خَنّة منذ أشهر ، وقد غلبت عليه الخمر، ودِيرُ خَنّة في ذلك الجبل"[2] .

صاحب أبي نواس :

"فضربَ زُهيرُ الأدْهمَ بالسّوط فسار بنا في قُنّنه ، وسرنا حتى انتهينا إلى أصلِ جبلِ دَيرِ خَنّة فشقَّ سمعي قرعُ النّواقيس، فصحتُ: مِنْ منازلِ أبي نواس وربِّ الكعبةِ العذراء!"[3].

صاحب أبي الطيب :

١ـ ابن شهيد ، الرسالة : ٩٨

٢ـ المصدر نفسه : ١٠٤

ـ دير خنة: دير قديم بالجزيرة. وزهير هنا ما يفتأ في العالم الآخر.

٣ـ ابن شهيد ، الرسالة : ٩٣

ـ القنن: ج قُنّة، وهي الجبل الصغير السهل.

٤ ـ ابن شهيد ، الرسالة : ١١١

ـ الحوازيم: جمع الحيزوم وهو ما استدار بالصّهم والبطن، يقال: شد للأمر حيازيمه، أي استعد له وتهيأ.

"فقال لي زهير: ومن تريد بعدُ؟ ، قلت له: خاتمةَ القومِ صاحبَ أبي الطيب ، فقال: اشدُد حيازيمَك، وعطِّر له تسومَك، وانثُر عليه نجومك. وأمالَ عنانَ الأدهم إلى طريقٍ، فجعل يَرْكُضُ بنا، وزهيرٌ يتأملُ آثارَ فرسٍ فهناها هناك" [1].

الفصل الثاني
توابع الكتّاب

يذكر فيه لقاءه مع الكتاب ويدعوهم بالخطباء ويلتقي بتوابع الجاحظ وعبد الحميد الكاتب فيؤاخذه على شغفه بالسَّجْع فيدافع عن نفسه، ولكن صاحب عبد الحميد يمعن في تأنيبه وتعنيفه، فيأخذ، أبو عامر عليه بَداوة أسلوبه، فيبتسم له ويُياسطه، ثم يقرأ عليهما رسالة الحلواء فيضحكان منها، ويبديان استحسانهما، وبعد تشكيّه من حُسّاده والطاعنين عليه عند الخليفة المستعين كأبي القاسم الإفليلي وخصامه مع تابعه يتدخل بينهما صاحبُ بديع الزمان الهمذاني فيعارضه أبو عامر بن شهيد في وصف الماء، حتى يخجله، ثم يُجيزه تابعا الجاحظ وعبد الحميد شاعراً وخطيباً ويقرّان له بالنبوغ.

صاحبا الجاحظ وعبد الحميد :

"فقال لي زهير: من تريد بعدَه؟ فقلت: مِلْ بي إلى الخُطَباء. فقد قضيتُ وَطَراً من الشُعراء . فركضنا حيناً طاعنين في مَطْلَعِ الشمس ولقينا فارساً أسرَّ إلى زُهير وانجزعَ عنا[1] ، فقال لي زهير: جُمعتْ لك خُطَباءُ الجِنّ بمَرْجِ دُهْمان وبيننا وبينهم فرسخان فقد كُفيتَ العناءَ إليهم على انغمادهم. قلتُ: لِمَ ذاك؟ قال: للفرق بين كلامَيهن الختلفَ فيه فتبانُ الجِنّ"[2].

١- انجزع عنا: أي انقطع عنا.

٢- ابن شهيد، الرسالة : ١١٥

٣- وصف الماء، ابديع الزمان في المقامة المضرية

صاحب بديع الزمان:

"فقلتُ لزهير: من هذا؟ قال: زُبْدةُ الحِقَبِ، صاحبُ بديع الزمان. فقلتُ: يا زُبدَةَ الحِقَبِ، اقترِحْ لي. قال صِفْ جارية. فوصفْتُها. قال أحسنتَ ما شئتَ أن تحسنَ! قلتُ: أسمعني وصفَكَ للماء[1].

قال: ذلك من العُقْم[1]. قلت بحياتي هاتِه. قال: أزرقُ كعين البِلّور، صافٍ كقضيب البلّور؛ الشَّحب[2] من الفرات[3] واستعمل بعد البيات[4]، فجاء كلسان الشّمعة، في صفاء الدمعة.

فقلت: انظره، يا سيدي، كأنه عصيرُ صباح، أو ذوبُ قمرٍ لياح[5]، بنصبٌ من إنائه، انصبابَ الكوكبِ من سمائه. العينُ[6] حانوتُه، والفمُ عفريتُه، كأنه خيطٌ من غَزْلِ مُلِقّ، أو مِخْصرٌ يُضْرَبُ به من وَرِقٍ[7]، يُرْفَعُ عنكَ فتردّى[8]، ويُصْدَعُ[9] به قلبُك فتحيا.

فلما انتهيتُ في الصّفةِ، ضَرَبَ زُبْدةُ الحِقَبِ الأرضَ برجله، فانفرجت له عن مثل بَرْهُوت[10] وتدهْدى[11] إليها، واجتمعتْ عليه، وغابتْ عينُه، وانقطع أثرُه. فاستضحكَ، الأستاذان من فِعله، واشتدّ غيظُ أنفِ الدّاقةِ عليّ" [12].

---

١ ـ ابن العقم: الذي لا يولد شبيه له.

٢ ـ الشحب: في اللغة الصبوة الساقي.

٣ ـ الفرات: الماء العذب أو نعته. أريد به دجلة. يقال الفرات أي الفرات ودجلة.

٤ ـ البيات: مبيت الماء في إناء تحت السماء ليبرد ويصفو.

٥ ـ لياح: لامع.

٦ ـ العين: أي عين الماء.

٧ ـ المخصر: رواية بنية الدهر: المخصرة، وهي قضيب الأمير يأمره به، يشير به ويصل به كلامه. الورق: الفضة.

٨ ـ تردى: أي تمثل عطشاً.

٩ ـ يصدع: يشق.

١٠ ـ برهوت: واد أو بئر بحضرموت.

١١ ـ تدهدى: تدحرج.

١٢ ـ أنور شهيد، الرسالة: ١٢٨-١٢٩.

الفصل الثالث

نقاد الجنّ

وهو بمثابة مجلس أدب يعقده الجن ويحضره ابن شهيد مع صاحبه، يدور فيه الكلام حول بيت للنابغة لم يدرك الشعراء معناه، فينشد بعض الجن أبياتاً في ذلك المعنى يتسامى بها على النابغة، وهي لأبي عامر فيثبت بذلك تفوّقه ومقدرته، ويبحث الجنّي في الطريقة التي تحسن بها سرقة الشعر دون الافتضاح، وسأل ابن شهيد أن ينشدَه كلاماً يرعى بلاغ الفصاحة ككلام أبي الطيب، فيفعل، ولكن يُنشده أمثلة على ذلك من قصائده وأشعار أجداده وأبيه وعمّه وأخيه!

مجلس أدب :

"وحضرتُ أنا أيضاً وزُهم مجلساً من مجالس الجنّ فتذاكرنا ما تعاورتْهُ الشّعراءُ من المعاني ومن زاد فأحسن الأخذ، ومن قصّر. فأنشد قولَ الأفوه بعضُ من حضر:

وترى الطّيرَ على آثارنا رأيَ عينٍ ثقةً أنْ ستُمارْ[1]

وأنشد آخر قول النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طيرٍ تهتدي بعصائب

تراهنّ خلف القوم خزراً[2] عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب[3]" [4]

١- ستمار: أي ستعطي ميرتنا من جثث القتلى.

٢- خزر: جمع الأخزر، وهو الذي نظر بؤخر عينه.

٣- المرانب: ثياب سود تُلبس في الحبرة من جارة الأرانب، يشبّه السود وسوادها من الوحوح، وما عليها من الريش، بشيوخ عليها الغرانيق.

٤- ابن شهيد: الرسالة: ١٣٢

الفصل الرابع
حيوان الجن

"ومشيتُ يوماً أنا وزهير بأرض الجنّ أيضاً نتفرى الفوائد ونعتمدُ أندية أهل الآداب منهم، إذ أشرفنا على قُرارةٍ [1] غَنّاء ، تفتَرُّ عن بركةِ ماء. وفيها عانةٌ [2] من خُمُرِ الجنّ وبغائِم قد أصابها أولَقٌ [3] فهي تصطكُّ بالحوافر وتنفخ من المناخر... فلمّا بَصُرتْ بنا أجفلت إلينا وهي تقول: جاءكم على رجليه "[4]، وقد حدث خلاف بينها في شعرين لحمار وبغل من عشاقها، فتدعوه ليحكم بينهما فيتعرّف بغلة أبي عيسى، ويتحدث إليها ويتذكران دار الأنس .

"وكانت في البركة بقُربنا إوزّةٌ بيضاءُ شهلاءُ في مثلِ جُثمانِ النّعامة، كأنّما ذُرَّ عليها الكافور، أو لبستْ غِلالةً من دِمَقْسِ الحرير، لم أرَ أخفَّ من رأسها حركةً، ولا أحسنَ للماء في ظهرها صَبْباً، تثني سالفتَها، وتكسِرُ حدقتَها، وتُلَوليبُ قمحْدورتَها [5] فترى الحُسنَ مستعاراً منها، والشكلَ مأخوذاً عنها" [6] وكانت الإوزّة تابعة لبعض شيوخ اللغة ،تريد مناظرته في النحو والغريب ، فيردعها ويذكّرها بسخفها وحمقها ،إذ عُرف الإوز عند الناس بحمقه وسخفه، كما ذهب إلى ذلك أيضاً أبو العلاء المعري مقتدياً بأبي عامر. وهذا القسم هو آخر ما بلغنا من رسالة التوابع والزوابع ويبدو أن هناك أجزاء أخرى لم تبلغنا وهي مفقودة وإلى اليوم لم يُعثر على مخطوط تام لهذه الرسالة المهمة.

أما هذه الرسالة وفق ما أوردها ابن بسام فهي ثلاثة أقسام:

الأول: لقي فيه شياطين الشعراء والكتّاب، وحاول هنا أن يبرز تفوقه على أهل بلده من الأندلسيين.

الثاني: تناول فيه موضوع تعاور المعنى الواحد (السرقات الأدبية).

الثالث: المفاضلة بين حمار وبغل من عشاق الجنّ.

وتضم الرسالة الكثير من شعر ابن شهيد، الذي يشهد بشاعريته وتفوقه.

---

١ القرارة: المطمئن من الأرض، والقاع المستدير، هنا: كثرة العشب.

٢ العانة: القطيع من حمر الوحش.

٣ الأولق: المعتوه أو شبهه.

٤ ابن شهيد ، الرسالة ١٤٧.

٥ والقمحدورة: أعلى القذال، وهو عظم في قاع الرأس، يصيب الأرض إذا استلقى الرجل.

٦ ابن شهيد ، الرسالة :١٤٩- ١٥٠

رسالة حي بن يقظان*

تتضمن رسالة ابن طُفيل قصّة غلام ،أسماه (حي بن يقظان) ، وُلِدَ من دون أمّ وأب، وفي ذلك استلهامٌ لقصّة خلْق آدمَ عليه السلام ، وقيل إنّه ابنٌ لأميرةٍ حسناءَ، منعها شقيقُها الملك من الزّواج، لكنّها تزوّجت سرّاً من قريبٍ لها، وحملت منه بـ(حي)، ولما وضعَتْه خشيَتْ أن يقتلَه أخوها، فوضعَتْه في تابوت، وأغلقَتْه، ثمّ دفعته في البحر، وفي ذلك استلهامٌ لقصّة النّبي موسى عليه السلام .

ألقى البحر بحي في جزيرة مهجورة من جزر الهند" ولم يكن بتلك الجزيرة شيءٌ من السّباع العاديّة ". وسمعت بكاءه ظبية فقدَتْ ولدَها ، فعطفت عليه، وأرضعَتْه من ثديها ، فَدَرَّ عطفُها على هذا الوليد[1]: " فتربّى الطّفل وغا، واغتذى بلبن تلك الظّبْيَة، إلى أنْ تمّ له حولان، وتدرّج في المشي وأثغر، فكان يَتْبَعُ تلك الظّبْيَة، وكانت هي ترفق به وترحمه، وتحمله إلى مواضعَ فيها شجرٌ مثمرٌ، فكانت تطعمُه ما تساقط من ثمارِها الحلوة النّضيجة، وما كان منها صَلْبَ القشر كسَرَتْه له بطواحنها، ومتى عادَ إلى اللّبن أرْوَتْه"، ونما الطّفل، و بدأ التّأمّل ملاحظاً الفرق بين خَلْقِه وخَلْقِ أمّه الظّبْيَة، [2] و"كان يرى أترابَه من أولاد الظّباء قد نبَتَتْ لها قرون بعد أن لم تكن، وصارت قوّيةً بعد ضعفها في العَدْوِ، ولم ير لنفسه شيئاً من ذلك، فكان يفكّر في ذلك، ولا يدري ما سببه "

وبدأ يكتسب المعرفة ممّا حوله، وينتقل من الطّفولة السّاذجة إلى مرحلة الوعي، ويتّقدُ إلى المعارف من خلال الحدس والبصيرة ، ثم ينتقل إلى المعرفة بالخبرة، فلمّا وصل إلى سنّ العقل والرُّشد أحاط بالطّبيعة من حوله، فصار يتّخذ الوسائل للحصول على الغذاء، ويبحث من خلال ذلك عن أثر الغذاء في جسمه، وأصل نشأة ذلك الغذاء، فعرف شيئاً من حقائق الطّبيعة، ثمّ هداه التّأمّل إلى أنّ كلّ ما في الوجود لابدّ له من خالق ، هو أصلُ الكون، وإليه يَرْجِعُ تنسيقُ نظامِه، وإحكامُ صَنْعَتِه، إلى أنْ وصلَ إلى حقيقة الوجود، وذابَ في مشاهدة الحقّ بالبصيرة، وأدرك أنّ هنالك جانباً خفيّاً من الكون لا يحدث الكون من دونه، ولا يدركه البصر، إنّما يدلُّ عليه العقل[3]: " فلمّا حصل له العلم بهذا الموجود الرّفيع الثّابت الوجود، الذي لا سبب لوجوده، وهو سببٌ لوجود جميع الأشياء، أراد أنْ يَعْلَمَ بأيّ شيءٍ حصلَ

---

١ – ابن طفيل، حي بن يقظان: ١٢٨.

٢ المصدر نفسه: ١٢٠.

٣ المصدر نفسه: ١٧٨.

له هذا العلم، وبأيّ قوّةٍ أدرك هذا الموجود" ،فمن ذلك ما نجده مثلاً في وصف مشهد موت الطّيبة وأثره في نفس (حي)[1]:

" أدركها الموتُ، فسكنتْ حركاتُها بالجملة، وتعطّلت جميع أفعالها، فلمّا رآها الصّبيُّ على تلك الحالة جزع جزعاً شديداً، وكادَتْ نفسُه تفيض أسفاً عليها، فكان يناديها بالصّوت الذي كانت عادتها أن تجيبَه عند سماعِه، ويصيح بأشد ما يقدر عليه، فلا يرى لها عند ذلك حركةً ولا تغيُّراً"،

ويقف ابن طُفيل هنا عند فلسفة الموت بعد أنْ وقفَ على الدّفقِ العاطفيّ الشّعوريّ لبطل القصّة (حي)، كما يقف أيضاً عند فلسفة الأمومة، فهل الأمومة ولادة جسدٍ لجسدٍ أمْ علاقةُ روحٍ عاطفةٍ على روح؟ ويرى أنّ الجسد بحبائه هو مصدر فعل العطف ومنبع مخزون الحنان[2]: " وتشتّت فكره في ذلك كلّه وسلا عن ذلك الجسد وطرحه، وعَلِمَ أنّ أمّه التي عطفتْ عليه وأرضعَتْه إنّما كانت ذلك الشّيء المرتحل، وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلُّها، لا هذا الجسد العاطل"[3].

ثمّة سمتان بارزتان في هذه الرّسالة القصصيّة؛ تتعلّق الأولى بالمضمون ، فهي رسالةٌ قصصيّة تحكي سيرة المعرفة الإنسانيّة، وتتّسم بفرادة الفكرة وجدّتها، لأنّ ابن طُفيل أراد أن يصل من خلالها القصصيّة إلى حكاية ارتقاء الإنسان في المعرفة اعتماداً على: المعرفة بالحدس، ثمّ المعرفة بالتجربة، ثمّ المعرفة بالخبرة ، وهذه من دلالات الفكر الفلسفيّ الإسلاميّ شبهاً كثيراً.

وتتعلّق الثّانية بالأسلوب،ومن أبرز صفاتها الأسلوبيّة تلك اللغة السّرديّة القصصيّة الفلسفيّة، لكنّ هذه اللغة لا تعدمُ فيض الوجدان في كثيرٍ من أحداثها، وفي خلوصها من السّجع كلّه، وهذه ظاهرةٌ جديرةٌ بالوقوف عندها، ويبدو أنّ ابن طُفيل قد انشغل بهذه الفكرة الفلسفيّة انشغالاً عظيماً صرَفَه عن الاهتمام بالشّكل اللفظيّ، فكان سمو الغاية لديه شاغلاً عن مظاهر العناية بالسّجع. وقد تركَتْ هذه الرّسالة القصصيّة أثراً كبيراً في الآداب الغربيّة ، وفي التّراث الإنسانيّ ، فاستلهمَ بعضُ أحدائها (دانيل ديفو) في قصّتِه المشهورة (روبنسن كروزو).

---

1 المصدر نفسه: ١٢٣.

2 المصدر نفسه: ١٢٨.

ج-الرَّسائل الأدبيَّة التَّأليفيَّة

نعلم أن بعض المؤلَّفات اصطُلِح عليها باصطلاح الرَّسائل، وقد جرى ذلك الاصطلاح لدى المشارقة والأندلسيِّين على حدٍّ سواء، والرِّسالة في هذا المعنى تدلُّ على كتابٍ مصنَّفٍ في فرعٍ من العلوم، وليس هذا مجالُ دراسة الرَّسائل العلميَّة، فدراستنا للنَّثر الأدبيِّ بعيدة عن هذا الغرض، لكنَّنا لا نستطيع أيضاً أن نتجاوز نمطاً من الرَّسائل المصنَّفة في أغراضٍ أدبيَّة، ونصطلح على تسمية هذه الرَّسائل بالرَّسائل الأدبيَّة التَّأليفيَّة، وبذلك يتَّضح قصْدُنا من مفهوم (التَّأليفي) في عنوان هذا النَّوع من التَّرسُّل.

تقوم الرَّسائل الأدبيَّة التَّأليفيَّة على استقصاء موضوعٍ ذي صلةٍ وثيقةٍ بالأدب، فتعالجه وتُفصِّل فيه، ونضرب مثالاً لهذا النَّوع رسالة ابن حزم (طوق الحمامة في الألفة والآلاف).

طوق الحمامة في الألفة والآلاف [1]

هذه الرسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه، كتبها : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ت٤٥٦هـ بتكليف من الأمير عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر، وكان صديقاً له. وجعل رسالته في ثلاثين باباً هي:[2]

-عشرة في أصول الحب.

-اثنا عشر باباً في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة.

-ستة أبواب في الآفاق الداخلة على الحب.

-بابان. ختم بهما الرسالة ، الأول: الكلام في قبح المعصية، والثاني: في فضل التعفف.

ويلاحظ أن هذه الرسالة صورة حية عن عالم ابن حزم النفسي، ولعله بذلك سبق كثيراً كتّاب السير الذاتية ، وكتّاب أدب الاعترافات...، وأن هذه الرسالة تضم قسماً كبيراً من شعر ابن حزم.

والأسلوب المرسل الذي اتسمت به هذه الرسالة، فهو مباشر دونما لفٍ أو دوران، ومع جمال أسلوبه الفني فإنه كان يجتنب الاستطراد والمحسنات اللفظية إلا ما جاء عفو الخاطر.

---

١ -ابن حزم طوق الحمامة ، تح حسن كامل الصيرفي، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٦٤م.

٢ المصدر نفسه، المقدمة : ٢-٤

"ومن حميد الغرائز، وكريم الشيم، وفاضل الأخلاق في الحب وغيره الوفاء. وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر، يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات، وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعال كلّ امرئٍ تنبي بعنصره ... والعينُ تُغنيك عن أن تطلبَ الأثرا

ومنها: وهل ترى قطُّ دِفْلى[1] أنبتت عنباً ... أو تذخرُ النحلُ في أوكارها الصَّبِرا

وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم وحقّ واجب على المحبّ والمحبوب، ولا يحول عنه إلا خبيث المختار لا خلاق له، ولا خير عنده. ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان وصفاته المطبوعة والتطبّع بها، وما يزيد من المطبوع والتطبّع وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع، لزدت في هذا المكان ما يجب أن يوضع في مثله، ولكنّا إنّما قصدنا التكلّم فيما رغبْتَهُ من أمر الحبّ فقط، وهذا أمر كان يطولُ جداً، إذ الكلام فيه يُتفنّن[2] كثيراً[3].

ثم ينتقل ابن حزم بعد هذا البيان للوفاء وحدّه، وأول مراتبه إلى إيراد خبر مما رآه رأي العين، جرياً على عادته في كل باب، فإنه يعرّف الصفة المحمودة أو المذمومة ثم يأتي بشيء من شعرٍ له فيها، ثم ينتقل إلى عضد رأيه بخبر مما شاهد أو مما سمع فيقول: "ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء في هذا المضمار وأهوله[4] شأناً قصّةٌ رأيتُها عياناً، وهو أني أعرف من رضيَ بقطيعة محبوبه وأعزّ الناس عليه، ومن كان الموت عنده أحلى من هجرِ ساعةٍ في جنْب طيّه لسرٍّ أودعَهُ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألاّ يكلّمه أبداً، ولا يكونَ بينهما خبر، أو يفضحَ إليه ذلك السرّ، على أن صاحب ذلك السرّ كان غائباً، فأبى من ذلك وتمادى هو على كتمانه، والثاني على هجرانه إلى أن فرّقت بينهما الأيام.

١- الدِّفلى: شجيرة من أشجار الزينة.

٢ المعتاد: الأصل

٣- يتفنن: يأتي بالنوع

٤ ابن حزم: طوق الحمامة: ٧٨

٥- أهوله: أعظمه.

ثم مرتبة ثانية: وهو الوفاء لمن غَدَر، وهي للمحبِّ دون المحبوب، وليس للمحبوب ها هنا طريق، ولا يلزمه ذلك، وهي خُطَّةٌ[1] لا يُطيقها إلا جلْدٌ قوي، واسعُ الصّدر، حرُّ النّفس، عظيم الحِلم، جليلُ الصّبر، حصيفُ العقل، ماجد الخُلُق، سالمُ النيّة.

ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة، ولكن الحال التي قدمنا نفوقها جداً وتفوتها بعداً، وغايةُ الوفاء في هذه الحال تركُ مكافأة الأذى بمثله، والكفُّ عن سيئ المعارضة بالفعل والقول، والتأني في جَرّ حبل الصُحبة ما أمكن، ورُجبت الأُلفة، وطُمع في الرّجعة، ولاحت للعودة أدنى مَخيلة[2]، وشيمت منها أقلُّ بارقة، أو توجّس منها أيسر علامة..."[3].

"ثم مرتبة ثالثة: وهي الوفاء مع اليأس البات، وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون، وإن الوفاء في هذه الحالة لأجلُّ وأحسن منه في الحياة، مع رجاء اللقاء"[4].

ويختم هذا الباب ببعض من شعره في الوفاء عامة [البسيط]:

"ولّى ، فولّى جميلُ الصّبر يتبعُهُ ... وصرّح الدّمعُ ما تخفيه أضلعُهُ
جسمٌ ملولٌ وقلبٌ ألفٌ ، فإذا ... حلّ الفراقُ عليه فهو موجعُهُ
لم تستقرّ به دارٌ ولا وطنٌ ... ولا تدثّأ منه قطّ مضجعُه
كأنّما صيغ من زُهْو السّحاب فما ... تزال ريحٌ إلى الآفاق تدفعُه
كأنّما هو توحيدٌ تضيقُ به ... نَفْسُ الكَفُور فتأبى حين تودَعُهُ "[5]

١-الخطة: الطريقة.
٢-المخيلة: العلامة.
٣-ابن حزم، طوق الحمامة:٧٨، ٧٩
٤-المصدر نفسه: ٨٠.
٥-المصدر نفسه: ٨٢

وفي نهاية دراستنا لفنّ الرسالة يمكننا القول : إنّ فنّ الرّسائل في الأندلس لا يحيط به سِفْرٌ لطيف، إذ مِنْ حقّه أن يختصّ بتواليف عظيمة، لكنّنا أردنا أن نقف القارئ على شيءٍ من أنواع الرّسائل الأندلسيّة على نحوٍ من الإيجاز والشّمول.وعلى الرّغم من اختلاف السّمات الخاصّة لكلّ نوعٍ من أنواع الرّسائل الأندلسيّة عن غيرها، إلا أنّه في الإمكان أن نسجّل هذه **السّمات العامّة** لهذا الفنّ، وأهمّها:

-تنوّعت الرّسائل الأندلسيّة وتعدّدت أغراضها، وقد شملت كثيراً من جوانب الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة وغير ذلك.

-ظهر السّجع في كثيرٍ من الرّسائل الأندلسيّة، إلا أنّنا نجد هذه الظّاهرة معدومةً أو خافتةً في رسائل التّأليف الأدبيّ، مثل (طوق الحمامة) وبعض الرّسائل القصصيّة، مثل (حي بن يقظان).

- رسمت الرّسائل الدّيوانيّة صورة للحياة السّياسيّة في الأندلس، وقدّمت أمثلةً للمُرْسَل الرّسميّ، وهو ترسّل تغيب عن كثيرٍ من نماذجه نوازعُ الوجدان والانفعال العاطفيّ، بسبب ما تفرضه الكتابة الدّيوانيّة من قيود المخاطبات الرّسميّة، على نحو ما نجد على سبيل المثال في رسائل التّولية أو العزل، أو رسائل المراسيم والأوامر الإداريّة.

-تفتح الرّسائل الذّاتيّة مساحة واسعةً للتّعبير الوجداني، وقد ظهر ذلك في الرّسائل الإخوانيّة، التي ترسم صورة للعلاقات الاجتماعيّة بين الأدباء ، كما في رسائل العتاب والتّهادي والتّشوّق إلى الخلاّن، إضافةً إلى رسائل الشّكوى من الدّهر، ورسائل الاستعطاف، وتظهر في نماذج من تلك الرّسائل روح الفكاهة التي عرف بها الأندلسيّون ولا سيّما في رسائل السّخرية والتّهكّم، مثل (الرّسالة الهزليّة) لابن زيدون.

-أظهر فنّ الرّسائل الأندلسيّة اهتمامَ الأندلسيّين بالجانب الرّوحيّ في حياتهم، وذلك من خلال ما عالجَتْهُ الرّسائل الدّينيّة التي كشفت الارتباط الوثيق للأندلسيّين بالدّين، وقد ظهرت في نثرهم أنواعٌ من هذه الرّسائل لها خصوصيّتُها الأدبيّة، ومنها رسائل الوعظ ورسائل التّشوّق النّبويّة، ورسائل التّحميد.

-برع الأندلسيّون في رسائل وصف الطّبيعة الصّامتة والحيّة، وقد أعانهم على ذلك جمال الطّبيعة الأندلسيّة وغنى مظاهرها، فضلاً عن حسٍّ مُرْهَفٍ في الوصف، ومَلَكَةٍ لغويّةٍ أدبيّةٍ أعانتهم في أساليب التّعبير .

-يسجّل للأندلسيّين عند دراسة فنّ الرّسائل عنايتهم بالجانب القصصيّ، وبرزت في ذلك قصص تقوم على استلهام الخيال، وتقوم أحداثها على الطّريف من الأساطير المتخيّلة، من مثل (التّوابع والزّوابع)، أو على الفكر الفلسفيّ الذي يستمدّ مادّته من الأحداث المتخيّلة غير الواقعيّة، من مثل (حي بن يقظان).

تبرز هذه الرّسائل عناية الأندلسيّين بتنوُّع موضوعات التّرسُّل، مع الاهتمام بأساليب التّعبير الفنيّ أيضاً، من خلال الاستعانة بأنماط التّصوير الفنيّ، فضلاً عن استلهام أساليب المعاني على صعيدي اللفظ والتّركيب.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثالث

فن المقامات

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد

استمدت المقامة دلالتها من معناها اللغوي[1] ، من قام قوما وقياما وقومةً : أي انتصب واقفا ، فالقيام نقيض الجلوس ، والمقامة (بضم الميم وفتحها) تعني الكلام الأدبي النثري الذي يؤديه الراوي في مكان الإقامة أمام حشد من الناس، ويلعب فيه دور القاص أوالمسرحي أو الواعظ.

واستُخدمت كلمة المقامة في الشعر الجاهلي مراراً ، فدلّت على معانٍ مختلفة ، فالشاعر سلامة بن جندل يشير بها إلى يوم الراحة مقابل يوم القتال :

يومان: يومُ مقاماتٍ وأندية ويومُ سَيرٍ إلى الأعداء تأويبِ[2]

والشاعر مالك بن خريم الهمداني يصف صاحب المقامة ، فيقول:

وأقبل أخوان الصفاء فأوضعوا إلى كلّ أحوى في المقامة أفرعا[3]

أمّا زهير بن أبي سُلمى فيحدثنا عن هيئةالجماعة وجمالهم :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ[4]

إلى غير ذلك من الدلالات التي لا تعدو حدود ما ذكرناه من أركان الكلام (المتكلّم والمتلقي و الرسالة) .

---

١ - "لسان العرب" و" أساس البلاغة "والوسيط : مادة : قوم ، وسيبويه : "الكتاب" ، ط باريس ١٨٨٥ ٢/ ٢٦٢ : و القالي " الأمالي " ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٣ : ١/ ٩٥ وابن سيدة " المخصص" ، المكتب التجاري ، بيروت ١٣٢١هـ: ٤/ ١٨٠

٢-المفضل الضبي المفضليات : تحقيق شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص١٤٠ التأويب : سير يوم كامل إلى الليل

٣ - "الأصمعيات" : تحقيق احمد شاكر وعبد السلام هارون ، نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٤ص٦٣

٤-"ديوان" شرح ديوان زهير" : ص١١٣

ووردت اشتقاقات كثيرة لكلمة مقامة في القرآن الكريم ؛ دالةً على معانٍ مختلفة في ثماني عشرة مرّة ، لا تبتعد كثيراً عن المعاني الواردة في الشعر الجاهلي ، إلا في الإشارة إلى المعاني الدينية ، مثل قوله تعالى : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [1]، وقوله جلّ جلاله : ﴿الذي أحلّنا دار المقامة من فضله﴾ [2] ...

وفي القرن الثالث الهجري أشهر الجاحظ ت٢٥٥هـ مصطلح المقامات ، عندما خصّ الشعراء بفصلٍ في كتابه : (البيان والتبيين) ، أسماه : " كلام في مقامات الشعراء في الجاهلية والإسلام " [3].

وفعل ابن قتيبة ت ٢٧٦ في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري صنو فعله ، فدوّن فصلاً في كتابه : (عيون الأخبار) ، أسماه : " مقامات الزهّاد عند الخلفاء والملوك " [4] ، يشبه الخطب والمحاضرات والندوات الثقافية ذات السمة الوعظية .

ونقل المسعودي ت ٣٤٦هـ بعض كلام أبي موسى في تثبيط همة الناس عن مساندة الإمام علي رضي الله عنه في حروبه ، وعدّ ما نقله الأشعري مقامات ، فقال : " ثمّ ما قاله في بعض مقاماته في معاتبته لقريش..." ، كما سمّى خطب الإمام علي رضي الله عنه مقامات ، فقال : " والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيف "[5]

وغالب بديعُ الزمان الهمذاني ت ٣٩٨هـ ابن دريد ت ٣٢١هـ في أحاديثه الأربعين ، التي تعدّ نموذجاً للمقامات ، فغلبه ، ورسم البديع والحدود بين المقامة وغيرها من فنون النثر الأدبي ، بحيث يكون وجود الراوي ، وغرض الكدية حدّين لازمين في المقامة . وانتشرت مقاماته ، وسطع نجمه . وتمثّل الكُتّاب منهجه . وصنع أبو القاسم محمد بن علي الحريري ت ٥١٦هـ مثل صنيع البديع ، ومشى على خطاه ، وانعقد إجماع أهل الأدب في حينه على أنّهما رائدا هذا الفن بلا منازع ، فاستوى عليهما عود المقامة ، وذاعت مقاماتهما في الأمصار.

1-الرحمن ، الآية : ٤٦

2-فاطر ، الآية ٣٥

3-الجاحظ، البيان والتبيين ، تحقيق فوزي عطوي مكتبة الهلال، وشركة الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٨ ، ٣ / ٩٨هـ

4- ابن قتيبة " عيون الأخبار " ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ : ٢/٣٣٣

5- المسعودي : "مروج الذهب" المكتبة التجارية الكبرى بمصر القاهرة ١٣٧٧هـ. القاهرة : ٢/٢١٣-٢١٤ و ٤٣١

حد المقامة :

ثمّة تداخل شديد بين المقامة وغيرها من الفنون النثرية الأخرى كالموعظة والرسالة والرحلة والقصّة والمناظرة يجعل من الصعب تأصيل العمل الأدبي على أنه مقامة أو فن آخر ، فقد سُمّيت بعض الرسائل مقامات ، على الرغم من انتفاء قضية الكدية والحيلة المقترنة بها ، وهي في الحقيقة كلام يقدمه الكاتب للمتلقي لتحقيق غايته دون قصد فني ؛ ولا يُعد مقامات بالمعنى الذي نريد التأصيل الاصطلاحي له ، مع أنّ الخصائص الفنية للمقامات تسربت إلى بعض هذه الرسائل فظنناها مقامات ، كما في كثير من المقامات التي تقفها ابن بسّام ، كرسالة التوابع والزوابع لابن شهيد التي نُعتت بأنها مقامة بسبب معارضتها الصارخة للمقامة الإبليسية ، وما فيها من مثيرات الضحك ؛ ما دفع إلى تسمّيتها (شجرة الفكاهة) ، ودفع بعض الباحثين إلى تصنيفها في فن المقامات . وإني إلى نسبتها إلى قصص الخيال لأميل ، مع أنّ التجويد الفني وإظهار القدرات المعرفية والشعرية واللفظية والبلاغية أضعف البناء الحكائي والحدث والحبكة فيها . وهي فوق هذا وذاك رسالة في أصل تسميتها ، وعلى الرغم من اشتباك عناصر المقامة بالرسالة والقصة والمناظرة والنقد والأدب[٥] ، فإنها ليست مقامة وإدراجها في حقل القصة ألبق وأصدق.

وكذلك الحال في تصنيف بعض الرحلات التي سميت مقامات ، وليست منها ، فهي لا تعدو أن تكون نوعاً من أنواع " المقالات الوصفية ، أو قصص المشاهدة التي تقوم على الحكاية "[٦] ، ولا نجد في بعض هذه المقامات إلا وصفا جغرافيا خالصا ، كما في وصف لسان الدين بن الخطيب لرحلاته ، حتى قيل : " وللسان الدين غير مقامة في وصف رحلات له في بلدان الأندلس والمغرب الأقصى ، وهي أشبه بالرحلات منها بالمقامات "[٧] ، ولا أرى وجهاً للحديث عنها بين المقامات ، فهي رحل وكفى.

---

٥ - الشطي ، د. أحمد صالح : بن الأدب العربي الأندلسي ، دار الأندلس ، حائل ١٤٢٧ : ص ٢٧٣

٦ - يوسف ، نور عوض " فن المقامات بين الشرق والمغرب "مكتبة الطالب العربي ، مكة المكرمة ، ط ٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨٨

٧ - ضيف ، د. شوقي : تاريخ الأدب العربي " عصر الدول والإمارات ، الأندلس "دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٥١٧ و ٥٢٠

ولان بُحِّيَتْ بعض الكتابات النثرية الوصفية المجرّدة مقامات ، وسُميت بعض القصص ذوات الأغراض التوجيهية أو التعليمية إلى المقامات ، ونُسبت بعض أحاديث الرّحل إلى المقامات ! فهي ليست سوى دروس ، أو وصوف ، أو رسائل ، أو قصص ، أو رحلات ، لكنها ليست مقامات بالشكل الذي أرسى قواعده بديع الزمان والحريري.

وهكذا يمكننا حدُّ المقامة بالقول :

المقامة أدبٌ نثري فكِهٌ ، متوهّجٌ في مطالعه ومواسطه وخواتيمه ، يرويه راوٍ خيالي طبقةٌ في الثقافة واللغة وسحر البيان ، يسرد حكايةَ بطلٍ مُكْدٍ يبرع في تحقيق غاياته بالحيلة ، وشعاره الدائم: " الغاية تسوّغ الوسيلة "

نقل أبو علي القالي أحاديث ابن دريد الأربعين إلى الأندلس ، ودوّنها في كتاب الأمالي[٨] ، و"عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا "[٩] . ثم وصلت مقامات الحريري إلى الأندلس ، فتدارسوها ، وذللوها ، وشرحوها على خبرة المهتمين من أمثال أبي طالب عقيل بن عطية القضاعي المراكشي ت ٦٠٨ هـ ، وأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفى سنة ٦١٨ هـ) ...

وقام بنشرها في الأصقاع الأندلسية والمغربية :

- أبو القاسم عيسى بن جهور القرطبي .
- وأحمد بن محمد الشاطبي .
- وأبو الحجاج يوسف القضاعي البلنسي .
- والحسن بن علي البطليوسي .
- وعبد الله بن إبراهيم الوادي آشي .

وأصبحت المقامات مدار تنافس الأدباء ، وترددت أصداؤها في مجالسهم وأنديتهم ، واعتمد ابن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨ هـ بعض المقامات المشرقية ودونها في عقده[١٠] . و" شرّقت وغربت حتى صار ابتذالها عيبها "[١١] ، وكانت المقامات المشرقية هدفاً للمعارضة ومَعْلَماً للمسابقة نهجاً وقواعد ، خطا المبدعون خطواتهم الأولى على هداها، فصارت محاكاتها إبداعاً ، وتنامى التقليد المصنوع إيحاءً بالاقتداء وكثرت المقامات الأندلسية في ميادين الأدب عامةً ،

---

٨ - القالي : أبو علي : الأمالي : ج١، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٣ ص ٨ وما بعدها

٩ - المعري التنوخي : "رسم الأعلاق" ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢ ، ١ / ٣٠٥ - ٣٠٦ ملاحظة : أربعمائة هكذا وردت ، ولعل الأفضل أن نكتب مقامة هكذا (أربعمائة)

١٠ - ابن عبد ربه "العقد الفريد" تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٩٥٣ : ج٣/ ١٥٨ - ١٦٤

١١ - علي بن سعيد : "الرايات والمطربات" ، دار حمد ومحمد ، بيروت ، ١٩٧٣ ص ١٠

وفي معارضة الهمداني والحريري خاصةً ، ونقل ابن بسام في ذخيرته صورا من هذه المعارضات ومنها: معارضة الوزير أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن حزم ت ٤٣٨ هـ لرسالة بديع الزمان في الغلام[١] ، ورسالة الأديب أبي مروان عبد الملك بن شماخ الموشحة التي " عارض بها بديع الزمان في طريقته ، وضربها على قالب سبيكته " [٢] ، ورسالة محمد بن شرف القيرواني التي " عارض البديع بها في بابه ، وصبّ فيها على قالبه" [٣] .

وحاول الدكتور إحسان عباس إحصاء المقامات الأندلسية التي كُتبت في المعارضة في المدّة الممتدة بين القرن الرابع والقرن التاسع الهجري ، فذكر مقامات :

- لأبي حفص عمر بن الشهيد .
- و أبي محمد بن مالك القرطبي .
- وعبد الرحمن بن فتوح .
- وابن المعلم .
- والفتح بن خاقان .
- وابن أبي الخصال .
- وابن خفاجة الشاعر .
- وأبي عبد الله محمد بن عياض اللبلي .
- ومحمد بن خلف الهمداني الغرناطي ت٥٧٣
- وعلي بن جامع الأوسي .
- وأبي بكر الكاتب يحيى بن محمد الأركشي صاحب مقامة (قسطاس البيان في مراتب الأعيان)
- وأبي محمد عبد الله الأزدي ت٧٥٠ ، صاحب مقامة (العيد).
- و أبي الحسن النباهي المالقي صاحب المقامات النحلية.
- وأبي عبد الله بن شرف القيرواني .
- ومحارب بن محمد الوادي آشي ت٥٥٣ .
- وأبي الحسن ابن سلام المالقي .

---

١ ابن بسام الشنتريني " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " ، تحقيق د. إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ١٩٧٨ : ١/١ ، ١٤٠

٢-المصدر نفسه ٢/١ ، ٨٤٠

٣- المصدر نفسه : ٢/٢ ، ٩٩٦

- وابن القصير عبد الرحمن بن أحمد - [٥٧٦]
... ولسان الدين ابن الخطيب .
- وأبي عمر الزجالي - [٨١٤]
- والسرقسطي ." [١]

لم يستمر التقليد طويلاً ، فسرعان ما ظهر تيار التجديد ، وعمل المغاربة والأندلسيون على التميز عن المشارقة ، وسعوا للتفوق عليهم ، وأعلوا من شأن انتمائهم الأندلسي ، فكتب ابن حزم رسالة كالمقامة في فضائل الأندلس وأهلها، عدد فيها علماء الأندلس ومصنفاتهم في مختلف العلوم ، من تاريخ وفقه ولغة وشعر وطب وفلسفة وهندسة وحديث وتفسير وعلم كلام وغيره... [٢].

وكتب الشقندي رسالة في زيّ مقامة ، فضّل فيها الأندلس على المغرب ، وفاخر بأعلامه [٣]. وبالغ ابن بسام في تمجيد الأندلسيين فرفض أن يرى الكتّاب المشارقة بالعين التي يراهم فيها ، وقال مخاطباً الوزير الكاتب أبا بكر محمد بن المشرف عبد العزيز :

أبا بكرٍ المجتبى [٤] للأدب رفيعَ العمادِ ، قريعَ [٥] الحسبْ
أيلحنُ فيكَ الزمانُ الخؤونُ ويُعربُ عنكَ لسانُ العرب ؟

١- عباس ، د. إحسان : "تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين" : ص ٣٠٥ - ٣٠٨

٢ ابن حزم " رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها". والمقري : "نفح الطيب" ٤/١٩٥، وابن سعيد ، "اختصار القدح المعلى في التاريخ العلي" ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠/ ص١٣٨، انظر عباس ، د. إحسان : "تاريخ الأدب الأندلسي : "عصر الطوائف والمرابطين" : "عصر سيادة قرطبة" ج١ ص ٣٤٧ وانظر زياده ، د.ب باب : الأطروحة الدكتوراه " نقد الشعر عند الأندلسيين بين التأصيل النظري والتطبيق العملي ، مكتبة كلية الآداب دمشق ٢٠٠٠ م، ص١٦٤

٣- المكان نفسه ص ٣٤٧ نقلها عن" فهرسة ابن خير " ، ط سرقسطة ١٨٩٣ ص٢٢٦. و زياده، د.دباب : الأطروحة ص١٦٧

٤- المجتبى : المختار والصافي

٥- قريع الحسب : كريم الحسب

ونُعْدِل في الفهم بالحاضرين ... لديهم ، وما النبعُ مثل الغرب [1]

أراك بعينٍ أراهم بها ... إذاً فأرى الدُّرَّ كالمَخْشَلَبْ [2] !

لقد كان جيدُ الورى أدهما ... بقرطبةٍ : عُجمُها ، والعرب

إلى أن تبسّم عنك الزمان ... فأسفرَ عن واضحٍ ذي شنب [3]

وطيبُك ينفُثُ عن لؤلؤٍ ... تُنَظِّمُهُ في نحورِ الكتب

فأين العميدُ وعبد الحميد ... وما حويا من خطير الخُطب

وأين البديعُ وشمسُ المعالي ... بديعُك مدّ عليهم طُنُب [4] ؟ [5]

فالأديب الأندلسي نبع العطاء الثر ، ينفث بالدر ، ولا يدانيه أحدٌ من كتّاب النثر المشارقة ، وهو الشمس ، غمّد أشعتها فبهت دونها كل شعاع ، فأين ابن العميد ، وعبد الحميد الكاتب ، وبديع الزمان الهمذاني ، وشمس المعالي من ممدوحه الأندلسي !

وكتب المدعون مقامات يتناول بعضها الأغراض الشعرية ، كمقامات الوصف والغزل والمدح والهجاء ، ومقامات لا تشبه الأغراض الشعرية ، كمقامات النقد الأدبي و المقامات الجغرافية والسياسية ، واقتصرت بعض المقامات على الشعرّ فحسب ، كما هو الحال في مقامة (تسريح النصال إلى مقاتل الفصال) لعمر المالقي الأندلسي الزجال ، وطوّروا تقنيات المقامات ، وجددوا في الأساليب ، وبالغوا في التحدّي وإعلاء شأن المغرب على المشرق .

١-الغرب : قطرات الماء تسقط من الدلو

٢-المخشلب : الزجاج الرومي .

٣-الشنب : حدة الثغر وصفاء الأسنان

٤-طُنُب : العشب عرق الشجر ينبت من جوفها ، وعشب الجبال .

والطنب الوتد : أشبهها : ويقال : طنبت الشمس الجبال : طلعت

٥-ابن بسام : الذخيرة : ٢/٢ ص ٤٣٨ .

مقامات الوصف

الكلام كله وصف ، ومقامات الوصف كثيرة صعبة الحصر ، وقد تناولها كتّاب المقامات الأندلسيين وبالغوا فيها ، حتّى أصبح الوصف خاصةً أندلسية ندرية وشعرية بآن . ومن أبدع تلك المقامات الوصفية لوحات أحمد بن عبد الملك بن شُهيد القرطبي ت ٤٢٦هـ في (التوابع والزوابع) ؛ التي جاءت في زيّ مقامات ، عرض فيها موضوعات أدبية حسنة ، بأسلوب ساحر ، وأظهر براعته في أخذ معاني المتنافسين، ومقدرته في التصرف بها حتى تزهو بحسن مسافيها الشُهيدي ، مفاخراً بما حُبي من البيان ، ساعياً لانتزاع شهادات التفوق من الشعراء والكتاب المشارقة . ومن تلك المقامات : رسالته في صفة الوَدّ ، والنار ، والخطب، الحمام ، البرغوث ، والبعوضة ، والثعلب ، والماء ، والجارية ، والحلوى*

١–وصف الحلواء

"خرجت في ثُلّةٍ[1] من الأصحاب ، وثُبَةٍ من الأترابِ[2]، فيهم فقيهٌ ذو لُقَمٍ[3] ، ولم أعرّف به ، وغريمٌ بَطِنٌ[4] ولم أشعُر له ، رأى الحلوى فاستخفّهُ الشَرَهُ [5]، واضطربَ به الوَلَه [6] ، فدارَ في ثيابه ، وأسالَ من

---

*انظر – ابن شهيد : " رسالة التوابع والزوابع " ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر بيروت١٩٦٧ ؛ وابن بسام : "الذخيرة " ١/ ١ ، ٢٧٠-٢٧٨ والثعالبي ،عبد الملك بن محمد النيسابوري " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " دار الجيل ، مكة المكرمة ١٩٧٩ ، ٢/ ٤٤ – ٤٩ ، والمقري التلمساني: "نفح الطيب "، تحقيق د. إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت ١٩٦٨ : ٣/ ٤٥٠ ؛ و عباس ، د.إحسان "تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) " ص ٣٠٥ – ٣٢٠.

١–ثُلّة : رفقة

٢–ثُبَةٍ من الأتراب : جماعة متقاربون في السن

٣–ذو لُقَم: يصلح الطعام بفمه

٤ –وغريمٌ بَطِنٌ : صاحب بطنه يمازحك نصيبك من الطعام .

٥– فاستخفّهُ الشَرَهُ : طاش لشدة حرصه على الطعام .

٦– اضطربَ به الوَلَه: أصابه الاضطراب كمن فقد عقله طلب الطعام .

لُعابه ، حتى وقفَ بالأكداس [1] وخالط غماز الناس [2] .

ونظر إلى **الفالوذج** [3]، فقال : بأبي هذا اللّمص [4]، انظروه كأنّه الفصّ [5]، مجاجة الزنابير [6]، أُجريت على شوابير [7]، وخالطها لباب الحبّة ، فجاءت أعذب من السنة الأحبّة .

ورأى **الحبيص** [8]، فقال : بأبي هذا الغالي الرخيص ، هذا جليد سماء الرحمة ، تمخضت به ، فأبرزتْ منه زُبْدَ النّعمة ، يُجرَع بالّلحْظ ، ويذوبُ من اللفظ ، بمَ ابيضّ ؟ قال : غضٌّ من غضّ ، ما أطيبَ حلوةَ الحبيب ، لولا حضرةُ الرّقيب .

ولمحَ **القبيطاء** [9]، فصاح : بأبي نقرةُ [10] الفضّةِ البيضاء ، لا تردُّ عن العضّةِ ، أبنارٍ طُبخَتْ أم بنور ؟ فإني أراها كقطعِ البلّور ! وبلوزٍ عُجِنَتْ أم بجوز ؟ فإني أراها عينَ عجينِ الموز ! ومشى إليها ، وقد عدّلَ صاحبُها أرطال مُحاسِه ، وعلّق قسطاسَه [11] أمَّ راسِه ، فقال : رطلٌ بدرهمين ؟ وانتهشها بالنابين

١- الأكداس : ما يُجمع من الطعام أو من يجتمعون له .

٢- غماز الناس : سوادهم وزحمتهم .

٣- الفالوذج : حلواء تصنع من لب الحنطة ، فارسي معرب .

٤- اللّمص : مثل الفالوذج ، يأكله الفتيان مع الدبس .

٥- الفص : ما يركب في خرز الزمرة .

٦- مجاجة الزنابير : عسل النحل .

٧- الشوابير : نوع من السمك .

٨- الحبيص : الحلواء المخبوصة مع التمر والسمن .

٩- القبيطاء : الناعم ، كالثوب الأبيض .

١٠- النُّقرة : القطعة المذابة من الفضة .

١١- القسطاس : الميزان المضبوط .

فصاح: القارعة ما القارعة ، هيه ، ويلٌ للمرء من فيه !

ورأى الزلابية [1]، فقال : ويلٌ لأمها الزانية ، أبأحشائي نُسجت ، أم من صِفاق قلبي [2] أُلِّفت ؟ فإني أجدُ مكانها من نفسي مكينا ، وحبل هواها على كبدي متينا ، فمن أين وصلت كفُّ طابخها إلى باطني فاقتطعتها من دواجني [3] ؟ والعزيز الغفار لأطلبنَّها بالثار . ومشى إليها ، فتلمَّظَ [4] له لسانُ الميزان ، فأجفلَ يصيحُ : الثعبان الثعبان !

ورُفِعَ له تمرُ القِشا غير مهضوم الحشا [5]، فقال: مَهْيَمْ [6] ؟ من أين لكم جنى نخلة مريم ؟ ما أنتم إلا السحّار [7]، وما جزاؤكم إلا السيف والنار . وَهَمَّ أن يأخذ منها ، فأثبتَت في صدره العصا ، فجلسَ لقُرْصها يذري الدموع [8] ، ويُبدي الخشوع ، وما منّا أحدٌ إلا عن الضحك قد تحلّل ، فرقَّتْ له ضلوعي، وعلمتُ أنّ الله فيه غيرُ مُطيعي ، وقد تَحْمِلُ الصَّدَقَةُ على غير ذوي وَفْر، وفي كلّ ذي كبدٍ رطبٍ أجر. فأمرتُ الحلواني بابتياع أرطالٍ منها تَجْمَعُ أنواعها التي أنطقَتْهُ ، وتحتوي على ضروبها التي أضرعَتْهُ .

وجاء بها ، وسرْنا إلى مكانٍ خالٍ ...فصَبَبْنا رطبةَ الوقوع ، كراديسَ كقِطَعِ الجذوع ،فجعلَ يقطع ،

١- الزلابية : حلواء تصنع من دجين رقيق ، تُصبُّ في الزيت وتتلى ثم تُغمَّد بالعسل (عوامة)

٢-الصِفاق : غشاء القلب

٣-دواجني: أحشائي

٤-تلمَّظَت الحيّة : أخرجت لسانها

٥-مهضوم : يعني الهضيم وهو التمر النضيج الداخل بعضه في بعض ، وفي التنزيل العزيز ﴿وأطلع طلعها هضيم﴾

٦-مَهْيَمْ : كلمة استفهام ، بمعنى ما الخبر ؟

٧-السحّار : الرُّقاد

٨-يذري : يذرف

ويبلع ، ويدحو فاهُ ويدفع ، وعيناهُ تبصّان كأنهما جمرتان... وأنا أقولُ له : على رسلك أبا فلان البطنة تُذهِبُ القِطنة!

فلمّا التقم [1]جملة جماهيرها [2]، وأتى على مآخيرها [3]، ووصل خورنقها بسديرها [4]،نجشا [5] ، فهبّت ريحٌ عقيم [6] ، أيفنا لما بالعذاب الأليم ، فنشرَتْنا شَذَرَ مَذَر [7]، وفرّقَتْنا شَقَرَ بَقَر [8] ، فالتمحّنا منه الظربان [9]، وصدَّقَ الخَبَرَ فيه العِيان : نفحَ ذلك ، فنشرَدَ الأنعام ، ونفحَ هذا ، فبدّدَ الأنام ، فلم نجتمع بعدها ، والسلام" [10]

١- التقم : بلع

٢- جملة جماهيرها :معظم العلماء

٣-مآخيرها : بقاياها

٤- الخورنق و السدير : قصران للنعمان في العراق

٥-نجشا: أخرج الهواء من المعدة مع الصوت

٦-ريحٌ عقيم : كريهة

٧-فنشرتنا شَذَرَ مَذَر: بددنا مذاهب شتى المتفرقين

٨-وفرّقتنا شَقَرَ بَقَر: في كل وجهة

٩-فالتمحنا الظربان: رأينا حيوانا كالهرة منتن الرائحة ، يُقال : (هذا يوم الظربان) = أي تفرقوا وتقاطعوا

١٠- الثعالبي ، " تتمة اليتيمة " ، ٢/ ٤٤

و ابن بسام ، "الذخيرة" ١/ ١ ، ٢٧٠-٢٧٢

٢-وصف برغوث :

" أسودُ رُنجيّ ، وأهليّ وحشيّ ، ليس بِوانٍ [١] ولا زُمَيل [٢] وكأنّه جزءٌ لا يتجزأُ من ليل ، وشولِيزةٌ [٣] أوْنَبَتْها غريزةٌ ، أو نقطةُ مِداد ، أو سوداءُ قلبِ فُؤاد [٤]. شَرَبَهُ غَبٌّ [٥] ، ومَشْيَهُ وَثْبٌ ، يكمُنُ غارَةً ، ويسري ليلةً ، يُدارِكُ بطعنٍ مؤلمٍ [٦] ، ويَستَحِلُّ دَمَ كلِّ مسلم ، مُساوِرٌ للأُسَاوِرَة [٧] ، يَجُرُّ ذيلَهُ على الجبابرة [٨] ، ينكفِرُ بأرفع الثياب ، ويهتِك ستْرَ كلّ حجاب ، ولا يحفِلُ بوَاب ، تَرِدُ مناهلَ العيشِ العذبةِ ويصلُ إلى الأحراج الرَّطبةِ [٩] ، لا يُمنَعُ منه أمير ، ولا ينفعُ فيه غِيرةُ غَرور ، وهو أصغرُ كلِّ حقير ، شرُّهُ مبثوث ، وعهدُهُ منكوث ، وكذلك كلُّ بُرْغُوث . كفى بهذا نقصاً للإنسان، ودالاً على قدرةِ الرحمن " [١٠]

١-وانٍ : فاتر

٢ زَمِيل : أحمق

٣-شولِيزة : كلمة فارسية تعني دابة سوداء

٤-فُؤاد: دويبة تصغرُ الإبل .

٥-شَرَبَهُ غَبٌّ : كرع ابن آوى الماء

٦ - يُدارِكُ : يتابع الطعن

٧- مُساوِرٌ للأساوِرة :مواثب، ومقارع للفرسان

٨- يَجُرُّ ذيلَهُ على الجبابرة: تدلل على المتكبر

٩-الأحراج :الأماكن الخضرة

١٠-الثعالبي : يتيمة الدهر :٤٧/٢

و ابن بسام " الذخيرة " ١/١ ، ٢٧٥.

٣-وصف ثعلب :

" أدهى من **عمرو** [١]، وألأمُ من **قاتِلِ حُذيفةَ بن بدر** [٢]، كثيرُ الوقائعِ في المسلمين ، مُغْرى بإراقةِ دماءِ **المؤذنين** [٣]، إذا رأى الفُرصةَ انتهزها ، وإذا طَلَبَتْهُ الكُماةُ أعجَزَها ، وهو . مع ذلك . **بُقراطُ** في إدامِه ، و**جالينوسُ** [٤] في اعتدالِ طعامِه . غذاؤُهُ حَمامٌ أو دجاج ، وعشاؤُهُ تُدْرُجُ أو دُرّاج " [٥] .

ظهر ابن شهيد متأثراً بمقامات الهمذاني ، كالمقامة المضيرية ، والمقامة البغدادية ، وخاصّةً في تصوير الفقيه وهو يلتهم الطعام تصويرا مضحكاً ، فتراه مرتجفاً يظنّ لسان ثعبان لسانَ الميزان فيجفل منه ! ما يذكرنا بملمح السوادي الغرّ في المقامة البغدادية ، وقد أدلج إلى ذلك تابع بديع الزمان ، فقال له : " تحيَّنْ على الكلام لطيفٌ ، وأبيك! فقال: " وكيف ذلك ؟ قال : أوَما علمتَ أن الواصف إذا وصف شيئا لم يتقدَّم إلى صِفتِهِ ، ولا سُلِّط الكلامُ على نعته اكتفى بقليلِ الإحسان ، واجتزا بيسيرِ البيان ...وهذه نُكتةٌ بغدادية ، أبَنْ لك بها يا فتى المغرب ؟ " [٦].

وحاول في مقاماته الوصفية نبذ التقليد وإظهار قدراته المعرفية ، كما هو الحال في ذكره لأربعةٍ من الأعلام في تشبيه الثعلب ، ما يكشف مهارة فنية تنمّ عن عميق رؤيته ، وواسع معرفته ، وفي تصوير حركة البرغوث المتخفي بين طيات الثياب والجلد تصويراً مثيراً، يستحضر فيه قصة بعوضة النمرود ، ليؤكد ضعف الجبابرة أمام قوة الجبار.

١-هو أبو صبرة عمرو بن العاص . من أدهى العرب وأحسنهم رأيا وتدبيرا .

٢- وقاتل حذيفة بن بدر الفزاري هو قيس بن زهير

٣-المؤذنون : الذئاب

٤-بقراط و جالينوس: حكيمان يونانيّ شهير بالطب ؛ ديوانه شهير العلمية .

٥-الصالبي " يتيمة الدهر " : ٢/٤٠٦

و ابن بسام ، "الذخيرة " : ١/١ ، ٢٧١

مقامات الغزل

١-مقامة في الغزل العفيف

يروي الشيخ أبو حبيب مقامة تشبه حكايات الحب العذري ، فيقول إنّه تعرّف على فتىً ذي هيئة حسنة وخلق قويم ، وخلال حميدة في منزله بسنجار ، فزيّن للفتى درب الكدية ، وعلّمه كيف يحتال لجمع المال ، من خلال قيامه بدور عاشقٍ مصاب بلوثة جنون ، يهيم بابنة عمّه ، وليس بقادرٍ على دفع مهرها ، ما دفع أهلها إلى القبول بزواجها من رجل يملك المهر ، وعندما علم الفتى بما كان ؛ أُصيب بمسٍّ من الجنون ، فهام على وجهه ينعوّن المهر . وينتقل الشريكان أبو حبيب وفتاه لتنفيذ مشروعهما، ويقوم الفتى(السائب بن تمام) بتمثيل الدور بافتدار ، فيدخل إلى المجلس في أطمار بالية ، وهيئة رثّة ، تنتابه موجات من الصرع عندما تُذكر ابنة عمّه ، فيرفع صوته متألّماً :

" تركتني وليدا ، لا **ناهضا** [١] **ولا جليدا** [٢]، درجتُ ودبّيت ، حتى ظهرت وشببت ، وكان لي نفسٌ **تنزع** [٣]، وهمٌّ **ينزع** [٤]، وعلاقة **تحبُّ** بي [٥] وتضع ، وتحطُّ مني وتضع ، وكنت عليقتُ بابنة عمي ، وكانت **وفقي** [٦] وهي ، وكان الحسن قد كساها جلبابهُ ، ورفع لها العزُّ قبابهُ ، وألقى عليها الظُّرف بروده، وروّاها النعيم سَلْسَله وبرودَه ، فما زالت تمنعُني عنها الرسائل ، وتُطمعُني فيها الوسائل ، وتقرّبُها إليّ الأماني... وبحر الهوى يهبُّ **عبابه** [٧] ، وتستحكمُ **علقه**[٨]

١-الناهض : فرخ الطائر الذي قدر على الطيران

٢-الجليد : الصغير القادر على التحمل

٣-تنزع : تحن وتشتاق

٤-هم ينزع : يزول دون العناية

٥-تحب : الحب بين المشي والركض

٦-وفقي : موائمة لي وملائمة

٧- العباب : الموج

٨-العلق : ما يتعلق به الفرد من النفوس

وأسبابه ، إلى أن سرى وتغلغل ومخامر [1] الجوانح وتوغّل ، وسكن الضمير والخلد ، وسلب العزاء والجلد ، وفشا الحديث بها وظهر وغلب الأمر وبحر [2] ، وغلظ الحجاب ، وارتفع الإيجاب ، وأذكيت العيون [3] ، ولويت الديون [4] ، وتنبه الغيران ، واهتدى الحيران . وكان وعدني بها العمّ ، وساعدني فيه الأخصُّ والأعم ، فجُذّت حبال [5] ، وأثير بلبال [6] ، واشتعلت نار ، ورفع للقطيعة نار ، فمال بها إلى بعض الغرباء ... " [7] .

وتنهال الأعطيات عليه ، فلا يعتني بالمال ، بعد أن أخذته الخال ، ونقمّص الدور الموكل إليه وتفاعل حتى غاب عن الوعي ، فسارعوا إلى مساعدته كي يصحو من نوبته .

وبينما المجلس في بلبال ، انتهز أبو حبيب الفرصة في غفلةٍ من القوم في غمرة الزحام ، وانسل آخذاً ما جُمع من المال ، ورجع إلى المنزل ، فحمل ما فيه من المتاع ، ورحل تاركا صاحبه في عهدة القوم ، غير آبهٍ لما سيتعرّض له من اللوم !

تشبه هذه المقامة حكايات الحب العذري ، ويحكي البطل في تصرفاته تصرفات مجنون ليلى إذ يُمنع من الزواج منها ؛ فتنتابه نوبات جنون ، ويهيم على وجهه . لكنها تعدّ نموذجا مضحكا ومحزنا بآن ، فهي تُمتع السامع ، وتسرّ الطامع ، لكنها تكشف عن سوء الأخلاق ، وسُبل الارتفاق التي يمارسها أبو حبيب ، النموذج الأسوأ لمجتمع الشحاذين ؛ الذي تمّحي منه أبسط قواعد السلوك الأخلاقي.

١- مخامر : مخالط

٢ : بحر : أبهم .

٣- أذكيت العيون : أرسلت رسلها

٤- لوى فلانا دينه : مطله وبعده .

٥- جذّ : قطع ، وفي التنزيل العزيز : وثم عطاء غير مجذوذ

٦ البلبال: الهم الشديد والوسواس

٧-السرقسطي : " المقامات الزوزنية " تحقيق حسن الوراكلي المقامة العاشرة ص: ١٠٠.

٢ـ مقامة في الغزل الصريح

يروي أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني ت ٤٦٠هـ مقامة تشكّل أنموذجاً للغزل الصريح ، وتتناول قصة شيخ يُراود مُضيفه عن نفسه ، يقول فيها :

"حدثني الجرجاني قال : كان فتى بجرجان من أبناء الأقيال [١] ، قد جمع إلى النهاية في المال الغاية في الجمال ، وكان مألفاً للأدباء ، ومأوىً للغرباء ، وبِرّاً للفقراء ، فلا يخلو منزله من أهل الإعدام . فإني لعنده في بعض الليالي إذ استُؤذِنَ عليه لضريرٍ ففيرٍ ، فأمر بإكرامه وإطعامه . فلما فرغ من شأنه ، استدعاه إلى إيوانه ، فدخل علينا رجلٌ شيخٌ ، وافر السِّبال [٢] ، قد عمّه البياض بالكمال ، مطموس العينين ، مسترخي الحاجبين ، قد صَلَعَتْ هامتُه ، وركعتْ قامتُه ، وقصُرَتْ مسافةُ خُطاه ، وثَقُلَ جسمُه على عصاه ، فسلّم بصوتٍ ضعيل ، ودعا بلسانٍ ثقيل ، وألبل يذكر شبابه ، ويتذكّر أحبابه ، وينوح على سالف زمانه ، ويندُبُ بُقعات إخوانه . فرقّ له الفتى ، وأدناه حتى أجلسه على يُمناه ، وصبّرَه وسلاّه . ثمّ سمرنا إلى وقت النوم . فرقد سائر القوم ، ونام الفتى في مكانه مُراعاةً لِحَقِّ ضيفانه " [٣] .

كان الراوي نائماً بالقرب من الفتى ، وفي هجعة من الليل سمع الشيخ يقول للفتى : "يا سيدي ! أنا ضَرُورَة [٤] ، ولَمّ ضرورة ، وقد طالت الغُرْبَة ، واضطرتني العُزْبَة.

فقال الفتى له : فما وجدْتَ لضرورتك سواي ، ولا لِعُزْبَتِكَ حاشاي [٥] ؟

قال له: فإنْ أَبَيْتَ إلاّ أنْ تُمَنِّع فَدُلّني على ما أصْنَع ؟

١ـ الأقيال : ج قيل ، من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم .

٢ـ السِّبال : الشوارب

٣ـ ابن بسام ، "الذخيرة" ١/٤ ٢١٢

٤ ـ الضَّرُورَة : امرأة الفقير ، تجتمع فيها في الضرع ، والضرور من لا يتزوج

٥ ـ حاشاي : نساء ، وزال : حاشى له : براءة له وبعداً

قال له الفتى : أرى لك أن تتسرّى [1] .

قال : ومن للصعلوك بالمملوك ؟

قال : فتتزوّج .

قال : والهوج كيف يتزوّج ؟ " [2]

وبلغ الأعمى من الخشنة والتطاول ، ما استدعى ثورة الفتى ، " فصاح الفتى: السلاح السلاح ، ألا أيها النوّام ويحكم ! هُبُّوا " [3] .

فنهض الجرجاني مستفسراً ؟ فقال الفتى : " أسمعْتَ العَجبَ العُجاب ؟

قلت: نعم ، وحَفِظْتُ العتاب . وجعلت أقول : ما سألك في عسير ، ولا حَمَلَكَ على خطير ، فهلاّ قَضَيْتَهُ فأرضيته ؟ قال: فحسب الأعمى كلامي رَدّاً ، وظنّه جِدّاً .

فقال: فديتك أيها الناصر ، حين خذلني الأواصر ، واحتقرني المعاصر ، ثمّ تنهّد وقال : آه ! واهرماه ، بقينا حتّى شقينا . آه ! طاح أهل البذل والسماح ، وبقي أهل البخل والجماح ، انظر أيّ أجناس بعد أيّ ناس ، لكن الفقير حقير ، قلّ المال ، وذهب الرجال ، سمعنا فطمعنا . يا فتى ! أخبِرْنا عنك خبرا ما رأينا له أثرا ، وربّ منسوبٍ إلى حال مرجوعها إلى مُحال ، أينَ الكرَمُ الذي ذُكِر ، والخُلُقُ الذي شُكِر؟ هَبْ ما سألناك يشق ، أين الحقُّ الذي يحقُّ ؟ كذب رائدنا ، وقلّت فوائدنا .

فقال له الفتى : ويحك ! اتّقِ الله خالِقَك ، فقد آنَ أنْ تتركَ خلائقَك .

---

١ -تتسرى : تتزوج

٢- ابن بسام، "الذخيرة" ١/٤ ٢١٢

٣-المكان نفسه .

فقال : يا مولاي ! لو تركتني الشهوة لتركت ، ولكن حرّكتني فتحرّكت ، إنّي وإن سبقني جمهور الأتراب إلى التراب ، ففي قلبٍ لهبٌ ، وجسمٌ ذهبيٌّ ، لا يغيرهما إدمان الزمان ، ولا يؤودهما حديث الحدثان...، ولو عادت إليّ ساعة من أيّامي ، أو حصلت في يدي إبرة من حسامي ، لَسَبَقْتُ كلومي فيكم كلامي وسأجهدُ بهذه العصا ، فأُجاهدُ مَن عصى . ثمّ اهتزّ كأنّه نَشْرٌ مقصوص ، أو حمارٌ **مرهوص**[1]. فقمنا وتركنا جانبه . وجعل يضرب بعصاه من قاربه ، فتركناه وشانه وأدمنا عيانه ، نصعّد فيه ونُصوّب ونُعجّب ونُعجّب ، فلم تزل **شقشقته تهدر**[2]، وعصاه تتكسر ؛ حتى كلّت يداه وانحلّت قواه .

ولاح وجه الصباح ، وجئنا إليه بالمصباح ، فإذا هو كالجدار المهدوم ، والخِدر المهشوم ، قد فارق النفس النمرودية ومات الميتة الجاهلية ، فدفنه الفتى في أظماره ، وسألنا كتمانَ أخباره "[3] .

تمثل المقامة صورة من صور الحب الشاذ ، والغزل الصريح ، إلى جانب العبارات الجنسية التي بلغت حدّاً غير مسبوق ، ويبالغ ابن رشيق في مقامة الشيخ الصرورة بالتعبير الإباحي ويثير حديث الشذوذ الجنسي بشكل يفوق ما جاء في قصائد امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة في قصائدهم الغزلية ، وتتميز المقامة بالطرافة في الحادثة الأدبية ، والغرابة في عرض ظاهرة الظرف والخروج عن العرف ، في سلوك طبقة من المجتمع خروجاً يبلغ حدّ الوقاحة في سرد الطرائف والملح ؛ التي يمارسها هؤلاء الظرفاء، فصارت مستظرفة لظرفهم ، ومحببة من مثلهم ، لما تميزوا به من سرعة البديهة ، والتفنن في تنميق الكلام وتجاوز المقامة الصباغات التقريرية المعهودة في الأخبار الأدبية بما تحمله في داخلها من عناصر التشويق. وعلى العموم فالمقامة صورة لحال الأخلاق المبتذلة في المجتمع الأندلسي آنذاك .

---

١ - مرهوص : أصاب الحجر باطن حافره ، فقول رهصه الحجر ، ورُهصت فلانة .

٢- شقشقة الجمل : هدر

٣- ابن بسام، الذخيرة ، ١/٤ ٢١٣ ٢١٤

٣-المقامة الدوحية

قال صاحب : المقامة العياضية الغزلية ، ميزان الأشواق ، ومعيار المحبين والعشاق ، الأديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن عياض الليلي ، مقرئ قرطبة في صدر دولة عبد المؤمن في النصف الثاني من القرن السادس :

" كنتُ أكلِّفُ بالبلدة الحمراء كَلَفَ الكَمِيِّ **بالصَّعْدَةِ** السَّمراء ، وأحنُّ إلى جوارها حنين الناقة إلى **حُوارِها** [١]، للذي اشتُهِرَ من حسنها وطيبها وخصبها ، واختيالها في حُلل **شَرْيِها وعَضْبِها** [٢]، فهداني إليها حادي الاغتراب ، وتطاوحت بي إليها طوائح الاضطراب [٣] ، ولا أملَ إلاّ **اعتلاق** بِخِلِّ ظريف [٤]، والإصغا إلى نبأ طريف :

تقاذفتِ الأيامُ بي وسطَ لُجَّةٍ من الهجر لا يُبدي لها الوصلُ ساحلا

وقال: نَبَتْ بي معاهدُ الأحباب في ريعان الشباب لِقَيْنَةٍ أذكتْ نيرانها ، وألْفَتْ بمسقط الرأس جوانحَها [٥] فامتطيتُ اللبلَ **طِرْفا** [٦]، ومزَّقتُ البيدانَ طَرْفا ، وجعلتُ أمسحُ الأرضَ **نجْدا ووهْدا** [٧] ، وأستطعم الأمال

١-كلف الكمي بالصعدة: اهتمام الرجل بالرمح

٢-الحوار: ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم

٣-شريها وعضبها : فريق من الفرسان أو الزهر أو الطير أو الحيوان.

٤-وتطاوحت بي طوائح الاضطراب : تراميت وتواعدت

٥- الاعتلاق : اتخاذ الخليل

٦-الطرف: الفرس ، وطرف الدهر بكرائه : ليله ونهاره

٧-النجد: الأرض المرتفعة ، ضد الوهد : الأرض المنخفضة .

صَابا وشهدا [1]، كالعاز لا يستقرُّ بمنزل ، ولا وُجِدَ عن رحله بمَعْزِل ، أصعدُ من خصور القيعان [2] إلى روادف الزِّعْفان [3]، وأحدرُ من متون الهضاب إلى بطون الهياب ، حتى عجمْنَني أنياب النوائب [4] ، وتقاذفت بي صدور المشارق إلى أعجاز المغارب ، وقد حملْتُ من الاغتراب بين الذروة والغارب [5] :

لعلَّ الرِّضا يُدنِي من الصبرِ شُتَّها ويجمعُنا غصنين :غضاً ويابسا " [6]

تذكرنا هذه المقامة بابن زيدون وولّادة ، حيث تنشف مقاطعها عن لطافة العاشق ورقته وبلاغته في التغزل بهذه الجارية الحسناء ، وصدقه في التعبير ، وقدرته على التأثير ، والغزل الحق لا يترك للعقل دورا في مراقبة الكلام ، بل يدع الحبل على الغارب ، ويترك العنان لعفوية المشاعر وبجنبه الصنعة والتحبير. ونرى الكاتب يمر على ديار الجارية مرور المجنون على ديار ليلى فيقف قدراً من مقامته على حديث الديار على عادة الشعراء الجاهليين في الوقوف على منازل المحبوبة ، ويمثل نموذجاً طيباً للحب الصافي ، والغزل الدافئ يموج فيه بين محاسن الشعر ، ومناقب النثر أدبياً متمكناً من فنه .

١-صاب : مز و شهد : عسل

٢-خصور القيعان منخفضاتها

٣-وروادف الزعفان : اسم المكان

٤-متون الهضاب: متنها ،

بطون الهياب: منازل لاشيء فيا

٤-عجمتني: عضتني تحقيق

٥-الذروة : السنام .

والغارب: الكاهل وهو ما بين السنام والعنق في البعير .

٦-ابن سعد : علي بن موسى المغرب في حلى المغرب "تحقيق د. شوقي ضيف ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ١/ ٢٤٤ ٢٤٥ .

مقامات المدح

١ – مدح ابن عباد

رحل أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم كاتب ابن عبّاد عن الزهراء حتى شاقته فشمّر للرجوع مع أول دعوة ، وكتب في التشوّق والتشوّف مقامة يتذكّر فيها الماضي السعيد في منازه الزهراء ، وذكريات الوادي ، والمغاني ، ومجالس الأنس ، والنوادي ، و "قال في أولها : سقى عهدَك أيتها **الدمنةُ**[1] الزهراء كلُّ عهد ، وجادَ قُطرُك أيتها الروضة الغنّاءُ كلُّ قُطر ، وسالَ عليك من أدمعي كلُّ مُلِثٍّ[2] هطّال ، وتناوحت عليك من أضلعي كلُّ جنوبٍ وشمال ، مُنَيِّرَةً أنوارَك ، لا مُعَفِّيَةً آثارَك ، ومُهديَةً أرَجَك ونسيمَك ، لا مُغَيِّرَةً أطلالَك ورسومَك ... "[3] ، وراح يبدي الحنين الشديد إلى مرابعها، ويدعو لها بالسقيا .

وعرض المشكلة الموجبة لرحيله عن الزهراء ، فقال : " حتى إذا استيقظ الدهر من **مجعته**[4] ، وهبَّ من **غطيط**[5] رقدته وسكرته ، ضرب فوقنا **بجرانِه**[6] ، وصرفَ إلينا **لِهْذِمَ** سنانه[7] ، ولبس لنا جلدةَ النَّمر[8] ، وقلب لنا ظهر **المِجَنّ**[9] ، وألقى علينا **بَعَاعَهُ**[10] ،وطمس دوننا شعاعه ، مستردّاً ما وهبَ وأعطى ، ومُكثِراً ما منحَ وأصفى :

---

١ – الدمنة الآثار الباقية في الديار المهجورة

٢ – ملثّ: المطر الذي يدوم زماناً لا يقلع

٣ – ابن بسام ، " الذخيرة " : ١/٢ ، ١١٣ .

٤ – المجعة النوم ليلاً

٥ – الغطيط :النوم العميق

٦ – الجران : العنق ، وضرب الدهر بجرانه : ثبت واستقر

٧ – اللِهذم كل شيء قاطع حاد كاللسان

٨ – ولبس جلدة النمر :التقلب والغضب

٩ – وقلب ظهر المجن :عادانا بعد مودة

١٠ – بَعَاعَهُ: ثقله وأمتعة معظم المال في السحاب

أبداً تُسائِرُ ما نَهَبُ الدنـ ـيا فيا ليتَ جودَها كان بُخْلا[1]

فما لبث أن صدع مَرْوَتَنا [2]، وفصم عُروتنا [3]، وحَلَّ عَقْدَنا ، ونثر عِقدنا " [4]

وأدّى انقلاب الزمان الخؤون على ابن المعلم إلى الرغبة بالرحيل ، فحذره صديقه من مخاطر هذه الرحلة ، وقال له :

" أرى أن لا تريم بَيْضتَك وأرومتَك [5]، وأن تُوطِّنَ أرضَك ، ولا تُفارِق عشيرتَك ، وأربأ بك [6] من مُضِلاّتِ المنى ، وأُعيذُك من تُرُّهات [7] لعلّ وعسى ، فتحسبُ كلَّ بيضاء شحمة ، وتظنُّ كلَّ سوداء تمرة وربما سقطَ العشاءُ بك على سِرْحان ، وكلُّ الناس بَكر ، وفي كلِّ وادٍ بنو سعد

والرِّفقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ فاستأنِ في رِفقٍ تلاقِ نجاحا[8] "[9]

وبأبي قبول النصح ! لو قضي الله أمراً كان مفعولا

١- قيس للعامري : الديوان ص ٤٠٠

٢- صدع مَرْوَتنا : باعد فيما بيننا ، والمروة جبل في الطور الصغرا في مكة

٣- العروة : ما يستمسك به ويُختصر

٤- من بسام : الذخيرة ٣ : ١/٢ ١١٣ ١١٤

٥- لا تريم بيضتك وأرومتك: لا تبرح حوزتك وأصلك

٦- وأربأ بك: أنزهك

٧- التُرّهات: الباطل

٨- الطرماح الأسدي في العسكري تحقيق أبي الفضل ١/٦١و ٥١٤ز ٢/ ٢٨٧ ، والميداني ١/٣٦و٢٢٣ و ٢/ ١٦٩

والبيت للذبياني : انظره في : فصل المقال ٣٢٨

٩- ابن بسام ، الذخيرة ٣ : ١/٢ ١١٤

وفي الفصل الثالث نقلنا الكاتب إلى الحديث عن العقدة في غرناطة ، فعرض معاناته خارج سرب ابن عباد ، فقال : " وصرّح لي الدهرُ عن أهله ، ووجدتُ الناس اختبرْ تَقْلِه [1] ، من أميرٍ لا أستميه ، ووزيرٍ أُصحمتُ الواو فيه، وكاتبٍ أُمّي ، وقاضٍ جَبَلي [2] ، وأُمّة مبورة [3]، في قريةٍ مصورة ..."[4]

ومضى ينقّرب زلفى من ابن عبّاد وبدمّ دونه العباد ، مهيّئاً للرجوع الأسباب ، باحثا عن حقّ لعقدته ، وعن موطئ قدم في أشبيلية بعد أن هجرها . وفجأةُ البشير ، حاملاً له رسالة دعوة من ابن عباد ، قال : " فبينا أقرع السنّين، وأعضُّ الكفّين ، وأخضبُ بلا حنّاء ، وأُنشدُ في الأمراء... ؛ إذ قرع البشير بابي ، وطرق المستأذنُ حجابي ، قائلاً : رسولُ مولاك ، وكتابُه وافاك . فقمتُ أتساقط من الجذل ، وأعثُرُ في دعائرِ العَجَل [5] ، مقبّلاً فاه ، وصائحاً : زاه [6]

وفي فصل منها : وأفضنا في وصف معاليه ،واستنشدني فأنشدته ما قلته فيه ، فقال: براعة [7] الفصحاء ، وبراعة الشعراء، دعني من زُخرُف شعرك ، وصِفْهُ لي بمنّصِف نثرك ، فالمنظوم رونق ، وأنت فيه ذو طَوْلَق [8] .

فقلت : على الخبير سقطتَ ، وأنا الكفيلُ بما سألتَ وشرطْتَ ، وأصمته سجعاً لا نظماً ، ونثراً لا شعراً ، فقلت :

1- اختبر تقله : مثل يعني إذا خاشرته وجربته قليته وابتعدته .

2- جبلي : نسبة إلى الجبل . كبير على الحشونة

3- وأمة مبورة : من البوار والخسران

4- ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤/ م ١/ ٢ : ١١٥

5- أعثر في دعائر العجل : أزلق من الدعاة ومن يدع إلى خير

6- زاه : كلمة دارجة في بلاد المغرب تعني : مأخوذة من الزهو بمعنى حسن

7- براعة : مشتقة من البراعة في الكلام

8- ذو طولق . ذو نمر

هو الإمام الطاهر ، والكوكب الزاهر ، والأسد الخادر [1] ، والبحر الزاخر ، أوهب الملوك للذخائر ، وأعفاهم عن الجرائر [2] ، وأرفعهم قدراً ، وأوسعهم صدراً ، وأطيبهم ذكراً ، أعطر من العنبر في كلّ منبر، وأفوحُ من المسك الذكي في كلّ نَدِيّ ، الحليم فما يغضب ، والجواد وما يرغب ، والشجاع وما يَرهب ، والقويّ وما يعنف ، واللينُ وما يضعف ، والرفيق إذا ساس ، والمصيبُ إذا قاس ، ينبوع كلّ جَدْل ، ودافعُ كلّ وجَل [3] . وحسبك بي عنده من جليس رئيس ، أُكلِّمُ منه سحبان [4] ، وآخذُ عن لقمان ، وأستنزلُ كيوانَهُ:

لهُ كِبرياءُ المشتري وسُعودُه وسَطوَةُ بهرامٍ ، وطرفُ عطارد [5]

وقمرٌ إلاّ أنّهُ بشر ، وجبلٌ إلاّ أنّهُ رجل ، بحرُ علم ، وطَوْدُ حِلم ، وعالِمٌ في عالِم ، الأصمعيُّ عندهُ ناقل ، والجاحظ عندهُ باقل [6] ، إذا ركب ضاق عنه الأفق ، وإذا تبدّى وسِعَ الدّهرَ ندى ، وإنْ نَطق بَزَّنَ وصَدَق، وإن كتبَ أبدعَ وأغرب . نداهُ سحائب ، وكُتبُهُ كتائب ، مَشْرَفِيّاتُهُ [7] من لسانه وبيانه ، وخطِّيّاتُهُ [8] من أقلامه وبنانه ، تَمْشُقُ [9] فيها جيادُ فهمِه ، وتَجْري دِرر أشوالِها [10] من آدابِه وعلمِه ، ويسحبُ لها من فكره مضمارا ، ويُثيرُ من مداده

1- الخادر : الليث

2- الجرائر : ج جريرة وهي الجناية والذنب

3- وجل : خوف

4- سحبان بن وائل يضرب به المثل بفصاحته وبلاغته

5- كيوان والمشتري وبهرام (المريخ) وعطارد: كواكب

6- باقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادي يضرب به المثل في العي .

7- المشرفيّ : السيف

8- والخطيّ : الرمح

9- تمشق : تسرع

10- تجري دِرر أشوالها : يراد الخيل والمضمار

قسطلاً [1] وغبارا ، ويُرَيِّبُ فيها الحروف ترتيب الصفوف ، ويمشق بها في **المهارق** [2] مَشْقَهُ في **الطِّلى** [3] والمفارق . هذا إلى روحانيّة مَلَك ، في مُجَلَّلِ مَلِك" . فاستطير فرحا ، وازدهي مرحا ، وخفّ فقام إليّ ، ورفّ يقبل ما بين عينيّ ، وكأنّه إنّما نُشِر من قبر ، أو صحا من سكر ، وقال : أصبتَ والله **القرطاس** [4] ، وبنيتَ على أساس ، وفُزتَ بالقدح المعلّى ، وتحلّيتَ من الجِلّى ، والحديث ذو شجون : متى الحركة ؟ وفيمَ التَّلَوُّمُ والمقام ؟وكنت شاكياً فقلت : **رويدَ الإبلالِ** [5] ، وبُغيةَ الإقلالِ، قال : فَميِّز في كتفِ السلامة إلى وطنِ الكرامة " [6]

نلاحظ أنّ المعلم يسرد مقامته في مدح ابن عبّاد بتسلسلٍ واضحٍ في مراحلها ، وينتقل انتقالاً سلساً بين أقسامها في منهج يشبه منهج الشعراء في قصائد المدح ، فيبدأ بالأساس من حيث البناء ، ويستهل المقامة بمقدمة في الوقوف على أطلال الزهراء وذكرياتها ، وينتقل للحديث عن أسباب الرحيل عن الزهراء وموجباته ، وينقل المعاناة في الغربة ليُحسن التخلص إلى الغرض الرئيس (المدح) بعد وصول الدعوة من ابن عباد. ويكشف عن مواهبه النثرية التي تحتاج الشعر في صلب المقامة فيضفي على الممدوح كل الصفات الحميدة في السيادة والقيادة والكرم والرفعة والعفو والعفّة والحلم واللين والرفق والإصابة والظرف والأدب والعلم وكل ما تغنى بها الشعراء ، ويفخر بصنيعه الفني في هذه المقامة ، ويختمها بخاتمة حسنة .

ويعتمد المعلم الإقناع بالفكرة سبيلا إلى نجاح العمل ، فيحدثنا عن أسباب الرحيل ، وعن عدم قبول النصح من صديقه الذي بين له مصاعب الغربة ، ويمتاز أداؤه بالصدق والوضوح ، عندما يعبر عن فرحته بما كان من دعوته

١-القسطل : غبار المعركة

٢-المهارق : الصحائف

٣-الطلى :الظبي

٤-القرطاس :كلّ ما ينصب للنضال ومنه الغرض يقال : رمى القرطاس : أصاب القرطاس والغرض

٥-رويد الإبلال: مهلاً

٦- ابن بسام "الذخيرة " : ١/٢ ١١٦ ١١٨

فيرسم صورة الارتباك والتعثر لشدة الفرح ، ويقول بكل شفافية : "فقمتُ أتساقط من الجذل ، وأعثُرُ في دعائر الخجَل ، مقبّلاً فاه ، وصائحاً : زاه . " ويبرز اضطرابه في اتخاذ القرار، ومعاناته من عجمة الناس في المغرب ، وفرحته بوصول الداعي البشير .

ويعرض المعلم بضاعته الشعرية والنثرية ، وهي جوهر المقامة المدحية مقابلها بما له من خبرة جعلته يزهو بها ، إلا أنّه لا يتطاول أو يُبالغ بالفخر ، مع أنه أهل لذلك ، فيقرن نفسه مع ابن عباد بتواضع جم ، ويقول : " وحسبك بي عنده من جليس رئيس ، أُكلِّمُ منه سحبان ، وآخذُ عن لقمان ، وأستنزلُ كيوان

لهُ كِبرياءُ المشتري وسُعوده ومَنطوَةُ بهرام ، وظرفُ عطارد

وهو الخبير بالنثر ، و الكفيلُ بما تسأل منه وتشرَطُ ، وعلى الرغم من قوته النثرية التي تشبه الشعرية ، نراه يتواضع لمجلسه ، حتى في نثره الذي استُقدم من أجله ، ويدّعي أنّه يستمد كل ما عنده من حكمة ابن عباد ومكانته وكبريائه وسطوته وظرفه . وقد بلغ النهاية في الاستخدام الموفق للإرث الثقافي المعرفي والأمثال والصور .

٢-مدح ابن صمادح

قصد أبو محمد بن مالك القرطبي المريّة لتهنئة ابن صمادح بالنصر ، وكتب مقامة طويلة عرض ابن بسام فصولاً مقتضبة منها لطولها .

"يقول في فصلٍ منها : إنْ نطلّع إلى نبأ من أنباء عبيده فإني أُنبّئه ، ولا أنبئ إلاّ حقًا ، وأُخبره ولا أُخبر إلاّ صدقاً :أمّا الأفئدة من بعده فمفؤوده ، وأمّا الأكباد لبُعده فمكبوده ، والدّهر من بعده ليلةٌ ليلاء ، والناس جبلّة دهماء.

وفي فصل : بشرى لنا ولدولته الغرّاء ، وهنيئاً لنا ولحضرته الزهراء ، فتحٌ تفتّحتْ له أزاهير النجاح ، وبِشرٌ تباشرتْ به تباشير الفلاح ...

وفي فصل : فلله يومنا بالأمس ، ما أجلبه لألطاف الأُنس ، حين طلع علينا من كان طلوعه ألذّ إلى الأعين من وسنها ، وأوقع في القلوب من سكنها ...

وفي فصل : لا تسمع إلاّ همهمة وصهيلا ، وقعقعةً وصليلا ، فخِلتُ الأرض تميل ميلا ، والجبال تكون كثيبا مهيلا .... ، ومنها : حتّى لاح لنا من ملك الأملاك ، وثالث القمرين في الأفلاك ، وجهٌ جلى **هبوة**[1] ذلك العثير ، والعجاج الأكدر ، فحين جلّت غرّته الغراء جلابيب الغُبار [لم ندرِ أبدرٌ الليل] أم شمس النهار...

وفي فصلٍ : كلٌّ قد أخذ عتاد اليوم للبأس الشديد ، يُظاهِرُ بالحديد على الحديد ، تلبّبَ **بالسابريّة**[2] ، وتدرّع وتعصّبَ **بالصِّقال**[3] ، وتقنّع حتى المقلةُ النجلاء ، والحلقةُ **الحوصاء**[4] من

١-الهوة : الغرة

٢-تلبّب بالسابريّة : لبس الدروع المنسوبة للسبيج

٣-الصِّقال : كل مصقول والمراد به السلاح

٤- الحوصاء : الضيقة

البلامق [1] والدروع ، سواء كلّ مسرودٍ من **الدخارص** [2] **مُتَأَلِّقِ دُلامص** [3] ، كأنّما جللته بحبكيها السّحاب ، أوخلع بُرده عليه الحُباب ، أو غُمس في ماءٍ فجَمَدَ عليه الحُباب ، وكأنّما باضَ على رؤوسهم نعامُ **الدَّوِّ** [4] ، وبرقت في أكفّهم بوارقُ الحوّ ، لكنّها ما خُرِّمت فبوارق ، وإذا صُبّت فصواعق...

وفي فصل : ومن كلّ **مثقّف الكعوب أصمّ الأنبوب** [5] كأنّما سلب من الرّوم زرقتها ، واجتلب من العرب سمرتها ، وأخذ من الذئب غَسَلانه ، ومن قلب الجبان خفقانه ، ومن رقراق السراب لمعانه ، أو استعار من من العاشق لونه ، ومن العليل ذبوله .

فكررت الطرف خلال تلك الجياد ... : فمن مبيَضّ شطرٍ كابيضاض المَهرَق ، ومسود شطر كاسوداد الغَسَق [6] ... ومقسّم السربال بين الجنح والفجر ...ومن وَرْدٍ كأنّما جُلِّل بورد... ، ومن أصفر كأنّما يصفر عن وجنة عليل ، وبرقل في حلّة أصيل... ومن ذي كمتةٍ [7] قد نازع الخمر جريالها ، فسلبها سربالها ، ومن مُحَجَّلٍ **هِملاج** [8] كأنّما سوّر بوقف عاج ...

وفي فصلٍ منها : وعلم أن الدّاء يبرأ إذا حُسِم ،والخطب يستشري كلّما قُدِم ... ، ومنها : ولمّا علم أنّه إمّا شَرَقٌ ، وإمّا غَرَقٌ ، وعاين الموت مُحمرّةً أظافره موفية موارده ومصادره ... ، فرمى بياضه صاغرا

---

١ - البلامق : الدّاء

٢ - الدخارص : ما يوصل به بدن الدرع لتتسع

٣ - الدّلامص : البرّاق اللماع ومنه الدهب

٤ - الدّوّ : البلاد الواسعة

٥ - مثقف الكعوب أصمّ الأنبوب : الرمح ليس بمجوف

٦ - الغسق : الظلام أو ما بين الليل الأسحم أو شبه الازورد

٧ - الكُمتة : الصهلة بين الأسود والأحمر

٨ - الهِملاج : الحسن السير في سرعة وخفة

إلى السلم ، ثِقةً بعفوٍ كظلّ المزنةِ الممدود ، وكرمٍ كشطِ اللُّجّة المورود... وما دلاّهم في غدرهم الذي غدروا ، وغرّهم في خترهم الذي خترُوا إلا العلم بأن سوف يعفو حين يقتدر...

وفي فصل : فيا أيها المغترّون بخُلُقِهِ الفضفاض ، وكَرَمِهِ الفيّاض ، لا يُجْهِلَنّكُم تحلُّمُهُ ، ولا يغرّنكم تكرّمُه ، فالبحرُ قد تُردي غوارِبُه [1] وليس بِطامٍ [2] ، والعارضُ [3] قد تصيب صواعقُه وليس بِرُكامٍ [4]، والنصلُ [5] قد يُرى وليس بمؤثّل [6] ، وأين نارٌ ليس لها شرار ؟ وأين خمرٌ ليس لها خُمار ؟ فهو جدبٌ وربيعٌ مُعرِق ، وليلٌ ونهارٌ مُشْرِق ، فيه الصّابُ [7] والعسل ، وفيه السّهلُ والجبل، له خاطرٌ على خواطرِ الحوادثِ مُرسل ، وطَرْفٌ بأطرافِ البلادِ موكّل ، فأنّى يعتادُ من تَميدُ [8] الأرضُ إذا وَجَم [9] ، ويَرِقُّ نسيمُ الهواءِ إذا ابتسم ؟ فلم يجتمع للملكِ . حاشاه . خضابُ الصوارمِ واجتنابُ المحارم. فسَمَ العدلَ بين البدوِ والحضر كقسْمَةِ الغيثِ بين النبتِ والشّجر ، فلا غَرْوَ أن يفوقَ جميعَ الأنام وهو من النام ، فإنّ المسكَ بعضُ دمِ الغزال ،وإنّ معدِنَ الذّهبِ الرّغام [10]، فهو البلخُ [11] المتدفّق والأزهرُ المتألّق من جوهرةِ المجدِ

١-غواربه : أمواجه

٢-طام: ماؤه كثير

٣-العارضُ : السحاب الممطر

٤-الركام : ما اجتمع من السحاب

٥-النصلُ : حديدة الرمح

٦-مؤثل :خالد ومجدي

٧-الصابُ منه العسل

٨-تميدُ: تمور

٩الوَجم : صمت

١٠-الرّغام : التراب

١١-البلخ : المقصود سوريا

وهو ماؤها ، ومن مُهجةِ العلياءِ وهو سويداؤها ، ولا يقتدي في سؤددٍ بغريب ، بل يجري على سننٍ منه وأسلوب كالغيثِ شؤبوباً بشؤبوب [1] ، والرمحِ أنبوباً على أنبوب [2] ...

وفي فصل : فلله أي مرادٍ رددتُه ، وأيُّ موردٍ وردتُه ،لم أكن ممن غرّه السراب ، حين أعوزه الشراب ، ولا كنت كمن زجر الطير بالنجم والأدنزان ، ولا ممن سقط العشاء به على سرحان ، ولا كمن قال مرعىً ولا كالسَّعْدَان ، كلاّ إنّ مملوكاك ألقى أورافه حيث مدّ المجد رواقه ، بحيثُ يُعتَصَرُ الندى من عوده ، ويُرتَشَفُ صِرْفُ الجودِ من ناجوده [3] فانتقيت الجار قبل المنزل ، وبوّأتُ رَحلي في الحلِ المبقّل ، ورتعت في أثر الغمام المسبل ...

وفي فصل : " ما رأيتُ وجهاً أسمح ، ولا حلما أرجح ، ولا سجيّةً أسجح ، ولا بشراً أبدى ، ولا كفّا أندى ، ولا غُرّةً أجمل ، ولا فضيلةً أكمل ، ولا خُلُقا أصفى ، ولا وعداً أوفى ، ولا ثوبا أطهر ، ولا سمتاً أوقر ، ولا أصلا أطيب ، ولا رأياً أصوب ، ولا لفظاً أعذب ، ولا عرضاً أنقى ، ولا ثناءً أبقى مما خصّ الله به ثالث القمرين ، وسراج الخافقين ، وعماد الثَّقَلَين ، المعتصم بالله ذا الرياستين ...

وفي فصل: فإني غادرت بعدي لحما على وضم [7] ، وجُرْحَى بين عقبان ورخم [8]...

---

١ -الشؤبوب: المطر الشديد

٢-الأنبوب : قناة الرمح

٣ -الناجود : إناء الخمر

٩ -سنادح : سعة وفسحة

٧-وضم : كل ما يوضع عليه اللحم من خشب او حصير يوقى به من الأرض ، والمراد أنه ترك أولاده صغاراً

٨-عقبان ورخم من كبار الجوارح .

وفي فصل : ويا خفي ألاّ تكون معونتي له إلاّ باللسان دون السنان...، ولولا أفرّخ كرغب القطا ...، لامتطيت من جدواه السابح اليعبوب ...، فيبصر هنالك مملوكه ابن مالك ، يلاعب الأسنّة كعامر بن مالك ... ، فطورا طعنا بالمثل وضربا بالمنصل ، وطورا ارتجالا بالخطبة الفيصل كخطبة قيس بن سنان في حمالة عبس وذبيان... فلو شهد هنالك لشهد أمرا معجبا ، وأبصر خطبا مُسهبا ؛ فيرى شقشقة وقرما مصعبا ، يجنحهم إلى السلم لمّا لمّا ولُبّا لُبّا "[1]

لقد نقل ابن مالك القرطبي لابن صمادح سرور الناس بالنصر ، وتعلقهم به وحبّهم له ، ورسم لوحة للوفود تنتظر قدومه إلى مهرجان النصر بفارغ الصبر ، ، وكيف أطلّ على الجموع فتدافعوا للقائه وتحيته ، وعظّم من عديد الجيش وحديده .

وتحدّث عن فرار الحسم وما تلاه من انهيار الحصن وميله إلى المهادنة بعد أن تبخرت آمالهم ، وذكر ما حال دون وقوفه في صفوف ابن صمادح خطيباً محرّضا أو حربيا مسهّدا ، وعزى تقصيره بانصرافه إلى العناية بصغاره ، وقد تركهم كومة من اللحم في مفترس جوارح .

ولجح في تحليل نفسية الخصوم ، واستعرض محفوظاته ؛ فديّج المقامة بما حفظ ، حتّى انعدم الحوار ، وغاب الأبطال ، ولم يبق في الميدان إلاه ، يوظف الألفاظ القديمة ببراعة كبيرة في مخارم النثر ومضايقه ، ويحلّ الأبيات الشعرية ، ويستلب من السابقين ويزين ما أورده بما أوجده .

١- ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢/١ : ٧٤٠ - ٧٥٠

يتحدّث محارب بن محمد بن محارب الوادي آشي عن علاقةُ صداقة نشأت بين (سعد بن منصور) و (فتح بن ميسور) من قبل أن يفرقهما الزمان ، حيث انتقل فتح من مدينة صور إلى مدينة سلا فمسينة ثمّ المريّة ، وظلّ يترحّل حتى وصل إلى وادي آش ، وعند مشارفها جلس لبرتاح ، واسند إلى جذع شجرة توت ، وبينا هو على تلك الحال رأى فارساً بيده صقرٌ ، يغذُّ السير بحثا عن الطرائد بهمّةٍ تُجلُّهُ ، على فرسٍ صفراء مصقولة الأديم حسنة القد ، وكان الفارس مُعْتَمّاً مُلثماً ، وتعارف الرجلان ، وسارا معاً بعد أن آنِسا بعضهما ، فقد كان الفارس خفيف الظلّ وأهلاً للصحبة ، وانهمرت عليهما السماء ليلاً فلجأا إلى خيمة أهلها نيام ، لكن صاحب الخيمة نهض مرحباً بهما ، والثمام يخفي ملامحه ، وقال :

" مرحبا بالسراة السراة ، وبالوجوه الوجوه ، انزلوا في رحب وسعة ..." [١] . وسأله فتح عن أمير البلد ، فأخبره : أنهما في ديار " القائد أبي عبد الله بن ميمون ، سيف هذه الملّة ، وحتفُ الطائفةِ الضالة المضلّة ... إنْ حابى [٢] فكرمٌ للمال مبير [٣] ، أو احتبى [٤] فيلملم أو ثبير [٥] " [٦]، وأمعن في وصف قدرته على خوض البحار غازيا ، وراح يباسط ضيفيه ...

وكان فتح مشدوداً إلى بلاغة محدّثه ، التي ذكّرتْهُ ببلاغة صاحبه سعد بن منصور ، وبينما صاحب الخيمة يتحدّث عن خصال ابن ميمون وخلاله في غزواته البحرية " حَذَرَ اللثامُ عن صُبْحٍ متلثّم ، و نُطْقٍ غيرِ لكِن ، ولا مُتلعثِم "

---

١ عباس ، إحسان في " تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين " ص٣٢٥

٢-حابا : اختصه ومال إليه

٣-مُبير : مفاقر ومبدد

٤-احتبى : جلس على إليته وصنع حديه وساقيه إلى بطنه

٥-يَلَمْلَم و ثبير : جبلان حول الكعبة المشرفة

٦- المرجع نفسه :والمكان نفسه

قال ابن ميسور : " فشممتُ رياه ، وبثثتُهُ ، فإذا هوَ إيّاه ! وقلت : سعد ؟

قال : سعد . جمعتنا الليالي على غير وعد ، والأمر لله من قبلُ ومن بعد " [1] .

فبلغت السعادة مداها بلقائهما بعد طول غياب..

بالغ صاحب المقامة في إطراء عبد الله بن ميمون والثناء عليه ، مضفياً عليه صفات الشجاعة والكرم لكسب ودّه ورضاه ، والحصول على موطئ قدم في جاه ، واستدرار عطاياه . والنفس السبيل إلى مدحه بالحديث عن سهولة مقابلته له ، وسهولة الانتقال بين المدن في تلك الأزمان ، فهو يتنقل بين صور وسلا وسبتة والمرية ووادي آش بيسر وأمن ، وألح على تحسين وصفه لوادي آش تقرّبا وتحببا ، وبالغ في الحديث عن الحسان في وادي الجنان ، فالوادي :

بلدٌ حيثما توجّهتَ منه فابلتك الحسان من كلّ دار[2]

وتشبه هذه المقامة الحكايات الشعبية في الحدث الدرامي ، وتنفك العقدة عندما ينحلّ اللثام عن وجه سعد ، ويعرض فيها الوادي أشهى ما يُسعد السامع من خبر اللقاء المثير، فيحاكي قول العامة : " جبل لجبل ما يلتقي لكن الإنسان يلتقي أخاه الإنسان ولو طال الزمان" . ويؤكد على الكرم العربي وحسن الضيافة أيّا كان الوقت الذي يصل فيه الضيف إلى منزل العربي هناك ليمهد للمطلوب من مجيء ابن ميمون . والمقامة من أنواع الرحل في بعض جوانبها لكن طريقة العرض تكاد تكون لعرض ملكاته الفنية .

---

١ المكان نفسه

٢ المكان نفسه

مقامات الهجاء

تنقل مقامة الهجاء نوعاً سيئاً من السباب والشتائم ، وهتك الأعراض، والمنافرة ، وذلك ما ينبو عنه الذوق العام ، الذي لم يستسغ هذا الكلام ، ولو كان الغرض منه المسابقة وتأكيد البراعة في ميادين القول المختلفة ، ورأينا كيف أعرض ابن بسام عن أدب الهجاء في كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ". وعندما يشير مؤرخو الأدب إلى مقامات الهجاء تكون الإشارات سريعة ، متذرعين بعدم الرغبة في نشر الرذيلة ، وإذا شاعت مقامة في الهجاء سرعان ما ينتصل صاحبها منها تأدّباً وخوفا . فقد رُويت في سبب خروج الأديب علي بن جامع الأوسي من مالقة ، مقامةٌ في هجاء أحد أعيانها ، نُسبت له ، فحشي العاقبة ، وآثر الرحيل [1] .

١-المقامة القرطبية

تحكي المقامة رحلة علي بن هشام من الشام إلى بلنسية في الأندلس طلباً للعلم والأدب على أعلامها الكبار عاقداً على مقابلة الشيخ السري أبي محمد البطليوسي" علّة العَلَل ، وشفاء الظمآن من العلل، مطاف الطلبة ، وإمام الخالة الخلبة " [2]،وعلى مشارف بلنسية يلتقي ابن هشام " بفتىً له **لألاء** ورواء [3]، **عمامته بين الرجال لواء** [4]،**فرعه** أفرع [5]

١-ابن بسام :" الذخيرة " ٢/٣ ٨٠١ و٨٠٥

والمراكشي ، "الذيل والتكملة" تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ص٢٠٢

٢ - عباس ، د. إحسان "تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين " ، ص ٣١٤

٣- له لألاء ورواء : له صباحة ، وبهاء ورونق

٤ - عمامته بين الرجال لواء : علم سيماء القيادة

٥-فرعه الفرع - فرع الشعر

وجيده أتلع [1]، وأنفه ممطول [2]، وخُلْقه مجدول [3] " [4]، ومعه رفقه .

ويتبادل الرجال الحوار ، ويتناشدون الأشعار ، ويسألهما ابن هشام عن الشيخ أبي محمد البطليوسي ؟ فيشنّع الفتيان على الشيخ ، وينعتانه بأسوأ الوصوف ، ويقول أحدهما إنّه : " يأتي المناكر في كلّ ناد ، ويهيمُ في **العَمَهِ** [5] في كلّ واد ، لا يُرجى له ارعواء [6] ، ولا يأسو جرحه دواء ..." [7] ، وأوغل في ذمّه حتى هوت في عين القادم أمُّه . قال ابن هشام : " فلما وجّ سمعي ما وجّ ، وانبلج من أمر الشيخ ما انبلج ، بالغت في الطعن ، وأمعنت في السباب واللعن ، وتممت حضرة ابن معن "[8].

أعتقد أن هجاء البطليوسي كان توطئةً لمدح ابن صمادح ليحقق في المرية ما فشل في تحقيقه في مرسية ، فقد قصد بلنسية لكنّه ما حصّل مبتغاه ، فانتابه الشعور بالإحباط ، بعد أن سقط به العشاء على سرحان ، فشنّ الغارة على البطليوسي حاطباً مع جليسيه ، وتلك فيما أظنّ هي الغاية من المقامة ! ودليل ذلك ما جاء في رسالة الانتصار للبطليوسي من ذمّ صاحب المقامة ، قال : "كلامه زور ونظامه فجور ، وثناؤه كذب ومضماره لعب ، إن ذكر

---

١ وجيده اتلع : طويل العنق

٢-وانفه ممطول: طويل معوج

٣-مجدول لئيم حسه

٤- المكان نفسه

٥-العمه : التحير والتردد بحيث لا يدري أين يتوجه

٦ ارعواء : صلاح

٧ - المرجع نفسه :٣١٥

٨ - المكان نفسه

العلماء أفحش ، أو وصف الفقهاء أوحش "[1] ، وعداوته شديدة لهم ، وذمه المتسرع لا يدع مجالاً لتصديقه .

وقد يكون ما قاله ليس إلاّ مباراة ومجاراة ، إذ كيف ينقلب على عقبيه ، ويرجع عن قصده إلى المريّة ، عندما سمع الوشاية راح يشتمه مع الشاتمين ، من غير أن يتوثّق من كلامهما ؟

وندحرجت مقامة هجاء البطليوسي مثل كرة النار بعد أن رماها الفجار على زرع الكتّاب الكبار، فقد نُسبت إلى غير كاتب ، فنسبها بعضهم لأبي النصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله ت ٥٢٩هـ .

وقيل : كتبها ابن أبي الخصال ؛ لكنّ الأخير تبرّأ من جريرتها ، ودافع عن نفسه دفاعاً مُفْحِماً ، فقال :

ما كنتُ أشْتُمُ قوماً بعد مدحِهِمُ ولا أُكَدِّرُ نُعْمَى بعدما نَجِبُ

وناقش الرسالة مناقشة تحليلية في المبنى والمعنى ، وقال مترجحاً : "ما هذه المقامة إلا قيامة حشرت الكرام وحاشت ، وما استثنت ولا حاشت ، أصابت وأشوت ، وصابت وأخوت وعنّت لتخص ، وباحت لتقص ، والمناجي لبيب ، وقد يؤذى من المقة الحبيب... ، ولن تخفى على ذي بصر خطّها ، ولا يغيبُ مُستنبَطُها ، وكيف ، وهناك فطنةٌ تخلّصُ بين الماء واللبن ، وتفرّقُ بين القبيح والحسن ، فلْيُصْرَفْ هذا اللجامُ لمن عَلَكَهُ ، وَلْيُنْطْ هذا الدّمُ بمن سَفَكَهُ "[3].

.....

١- ابن بسام : "الذخيرة" ٢/٣ ٨٠١

٢-المصدر نفسه ٨٠٣

٣-المصدر نفسه ٨٠٥

يبدو أنّ واشياً نجح في الإيقاع بين الأديب عمر المالقي ت ٨١٤هـ صاحب الأزجال وشريكه في الحيل والشعوذة ، فرفع الشريك الغطاء عنه ، وبدأ يتّهمه ، ويسفّهه ، ويكشف حيله . وثائر الزجال فكتب له قائلاً :

" يا عماد السالكين ، وعُمدة المستفيدين والمتبركين ، ومُمال[1] الضعفاء والمساكين المتروكين ، في طريقك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك تزهى العباءات وتروق الدلافس [2]، وبكتابك تحيا جوامد الأفهام ، وبعذبتك تشرّد ذباب الأوهام [3]، وفي زنبيلك [4] يُلتمسُ التالد والطارف ، وبعصاك يُهشُّ على بدائع المعارف .

الله الله في سالك ضاقت عليه المسالك ، وشادٍ رُمي بإبعادٍ ، أدركَتْهُ متاعب الحرفة ، وأُقيمَ من صفّ أهل الصفّة [5]، فلا يجد نشاطاً على ما يتعاطى ، ولا يلقى اغتباطاً إنْ حلّ زاوية أو نزلَ رباطاً ، أُقصيَ من أهل القرب والتخصيص ، وابتُلِيَ بمثلِ حالةِ برصيص [6]، فأُحبل عليك ، وتوقّفتْ إقالتهُ على توبةٍ بين يديك ، فكاتبتك استدعاءً ، واستوهبتَ منك هدايةً ودعاءً ، ليسيرَ على ما سويت ، ويتحمل عنك أثنات ما رويت ، فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزاً ، ويُباهي بك كلّ من خاطبك مستجيزاً ، فاصرف إليَّ مُحيَّا الرضا ، وعُدْ من إيناسك للعهد الذي مضى ، ولا تُلْقِني مُعرضاً ولا مُعرّضاً ، وأصغِ لي سمعك كما قدّر الله تعالى وقضى :

١-الكمال : الملجأ والغياث

٢-الدلافس : ثوب من كتان أو قطن

٣ -عذبتك تشرّد ذبابة الأوهام : بليغ كلامك يزيل غباوة الأوهام

٤ -الزنبيل : الجراب ، واليوم يُعمل به

٥- أهل الصفة : من فقراء المهاجرين لا مأوى لهم ، آووا إلى جدار المسجد وصفته.

٦ -برصيص : من عباد بني إسرائيل ، غرّه الشيطان .

تعالَ نجددها طريقةَ ساسانٍ [1] نَعَضُّ عليها ما توالى الجديدان

وبا بأبي الفصالِ شيخُ طريقةٍ خلوبٌ لألبابٍ ، لعوبٌ بأذهانِ

إذا جاء في الثوب المخبّر [2] خلتَهُ زنبيرةً [3]، قد مُدَّ منها جناحانِ

فما تأمنُ الأبدانُ آفةَ لسعِها وإنْ أبلت في سابغاتٍ [4] وأبدانِ

سأدعوكَ في حالاتِ كيدي وكديتي بشَيْخَيْ ساسانٍ وعَمَّيْ هامانِ " [5]

وعمد إلى الإضحاك والتسلية على سبيل الإحماض ، كما في قوله : فلو كنت للفتح بن خاقان صاحبا ما قُتل ، ولو كنت للصابي صديقاً ما سُجن ، ولو كنت من عبد الحميد الكاتب مقرباً ما امتحت المروانية ، ولو دعوت على أبي مسلم ما حكم بخراسان ، ولو كنت غازياً مع أبي يوسف ما غُدر ، ولو وطئتَ بساط للذريق ما كاد له إليان ...

وذكّر صديقه بالأيام الخوالي ، وما صنعا فيها من الحيل للحصول على المال ، وعبّر عن حاجته إلى رد من صديقه يعطيه الإجازة في السحر والشعوذة ، ليرتفع مقامه أمام الناس ، وقال :

---

١ – ساسان : ملك الفرس ، وإليه ينسبون الزي . وطريقة ساسان هي طريقة أهل البادية .

٢ – الزنبيرة : حشرة أليمة اللسع

٣ – المخبّر : الموشى

٤ – سابغات : دروعات طوال

٥ – المقري التلمساني : "نفح الطيب" : ج ٥ ، ٤٠ – ٤١ . وانظر " إزهار الرياض في أخبار القاضي عياض " لشهاب محمد بن أحمد المقري ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة : ١/ ١١٦ – ١١٧ . وص ١٢٤–١٢٥ ؛ و مرتاض : " فن المقامات في الأدب العربي " ص ٢٥٣ .

فلا تنسني من أهل ودّك إنني أخافُ الليالي أن تطول فتنساني

ولا خيرَ إنْ لم تجعل كفاءَ قصيدتي كفاء ابن درّاجٍ على مدح خيران [1]

ولا تنسَ أيّاماً تقضّتْ كريمةً بزاوية المحروق أو دار همدانِ [2]

وتأليفنا فيها لقبض إتاوةٍ وإغرام مسنونٍ وقسمةِ حُلوانِ

وما هو قصدي منك إلاّ إجازةً تحوّلُني التفضيلَ ما بين خلاّني

وخلِّ مفاتيحَ الطريفةِ في يدي وسوِّغ لهم حكمي مزيدي ونقصاني [3]

تشبه مقامة الزجال رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ومقامات الحريري ، على الرغم من غياب الراوي واختفاء الكدية ، ما يُسهم في تقليل فرص انضوائها تحت لواء فن المقامات ، ولم تكن له غاية أبعد من منازعة المتفوقين في هذا المجال لإثبات الاقتدار ، وإظهار المعارف التاريخية والأدبية والفنية .

وقد دوّنها المقري في نفح الطيب ؛ لأنها أخفّ ما رآه من هزلياته ومجونه وتلميحاته ، وعندما شمّ منها رائحة الهجاء المقيت اندفع إلى تعطير كتابه بنونية ابن زمرك مكفّرةً لما مرّ فيها من المجون .

---

١ – كفاء مكانك: ابن درّاج القسطلي: الشاعر المعروف ، مدح خيران العامري .

٢ – زاوية المحروق ، ودار همدان : موضعان بإشبيلية في المغرب .

٣ – انظر القصيدة بتسلسلها في المقري التلمساني : "نفح الطيب" الصفحات ٤١-٤٦ وعدد أبياتها العشر وثلاثون بيتاً

١-رحلة صيد :

بدأ الوزير الكاتب أبو حفص عمر بن الشهيد بمقدمة نقدية تسويغية ، فزعم أنّه ترك الكتابة أو كاد، للكساد الذي لحق بسوق الكتابة ، وكثرة المتسلقين عليها من غير أهلها ، ما أفسد على الكُتّاب الموسومين بسمتها فرصة العمل

وزعم أنّه البليغ المقتدر على تنفيذ أيّة مهمة مهما بلغت تعقيداتها ومتاعبها ، لذلك عاد عن قراره نزولاً عند طلب ابن الحديد : "وماذا عسى أن يصنع بذي مكانةٍ وحسَب ، وقد طلب منه أن يُؤرّخ له بمنظوم ومنثور ؟ "[١] .

وقال : الكتابة رأس المهن كلّها ، وصاحبها مُتمكّنٌ بها ، فقد ينجح فيصل إلى مكانة مرموقة ، وقد يفشل فيضيع ، وبخاصّة بعد أن وَلِي **الأعلاج** [٢] فاختاروا الكَتَبَة على شاكلتهم ، فإذا لم يكن للكاتب صنعةٌ إلاّها، فلا ينبغي التعويل عليها ، قال :

" إنّ صناعة الكتابة محنة من المحن ، ومهنة من المهن ، والسعيد من خدمَت دولةَ إقباله ، والشقيُّ من كانت رأسَ ماله ...، والعاقلُ مَن إذا أخرجَها من مثالبه لم يُدخلها في منافيه ، لاسيّما وقد تناولها يد كثير من السُّوَق ، وباعوها بيعَ الخَلَق من الثياب ، فسلبوها تاجَ بهائها ، ورِداءَ كبريائها ، وصيّروها صناعةً لا يكادُ الكريمُ يُعيرُها لحظَةً ، ولا يُفْرِغُ في قالبها لفظةً ... ، والبليغُ كالجوهريّ واجدُ التّعبِ في نظمِ الدُّرِّ أو المخشْلَب ، وكالصّائغِ واجدُ العناءِ في سَبْكِ **الصُّفْرِ** [٣] أو الفضّةِ البيضاء وكالعقابِ واجدُ الاغواءِ على الصّقرِ أو **المُكّاءِ** [٤]" [٥] .

---

١ ــ ابن بسام "الذخيرة" : ٢/١ ـ ٦٧٥ وما بعدها ط. د. إحسان "تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين" ص ٣٠٩-٣١٠ ٢-الأعلاج : ج علج : الخالي الشديد من الرجال ، والضخم الضخم .

٣-الصُّفْر : النحاس الأصفر

٤ المُكّاء : العصفور الصغير

٥-الكلام لابن بسام .

زيارة منزل بدوي :

وأتحفنا بحديث طويل عن رحلة صيد قادته إلى منزل بدوي ، فوصف مشاهداته بطريقة هزلية مضحكة ، قال : " ويممنا إلى منزل بَدَوي ، ذي هيئة وزيّ :

له منزلٌ رحبٌ عريضٌ مُزَرَّبٌ [1] بأعوادِ بلُّوطٍ وطَوْجٍ مُفتَّلِ [2]

" نرى بعز الأرام في عَرصاتِهِ وقيعانه كأنَّه حبُّ فلفلِ "[3]

فهشَّ وبشَّ ، وكَنَسَ منزلَه وربَّ ،وصَيَّرَ عيالَه إلى ناحية ، وجمعَ أطفالَه في زاوية ، وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف، يتلقّى الواحدَ منّا بعد الواحد ، يأخذُ بِرِكابِه ويُكشِّرُ عن نابه ، ويتمثّل:

أخذي كذا بركابِ الضَّيفِ أنزلُهُ اللُّ عندي من الإسفنجِ [4] بالعسلِ

أو من رغائفِ كانونٍ مُلَهوزَجةٍ أو رائبٍ بَقَرِيٍّ جيِّدِ العملِ

أو من خُوارِ عجولٍ في مسارحِها أو من رُكوبِ الحميرِ الفُزْرِ [5] في الكَفَلِ [6] [7]

١-مُزَرَّبٌ : محاط بالزرب من قصب

٢-البلوط : شجر ،والطَّوْج : نبات الحلفاء

٣-أثبت في المتن و الخذروف : المراة

٤-الإسفنج : كتبه بالقاف .

٥-الفُزْر : النشيطة

٦-الكَفَل : العجز لغة و الوبر الذي يوضع بعد الوبر لإتمام .

٧-المصدر نفسه : ٢/١ ٦٧٦ ٦٧٧

ووصفُ بيتَ البدوي المفروش بالحصير والبسط البدوية والشرائط والحبال ، والمملوء حقاقاً وآنية ، من عتاد من طيب البادية العروس ، فضاحكه الضيفُ سائلاً : "من أين للبداوة بهذا الرَّونق ، وكيف حتى أغرَتْ على حانوت عطَّار... هذا زيُّ العروس ، فأين العرس ؟ . فضحك البدوي ملء فيه ، وتوسَّمت الازدراء فيه ، وأنشد :

يا أخي لحنٌ على أنَّا نتاجُ بَدَوِيُّ

سادةٌ نامٌ لنا في هذه الدُّنيا ذَوِيُّ "[1]

خطبة الديك:

لم يرَ بدّاً من إكرام كلّفَ البدوي الصبيةَ بالقبض على الديك ليذبحه لضيفه ، فجدَّ الديك في الهرب، وعضَّ على أيديهم حين أدركوه ، وأفلت من براثنهم ، وانتفض وصعد إلى خشبة في السقف ، وقال :

" أيها السادة الملوك ، فيكم الشابّ مُتَّع بالشباب ، والأشيب نوَّر شيبُه مع الكواعب والأتراب ، وقد صحبتكم مدّة ، وسبّحت الله على رؤوسكم مراراً عدّة ، أوقظكم بالأسحار ، وأؤذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سفاداً ، وربّيتُ لكم من الفراريج أعداداً ؛ فالآن حين بَلِيَ في خدمتكم ناجي أُلقَى إلى دجاجي ، وتُنحى الشفرةُ على أوداجي ، وحين أدركني الشَّيخ مُزِّقَ لحمي وبُطبخ ؟ يا لَلكرام من ذلّ هذا المقام ! وجعلت دموعه تسفح من دمه والحزن يُطبق على فمه . ثمّ خُشِيَ عليه ، فاجتمعت البداوة من كلّ ناحية إليه ، يضربون وجهه بالماء ، ويُخلصون له في الدعاء . وأفاق الديك من غشيته وأنشد :

١- المصدر نفسه: ٢/١ ٧٨.

علام يُقتلُ شيخٌ من كلِّ ذنبٍ بريءُ؟
محقّقٌ مُنحرٌ موجّدٌ سنّيُ
هل نصّ هذا كتاب أو قال هذا نبيُّ؟
لا ذنب لي غير أنّي مؤذّنٌ بدويُّ" [1]

فانتصر له الضيف ، لكن البدوي أبى ، ومضى في مشروعه إلى النهاية .

وصف آنة :

رحل أبو حفص وصحبه إلى آنة وقال فيها :" كلها حانة ، دار **البطاريق** [2]، وملعب الكأس والإبريق ، سالمتها الخنازير، وحياضها المعاصير ، ومياهها الأنبذة والخمور... ونباتها غصون من قلود ، تهتزّ في أوراقٍ من برود ، وتثمر رمانا من نهود ، وتفاحا من خلود ، وعقارب من **أصداغ** [3]، وأفاعي من أسورةٍ وعقود ، وفيها مُدامٌ من **رُضاب** [4]، وسُفاة من **كواعب أتراب** [5] ، وغَيْدٌ لهوى **قرْط** [6]، وارتماجٌ **لكثيبٍ في مِرْط** [7]، وخوْلانٌ لنطاق ، وغَصَصٌ لخلخالٍ في ساق ، وخَنَثٌ في ألفاظ ، ومواعيدُ بألحاظ... " [8].

١- المصدر نفسه: ٢/١ ٦٧٩

٢-البطاريق : الأساقفة

٣- أصداغ: شعر على جانب الوجه

٤-الرُضاب : الريق

٥- كواعب أتراب: فتيات متساويات في السن

٦-القرط : الحلق تعلّق في الأذن

٧-كثيب في مِرْط: عجز المرأة في كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به والمرط: الإزار.

٨- المصدر نفسه: ٢/١ ٦٨١

واسترسل في الحديث عن موجبات حسنها في نظره ، ما يسوّغ انحيازه إليها رغبة فيها وبساكنيها حيث يجد ما تهفو إليه جوارحه من الشراب والصحاب .

قال :" وسرنا حتى رُفع لنا في طريقنا جُدُر ، فإذا كنيسة عارية الأطلال من الجمال إلاّ تعلّة المتوسّم للتخيّل والتوهّم ، كالثوب الكريم أخلقه ابتذاله ، أو كخدّ الأمرد تغشاه سباله ، فهيّج ذكرا وأجد فكرا، فأنشدت:

وكنيسةٍ أخذ البلى منها كما ... أبصرتَ فيتا [1] في مُغارٍ يُنهبُ

بئس المصلّى إن أردتَ تعبّدا ... فيه ، ولكن كان نعمَ المشرَبُ

ثمّ أغذذنا سيرا ، وكأننا نُنَفِّرُ طيرا حتى نظرنا من السائمة تسرح في مروجها ... ، ومازلت أروى هناك بالراح والمَيْس [2] حتى كاد كياني ينقلب إلى نَيْس " [3]

ثمّ رحلوا ، ونزلوا على برك تمخرها الطيور ، وتلجُّ في التغريد ، فجهّزوا الباز والصقور والكلاب ، وأرسلوها للصيد ، فطعموا وأطعموا سباعهم ، فكتب على مرمرة بيضاء شعراً للذكرى .

وبينما كانوا يغادرون المكان ، تلقاهم شابٌّ فرّ من سجن الحصن ؛ يريد النجاة بدينه ، فقد ملّ عبادة الطواغيت وقرع النواويس ، و هرب ، وبكى وشكا ، وطلب العون منهم .

١: فيتا : مفرد : فتية ، فتاة

٢: المَيْس : مصباح الدين (عبارة)

٣- المصدر نفسه: ٢/١ ٦٨٢ ، ٢٨٥

يرصد الكاتب في المقامة مشاهد كثيرة وقع عليها ، تارة ببصره ، وطورا ببصيرته ، يقوم بعرضها بأسلوب الدعابة والإضحاك ، كما في محاولات الإمساك بالديك ، وأسلوب الراغب المتمتّع المتخفي وراء مشهد الدير والغلام . وتظهر في موصوفاته موجهات الرحلة وغاياتها وتحمل في طيّاتها كثيرا من الدلالات الاجتماعية والفكرية والثقافية .

وتعتور المقامة بعض النقائص والعيوب ، ولا تدل على قدرات استثنائية في الوصف ، فقد كان حريّاً به أن يحدد هيئة البدوي ، وخصوصية لباسه ، وسلوكه ، لا أن يقول " وملنا إلى منزل بدوي ذي هيئة وزي " وكفى ! فوصف خباء البدوي مما لا يُحمد له ، أما وصف البحيرات والمشاهدات من سائمة وحائمة فمما يُحمد ، وقد أضفى على المقامة قدراً من المتعة أن أصبح البطل تيسا بعد أن شرب حليب المَاعز ، وعبّر البطل في أبياته ونثرياته عن عناية بالكنس والغلمان ، في كلام ظاهره التعفف، وباطنه الرغبة !

وخلط الكاتب بين وصف منزل البدوي ومنزل القروي ، وفهمْنا أن البدوي يعيش في خيمة ، وبعد أن أتعفنا أبو حفص بحديثه عن أهَرّة خيمة البدوي ، من البسط ، والشرائط ، والحبال ، والخرق ، والعصائب ، فجاء بكل وصفٍ صائب ، وتحدّث عن دار لها كوّة وجدار ، ووصف ما حوته الكوى من حقاق وآنية ، ومن طيب البادية ، " وكثير من شئون ذلك المكان " ؟ ناسيا أو متناسيا أن الحائط والجدران ، والكوى والبيبان ليست من خصائص خباء العربان ، فمتى كان البدوي يسكن في الدور ؟ وعهدنا به من أهل الخيام ؟

ولئن نجح في اختيار البيتين الدّالين على صفة منزل البدوي من حيث الاتساع " رحبٌ عريضٌ ، ومحاطٌ بالزرب من أعواد الحلفاء لتحديد كلّ رَبْعةٍ من رباعه ، وتحدث عما يحيط بالخباء من زرائب الماشية ، فإنّه أخفق في اختيار الأبيات التي تليها ، والتي لا تتحدث عن منزل بدوي بل منزل ريفي .

ولا رابط بين ما تضمنته الأبيات من أطعمة الفلاحين : القطايف والعسل ورغائف الكانون واللبن البقري ، وطعام البدوي المكوّن من: السمن ، وخبز الصاج ، وحليب النوق أو الأغنام...؟

وإذا سلّمنا بأن تربية الحمير وركوبها مشترك بين البدوي والقروي ، فإنه يغلب على القروي ، أما البدوي فإنه ينفر من ركوب الحمير ، ومفرشه سنام البعير . وليس من عمل البدوي الحراثة وتربية العجول، حتى قول: " البدو لو تعرف تفلح ما دارت تشلّح " !

وأخطأ في فهم سلوك البدوي عند الحديث عن إكرام الضيف ولا أدري كيف استقام لأبي حفص أن يجعل إكرام الضيف ذبح دبك هرم ، فهذا منتهى العيب عند البدو ، لأن فيه إهانة شديدة ، وهو يذمّ الضيف بهذا الاحتفال ، فليس من عادة البدو ذبح الدجاج في إكرام الضيف النبيل ، والسائد هو ذبح الإبل أو الغنم ، لكنه استخفّ بالبدوي ، فأخبره الخبر اليقين ، وعفّره بالطحين .

والأغرب والأعجب في كلّ ما ذكر أن يستخدم عبارة " ويكشرُ عن نابه " في موضع البشاشة ، وكان قال " فهشّ وبشّ " ، فهل كان يريد قول الشاعر :" فقلتُ له ، لما تكشّرَ ضاحكا " ؟ وإذا كان هذا ما عناهُ فبئسَ ما أتاهُ . وشتان بين التكشيرتين ، فالأول يُكَشِّرُ لأنه ذئب غدّار ، والثاني لا كَشْرَةَ له؛ لأنه لا يغدر ، وهذا من الخطأ !

أمّا زيارة الدير والكنيسة فإنما تعبّر عن رغبته في زيارة تلك الأماكن ، لما هاجت في نفسه الرغبة في الخمر والنساء ، يتّضح ذلك في عنايته بوصف نساء الدير ، ورغبتُه في الإقامة ، وتسويغ ذلك بزعم أنه جاء تلبيةً لقسم القسيس حتى لا يحنث !؟ " فأقسم القسيس إلاّ ثنوا الأعنّة ، فقبلوا الدعوة ، وأكرمهم في مشرب " نعم المشْرَبُ " ! ثمّ مرّوا على الكنيسة "بئس للمصلّى إن أردتَ تعبّدا " .

وحكاية الشاب الهارب من السجن الراغب في اعتناق الإسلام ربما تعكس رغبته في إثبات انتمائه إلى الإسلام ، بعد انجرافه إلى مجالس الشراب ، وتجديفه على الكنيسة ، وأعتقد أنّه لم يوفّق في حشرها في مقامته .

٢-على المراحل

عرض الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسلم في مقامته قصصا للمذاكرة ، تحكي ما لقيه من المسرات والأهوال في الحِلِ والترحال ، والنجعة والتجوال . فوصف بعض مشاهداته في الحصون والمدن ، مثل أُربولة ، والمرية وألش وفرطبة، وفي بعض القصور كالتاج والزاهر ، وتحدث عن القادة والحكّام ، وأنبأ عن مغامراته ، وأبدى أسفهُ لأنّ الوقت

لم يسمح له بعرض المزيد من مقاماته ، فقال : " ولم ينسج يومُ الإقامةِ لأكثرَ من هذه المقامة " [1] ، وحدثنا عن سبب رحلاته ، فقال :" ما أجاءني حبُّ الرّاحة ، ولا طلبُ **الإراحة** [2]، وإنّما أنا في حُكْمِ شرع ، وأداء فرض ....، ولابدّ أنْ آخذ فيما فيه **شَخْصْتُ** [3]، وله قَصَدْتُ ، وإنّما هي كلماتٌ **مكدودة** [4] ، وألفاظٌ معدودة ، لا تُورثُ الناطقَ **كَلالاً** [5] ، ولا السامعَ **ملالا** [6] " [7]، فابن مسلم لا يريد الإقامة، وإنما يريد التكسب ، وأخذ ثمن كتابه لما تضمنه جواهر الكلمات

وفي فصل منها :"حتى وصلنا إلى دار منفرجة الأقطار ، **مستوفزةٍ** [8] الأنوار ، مندفّقة النهار ، هواؤها جلاءٌ للغم ، وزيادةٌ في العمر ، وضياؤها شفاءٌ **للكظم** [9]، وانشراحٌ للصدر ، وكأنّ مياهَها تنبعثُ من بَنَان سيدها ، فصارتْ عيناً سلسبيلا ، وكان مزاجُها زنجبيلا، أو كأنما مشتْ عيناً **حيوانا** [10] فأنبتتْ من الزبرجد ريحاناً ، ومن الزُّمُرُّدِ شجرا فينانا [11] ، وجعلتْ من النارنج عقياناً ، ومن زهر الآسِ لؤلؤاً ومرجانا. ومِلْ بنا إلى(التاج) وهو مصنعٌ على مفرقِ القصر من

---

١ - ابن حمام " المذهبة " : ١/٣ ٤٤٤

٢-الإراحة: الخروج من النفس

٣-شخصْتُ: خرجْتُ

٤-مكدودة: من الكد والتعب في انتقاء الكلمات .

٥ - كَلالاً: تعبا

٦ - ملالا: ملالا

٧- المصدر نفسه: ١/٣ ٤٢١

٨-مستوفز: مضاءة بنور النهار.

٩-الكظم : الغيظ

١٠-حيوان: أي حية

١١ - فينان : طويل

جانب البحر ، **مُرْدٌ**[1] من فوارير ، وأُلْبِسَ الصّبيخ المستنير ، وقُلِّدَ قلادةَ الطاووس ، ونُقِّطَ نُقَطَ العروس ، فممن يقول: هو قُبَّةُ الفلك ، وممن يقول: هو السماء ذاتُ الحُبُك، وإنهم ﴿لفي قول مختلف، يُؤفَكُ عنه من أُفِك﴾[2]، ونظرنا في صدره من الملك الهمام ، كالشمس تجلّتْ من الغمام ، فقضينا فرْضَ السلام ، وأخذنا مراتب القعود إلى الطعام . يُطافُ علينا **بصِحافٍ** من فضّةٍ وذهب ، **وجِفانٍ كالجوابِ أُتْرِعَتْ من كلِّ أَرَب**[3] فلمّا أتينا على الرّي قمنا إلى الوضوء ، فجيء **بطساس** من التّبر ، وأباريق رُصِّعَت بالدرّ ، ووضعنا بماء قوامه بلّور، ومزاجه كافور.

ثمّ قمنا إلى المصنع (**الزّاهر**) ، وهو نظير (**التاج**)[4] من الجانب الآخر ، لما أُعِدَّ فيه للشراب ، ما يحير الألباب، فألفينا مَوْرِدا عذبا ، ومحلا رحبا ، كأنّ أطباقه مُقَلُ الجفون ، مُلِئت من قُرّة العيون ، وأكواسه **مراشفُ الحُور تُعَلُّ بنُطَفِ الثغور**[5] طلعت منها شجرةٌ مباركةُ النّوى ،﴿ أصلها ثابتٌ وفرعُها في السما ﴾[6] ، صُبِغَ عودها من **الحلي المُنْزَل**[7]،وقام عمودها **كأنبوب السقيّ المُذَلَّل**[8]، والتفّتْ بأغصانها التفاف الذوائب المُعْقَدَة ، والتقتْ أفنانُها التقاء

١- مرد الغلام: سواه وسخه.

٢- سورة الذاريات: ٨ و ٩

ذات الحُبُك : شبكة حسنة التدبير

يؤفك عنه من أفك: يضل .

٣- صحاف وجفان طساس : من أوانى الطعام

- كالجوابي أترعت من كل أوب: كالحياض تجبى فيه

٤- التاج والزاهر : من قصور بني عباد

٥-مراشف الحور تعل بنطف الثغور : شفاه الحسان تبلل الريق

٦- سورة إبراهيم: ٢٤

٧-الحلي المنزل :المجوهر المرصع

٨- السقيّ المذلل : من قول امرئ القيس "... وسالف كأنبوب السقيّ المذلل" وأنبوب السقي المذلل : سائل الجدول الدائم يصنع ليحصد .

الصَّعدة بالصعدة [1]، فبينا نحن نعجبُ من شأنها ، ونستغربُ مناظرَ زهرها وأفنائها ، إذ سطع من جُرثومتها دخان المجمر ، وارتفع من خلال لبسها غُبار العَرْف المعطَّر ، من دون أن يبدو إلى العِيان نارُها ، ويُعلَمَ أين يُوقَدُ عندَيُّها وغارُها "ولله يوم (التاج و الزاهر) عند الملك الماجد الماهر ، فيا له من أنس وطيب ، بين المخورنق والكثيب، في مجلسٍ كأنَّما أُلِّفتْ قواريره من خدود وثغور ، وثماره من نهود ونحور، صعدنا فيه إلى العلياء ، وصرنا كأننا من أهل السماء ، نشرب النجوم بالأقداح ، ونحيي الجسوم بالأرواح ، فبتنا فاكهين فرحين،نرمز بالكؤوس ، ونرقص بالرؤوس ، ونناقف الأحوان ، ونواقف الندمان ..." [2].

وتنقل صاحبنا بين مدن الأندلس ، ولقي في بعض رحلاته مرّ العذاب ، ومن أحسن رسائله المعبّرة عن معاناته بعد تلك الليالي الجميلة ، فقال : " وصرنا بين صعيدٍ زَلِق ، وسماءٍ طَبِق ،...وما زال الرعدُ يقصف والمُزْنُ يَكِفُّ [3]، حتى جُلْتُ البحرَ صار سقفاً ، والسماءَ قد أسقطَتْ عليَّ كِسَفَا [4]، واستُنجزَ القضاءُ ، والتقى الماءُ والماء ، فكلَّما أوينا إلى جدارٍ كاد ينقضُّ [5]، أو لجأنا إلى قرارٍ خُسِفَتْ به الأرضُ ، وقلنا : سنأوي إلى جبلٍ يعصمُنا من الماء ، ويَقِينا مَعَرَّةَ [6]هذه البأساء ، فما كان إلا أن لُذْنا بجانب الطُّور الغربيّ ، وأسندْنا إلى هضبة الفسطاطِ الشَّرقيّ ، وهناك من يشرحُ لك سرَّهُ ويوضحُ عندك أمرهُ ، فكأنَّ الله قد تجلّى للجبل فجعلهُ دَكّا [7]، أو كادَ موسى ينتقهُ علينا نَتْقا فاعتبرَ

1- الصَّعدة: الأرض الصلبة من الرمل

2- المصدر نفسه: ٣/١ ٤٣٢-٤٣٥

3- والمُزنُ يَكِفُّ: المطر ينهمر

4- كِسَفَا : قطع

5- ينقضُّ: ينهار

6- مَعَرَّة: عار

7- نَتْقا: رفعه فوقي به

هِضابا ، وتَقطّع آرابا[1] ، وأهوى إلى الوهدةِ التي كُنّا في طبافِها ، والعقدةِ التي حصلْنا بين أطبافِها ، فلم نشُكّ في أنّنا من أهلِ القبور ، قد ضُبّثَ علينا أرازِبُ[2] منكرٍ ونكير ، ولولا أنّ لله لَمّتنا الحجّة ، وأوضحَ لنا المَحَجّة[3] وأعانَنا على الخصمين ، وعلّمنا التخلّصَ من النّكيرين ، لَضُغِطْنا ضَغطةَ القبر ، ونالَتنا معرّةُ الفقر ، ثمّ إذْ أخذْنا في الهَرَب ، وأخذَت السبولُ والأمطار في الطّلَب ، فتارةً نقعُ من الوعرِ في شرك ، وأخرى نَهفو من الوَحْلِ في دَرَك ، حتى وصلْنا أوريولة ، ولا نراها من تراكمِ الظّلَم ، واختلاطِ العشايا بالعَتَم ، إلى أن ضربَتْ في أسوارِها جباهُنا ، فامتلأتْ من غبارِها أفواهُنا ، والدجى يكفّنُنا بظلمائِه ، والثرى يدفنُنا في طينِه ومائه "[4]

تلك بعض مقاماته التي أرسلها لأغلب صاحب مبورقة ، ضمنها كثيراً من رحلاته وتنقلاته ومسراته ومعاناته ، واعتذر عن التقصير فهو دائم الترحال منذ سنين ، وحدثه عن تصدي إقبال الدولة لجيش المقتدر ، ورحلته إلى أربولة والمرتة ولقاء المعتصم بالله ، وليالي السرور في الناج والزاهر قصور بني عباد، والخروج إلى المظفّر أبي مناد ، وطلوعه إلى الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح ، ومعاناته عندما فصل من إلش ، وتوجهه تلقاء مدين مرورا بقرطبة ، ولقاء المعتضد بالله العبادي ، ومكاتباته للمعتصم وابن زيدون وابن عبد البر ...

ووصف القصور والجوامع والحصون والمدن يمتنهي البيان ، فقدم مقامة رحلية طويلة ومثيرة .وتعدد أبطال المقامة ، وكثروا كثرة مفرطة ، إذ تدور حول أمراء وملوك الطوائف ، وتتناول نفراً من الأدباء والشعراء الكبار .

ويقدم الكاتب نفسه للقارئ بليغاً مفوّها ، يُحسن التصوير ، ويبالغ في التعبير ، مستخدماً كل الوسائل اللغوية والبلاغية ، متمثّلاً نصوص القرآن الكريم ومعانيه ، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من الشروح التوضيحية ومعاني المفردات العصيّة ، فلعلّه قصد إلى غاية تعليمة لغوية إلى جانب الغايات الجغرافية والأدبية ، ما يضفي على المقامة صفةً مدرسيّة تعليمية.

١- آرابا : إربا إربا أجزاء صغيرة

٢- أرازِبُ : ج إرزبة وهي المطرقة الكبيرة تكسر بها الحجارة

٣- المَحَجّة :الطريق المستقيم

٤- المقتبس (قسم) : ١/٣ ٤٣٨ - ٤٣

٣-مقامات ابن الخطيب

بلغت المقامات ذروتها تنوعاً وكثرةً على كاتب العصر الغرناطي لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله السلماني ت ٧٧٦هـ ، وبلغ ابن الخطيب في مقاماته الرحلية شأواً رفيعاً ، تقدّم فيه على كثير من كتّاب المقامات الأندلسيين . وسجل رحلاته في بعض كتبه وفي رسائل قصيرة ، جعلها على هيئة رسائل أو مقامات ومحاورات ، ومن هذه المقامات الرحلية : مفاخرات مالقة بالأندلس وسلا بالمغرب ، ونفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ، ومعيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار .

أجرى لسان الدين في إحدى المقامات " **مفاخرة بين مالقة وسلا** " ، فضل فيها مالقة في البقعة والموقع والتحصينات والعمارة والحضارة والمساكن والعمارة والإمارة والزراعات والصناعات ، ووصفها بأنها دار الملك في الروم والإسلام فهي تمتاز على غيرها بالعراقة والقِدَم ، وسنناقشها في فصل المناظرات .

وقدّم في " **خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف** " عملاً جليلاً ، فيه معلومات قيّمة في جغرافية الأندلس البشرية والبيئية والطبيعية ، وتناول بالوصفِ عشرات المدن الأندلسية في الجانب الشرقي من مملكة غرناطة أيام أبي الحجاج يوسف ابن نصر ت٧٥٥هـ ، ومحلّها الطبيعي فصل الرحلات .

ووصف في مقامة " **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار** " أربعاً وثلاثين موقعاً أندلسياً ، وعشرين مدينة من المدن المغربية ، فتحدّث فيه عن حصونها وأسوارها ، ومنشآتها ومراكبها ، وهوائها ومائها ، وأمطارها وأنهارها ، وبحارها ، وصيدها ، وأسماكها وصناعاتها ، وزراعاتها ، وثمارها ، وحبوبها...، وقد فضّل الدكتور حسين مؤنس هذه المقامة من حيث القيمة الفنية والعلمية على غيرها من مقاماته ، وعدّها في أحسن ما كتب العرب من مقامات [١]

---

[١] انظر مقامات ابن الخطيب الرحلية في: "مشاهداتي ابن الخطيب" ص ٦٩ و"معيار الاختيار ..." ص ١٠٤ و" الإحاطة في أخبار غرناطة " تحقيق د. محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٤ ١/٧١ وما بعدها والمقري ، " أزهار الرياض" : ٣/١ و مؤنس ، د.حسين " طريق الحرية والحضارة في الأندلس " ، ط٢ مكتبة مدبولي ١٩٨٦،ص ٥٧٢ .

قال الراوي :

"سهرَ الرشيدُ ليلةً ، وقد مالَ في هجرِ النبيذِ ميلَةً ، وجَهِدَ ندماؤُهُ في جلبِ راحتِهِ ، وإلمامِ النومِ بساحتِهِ، **فشَحَّتْ عِهادُهم**[1] ، ولم يُغْنِ اجتهادُهم ، فقالَ : ادعُوا إلى طُرُقِي تمّامَها ورسْمَها ، وأمّهاتِ قسْمَها ، فسَنَّ عترتُم عليهِ من طارقِ ليلٍ ، أو غُثاءِ سَيْلٍ[2] ، أو ساحِبِ ذَيْلٍ[3] ، فَبَلِّغُوه ، **والأمَنَةَ سَوِّغُوه**[4] ، واستَدْعُوه ، ولا تَدَعُوه " [5].

وذهبَ الرجالُ ثم رجعوا سريعا ومعهم " شيخٌ طويلُ القامة ، ظاهرُ الاستقامة ، **سَبَلَتُه**[6] مُمَشَّطَة ، وعلى أنفِهِ من **القَبَعِ مَطَّةٌ**[7] ، وعليه ثوبٌ مرقوعٌ ، لِطَمِ الخرقِ عليه وُقوع ، **يُهينِمُ**[8] بِذِكرٍ مسموع ، ويُنبِئُ عن **وقتٍ مجموع**[9] .

---

١ - فشحت عهادهم : قلوا

٢-غثاء سيل : زبده ، وبعر ، حطب

٣-ساحب ذيل : تياه ، لونه يجر على الأرض

٤-الأمنة سوغوه : أعطوه الأمان

٥ - للثري الشمستي ، "نفح الطيب" : ٦ / ٤٣١ و من المطيب "صيار الاخبار" ص ١٠٤

٦ - سبلته : شاربه

٧ - على الله من القبح مطة ، قبح الرجل : مثلها شديداً

٨-يهينم : يدمدم

٩-يعني وقت مجموع له الناس أي اليوم الآخر

فلمّا مَثُلَ سَلَّم ، وما نَبَسَ[1] بعدها ولا تكلّم . فأشارَ إليهِ الملكُ ، فقعد ، بعد أن الشَّمَرَ[2] وابتعد ، وجلسَ فما استرقَ النظرَ ولا اختلس ، إنّما حركةُ فِكْرِهِ معقودةٌ بزمامِ ذِكْرِهِ ، ولحظاتُ اعتبارِهِ في تفاصيلِ أخبارِهِ . فابتدرَهُ الرشيدُ سائلاً ، والتفتَ إليهِ مائلاً . وقال له :

– بِمَنِ الرَّجلُ ؟

قال: فارسيُّ الأصلِ ، أعجميُّ الجنسِ ، عربيُّ الفَصلِ .

قال: بلدُكَ ، وأهلُكَ ، وولدُكَ ؟

قال: أما الولدُ فولدُ الديوانِ ، وأما البلدُ فمدينةُ الإيوانِ .

قال: النِّحْلَةَ[3] ، وما أعملتَ إليهِ الرِّحلة ؟

قال: أما الرحلةُ فالاعتبار ، وأما النحلةُ فالأمورُ الكبار .

قال: فَتُكَ الذي اشتملَ عليهِ ذَلُّكَ[4] ؟

فقال : الحكمةُ فِيَّ الذي جعلتُهُ أثيرا ، وأضجعتُ فيه فراشا وثيرا ، وسبحانَ الذي يقول : ﴿ومن يُؤتَ الحكمةَ فقدْ أُوتيَ خيراً كثيراً﴾[5] وما سوى ذلكَ فَتَبَع ، ولي فيهِ مُصطافٌ ومُرتَبَع ... ، يا هذا إنّي سائلك ...فأخبرني ما عندَكَ في هذا الأمرِ الذي بُلينا بحملِ أعبائهِ ، ومُنِينا بِمُزاوَضَةِ إبائِهِ[6] ؟

١- ما نبس : ما حرك شفتيه

٢- الشمر : نهأ وشد ثوبه للجلوس

٣- النحلة ، النحلاء أي ما ادعاه ، ما ملك ؟

٤- الذل : الطبع

٥- سورة البقرة الآية

٦- مزاوضة إبائه : التصدي له

-فقال: هذا الأمرُ قِلادةٌ ثقيلة ، ومن خطرِ العَجْزِ مُستقيلَة[1] ، ومُنْتَقِرَةٌ لِسِعَةِ الذَّرْع[2] ، وربطِ السياسةِ المدنيّةِ بالشَّرع ، يُفْسِدُهُ الحُكمُ في غير محلّه ، ويكونُ ذريعةً إلى حَلِّه ، ويُصلحُهُ مقابلةُ الشَّكلِ بشكلِه ، ومَنْ لم يكنْ سبعاً أكلاً تداعتِ السِّباعُ إلى أكلِه .

فقال الملك :أجملتَ فَفَصِّل ، وبَرَيْتَ فَنَصِّل[3] ، ووكَلْتَ فأوصِل[4] ، وانثرِ الحبَّ لِمَنْ يُحَوصِل[5] ، واقسمِ السياسةَ فنونا ، واجعلْ لكلِّ لُقَبٍ قانونا ، وابدأ بالرعيةِ وشروطِها المَرْعيّة .

فقال: رعيَّتُكَ ودائعُ الله تعالى قِبَلَكَ[6] ، ومِرآةُ العدلِ الذي عليهِ جَبَلَكَ ، ولا تَصِلُ إلى ضبطِهم إلا بإعانةِ الله تعالى ؛ التي وهبَ لكَ ، وأفضلُ ما استدعَيْتَ به عَونَهُ فيهم ، وكِفَايَتَهُ التي تكفيهم . تقويمُ نفسِكَ عندَ قَصْدِ تقويمِهم ، ورضاكَ بالسهرِ لتنويمِهم ، وحراسةِ كَهْفِهم ورضيعِهم ، والترفُّعِ عن تضييعِهم، وأخذِ كُلِّ طبقةٍ بما عليها وما لها أخذاً يحوطُ مالَها ، ويحفظُ كمالَها ، ويَقْصِرُ عن غير الواجبات آمالَها ، حتّى تستشعرَ عِلْيَتُها رأفتَكَ وحنانَكَ ، وتعرفَ أوساطُها في النَّصَبِ[7] امتنانَكَ، وتُحذَرَ بِطْلَتُها بِنَانَكَ ، وحذْرَ على كلِّ طبقةٍ منها أن تتعدى طورَها ، أو تُخالفَ دورَها ، أو تُجاوزَ بأمرِ طاعتِكَ فَوْرَها، وسُدَّ فيها سُبُلَ الذريعة ، وأفصِرْ جميعَها عن خدمةِ المَلِكِ بموجبِ الشريعة... " [8]

واستمر في تقديم حكمته ونصحه للرشيد بمنتهى المعرفة والثقة بالنفس ما حفزه الرشيد إلى طلب المزيد

١-يُقال: استقالَهُ عملاً : طلب أن يُعفيه منه

٢-سعة الذرع : سعة المأتى

٣-بَرَيْتَ فَنَصِّل :ليس الحديدة في رأس الرمح

٤-وَكَلْتَ فأوصِل ٧ نفس الوزن

٥-حوصل: الطير بضم الحب في الزرع ، والإنسان يجمعه في الحوصل: الثوب الطويل

٦-قِبَلَكَ : تحت يدك

٧-النصب : المعيشة والتعب

٨- المصدر نفسه ٦ / ٤٣٢ -٤٣٣

فتحدّث عن الولد ومما قال :

" وأمّا الولدُ فأحْسِنْ آدابَهم ، واجعلِ الخيرَ دائبَهم ، وخُفْ عليهم من إشفاقِك وحنانِك أكثرَ من غِلظةِ جَنانِك ، واكْنُفْ عنهم ميلَك ... وأيِّدْهم على حسنِ الجواب ، وسَبِّبْ لهم خوفَ الجزاء على رجاء الثواب، وعَلِّمْهم الصّبرَ على الضَّرائر[1]، والمهلةَ عند استخفافِ الجرائر[2] ، وخُذْهم بحسنِ السّرائر[3] ، وحَبِّبْ إليهم مِرَاسَ الأمورِ الصعبةِ المراس ، وحُسْنَ الاصطناعِ[4] والاحتراس ، والاستكثارِ من أولي المراتبِ والعلوم ، والسياساتِ والحُلوم ، والمقامِ المعلوم . وكَرِّهْ إليهم مُجالَسةَ المُلْهِين ، ومُصاحبةَ السّاهِين . وجاهِدْ أهواءَهم عن عقوقِهم ، وحَذِّرِ الكَذِبَ على عُقُوقِهم ... واحذرْ عليهم الشهواتِ فهي داؤهم ..."[5]

وتحدّث عن الوزير الصالح ، والجندُ ، والخدمُ ، و الحرمُ ... ، واستمرّ في سرد المنهج الرشيد في إدارة شؤون الأمة بالعدل والإنصاف والتأني والحزم ، والعناية بأموال الدولة ، واستخلاص المستشارين العلماء الخبراء ، وعمارة البلدان ، والجنوح للسلم مع المسالمين ، والثقة بالله جلّ في علاه .

وعند منتصف الليل تناول العود وغنى شعراً مال به إلى لحن التنويم ، فستعدّ به الرشيد ، وأخلد إلى النوم.

. . .

١- الضرائر : الشمائل والخصائص

٢- الجرائر : المخازي والذنوب

٣- السرائر : ما يُكتم ويُستر

٤- الاصطناع : مبالغة في صنع ، قال تعالى في خاطبة موسى عليه السلام (واصطنعتك لنفسي) طه الآية ٤١ .

٥ - المصدر نفسه : ٦ / ٢٧٤

دراسة المقامة *

يسرد الراوي المقامة بأسلوب قصصي شائق مماثل لحكايا ألف ليلة وليلة ، يتجلى فيها الحوار المتخيل بين هارون الرشيد والبطل الحكيم ، ولعلّه اصطنع هذا الحوار بغية الإمتاع والإفادة منه في قوة التأثير ما يهيئ، المتلقي لدوام الإصغاء ، ويحقق الغاية في توصيل مضامين الحكاية في الوعظ غير المباشر. وغرض المقامة سياسي تثقيفي وعظي ، يخفي الرغبة في التأكيد على اهتمام الفرس بالحكمة والنصح والإرشاد في إدارة البلاد والعباد ، وهذا هدفٌ رئيس في المقامة ، لا يخفيه زخرف السجعة والزينة اللفظية والبهارج الكلامية التي عمّت أساليب أهل المقامات على اختلاف مشاربهم ، ولئن نطق بهذه القيم بطل المقامة الفارسي فإنما ليست إلا آراء ابن الخطيب ، وخلاصة تجاربه في مجال السياسة والإدارة ، فقد كان وزيراً حكيماً ومشيراً أثيراً وقديراً ، وسياسياً بارعاً في بلاط ملوك بني الأحمر ، وسفيراً إلى سلاطين إفريقية وتونس ..

شخصيات المقامة:

الراوي : شخصية متخيلة ، تقوم بسرد أحداث القصة . ومن صفات هذا الراوي ، كما ورد في المقامة نقل الأخبار ، والولع بالسفر والترحال ، يقول ابن الخطيب :" حَدَّثَ مَن امتاز **باعتبار الأخبار**[1] ، وحاز درجة الاشتهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، **ووفّق بين الكمائم والأزهار**[2] ، وتلطّف بإجلال الورد من تبسّم البهار " [3]

---

*إضافة للأستاذة الدكتورة سواب المهايني

١-اعتبار الأخبار : بالأخبار المثيرة الجيدة والمفيدة

٢-وفق بين الكمائم والأزهار: دخل بين المتلائمات والمزهرات

٣المصدر نفسه : ٩ / ١٣١

والبطل : رجل فارسي الأصل ، أنطقه ابن الخطيب بلسانه العربي المبين ، واعظاً ومعلماً ، وخبيراً يهدي الحكمة والخبرة لهارون الرشيد على هيئة نصائح في ميادين سياسة المجتمع وإدارته ، أملاً في أن يُكتب لحكمه التطبيق والانتشار والاستمرار ، فالحكمة فنه الذي أوتيه.

الخليفة هارون الرشيد : وعليه تدور أحداث القصة ، إذ أُرِقَّ ذات ليلة فطلب من ندمائه أن يأتوه بأول طارق يعثرون فنه ... قدمه الكاتب في —علبه في طوافهم ، فأتوه بالشيخ الفارسي المتواضع ،الذي أخذ يتلو على الرشيد تفاصيل الصورة المرجوة والمتوقعة من خليفة للمسلمين ، فهو يعتمد في بسط سلطانه على مصادر مختلفة خاصّة وعامة ، فيلتقط من أفواه رعيته ما يساعده على كشف أهواء أعوانه ،ويطلب الحكمة أينما وجدها ، لافرق في مصدرها بين عربي و أعجميّ.

وثمة شخصيات ثانوية منها: (الندماء)الذين يشاركون الرشيد السمر، ويمتثلون لأوامره ، فعندما طلب منهم أن يأتوا بأول شخص يعثرون عليه في طوافهم " طاروا عجالى وتفرقوا ركبانا ورجالا ... ، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها والبضاعة التي ربحوها " [1]

و ركز ابن الخطيب في مقامته على الأوصاف الشكلية وأبرز سماته النفسية ، فهو " الأشعث الأغبر واللج الذي لايعبر ، شيخ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ..." ، وهو متزن هادئ ، يمتاز بالعلم والحكمة ، ويتحلى بالظرف وخفة الظل ، فبعد أن فرغ من تقديم نصائحه للرشيد بدأ بالغناء الجميل " فأحال اللحن إلى لون التنويم ، فأخذ كل في النعاس والتهويم ... فخاط عيون القوم بخيوط النوم"، ولما أفاق الرشيد جدَّ في طلبه فلم يعلم بمنقلبه ، وأمر بتخليد حكمه في بطون الأوراق .

وتستلهم المقامة البيئة الأندلسية بكل ما فيها من حضارة وتألق وجمال ، وتمتاز بسهولة الألفاظ وحسن اختيارها . وعلى الإجمال فأسلوب ابن الخطيب شديد الشبه بأسلوب القاضي الفاضل يستخدم فيها السجع والترادف والتوازن في المقاطع ، وتظهر فيها دقة التصوير من خلال التشبيهات والاستعارات والمحسنات البديعية الأخرى ، و الاقتباس من القرآن الكريم .

١- المكان نفسه

١-الموازنة بين البديع والصّابي

كتب أبو محمد ابن القاسم عبد الله بن محمد المهري رسالةً يوازن فيها بين كاتب الدولة العباسية أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي ت ٣٨٤ هـ وأبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ت٣٩٨هـ ، يقول فيها:

" البديعُ والصابي . أعزّك الله - فيما يتجاذبانِه من أهدابِ البيانِ -- فرسا رِهان ، جَرَيا منه إلى مدىً فأدركاه ، وتناولاهُ من عَفْوٍ فَمَلَكاه . هذا يبلُغُ شأوَهُ عَفْواً ، وذاك يَجْهَدُ إليه عَدْواً ، وكلاهما يغرفُ من بحر ، ويقذفُ في بحر ، فالبديعُ إذا رَفَعَ أبْدَعَ ، والصابي إذا صَابَ[1] أصاب ، بيدَ أنَّ البديعَ إذا وَصَفَ رَصَفَ ، والصابي إذا رَامَ مَرامَهُ دَلَفَ[2] إليهِ ورَسَفَ[3] ، وشتّان بين الكلامِ المطبوعِ والمَنْمّقِ المصْنُوع وإنَّ أحقُّهما عندي بالتقديم ، وأحْذَقَهما بفَرْيِ الأَدِيمِ[4] ، مَن سَلِمَتْ مبانِي كلامِهِ عن التّكَلُّف ، وكَرُمَتْ معانِي نِظَامِهِ عن التّعَجْرُف ، والأعْدَلُ في الحكمِ عن الإقرارِ بالفضلِ لأبي الفضل في سَجَاحَةِ[5] الطّبعِ ورَجَاحَةِ الوَضْع ، ولأبي إسحاقَ قوةُ أسْرِ الكلامِ وشدّةُ النّزْع . وإنّما لَرَميانِ معاً إلى غرضِ الإحسان، وكلاهما في إصابةِ المرمى البعيدِ منهُ سيّان . غير أنّ البديعَ أعرقُ نَزْعاً وأفصح ، والصابي أوسعُ باباً في ميدانِ الإسهابِ وأفسح ، لا جَرَمَ أنّهما فارسا الحلبةِ بالإجماع، وإمامَا القومِ في حُسنِ الاختراع ، فإليهما منتهى الحَدّ ، وعندهما تُقْضِي الخناصرَ في العَدّ ، إنْ شاءَ الله . والآنَ قد أفْضَى بنا القولُ في المفاضلةِ بين البديعِ والصابي إلى ما أنبأناه ، ووفّينا كُلّاً حقَّهُ من الوصفِ ، فلم نُنَزِّه منهُ

---

١ - صابَ السهم : سدده فأصاب

٢ - دَلَفَ إليه : أقبل عليه

٣ - وَرَسَفَ في القيد : مشى به رويدا

٤-فَرى الأديم : خرزه

٥- السّجاحة : سهولة اللفظ

شيئاً ولا ألثناه[1] ، ولم أستدلّ فيما ذكرتُهُ بجوادة ، ولا تزيّدتُ عليه بمُزوِّر شهادة ، والسلام "[2].

ولم يُعجب أبو عبد الله ابن أبي الخصال الحجاز أبي القاسم إلى بديع الزمان ، فكتب قائلا : " فالحكومة صعبٌ مُرتقاها ، بعيدٌ مُلتقاها ، وقديماً تجنّبها الحُرماءُ ، وحادَ عنها الحُكماءُ ..."[3]

وختم المقدّمة بتعريض واضح ، فقال :" ولا يخلوا أمراء الكلام من أتباعٍ يمشون على مدارجهم، ويقومون بحجيجهم ، ويحمون حِماهم ، ويرمون من رماهم "[4].

ومال إلى الثناء على أسلوب أبي القاسم.وعاد ليصور له عظيم خطئه في الانحياز إلى بديع الزمان ، فقال : " وأبو الفضل ، وإنْ كان كما سمّيتَ بديعاً ، ولأخلافِ[5] البلاغةِ رضيعاً ، لا يُقاسُ بأبي إسحاق رأساً "[6]، فالصابي كاتب ديوان السلطان ، يجري في نثره على طرائق العرب ، وهو طبقة مرتفعة في النثر لحسن معانيه ، وسبك أسلوبه ، ولتصرّفه في فنون القول المختلفة ، حتى طوّع المعاني ، وانقاد له الكلام،فهو " أبو إسحاق مَعينُ القَوْل ، مُقْدِمٌ على الهَوْل ، يصولُ صَوْلَ القَرْم في الشَوْل[7]. إنْ غضبَ حسبْتَ الناسَ غضابا ، ورأيتَ السهولَ وعوراً وهضابا ، أو رضيَ عادَ المشيبُ شبابا... ، كتبُهُ تُغني عن الكتائب ، وتُقيمُ المِجرَمَ مَقامَ العابِدِ التّائب ...، إنْ عَرّى سَلّى ، أو عاتبَ سَرّى وجَلّى ، وأمَرّ وأحلى ، أو مدحَ نَوّجَ وحلّى ، أو قَدَحَ أحلَقَ وأبلى ، أو غَرّ سَوّلَ وأملى ، لا جرَمَ أنّ لَهُ القلمَ الأعلى

١- ألثناه : نقصناه

٢- الزاوية : د. محمد رضوان : "تاريخ النقد الأدبي في الأندلس" دار الأنوار ط١ بيروت ١٩٦٨ ص ٣٤٠

٣-المصدر نفسه : ٣٤١ نقلا عن رسائل إخوانية أندلسية .

٤- المكان نفسه .

٥الأخلاف: ج خلف والخلف حلمة الضرع

٦المكان نفسه

٧يصول صول القرم في الشول: يسطو سطوة الفحل في الإبل اللاقح

والذُّروةَ الباسِقَةَ لا تُظْفَرُ ولا تُعْلَى ...، وهو يَعْدُ على مَهْيَعِ[1] العرب ، وأسلوبها الأبعدِ الأقرب ، لا يُحْرَمُ توفيقُها ، ولا يُحْزَمُ على حالٍ طريقُها " [2]

وحمد ابن أبي الخصال بديع الزمان حمداً يُشبه الذَّم ، فقال : "رجلٌ لطيفُ الحيلة ، مُشْجِصٌ للأوهامِ المستحيلة ، إنْ أصابَ فرصةً قَتَل ، وإنْ أخطأ خَتَل[3]، ومسخ بالدروة والغاربِ وفَتَل . ضيَّقَ من الكلام ما تَوَسَّع ، ورفعَ الكوى بالمنابر وَرَصَّع ، وشعَّبَ وفَرَّع، واخترعَ من تلك الأخاليق ما اخترع ، فأحسنَ وأَتَم ، وأدرك من تلك الغاية ما يَمَّم..." [4] ، ورفض مقارنة بديع الزمان بالصابي ، ونفى عن الصابي تهمة التكلّف ، وهاجم معاشر الأدباء الضعفاء المقلدين ومنهم البديع ومنعه لهذه العلة من ورود حوض الصابي ، فقال : " فالصابي يَسِيَقُ أعلاقاً [5]، ونحن نُلْفِقُ أخلاقاً[6]... وعُمدةُ إحساننا حين نَغْرَم إنما هي لزوم ما لا يلزم ، ومقابلات يُبدأ بها الكلام ويُختم ... ، أجل ! لو وُقِّتَ للبلغاء يومٌ لا يَعْدُونَهُ ، ونُصِبَ لهم حوضٌ على قَدْرِ الإحسانِ يَرِدُونَهُ ؛ لَوَرَدَ أبو إسحاق أوّل وارد، واخذْنا مع البديع عُصِيَّ الذائد ، وضربَ صاحبُ الحوضِ بيننا وبينه سوراً ، وقال: ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً .ليس بكلامكم من البلاغة طُرُق ، ولا نَبَقَ لكم في الإعرابِ عِرْق... " [7]

وعاد ليعوّض على بديع الزمان بموقع التابع . وأراد أن يجعل الغلبة للصابي ، فاجتهد في عرض أدلته وبراهينه ، لكن بديع الزمان شقّ طريقه إلى قلوب الأدباء وأقلام الكتاب ، ولم ينجح دفاع ابن أبي الخصال في التأثير على مقاماته .

١- المَهْيَع من الطرق :البيّن

٢- المصدر نفسه : ٢٤٢ نقلا عن رسائل أخوانية اندلسية .

٣-ختل :خادع وراوغ

٤المصدر نفسه :٢٤٣

٥العالق المتعين

٦والخلق : البالي الرخيص

٧المصدر نفسه : ٢٤٤

رأى أبو المطرّف عبد الرحمن بن فتوح فتىً بمسجد المرية فهام به ، وبات ليلة من ليالي رمضان عام ٤٢٠ هـ مستأنسا بخياله، جذلان بوصاله "١" ، وفيما كان يحلم بلقاء الفتى ، قطع عليه خلوته قرعٌ ! فأذن للطارق بالدخول ، فإذا هو عينه فقام إليه ، وأقبل عليه ، " فقال له : " يا بن الكرام ، إنّ هذا يومٌ قد بكى ماءُ غيمِهِ ، ونبضَ عِرْقُ بَرْقِه ، وخفقَ قلبُ رَعْدِه ، واغرورقتْ مقلةُ أُفقِه ، ونحن لا نجد الخمر ، فبِمَ نقطعُ تأويبَهُ ؟

فقلت: الرأيُ إلى سيدي ، أبقاه الله !.

فقال لي: كيف ذِكْرُكَ لرجالِ مِصرِكَ ، ووقوفُكَ على شعراءِ عصرِكَ ؟

قلت : خيرُ ذكرٍ .

فقال : من أعذبُهم لفظاً ، وأرجحُهم وزناً ؟

قلت : الرقيقُ حاشيةِ الظَّرفِ ، الأنيقُ ديباجةِ اللُّطف ، أبو حفص بن بُرد .

قال: فمَنْ أقواهُم استعارات ، وأصحُّهم تشبيهات ؟

قلت : البحرُ العجّاجُ ، والبَيْداءُ الوهّاج ، أبو عامر بن شُهيد .

قال : فمن أذكرُهم للأشعار ، وأنظمُهم للأخبار ؟

قلت: الحلوُ الظَّريفُ ، البارعُ اللَّطيفُ، أبو الوليد بن زيدون .

١-ابن بسام : " الذخيرة " : ٢/١ ٧٨٦

قال : فمن أكلفهم بالبديع ، وأشغفهم بالتفسيم والتَّبْيِيع ؟

قلت : الرّائع في روضة الحَسَب ، المستطيل بمرجة الأدب ، أبو بكر إبراهيم بن يحيى الطُّبني . فأنشد :

وخاطبَ قِسّاً في عُكاظ مُحاوِراً على البعدِ سحبان ؛ فأفحمَهُ قِسُّ " [1]

من الواضح أنّه " سعى ابن فتوح إلى رسم لوحة لأدباء وشعراء الأندلس كما نطقت بها ألسنة الناس . وتناول بنقده الجوانب الأسلوبية المتعلّقة باللفظ والوزن والاستعارات والتشبيهات ... ، ولكنها على كل حال من أجمل المقامات التي تسجّل مزايا الشعراء والأدباء الأندلسيين " [2] فقد أراد إثبات صفات بعض أهل عصره من الأدباء ، فاخترع هذه المقامة ، وميز كلّ واحد منهم بصفة يعرفها الناس به ، بعد أن حددها النقاد ، وتناولوها في مجالسهم الأدبية كصفة له ، وهذه المقامة من المقامات اللصيقة بالواقع من حيث تحديد الراوي والكشف عن هويته ، وتُعدُّ من أحسن المقامات التي تناولت الأدباء الأندلسيين ، ويُلاحظ أنّ الأحكام التي أُطلقت على كلّ واحد من هؤلاء الأندلسيين تدور حول أسلوبه من حيث اللفظ والوزن والاستعارات والتشبيهات ، وذكر الأشعار ، ونظم الأخبار ، والتّكلّف بالبديع .

١- ناصر الدين ٢/١ ٧٨٧

٢- راشد ، د.رياض ، خلاصة أطروحة الدكتوراه رقم ٨٢ بعنوان : " نقد الشعر عند الأندلسيين بين التأصيل النظري والتطبيق العملي " مكتبة كلية الآداب بدمشق ٢٠٠٠م ص ١٧٤

٣-منازل الشعراء :

كتب أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني ت ٤٦٠هـ مقامة طويلة تناول فيها ما استطاب من كلام الأدباء وشعر الشعراء ، قال :" جاريت أبا الريان في ذكر أهل النظام ومنازلهم في الجاهلية والإسلام .فقال : عدد الشعراء أكثر من الإحصاء ، وأشعارهم أبعد من شقّة الاستقصاء .

قلت : لا أعنتك بأكثر من المشهورين ، مثل الضَلّيل والفَتيل ولبيد وعُبيد والنوابغ والعَشي ...

قال ابو الريّان : لقد سميت المشاهير ، وأبقيت الكثير

قلت : بلى ! ولكن ما عندك فيمن ذكرت ؟ [١]

فاستهل أبو الريان حديثه بالحديث عن امرئ القيس رائد الشعراء ، فلم يكن قبله مَن فَطِنَ لإشاراتٍ واستعاراتٍ مثل : استبداله أسيلةُ مجرى الدّمع[٢]بأسيلة الخد ، واستبدال بعيدةُ مهوى القِرط[٣] بجيداء ، واستخدام قيد الأوابد[٤] للفرس السابق بلحق الطرائد . " ولم يكن قبله من فطن لهذه الإشارات والاستعارات غيره ، فامتثلها الشعراء بعده ، وكانت الأشعار قبلُ سواذج [٥]، فبقيتْ هذه جُدَذاً[٦] وتلك

١- من بسام ، " الذخيرة " ١/١ : ١٩٧ ١٩٨ . انظر: راشد ، محمد رضوان ، مخطوط أطروحة " نقد الشعر عند الأندلسيين بين الأصول والتطبيق " مكتبة كلية الآداب بدمشق ٢٠٠٠م رقم ٨٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

٢-أسيلةُ مجرى الدّمع : الخدّ الأسيلة

٣- بعيدةُ مهوى القِرط : القِرط ما تعلقه المرأة في لاليها المرأة ، وقد كنايه عن طول العنق وهي من مقاييس الجمال

٤ - قيد الأوابد : الحصان يدرك طرائده ويلحقها فتصير كأنها مقيدة لا تستطيع الهرب

٥-سواذج ، سلاذج ما فيها براعة وإبداع

٦-جُدَذاً ، جديدة

نواهج[1]، وكلُّ شعرٍ بعدُ ماخلاها فغير رائق النَّسج ، وإنْ كان مستقيم النَّهج " [2] فهو" مؤسسُ الأساس ، وبنيانه عليه الناس" [3]

وتابع الحديث عن الشعراء ، ومن لمع ما قال : "وأمّا طَرَفَةُ فلو طال عمرُه لطال شعرُه ...

وأماالعبسي فمُجيدٌ في أشعاره ، ولا كمعلّقته ...

وأما زهير فأيُّ زُهرٍ[4] بين لمَوات زهير ،حِكَمُ فارس ، ومقاماتُ الفوارس،ومواعظُ الزهّاد،ومعتَبَرَاتُ العُبّاد... وأما ابن حلزة فسهّلَ الخزون، وقام خطيبا بالموزون ...

وأما ابن كلثوم فصاحب واحدة ، فلا زائدة ." [5]

واستمر في البيان والعرض فذكر : أبا عقيل ، وزهير ، وابن حلزة، وابن كلثوم ، والنوابغ والمُثَبِّبيّ، والسود بن يعفر ، وحسان ، ودريد بن الصِّمَّة ، والراعي ، وزيد الخيل ، وعامر بن الطفيل ، وابن مُقبل ، وجرول ، وأبا ذؤيب ، والأخطل ، والدارمي همام ، وابن الخطفي ، والقيسان ، وكُثيّر ، والكميت ، وبشار ، وابن أبي حفصة ، وأبا نواس ، والصريع ، والعباس بن الأحنف ، ودُعبل ، وابن الجهم ، وحبيب ،والبحتري ، وابن المعتز ، وابن الرومي ، وكشاجم ، والصنوبري ، والخبزرزي ، وأبا فراس ، والمتنبّي ، وبلغ الأندلسيين ، فقال :

وأما ابن عبد ربّه القرطبي وإنْ بعدتْ عنّا ديارُه ، فقد صاقبْنا[6] أشعارَه ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، ومُكَحَّرَاتِ توبتِه الصَّدُوقة ، ومدائحه المروانيّة ، ومطاعنه في العبّاسيّة ،وهو في كلّ ذلك فارسٌ

١- نواهج : لسم على نهج الشعراء

٢- ابن بسام : الذخيرة : ١/٤ ١٩٨

٣- المكان نفسه

٤- الزُّهر : النجوم ويعني الفحول

٥- المصدر نفسه : ١/٤ ١٩٨-٢٠٠

٦- صاقبنا : قربنا منا

مُحارِس ، وطاعنٌ مُداعِس [1] ، واطّلَعْنا في شعرِه على عِلْمٍ واسع ، و مادّةِ فهمٍ مُضيءٍ ناصع ، ومن تلك الجواهرِ نَظَمَ عِقْدَهُ ، وتركَهُ لمن تحمَّلَ بعدَهُ .

وأما **ابن هانئ محمّد الأندلسيُّ** ولادةً ، القيروانيِ وفادةً وإفادةً ، فرَعْديُّ الكلام ، سَرْدِيُّ النّظام إلا أنّه إذا ظهرتْ معانيه في جزالةِ مَبانيه ؛ رمى عن منجنيقٍ يؤثّرُ في النِّيق [2] ، وله غَزَلٌ **قَفْري** [3] لا عُذْرِيّ لا يقنعُ فيه بالطَّيف ولا يشفعُ بغيرِ السّيف ، وقد نَوّه به مَلِكُ الرّاب ، وعَظَّمَ شأنَهُ بأجزلِ الثّواب ، وكان سببَ دولتِه ، في إعلاءِ منزلتِه ، من رجلٍ يستعين على صلاحِ دنياهُ بفسادِ أُخراهُ ، لِرداءةِ عقلِهِ ، ورِقّةِ دِينِهِ ، وضَعْفِ يقينِهِ ، ولو عقلَ لم تَضِقْ عليه معاني الشعرِ حتّى يستعينَ عليها بالكفر .

وأما **القَسْطَلّيُّ** فشاعرٌ ماهرٌ عالمٌ بما يقول ، تشهدُ له العقول ، بأنّه المؤخّرُ بالعصرِ ، المتقدّمُ في الشعرِ ، حاذقٌ بوضعِ الكلام في موضعِهِ ، لاسيّما إذا ذكرَ ما أصابَهُ في الفتنة ، وشكا ما دهاهُ في أيام المِحنة ، وبالجملةِ فهو أشعرُ أهلِ مغربِهِ ، في أبعدِ الزّمانِ وأقربِه .

وأمّا علي التونسي فشعرُه المورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرطب ، وهو بحتريّ الغرب ، يصف الحمام فيروق الأنام ، ويُشبّب فيُعشّق ويحبب ، ويمدح فيمنح أكثر مما يُمنَح .

هذا ما عندي في المتقدّمين والمتأخرين ، على احتقارِ المعاصرِ ، واستصغارِ المجاورِ ، فحاشَ لله من الإنصاف بقلّةِ الإنصاف ، للبعيد والقريب ، والعدوّ والحبيب " [4].

انتقد ابن شرف الشعر والشعراء في الجاهلية والإسلام ، وأرّخ في المقامة لأكثر من خمسين شاعرا بشكل موجز وبليغ ، بدقة وجرأة ، وقد اعتمد في أحكامه النقدية على محاكاة أحكام النقاد القدامى.

---

١ مُداعِس طعان : مقدام

٢-النيق المكان المرتفع للكلام

٣-قفري : بدوي

٤- الصبح المنبي : ١/ ١ ٢١٠ - ٢١١

١-المقامات اللزومية للسرقسطي

أنشأ أبو طاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الإشتراكوني ت ٥٣٨ هذه المقامات الخمسين ليحقق قصب السبق على ما أنشأه الحريري بالبصرة ، وبذل في تأليفها جهداً كبيراً ، فأتت بدعةً من بدع الزمان ، على غاية من الصنعة و الإتقان.

ووظّف المنذر بن همام راوية السائب بن تمام ليقوم بالمغامرات في هذه المقامات ، وأحيانا يكلّف السائب نفسه بلعب دور مع البطل ،

والبطل الرئيس هو الشيخ أبو حبيب السلموسي العُماني ، وقد يستعين بأحد ولديه حبيب وغريب ، أو يستعين بابنته كما حصل في إحدى مقاماته حيث عرضها للبيع ، فحال رئيس القبيلة دون بيعها ؛ لأنها حرّة لا يجوز فيها البيع، فخسر الشاري ماله الذي مهرها به .

وتناول السرقسطي في مقاماته أغراضا شتى كوصف الدينار ، والحسان ، والعاشق الولهان ، والفرس ومجالس الخمر والقمار ، وكتب مقامات المدح والقدح ، ومناجاة للطلول ، أو تحدّث عن القاضي الجائر ، أو تناول أهمية الخداع والحيل في الحياة ...

وأبرز المكان بوضوح في مقاماته ، كوصف رحلات الشيخ المحتال في اليمن ، وعدن ، وزبيد، والأبواء والشحر ، وعسفان ، وظفار ، وعُمان ، والبحرين ، واليمامة ، وذي الجاز من أرض الحجاز ، ونجد ، وتهامة ، ومدينة السلام ، والأنبار ، وواسط ، والزاب ، والأهواز ، وأصبهان ، ومرو ، والري ، والصول ، والكرج ، وغزنة ، والهند ، والصين ، وسنجار ، وحران ، والرقة ، وحلب ، وفلسطين ، والاسكندرية ، ودمياط ، والقيروان ، وطنجة ، وجزيرة طريف . وقد لا يذكر المكان بالتحديد ، بل يذكر أنه كان في صحراء ؟ ولا نلمس في مقامات السرقسطي حدوداً للبلدان ، فهو يداخل بين قاصيها ودانيها ، ما يُظهره بمظهر الجاهل بجغرافيتها على غير حقيقته .

١-المقامات البحرية:

ونوسّع السرقسطي في الحديث عن الرحلات البحرية بشكلٍ ملفت ، وعرض مشاهد وأماكن بحرية كثيرة ، ونصّب نفسه مرشداً بحرياً ، وتراوح وعظه بين الترغيب والترهيب...الخ

فبينما نراه في المقامة الخامسة يجمع الأعطيات ، ويركب البحر غير هيّابٍ ولا وجلٍ ، مرددا أناشيد الفوز:

"أنا السَّدُوسيُّ حقًّا في البرّ والبحر أسري

طَوْراً خَرِيباً[1] وطوراً أحْنا ثَراهُ ويُسْري

جابَ الفلاةَ رجالٌ وأنتَ في ظلِّ كِسْرِ[2]

تَرُوحُ طَوْعَ الغَوانِي لِفَضْلِ عَزْمٍ وكَسْرِ

ولا ترى العَجْزَ عاراً على استواءٍ[3] وأَسْرِ[4]

مبرزا منافعه ومتالعه وخيراته ، قائلا :

١- خرب : سلبه جميع ماله فهو خريب

٢-كِسْر : جانب البيت

٣-استواء : يقال : مررت برجلٍ سواء والعدم : سواء وجوده وعدمه

٤- السرقسطي: " المقامات اللزومية " المقامة الخامسة تحقيق حسن الوراكلي المقامة ، عالم الكتب الحديث اربد ، ط٢ ، ٢٠٠٦

"وإنّ لهذا البحر لخبرا ، وإنّ به لآياتٍ وعبرا ، إلى **موافق**[1] **ومتالع**[2] للرّزق ومواقع ، فمن لؤلؤ ومرجان، وفاطفٍ من ثمره وجان ... "[3].

لا يطول بنا الانتظار حتى نقف في المقامة السادسة على رأي آخر ، فنسمعه يرفع صوته مذكّراً ومحذّراً من مخاطر البحر ، قائلاً :

" أذكركم بتلك البحور الزاخرة ، والسفن الماخرة ، والبحر العجّاج ، والماء الثجّاج ، وما لأعراف الجون والغيابات والدجون ، والغمرات المظلّة ، والأهوال المطلّة ، وبرّنّة القواصف ، وأنّة العواصف"[4].

ويتذبذب في المقامة البحرية السابعة بين الانتصار للبرّ والانتصار للبحر ؟ ويقارن بين ركوب البر وركوب البحر ، لكنه ظلّ ينصح بعدم ركوب البحر ، ويقول :

" وما الذي حملكم على ركوب هذا العجاج ، وخرق هذا الماء الثجاج ، ولكم في البر منفسحٌ ومجال ، ودونكم من هوله أوحال وأحوال ؟ قد ملكتم عنانه ، وسلكتم بيناته [5] ، هل سُدّت عليكم المسالك أو طُويَتْ دونكم الممالك ؟ [6].

ويتوّج السرقسطي مقاماته البحرية بمقامة أسطورية لطيفة ومثيرة ، يسميها العنقاوية ،نسبة إلى العنقاء الطائر الأسطوري ، ويروي فيها رحلة خيالية تجري أحداثها في بحر الصين.

1-موافق : كل ما يُرتفق به وينتفع بالموانئ

2-متالع : ما يُطلع إليه من البرق

3 -المصدر نفسه : المقامة السابعة

4 -المصدر نفسه : السادسة

5-بيناته : حيناته

6- المصدر نفسه : المقامة السابعة

العنقاوية[1]

يروي البطل أحداث المقامة بإثارة عجيبة ، نقتبس منها :" فبينما كنّا نسير على البر ، انسابت الأرض إلى أن ساخت في البحر سوخا ، وبقينا نبوخ في الماء بوخا، فسبّحنا سبحاً طويلا ، واستفدنا جَلَداً وحويلا ، إلى أن خرجنا إلى جزيرة عريضة ، ذات مرابع خصيبة وأرضٍ أريضة[2]" .

وصَحَونا من سكرتنا ، فعلمنا أننا كنّا على ظهر سلحفاة بحرية ، "أصحرت ثم أبحرت" . وبينا نحن في خوف وهلع ، مما كان ووقع ، دهمنا خطر جديد ، إذ خيّم علينا ما يُشبه السحابة الكبيرة ، وسرعان ما تبيّنّا أنها فرخ العنقاء . فقد كان الشيخ يزقّه بعد موت أمه ، وهو صغير ، وكان الفرخ يرّ صديقنا الشيخ ، وينقل له من ماء النيل ودجلة والفرات وسيحان وجيحان في كل شهر ؛ على ما زقّه في الصغر .

وبشّرهم الشيخ بالنجاة ، وبدأ يشرح لهم كيف يركبون فرخ العنقاء ليخلّصهم من عظم البلاء ، وينقذهم إلى برّ الأمان ، فقال : " يا بنيّ ، إذا سكن وجشم ووكن[3] فتدرّجوا على ذناباه إذا أسبله ، وإيّاكم وإيّاه إذْ اسماه أو أقبله ، ثمّ اصعدوا على زمكّاه[4] إلى فقاره ، وتحفّظوا من عطفة منقاره ، وسورة وقاره[5] ... ثمّ اعلقوا بأطراف ذلك الريش ، وكونوا من كثده[1] على عريش ، حتى تنفذوا كالسهم المريش" .

وفي نهاية المطاف حملهم فرخ العنقاء وألقى بهم في روضة من رياض النيل ، وأنقذهم من مهلكة عميقة .

-كثده : كاهله

١- الهمذاني: "المقامات الأدبية" تحقيق حسن الوراكلي المقامة الرابعة والأربعون، والناشر ، عالم الكتب الحديث ،إربد ، ط٢ ، ٢٠٠٩

٢- أريضة: خصبة

٣- جشم ووكن: اثنان وحداً

٤- زمكّاه : ذنبه

٥- سورة وقاره :ثوبه وهيأته

٢- مقامتان في النقد الأدبي:

تناول السرقسطي النقد في مقامتين إحداهما في نقد الشعراء والأخرى في الموازنة بين الشعر والنثر .

أ-عاد في الأولى إلى ما كتبه القيرواني ،وكتب مقامة تسامتها وتحاكيها ، ينزل فيها أبو حبيب السدوسي على السائب بن تمام ، ويتحاوران في حديث القريض . ويتذاكران في أمر عدد من الشعراء على مرّ العصور مثل : (امرئ القيس وطرفة ، وزهير، وعنتر، وعلقمة ، والمذليين والذبياني ، والأعشى ، وحسان ، ولبيد ، والحطيئة ، والرّاعي ، والفرزدق ، وجرير، والأخطل، وصاحب مي ، وابن أبي ربيعة ، وجميل ، وكثيّر ، ونصيب ، والخنساء ، وليلى الأخيلية ، والقيسين، والصريع ، والنواسي ، والطائيين ، وابن الرومي ، وابن المعتز ، والمتنبي ، وأبي فراس، والشريفين...) .

واستنفد المقامة في الحوار ، كما في وصف امرئ القيس :

"فقلت: ما رأيك في الملك الضليل ؟

قال: ذو التاج والإكليل ، نزيل المعلّى ، له القدح المعلى ، حسبك من حامل لواء ، وقائد أفيال وأذواء ، وقائل غير محتاج ، وفاتح رتق من القول ورتاج . وقد قيل: بدأ الشعر بكِنْدَة ، وختم بكندة ، وكلٌّ بقول ما عنده " [١].

لا تتجاوز الأحكام في المقامة حدود وصف الشعراء ، كوصفه للنابغة الجعدي بأنّه غُفل ، وذمه لبشار لأنّه أعجمي وترتيبه دون الفحول ، والقدح في نثر المعري ، انطلاقا من أن الشعر الجيد والكتابة البارعة لا يجتمعان في رجل واحد !؟

١- المصدر نفسه : المقامة ٤٨

والملاحظ أنّ المقامة تعتمد على أسس الذوق العام ومبادئه السائدة في القرنين الخامس والسادس في إطلاق الأحكام ، وتبتعد عن البناء الفني المرجو ، فلا تظهر فيها عقدة ولا حدث مثير ، ولا تتناول الشعر بالنقد والتحليل ، وتغيب عنهما الجوانب الدرامية .

وتتلاشى فيها فعالية الراوي ، ويصبح جامع لأخبار الشعراء ، ويغدو نقده توقفات قصيرة ومحمولة وهنات سريعة وعابرة لا ترتقي إلى سوية التنظير النقدي الجديد ، وقد أضعف السيطرة على المشهد المقامي تعدد الشعراء ، فشتت دائرة الرؤيا ، وفوّت فرصة الاستمتاع بمقامة لها خصائصها ، وضاق أفق السرقسطي ، وقلّ عطاؤه فأعرض عن ذكر الأندلسيين ، ما يثير الاستغراب ! وبخاصة عندما نرى السالب يُسامح في ذكر المولّدين ولا نسمع ذكراً للأندلسيين !

ب ـ وعمد السرقسطي في المقامة الأخيرة إلى الموازنة بين الشعر والنثر ، فأدار حواراً بين حبيب وغريب يتناول الشعر والنثر : أيُّهما أسبق ؟ وأيهما أفضل ؟ ولأيّهما الغلبة ؟

قال حبيب: " الشعر أصعب مُرتقى وأعذبُ منتقى ، وأبدعُ لفظاً وأسرعُ حفظاً ، وأوسعُ مجازاً وأنصعُ إيجازاً ... وأقصر معانٍ وأبعدُ مبانٍ ، وأروى زنداً وأذكى رَنداً ، وأجرى على اللسان وأحرى بالإحسان ، وأبعث للطرب وأذهب للكرب ، وهل سمعتم بنثرٍ تُخلعُ عليه الملحون ؟ والنثر سهلٌ يسير ، يخدم الأمراء ، ويدبّر السياسة ، ولم تكن معجزة النبي ﷺ شعراً." [1].

و احتدم الجدل بينهما فاستيقظ أبوهما السدوسي ، وقال : "كلٌّ على حباله [2] محمولٌ على الخسف ، معدودٌ من

1- المصدر نفسه : المقامة الخمسون ص٤٦١

وانظر : زايد ، د.جهاد " نقد الشعر عند الأندلسيين" الأطروحة مكتبة الأسد بدمشق ، ٢٠٠٠ ص ١٧٥-١٧٦

2- حباله : عواده

اللِّسن . والشعرُ فحلٌ عقيم ، ومِفْرٌ مُقيم ، ومبغضٌ مودود ، ومعذرٌ مجدود [1]... ، وإنما حمدهُ أوفرُ من ذمّهِ ، وشهدُهُ أكثرُ من سمّهِ ...

وأمّا النثرُ فابنُ وَلُود ، وزَنْدٌ لا كابٍ [2] ولا صَلُود [3] ، عَوْنُ نُرْة ، وأُمُّ بَرّة ، لهُ موضعٌ ومكانة ، وعِزّةٌ واستِكانة ، يحلو لي ويُمِرُّ ويَحْلُ ، يلِجُ في كلّ ناد ، ويبدعُ بكلّ زناد...

فلا نُفضّلا قائلاً على قائل إلا بفضلٍ فاضل ، وطول طائل... ، وخذا في كلّ الأحوال بالأعدلِ الأقسط ، وميلا إلى الأسهلِ والأبسط، ولا تَعْدِلا عن السواء الأوسط " [4] . فالوسطية والاعتدال معيار تفضيل الشعر أو النثر عنده ، والسهولة في التعبير مقياس الجودة .

وعلى الرغم من بساطة المقامتين النقديتين اللتين تناولهما السرقسطي ، فقد أتى فيهما بما تعارف أهل النقد على قوله عبر العصور ، ومنح النقد الأدبي ما يستحقّه من الاهتمام في المجالس الأدبية ، وفي الغرض التعليمي والتوجيهي ، وشكّل إضافة نقدية من علم من أعلام الأدب عامة ، وفن المقامات خاصّةً.

١- مجدود: محظوظ

٢- كاب : حامد نار

٣- صَلُود : صلد الزند صرات ولم يور

٤-المكان نفسه

٥- المصدر نفسه : " المقامة الثامنة والأربعون

٦-المكان نفسه

نموذج آخر :

يمثل البطل دور طبيب في المقامة ،ويفخر بقدرته ، فهو خبيرٌ بمعالجة المصاب بالوساوس ، أو العين ، والمسحور ، ومن يشكو من عارض جنّ ....، تعلّم أسرار الحكمة وخباياها على العلماء.

ويقصده مريض " شقه مائل ، والزبد من فمه سائل " فيتصدّى الطبيب لعلاجه ،ويعرض مشهد الاستشفاء ، فيأمر الجنّي المارد بالبعد عن الفتى وينادي :

" يا مارد سهمك صارد ، ويا مُريد ماذا تريد ؟ ما أطغاك ، ما أبعدك عن الخير وأقصاك ! أخرج يا واغل فإنّك شاغل، إبعَد يا خاتل فإنّك قاتل ... "

فيطرد الجني المارد ، ويشفي المريض من الفالج ، ويشعر بنشوة النجاح ، فيتجه إلى الناس عارضا خدماته وخبراته ، قائلاً :

" أيّها الناس ! عندي في هذا الشأن سرابر ، وخبايا من الحكمة وضرابر ، أخذتها من العلماء ولُقّنتُها من الحكماء أين من شكا من هذه الأعراض؟ أين من رمى من هذه الأغراض ؟ أين من لحقته آفة ؟ أين من برّحت به علاقة أو شأفة ؟ أين من خامرته الأشواق والوساوس ، ولعبت به الأجراس والوساوس ؟ أين من سحره ساحر ، أو دحره داحر ؟ أين من لقصته عين ، أو زهقه دَين؟ عليّ الضّمان ، وأنا الزعيم ، وله النعيم " [٢] .

يُظهر البطل خوفا من المشككين والمرتابين ؛ الذين يرفضون مسلكه في العلاج ، فيعمد إلى توضيح مصادره العلمية ، و يُسند عمله إلى العلم والحكمة ؛ التي يتلقاها من أهلها المشهود لهم في مثل هذا العلاج ، ويدعي أنه الضامن للشفاء ، ويستخدم تعابير غريبة يرددها على مسامعنا ليقنعنا بأنه من فصيلة الأطباء المهرة ، مع أنه من السحرة والمشعوذون والكهان .

---

١ -المصدر نفسه

٢-المقامة (١٦)

يبالغ السرقسطي في إلزام نفسه بالصنعة والزخرف والقيود المرهقة ، فيعتمد طريقة خاصّة في السجع لكل مقامة كالمقامة المثلّثة التي بناها على ثلاث سجعات [1] ، والمقامة المرصّعة التي التزم في عباراتها التقابل بين سجعتين بسجعتين [2] ، والمقامة المدبّجة التي التزم فيها التقابل بين كل عبارتين بثلاث سجعات [3] .

والتزم في بعض المقامات ترتيب أبجد هوّز ، أو الترتيب الهجائي الألفبائي ، حيث ختم نهاية فواصل المقامة بالهمزة فقيّد السجعه بالهمزة ، مثل قوله : "كنتُ زمنَ الشباب والنماء , قد ولعتُ بالنضال والرماء " [3]، أو بختمها بسجعةٍ على حرف الباء (البائية) التي ختمت نهايات فواصلها بالباء ، كقوله : " أقمت في حلب، بين درّ من العيش وحلب " [4] وتابع بالطريقة نفسها المقامة الرابعة والثلاثين (الجيمية) ، والمقامة الخامسة والثلاثين (الدالّيّة) ، و المقامة السادسة والثلاثين (النونية) .

وسمّى السرقسطي بعض المقامات متأثراً بمضامينها ، الخ وسمّى بعضها متأثراً بالبناء الفني لها ، وترك بعض المقامات بغير أسماء [5].

وأتى بمقاماته المتنوعة بما ينافس به ويُفاخر ، ويعطي الأندلسي مكانته في سلّم التفوّق ، فاستحقّ المكانة التي وضعه النقاد فيها .

---

١ - المقامة (١٧)

٢- كما المقامة (١٨)

٣- كما في المقامة (٢٦)

٤- كما في المقامة (٣٣)

٥- فالمقامة ٢٨ سمّاها (الحسناء) ، والمقامة ٤٢ (الفرسية) ، والمقامة ٤٣ (الحسامة) ، بالمقامة ٤٥ (الأسدية)

٢-مقامات الوهراني *

قال الشيخ أبو عبد الله الوهراني : " لما تعذّرت مآربي واضطربت مغاربي ، ألفيت حبلي على غاربي ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي ، فما مررت بأمر إلاّ حللتُ ساحته ، واستمطرتُ راحته ، ولا وزير إلا قرعت بابه ، وطلبت ثوابه ، ولا بقاضٍ إلاّ أخذت سَبَبَه ، وأفرغت جيبه . فتقلّبتُ بي الأعصار وتقاذفتْ بي الأمصار " [١].

و رحل إلى القيروان حالماً بالمجد والسلطان ، لكنّه لم يبلغ المراد ، فكتب رسالة إلى أمّه ضمّنها كثيراً من آلامه النفسية بطريقة مضحكة تنطوي على النقد والسخرية والإغراب .

"مني إلى أمّي: فإني ما أفلحت عندك ولا ها هنا ، دخلت القيروان بكرةً ، واشتهيت أخذ الولاية ضحوةً، وأتزويج بنت السلطان عشيّةً ، فلم تساعدني المقادير ، فرجعت إلى سوق البزّ أبيع وأشتري ، أبيع ثيابي وأشتري الخبز ، إلى أن نفدت البضاعة . فلزمتُ المساجد في أوقات الصلوات ، أسرق أحذية المصلين ، وأرهنها عند اليهود والخمّارين، على النبيذ في المواخير . طيّبي قلبك من جهتي ، وإنْ قيل لك عنّي إني مدبّر ، فلا تصدّقي ، والسلام " [٢]

وقادته الرحلة إلى الشرق إلى مصر والعراق والشام ، وناظر العلماء والأدباء والأمراء فأثنوا عليه ،وكتب في دمشق مقامات كثيرة من أهمها مقامات مساجد الضّياع في بلاد الشام إلى الجامع الأموي.

---

* الشيخ زين الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد الوهراني نشأ في مدينة وهران في غرب الجزائر ، ثم انتقل إلى القيروان فأقام بها مدة ، ثم انتقل إلى الإسكندرية ومصر والعراق والشام ، لكنه ما عمد إلا مدرساً ، واستقر في دمشق الشام ، وكتب مقاماته ومناماته ورسائله ، وهي اليوم مخطوطة .

١-الوهراني ، ت" مقامات الوهراني ومناماته ورسائله "،تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد لقش ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،مصر ١٩٦٨ : ص١

٢- المصدر نفسه ص٢٠٧

مقامات إلى الجامع الأموي

فزعت مساجد البقاع في بلاد الشام إلى الجامع الأموي للتعبير عن الغضب والاحتجاج على الإهمال الذي تسبب في خرابها ، وقدّم كلّ مسجد رفيعته لشيخ الجامع الأموي جلال الدين ، واستهل العرض مسجد النيرب .

١ - مقامة مسجد النيرب [1]

" المسالك - مساجد الكورة - يُقبّلون الأرض بين يدي الملك المعظم ، البديع الرفيع المكرم ، كهف الدين ، جمال الإسلام والمسلمين ، مدفن الأنبياء والمرسلين ، ملجأ الفقراء والمساكين ، مأوى الغرباء والمقلين ، بيت الأتقياء والصالحين ، معيد الملّتين ، صاحب الدواوين ، بَيْضة أمير المؤمنين ، أيّد الله أنصارَهُ ، وأعلى مناره ، وعمّر بالتوحيد أقطاره ، وشهود إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جور العمّال ، وتضييع الأعمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف . وقد لفهم الظلم والظلام ، وأنكرهم المؤذن والإمام ، فلا تسمع لهم حسيساً ، ولا ترى فيهم أنيساً إلا أذان البوم ، وتسبيح الغيوم ، وقد ركعتْ حيطانُها ، وسجدت سقوفها وأركانها ، وانصرفت من الصلاة أربابها وسكانها ، تنوح عليهم الأجراسُ والنواقيس ، وترثي لهم البِيَعُ والنواويس :

يرثي له الشامتُ من ما به ... ياويح مايرثي له الشامتُ

ولقد فزعنا أيها الملك إلى بابك ، وأوينا إلى حبابك ، فافعل معنا ماهو أولى بنا ، ورأيك العالي في ذلك ، والسلام "

---

[1] مقامات الوهراني : ص٦١-٦٢

[2] جامع النيرب : مقابل جسر النيرب في دمشق ... ينظر : ابن عساكر : تاريخ ابن عساكر : ١/ ٢٤٨

٢ – مقامة المزة *

"الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب ، وصيّر أموالنا كالسراب ، وجعلنا مأوى البوم والغراب...

أمابعد :

أيّها الملكُ السعيدا ثبّتَ اللهُ قواعدَ أركانِك ، وشيّدَ ما وَهَى [١] من بنيانِك ، فإنّ الخرابَ قد استولى على المساجد ، حتى خلَتْ من الراكع والساجد ، فأصبحتْ مساجدُ الغوطةِ غيطانَ [٢] ، لا سقوفَ لها ولا حيطان ، وجوامعُ حورانَ مخازنَ وأفران ، ومشاهدُ البَقاع صعصعاً [٣] كالقاع ، فكم بَنيّةٍ لعب الجَوْرُ بأنوائها ، فنسجَ العنكبوت على بابها ، وكم بيوتٍ لله عُطّلتْ دون أصحابها ، فعشّشَ الحمامُ في شرابها ، ﴿ فمن أظلمُ ممن منعَ مساجد الله أن يُذكرَ فيها اسمُه ، وسعى في خرابها ﴾ [٤]

وقد دخل ، أيها الملك ، على الوقوفِ ، بحجّةِ العمارةِ والسقوف ، فاختلفتْ فينا الأهواءُ ، وائتمَرَ علينا الأنواءُ ، فلا يزالُ المسجد ينهار ، وتأخذُه السيولُ والأمطار ، حتى يمّحي رسمُه ، ولا يبقى منه إلا اسمُه...

وأنت أيها الملك عماد الدين ، واليك بعد الله معادنا ، فاكشف عن حالنا ، وانظر في صلاح أحوالنا ، يصلح الله أحوالك ، ويسدد أفعالك ، والسلام " [٥] ...

---

* المصدر نفسه ص ٦٢ ٦١

١ تصدع

٢ – مزارع وأعوان

٣ – جرداء

٤ سورة البقرة آية ١١٤

٣-مشهد برزة "

" فبرز مشهد برزة متوكئاً على مشهد الأرزة ، وهو يصلصل ويجول ، ويلطم وجهه ويقول :

كلما حاولت أشكو قصتي لا ألقى إلا ذي قلبٍ جريح
يتشكّى قبل شكوى شجني يا لقومي ما عليها مستريح

أما بعد: أيها الملك السعيد ، أدام الله جمالك ، وبلّغك في عدوك آمالك ، فإن (مقام إبراهيم) أصبح في كل وادٍ يهيم ، (ومغارة الدم) لا تستفيق من الدّم ، و(مشهد الكهف) لا يفتر من اللهف، و(مشهد هابيل) قد رُمي بطير أبابيل ، (ومشهد شيث) قد استأصله الخبيث ، (ومشهد نوح) نبكي عليه ونوح ، (وقبر حلة) مالنا فيه حلة ، (وقبر إلياس) قد وقع فيه إلياس ، فنحفت المشاهد بأربابها ، وأمست رميماً كأصحابها ، قد محتها الغوادي ، ومحا بها الحادي .

جرتِ الرياحُ على محلّ ديارهم فكأنهم كانوا على ميعادِ "

---

[1] المصدر نفسه : ٦٤- ٦٥

وهذه الأماكن كانت لها مساجد ومشاهد وأكثرها في مطلع الطريق الواصل بين حماه

برزة الموضع المعروف الروم . والأرزة : قرية كانت عامرة فخربت ، انظر ابن عساكر : تاريخ الكبير ١/ ٤٢٧

وقبر شيث وقبر نوح قرب زملة في البقاع الغربي ،وقبر الياس في قرب القرداحة جنوب غرب اللاذقية .

جمع شيخ الأموي جلال الدين شكوى المساجد والمشاهد من جور ابن عصرون ، فاهتمّ واغتمّ ، وقال :

" أما بعد : يامعشر المتكلمين ، وطائفة المساجد المتظلّمين ، إنه والله لاينتهي إليكم من الجور إلا ما يفضل عني ، ولا يصل إليكم إلاّ ما يُستعار مني ، فلولا أن أركاني سليمة ، وبنيتي قديمة ، لأصبح جامع بني أمية يُعَزّى عليه "يا دار ميّة "[1]...

وبين لهم أنّه شريكهم في المعاناة ، وأنه إذا أرسل رفعتهم إلى الملك العادل نور الدين محمود زنكي ردّهم إلى الشيخ العاقل ابن عصرون ، فينتقم منهم . واقترح أن يكتبوا إلى ابن عصرون مباشرة ، فوافقوه ، وسطّروا كتاباً قاسياً على لسان الجامع الأموي ، واتهموه بالخيانة والجناية وأكتناز الأموال وفساد الأمر في آخر العمر، وفساد الدين وضعف اليقين ، وقلة الوفاء للرعية الضعفاء .

ولما بلغه الخطاب استشاط غضباً ، ثم قلب الرقعة وكتب : " وايم الله لقد قرفت مريبًا ، وقذفت بريبًا ، وجئت شيئاً فريًا ، فاشدد من عقالك ، وتأبّد في مقالك ، فما كلّ شكلٍ يُذمُّ شكله ، ولا كلّ طائرٍ تحلُّ أكله ، وما كلّ بيضاء شحمة ولا كلّ سوداء فحمة ... فلا جرم أنّ الله قطعك بالطريق، وعاقبك بالحريق ، وجعل المبض على أبوابك ، والرَّمْط في قبلة محرابك ، وعذّبك بالنيران وقرنك بأشرّ الحيران ، وجعل خطيبك أتوهاً دائصاً ، وإمامك أعمى ناقصاً ، فلو أنّك البيت المعمور لهجرت ، أو حرم مكة لما حججت ،فقف عند مقدارك ، وانظر في إيرادك وإصدارك ، والسلام "[2]

---

١ المصدر نفسه :ص٦٧

٢ المصدر نفسه : ص٦٩

ووقفوا على رقعة ابن أبي عصرون ، فأوجعهم الخطاب ، فكتبوا إلى الملك العادل ، ما يذكره بتاريخ الجامع الأموي كأول مكان يُذكر فيه اسم الله على البسيطة ، وما مرّ عليه من العُبّاد ، وكيف آل به الحال في ايام هذا المختال ابن عصرون ، وقال شيخ الأموي : " أكتب يا غلام باسم الملك العلاّم : من العاتب الواجد إلى الملك الزاهد ،قال الخائط للوتد : لمَ تشقُّني ؟ قال: سل من يدُقُّني ." [1] وسرد له ماكان من أمر ابن عصرون ، وطلب من الملك أن يعزله ، مذكّراً بقوله تعالى : ﴿ ياليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتي ، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[2]. فقدّم أيها الملك السعيد لنفسك ما تجده غداً في رمسك ، وخذ هذا المذكور في الحساب قبل يوم الحساب ، فتبرأ من النباغة ، وتدخل في أهل الشفاعة ، والسلام على من حمى مساجد الإسلام ، ورحمة الله وبركاته . "[3]، فلمّا وقف الملك العادل على الكتاب سجن ابن عصرون ، والتفت إلى المساجد ،فجعلها موضع همّه .

تشبه مقامة جامع جلّق المسرحية الاحتجاجية الساخرة ، ترصد ما تُقاسيه الجوامع من جور العمّال ، وتضييع الأعمال ، وما نالها من الحيف والخراب من تقصير القيمين في واجبات صيانتها والعناية بها ، بل تذهب إلى ما هو أبعد بكثير فتشير إلى انحراف القيّم ، وانصرافه إلى نهب أموال الوقف واختلاسها. وتُظهّر شيخ الجامع الأموي غير قادرٍ على محاسبة المرؤوس ، فقد أرسل طلباً لاستجواب القيّم ، لكنّ رده ا أنى مخيّباً للآمال ، فرُفعت الشكوى إلى الملك العادل (نور الدين محمود الأتابكي) .

١- المصدر نفسه ؛ ص٧٠

٢ الفرقان آية ٢٥

٣-المصدر نفسه ؛ ص ٧١

مقامة البغلة ريحانة *

وتبلغ السخرية منتهاها في مقامة البغلة ريحانة ، فقد أنطق الوهراني البغلة بلسان الحال ، لتعرض على الأمير ما تعانيه من الجوع ، وتشكو صاحبها الذي المنشغل بالعلوم والآداب يكاد يُعلفها الكتاب ، وقالت : " ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا تُوصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب إلى شعر أبي تمام ، ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيّما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال ، شبكة من القصيل أحبّ إليها من كتاب التحصيل، وقفّة من الدريس أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس ، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات...، وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجُمل ... ،وأما الخيل فلا تطرب إلاّ إلى سماع الكيل ، ... ولا تستغني الأكاديش عن أكل الحشيش...، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار حلّ به الدمار ، وأصبح منفوخاً كالطبل على باب الاصطبل " [2]

فاستجاب الأمير لطلب البغلة ، وأمر العلاّف أن يعطيها خمس قفاف ، فأعطاها ، ورفع في وجه صاحبها الخفّاف، فانصرف منكسر القلب من تلك الإهانة ، والتفت إلى البغلة ريحانة ، وقال لها : "إن شئت أن تكذّبي فكذّبي ، لا ذقت شعيراً ما دمت عندي ! فأصابتها الحيرة !؟

وتبسمت البغلة تلتمس الحيلة ، فقال لها العلاف مفاخراً بمخلاة الشعير التي تكرّم عليها بها الأمير : "هذا الأمير عز الدين سيف المجاهدين ، يده أندى من الغمام ، وعزيمته أمضى من الحسام ، ووجهه أبهى من البدر ليلة التمام ، يرثي للمحروب ، ويفرج عن المكروب ، وهو نبي بني أيوب ، لا يردّ قائلاً ، ولا يخيّب سائلاً .فلمّا سمعت المملوكة هذا الكلام ، جذبت الزمام ، ورفست الغلام ، وقطعت اللجام ، وشمّت الزحام حتّى طرحت خدّها على الأقدام ، ورأيك العالي والسلام " [3]

---

١ - شبه غريب بين البغلة ريحانة وبغلة ابن عمار فقد روي أن ابن عمار أنشد قصيدة لأحد التجار في طلب فأعطاه ثلاثة دنانير ، وعندما ولاه المعتمد بلاد شاطبة ، استدعى التاجر ، وأعطاه ثلاثة قفف ، وقال له : لو علمنا أنها ثلاثة لما أعطيناك أكثر . انظر ما كتبه د. درّاب واشد في رسالة الماجستير (أبو بكر محمد بن عمار الأندلسي ، حياته وشعره) ص٦٦و٦٧

٢ - الأمير هو عز الدين موسى بن أبي بكر ، قائد صلاح الدين الأيوبي ت٥٨٦ هـ ، و الحارث بن همام هو بطل المقامات، وراويها الرئيس محمد بن إدريس هو الإمام الشافعي

٣ - مقامة الدين

و من مقاماته الساخرة والقويّة جدّاً ما كتبه كلب إلى كلب:

" أما بعد : أخي ! أدام الله حراستك ، فإنّ بني آدم قد تسافلوا إلى حدٍّ ما عليه من مزيد ، حتى بقيت أنا وأنت بالإضافة إليهم ، كمعن بن زائدة وطلحة الطلحات ، فارتع في المجازر ، ونم في المزابل، وارفع ساقك ، وبُل على من لقيت منهم . والسلام "[1]

إنّ الضحكة الصفراء التي تطل من ثناياها خفايا العيوب المجتمعية تخفي غصّة ونقداً شديدا ، يلخّص حكاية الوجود الممزوج بالمرارة ،تزينها ابتسامة التحدّي المعبّرة عن الرغبة في متابعة الكفاح عند الوهراني ، يقول الدكتور عبد العزيز الأهواني :

" (وبعد) فإنّ هذه المجموعة من النصوص تمتاز في تاريخ النثر الفني في الأدب العربي بميزات ترفعها إلى مقام عال . ولا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصا فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية وذكاء ، ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب ، وتصور في دقة وبلاغة بعض جوانب الحياة الفكريّة والاجتماعية في عصر من عصور التحول في المجتمع العربي" [2].

١- المصدر نفسه ص ٢٠٨

٢- المصدر نفسه : المقدمة ص (و)

وصفوة القول : إنّ ما عرضناه لا يحيط بالمقامات المغربية والأندلسية ، فهناك مقامات كثيرة لم نتناولها لضيق الرحاب ، وأسماء كبيرة لم نتمكن من الإحاطة بما قدمت ، ومنها : ، أبو بكر الكاتب يحيى بن محمد الأركشي صاحب مقامة " قسطاس البيان في مراتب الأعيان "، وأبو محمد عبد الله الأزدي صاحب مقامة : " العيد " ، وأبو الحسن النباهي المالقي صاحب " المقامة النخلية "، والعاملي صاحب "حضرة الارتياح المغنية عن الراح " ، وأبو الحسن بن سلام المالقي ، وعبد الرحمن بن محمد بن السلمي المالقي ، وعلي بن جامع الأوسي ، وأبو إسحاق ابن خفاجة ، ومحمد بن خلف المعذاني الغرناطي ، وابن القصير عبد الرحمن بن أحمد... ،ولم تعد في الأندلس والمغرب حدودٌ تمنع من الكتابة عن كلّ ما يتناوله الناس في أحاديثهم في إطار النهوض الأدبي العام في تلك الديار ، وكانت السمة البارزة في ما كتبوه من المقامات ارتفاع نبرة الوطنية في ذلك الإبداع الأدبي المثير.

وقد توالى ظهور المقامات في العصور المتأخرة ، لكن أكثرها أمست حسيرة " ليس فيها ما يشير إلى تطور ما في طبيعة المقامة أو موضوعها " [1] ، بل إن بعضها لم يرق لنا وضعه في المقامات إلاّ تجوّزاً، كمقامات ابن الخطيب التي تتناول وصف البلدان ، ومقامات الرجال التي لم تكن غير واحة لحشد الأشعار ... ، وليس فيها ما ينتظره الباحث من التجديد والإبداع .

ولما كان من طبيعة الأدب التجدد وعدم الركون في وطن ، فقد سارت المقامات المغربية والأندلسية مع الركبان ، ووصلت إلى أكثر البلدان ، فأثّرت في الآداب الشرقية والغربية ، وظهرت في آداب الشعوب غير العربية ، وكان لها أثر بيّنٌ في الآداب الأسبانية ، وانتقلت من الأندلس إلى أدب الشطار الأوربي . ومع أنّ هذه المقامات اصطبغت بصبغة البلاد التي وصلت إليها ، فإنّها ظلّت تدلّ عليها بانتمائها العربي الأندلسي .

ولم تتوقف المقامات المغربية عند حدود الغرب العربي والأوربي ، بل رحلت إلى المشرق بلبوسها الأندلسي ، ووجدت أحفاد البديع والحريري يتلقفونها ، ويبدعون بنات تلك المقامات في العصر الحديث ، فكتب ناصيف اليازجي مقامات " مجمع البحرين " ، وكتب البربر ، والبرواني " مقامات أبي الحارث " ، وكتب ابن المبارك الجزائري والمويلحي وعبد الله فكري باشا وأمين شميل والعطار وعلي مبارك وغيرهم مقامات حسنة .

الفصل الرابع

فن المناظرات

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد

المناظرة فن من فنون النثر ، وضربٌ من ضروب الرسائل الأدبية السائدة ، عني بها الأندلسيون عناية فائقة، وتأثرت طريقة كتابتها بالمقامات المشرقية ، وبأساليب الإنشاء التي مرّت بها الكتابة الأندلسية .

معنى المناظرة :

من فعل نظر في الشيء ، أي أبصره ، أو من الانتظار أو النظر بالبصيرة بمعنى تأمله ودقق فيه ، وعالجه بفكره وعقله.وناظر فلاناً أي باحثه وباراه في المجادلة ، وناظر الشيء بالشيء: جعله نظيراً له ، وتناظر القوم في الأمر : تجادلوا و تراوضوا المناظر المجادل المحاج [1]. وعرف ابن منظور المناظرة قائلاً : " أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه... " [2]. فالمناظرة مأخوذة من النظم أي المثل والشبيه في كل شيء ، ويقال فلانٌ نظيرك أي مثلك ، وناظر فلاناً بفلان أي جعله نظيره ، ويقال ناظر فلان فلاناً أي صار نظيراً له في المخاطبة . ويفسّر ابن منظور هذا التعريف بقوله : " إن التناظر هو التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك ويناظرك ، وناظره من المناظرة..." [3]. وليس بالضرورة أن يكون المناظر مكافئاً لخصمه في قدرته على الجدل ، ولكن المناظرة تقتضي المساواة والعدل في الحوار، والمخاطبة بين الطرفين . ومن هنا قال ابن منظور: ناظر فلان فلاناً : أي صار نظيراً له في المخاطبة[4].

و في المصباح المنير، " ناظره مناظرة بمعنى جادله مجادلة" [5].وعرف المناوي المناظرة بأنها : التظيرُ: المثيلُ، وأصله المناظر، المناظر، كأن ينظر كلٌّ منهما إلى صاحبه فيباريه، والمناظرة المباحثة والمباراة في النظر[6]. وورد اصطلاح المناظرة عند التهانوي دالاً على أنه "علم يعرف به كيفية آداب إثبات المطلوب ونفيه أو نفي دليله مع الخصم ، وموضوع هذا العلم البحث، وتطلق المناظرة أيضاً في اصطلاح أهل هذا العلم على النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب، وقيل توجه الخصمين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب، أي توجه المتخاصمين اللذين مطلب أحدهما غير مطلب الآخر، إذا توجها في النسبة، وإن كان ذلك التوجه في النفس، .. وكان غرضهما من ذلك إظهار الحق والصواب"[7].

---

١ - المعجم الوسيط، مادة نظر.

٢ - لسان العرب بيروت، ١٩٥٥، مادة نظر.

٣ - المصدر نفسه

٤ - المصدر نفسه

٥ - المصباح المنير، مادة نظر

٦ - التوقيف في مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تح. رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط١، ١٩٩٠م، ص٧٠٢.

٧ - كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، دار صادر بيروت ١٨٦١م، ص ١٣٨١ ، ١٣٩٢.

وتناول طاش كبرى زاده المعنى نفسه قائلاً عن المناظرة بأنها: " النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب"[1]. ونجد المعنى نفسه عند القونوي في تعريفه للمناظرة بأنها: "علم باحث عن أحوال المتخاصمين ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب حتى يظهر الحق بينهما"[2]. ويقول صاحب المنهاج في ترتيب الحجاج : " إن المناظرة وجدت لإقرار الحق والوصول إليه وهي من أرفع العلوم وأعظمها شأناً، لأنها السبيل إلى معرفة الاستدلال، وتميز الحق من المحال ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من القويم". أما أحمد أمين مصطفى فيرى المناظرة بأنها مجادلة بين اثنين أو أكثر في موضوع ما بهدف إلى إثبات وجهة نظر[3].

وينهج د.حسين الصديق في تعريف المناظرة المنهج نفسه ؛ إذ يشير إلى أن المناظرة تقوم بين شخصين على الأقل، يسعى كل منهما لإثبات وجهة نظره وإفحام خصمه بما يملك من أدلة وبراهين لإظهار الحقيقة الموضوعية ، وليس الحقيقة النسبية التي يعتقد كل من الخصمين امتلاكها[4].

ومن خلال هذه التعاريف يتبين لنا أن المناظرة فن من الفنون لا يقتضي وجود نظريين متكافئين، وإنما تقوم المناظرة على النقاش والحوار بين اثنين أوأكثر، يشتركان في الأمر المنظور إليه، يدلي كل طرف بآرائه لإفحام خصمه، وإثبات وجهة نظره بما يملك من حجج وبراهين، وقدرة على الجدال أمام الآخر، وتنتهي المناظرة بتفوق أحد المتناظرين على الآخر وإفحامه وإظهار الحق إن كانت بين شخصين، أو إلى المصالحة والمساواة بين المتناظرين إن كان مؤلف المناظرة واحداً (كمناظرة السيف والقلم) مثلاً..

نشأة المناظرات

المناظرات فن مشرقي أصيل، سبق فيه المشارقة الأندلسيين، وأبدعوا فيه ولاسيما في العصرين الأموي والعباسي، إذ يعدُّ العصر الأموي عصر ازدهار للمناظرات السياسية والدينية، فقد اهتم (واصل بن عطاء) تلميذ (الحسن البصري) بالمناظرات وألف كتباً للرد على خصومه ومخالفته.

كما برز (أبو حنيفة النعمان) الذي ناظر الخوارج وفند آراءهم[5]....واستمر ازدهار المناظرات حتى أصبحت هواية يزاولها المتكلمون في العصر العباسي.وبرز المعتزلة في ذلك العصر كأقطاب للمناظرة من خلال مدرستي البصرة والكوفة

---

1 - أدب المولى ابن المنير طاش كبرى زاده ، ضمن مجموع مخطوط الظاهرية برقم (٣٥١٦).

2 - أحمد المنلوي ت القونوي، حاشية بن حسن على شرح عبد الغفار لكافل، طبع وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨م ص٢١٦.

3 - المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية ق٤هـ، أحمد أمين مصطفى ١٩٨٤، ص٧.

4 - انظر المناظرة في الأدب العربي والإسلامي، حسين الصديق ص٦٦.

5 - انظر المناظرات في الأدب العربي حتى نهاية ق٤هـ أحمد أمين مصطفى، ص٢٥.

يناظرون فيهما العلماء والأدباء والملاحدة والزنادقة، وأصحاب السياسة من رجال الدين في كل شيء، ولا يدخرون جهداً في التغلب عليهم.

وكان للجاحظ في هذا المجال اليد الطولى، إذ ألف عدداً من الكتب والرسائل للرد على خصوم المعتزلة وأعداء الدين من ذلك: (فضيلة المعتزلة، والرد على الشبهة) ورسائله في (مناقب الترك) و (فخر السودان على البيضان) و (مفاخرة الجواري والغلمان) ورسالته بين الديك والكلب[1] في كتاب الحيوان ومعظم رسائله جاءت في الرد على الشعوبيين وتفنيد مزاعمهم وإبطال حججهم.

بناءً على ذلك نرى أن المناظرات المشرقية تناولت السياسة والدين والفقه وكافة العلوم من نحو وفلسفة.. وما إلى ذلك. وكان الطابع العام للمناظرات المشرقية دينياً، لذا عدّ الكتّاب فن المناظرات من الفنون الإسلامية، ودونوه في كتب (الملل والنحل) ومن ثم في كتب الفلسفة وعلم الكلام.

وانتقل هذا الفن إلى الأندلس، وشاع في الجزيرة الخضراء، وازدهرت المناظرات الدينية في القرن الخامس الهجري على يد ابن حزم الأندلسي وأبي الوليد الباجي فقيه مورقة، إذ صورت مناظراتهما النشاط الجدلي والفقهي في الأندلس.

ولم يقتصر فن المناظرة على هذين الفقيهين الجليلين وإنما شاع بين أدباء الأندلس، وخاضوا فيه بأقلامهم وأبدعوا في مناظراتهم الحيالية وغير الحيالية، واستحدثوا في موضوعاتها وأساليبها ليصبغوها بنكهة أندلسية متميزة، تعكس أثر البيئة المكانية، وتصور ثقافة الأندلسيين ومواهبهم وانتقالهم من طور محاكاة المشارقة إلى طور التجديد والإبداع.

شروط المناظرات وآدابها

رسم ابن خلدون في مقدمته معالم هذا الفن مبيناً آدابه وشروطه إذ قال: " فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت وانقصم الكلام والاستدلال؛ ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه ... " [2].

نستشف من هذا القول بأن لكل مناظرة آداباً أخلاقية يتحلى بها المتناظرون بوصفها خطاباً طبيعياً يهدف إلى إظهار الحقيقة الموضوعية، وينأى عن التعصب والهوى، وهذه الشروط هي:

---

١ – الديك هو ديز الفرس والكلب هو ديز الغرب.

٢ – مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٢، ١٨٧٩، ص ٥٠٧.

١. تستلزم كل مناظرة وجود دعوى أو قضية ينظر إليها، وألا تكون المنافشة مفتوحة يناقش فيها كل نقاط الاختلاف.

٢- وتستدعي المناظرة ، وجود جانبين للدفاع عنها والاعتراض عليها وأن يأتي كل خصم في نصرته لنفسه بأدلة ترفع شأنه وتعلي مكانه فوق خصمه، فالمناظرة بلا دليل على الدعوى لا معنى لها كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[١]. وإذا الدعاوى لم تقم بدليلها على النص فهي على السفاه دليل.

٣- ويجب على المتناظرين ألا يحيدا عن الموضوع ولا يسمحا بتغييره كيلا يهدر وقت المناظرة وتصبح المنافشة لا طائل منها. وعلى المناظرين التركيز على موضوع المناظرة وليس على شخصية الخصم فلا يحق لأحدهما سب الآخر أو التشهير به قال الإمام الجوزي: ".. من ذلك ترخيصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة فيقول أحدهم: تكلمت مع فلان مما قال شيئاً، ويتكلم بما يوجب التشفي من غرض خصمه بتلك الحجة"[٢].

٤. ومن آداب المناظرة أيضاً أن يختار المرء من يناظره فلا يناظر من يهابه حتى لا يتلجلج في الكلام، ولا يناظر أحداً من العوام حتى لا يتغلب عليه، كما قال الإمام الشافعي "ما جادلت عالماً إلا وغلبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني))[٣]. وقوله أيضاً:

إذا كنت ذا فضلٍ وعلمٍ	بما اختلف الأوائل والأواخر
فناظر من تناظر في سكونٍ	حليماً لا تلجّ ولا تكابر
يفيدك ما استفاد بلا امتنانٍ	من النكت اللطيفة والنوادر
وإياك اللجوج ومن يراني	بأني قد غلبت ومن يفاخر
فإن الشر في جنبات هذا	بمعنى بالتقاطع والتدابر

ويجمل الأصفهاني آداب المناظرة على لسان متكلمين قال أحدهما للآخر: هل لك في المناظرة؟ فقال الآخر على شرائط: " ألا تغضب ولا تعجب ولا تشغب ولا تحكم ، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا جوزت لي تأويل مثلها على مذهبي، وعلى أن تؤثر التصادق وتنفاد التعارف، وعلى أن كلاً منا ينبغي مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته"[٤].

ونهى الأدباء عن الخوض في المناظرات إذا ما جانبت الصواب، وخالفت الآداب من ذلك قول ابن المقفع: " لا

---

١ - سورة الأنعام الآية ١٤٨.

٢ - انظر أصول التشيع ، مصطفى الوشلي ، ص١١٠.

٣ - المرجع نفسه ، ص٣٧.

٤ - محاضرات الأدباء ، الراغب الأصفهاني ج١ ، ص١٠٤.

تعرضن عقلك على الناس، فإذا اضطرك أمر فكن كصاحب الشطرنج يبني أمره على القائمة فإن وجد ضربةً غريبة انتهزها، وإياك أن تبتدئ في مجلس لم تسبر عقول أصحابه، فبين العقول بونٌ بعيد"[1].

وبناءً على ما تقدم فإن قوام آداب المناظر الاحترام المتبادل وحسن المظهر و ضبط النفس والبعد عن الغضب والتهكم وتحريج الآخر و الاتزان في الحوار و العفة في القول وأن تصاغ المعاني والأفكار صوغاً لطيفاً تنبئ عن علم صاحبه وسعة ثقافته ورحابة صدره.

مكان المناظرة

كانت تجري في كل مكان، وفي كل وقت، في قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة ممن تستهويهم المناظرات أو يعتقدون مذهباً معيناً يؤيدونه[2]. من ذلك المجالس الأدبية التي كانت تعقد في قصر (المعتضد بن عباد) يوم الاثنين من كل أسبوع[3].وكان الأدباء يعقدون مناظراتهم أيضاً وسط الرياض والمتنزهات يتبادلون الآراء الأدبية والأفكار النقدية[4]. كما أن بعض المناظرات كانت تعقد في الأسواق وفي الندوات الأدبية وفي بيوت المتناظرين مما يدل على شيوع هذا الفن وازدهاره في المجتمع الأندلسي، فهو انعكاس للبيئة الأندلسية بكل أبعادها الطبيعية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

قواعد المناظرة وتقاليدها

للمناظرة تقاليد مرعية وقوانين فنية تبنى عليها المناظرة وهي: المقدمة أو الافتتاحية و المتن والخاتمة.ولكل قسم من أقسام المناظرة طابعه الخاص، ففي الافتتاحية غالباً ما يستهلها الكاتب بمخاطبة الشخص الذي ألفت من أجله المناظرة أو بالدعاء له[5]. وفي المتن يتطرق الكاتب للموضوع الرئيس الذي بنيت عليه المناظرة.وفي الخاتمة يضمنها السلام والدعاء للمخاطب إن كان صديقاً ودوداً، أو هجاءً مرّاً إن كان خصماً لدوداً. وهناك ترابط وثيق بين هذه الأقسام لا انفصام بينها فكل قسم يسلم نفسه للآخر من غير انقطاع أو حدوث فجوات كبيرة تخل بمضمون المناظرة.

---

١ - القاضي الفاضل، ج١، ص١٠٢.

٢ - انظر: الأدب العربي في الأندلس ص٤٤ - ٤٩.

٣ - المطرب ص٣٦.

٤ - الفتح ج٣ ص٢٤٣، ٢٦٥، ج٤، ص٢٩٠ - ٢٦١.

٥ - الفتح ج٤ ص٢٤٢ - ٢٤٤.

٦ - أدب الرسائل - القيسي ص٨٥.

أشكال المناظرات وأنواعها:

تقسم المناظرات من حيث الحجم أو الطول إلى ثلاثة:مناظرات طويلة: يستعرض فيها الكاتب مهاراته الفنية وثقافته الغزيرة وقضاياه الأدبية كما في التوابع والزوابع لابن شهيد.ومناظرات متوسطة الطول: نحو رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها.ومناظرات قصيرة: نحو مناظرة السيف والقلم لابن برد الأصغر.

أما من حيث النوع فلدينا شكلان: مناظرات خيالية: كالتوابع والزوابع لابن شهيد، والسيف والقلم لابن برد الأصغر والمناظرات بين المدن والقصور وغيرها من المناظرات بين الرياحين ، ومناظرات غير خيالية: كالمناظرات بين الفقهاء والفلاسفة ، ومناظرات الشعوبية، ومناظرات بين الحكام وأفراد الرعية.وهذه المناظرات الخيالية وغير الخيالية تتخذ أشكالاً عدة:

- منها ما يكون على شكل رسالة يدور الحوار فيها بين شخصين أو أكثر كالمناظرة بين الورود، من ذلك رسالة ابن برد الأصغر في تفضيل الورد على غيره من الأزاهير، ورسالة الجزيري في تفضيل بنفسج العامرية على النرجس.
- ومنها ما يكون على شكل رسالة بين شخصين حول موضوع معين كالرسالة التي كتبها أبو الوليد إسماعيل الشقندي إثر حوار جرى بينه وبين أبي يحيى المعلم الطنجي، وقد استفاض كل منهما في ذكر محاسن قطره وفضل الأول بر الأندلس، وفضل الثاني بر المغرب.
- ومنها ما يأتي على صورة أشبه بالمقالة الحديثة، وتبنى على التفاخر والمباهاة بشيء ما ، بقصد الكاتب من خلاله الإشادة بالموضوع الذي يتكلم عليه ، وبيان فضله بقصد ابتزاز الخصم.

موضوعات المناظرات

يختلف مضمون المناظرات باختلاف أشكالها، فجوهر النص يحدد مضمونه. فالمناظرات الأدبية الخيالية الأندلسية تناولت السيف والقلم، والأزهار، والمدن، والقصور ..إلخ.والمناظرات غير الخيالية تناولت العواطف الإنسانية كما حدث بين ابن حزم وأبي عبد الله بن كليب، وردّت على دعاة الفرقة كالشعوبيين.

كما دارت بين الفقهاء والفلاسفة في حوارهم الفكري، وتناولت العلوم نحو كتاب (روضة التعريف بالحب الشريف) للسان الدين بن الخطيب الذي رد على معاصره ابن حجلة التلمساني في كتابه (ديوان الصبابة) الذي رأى الحب الحقيقي في العلاقات الشائعة بين الناس على النقيض من ابن الخطيب الذي وجد الحب الحقيقي في التصوف وعشق الذات الإلهية.

أبو حفص، أحمد بن برد، حفيد أحمد بن برد الأكبر من كتّاب القرن الخامس الهجري(١) ، ولي ديوان الإنشاء للمنصور بن أبي عامر، وكتب بعده لابنيه (المظفر والناصر). ثم كتب لسليمان المستعين الأموي وللأمراء. اعتنى ابن برد الأكبر بحفيده عناية كبيرة، إذ توسم فيه النجابة منذ نعومة أظفاره، فعلمه المنظوم والمنثور معاً.

وقال ابن برد الأصغر عن جده في: (سرّ الأدب وسبك الذهب) " وكان جدي أحمد بن برد . رحمه الله . يطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سنامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإني وافقت أول معاملتي لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أثبتني مصاييح من وصاياه فيها، ووصّاني في مراكب من دلائله إليها، وضرب لي صُوى من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعا"

وكان ابن برد الأصغر كاتباً لمجاهد العامري والمعتصم بن صمادح. ولا نعلم شيئاً عن نشأته الأولى، إلا أن المؤرخين أشادوا بمنزلته وعلو كعبه في الأدب ، أشاد بعبقريته ابن بسام بقوله: «كان أبوحفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها بسحره، وألقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره» .جلّ أشعاره عبارة عن مقطعات في الغزل الرقيق، تمثل من معين القدماء، وأغار على معاني السابقين إلا أنه أخرجها في لبوس دلالي جديد وإيقاع موسيقي خفيف يتناسب مع ذائقته ووجدانه.

فجع الكاتب بجده في سرقسطة سنة ٤١٨هـ عن عمر يناهز الثمانين، فبكاه بكاءً حاراً.وبقي في قرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦هـ، ثم رحل إلى دانية وكتب لأميرها [مجاهد الصقلبي] أولى رسائله الأدبية (رسالة السيف والقلم).

وأقام أيضاً في المرية عند الأمير معن بن صمادح، الذي شهد له بفضله واتخذه وزيراً له، فكتب إليه كتاباً سماه (سر الأدب وسبك الذهب) ، أثنى فيه على الأمير، واعترف بفضله على الأدباء والعلماء، وضمن الكتاب رسائله السلطانية و الإخوانية، وطرزه بأبيات من الشعر، وثلةٍ من الحكم الجارية مجرى الأمثال. مات ابن برد الأصغر مخنوقاً في سجنه على يد مجموعةٍ من السودان حوالي سنة ٤٥٠هـ.

ورسالة السيف والقلم أول رسالة أدبية أندلسية كتبها ابن برد الأصغر لأبي الجيش مجاهد العامري المعروف بالموفق، صاحب دانية والجزائر الشرقية .

والمفاخرة بين السيف والقلم ظاهرة شعرية قديمة وردت على ألسنة الشعراء العباسيين كأبي تمام، والمتنبي، وابن

---

١ - انظر ترجمته في: الذخيرة ٢/٥٨٤ ، ٤٨٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥ ، ٧٧٤ ، ٧٨٧ ؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٢/١٠٦

جذوة المقتبس: الحميدي: ١٧ ؛ بغية الملتمس: الضبي رقم ٤٥٦ ؛ المرقبة العليا: المراكشي ١/٨٧

الرومي، كما وردت حديثاً عند أحمد شوقي[٢].

ويعد ابن برد الأصغر أول من نقل المناظرة من سياقها الشعري إلى سياقها النثري في الأندلس[٣] في ليوس قصصي، فريد من نوعه، لم يكن له نظير في أدب المشارقة ، لقد أراد الكاتب من خلال هذه المناظرة أن يمدح (الموفق) مدحاً غير تقليدي للمتعة وينال الحظوة لديه، وليلتفت إلى رعاية الكتاب والأدباء في عهده؛ فقد تراجعت مكانة الكتاب في عهد ملوك الطوائف، وأصبح الجند عماد الدولة ونشب صراع خفي بين أصحاب القلم والرياسة في الأندلس أصحاب السيف.

ولم يشأ ابن برد أن ينبه الأمير إلى ما حلّ بالكتّاب من غبن وجور تنبيهاً مباشراً، فنحا منحىً رمزياً في رسالته، ليشيد بفضل أصحاب القلم في بناء الدولة وإدارة أمورها جنباً إلى جنب مع أصحاب السيف، داعياً إلى المساواة بينهما، فهما وجهان لعملة واحدة لا تقوم الدولة على أحدهما دون الآخر.

أقسام المناظرة :

-المقدمة

استهل الكاتب مناظرته بمقدمة تؤكد إيمانه بقيمة كل من السيف والقلم مشيراً إلى العلاقة الوثيقة التي تجمع بينهما، وهي علاقة تقوم على الالتحام والالتصاق، وهما مطية المرء إلى المجد والمراتب العليا فقال: "كانا مصباحين يهديان إلى القصد، من بات يسري إلى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لسامیات المراتب، وطريقين يشرعان إلى نهج الشرف لمن تقرى إليه ويجمعان شمل الفخر لمن تأشب عليه، ووسيلتين يرشفان العلا لمن عاشقها، وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما، ومجتمعين لا يفرق تجميعهما"[٤].

-المضمون

يصور الكاتب في مضمون رسالته الجدال والخصام والتحاسد بين السيف والقلم اللذين دخلا حلبة المنافرة، وادعى كل طرف الفضل والتقدم على صاحبه، زاعماً أحقيته بالزعامة والسيادة ومعدداً مآثره وفضائله على خصمه.

ويحرص ابن برد على أن يجعل بداية الحوار على لسان القلم لأنه من أرباب الفكر أولاً ولابد أن يتكلم بلسان صاحبه، ليثبت أنه صاحب الفتح المعلى في كل ميدان،وليخالف من سبقه من الأدباء في المقابلة بين السيف والقلم إذ يقول مفتخراً على السيف بالقداسة الإلهية التي خصرته:

---

٢ خصائص الأسلوب في الشوقيات ص١١٧ ، ١١٨.

٣ معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٠٦/٦.

٤ الذخيرة ٥٢٣/١.

" خير الأقوال الحق، وأحمدُ السجايا الصدق، والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله، مقسماً به لرسوله، فقال ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [1] سورة القلم وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾". فجلّ من مقسم وعزّ من قسم".

ويرد السيف عليه مؤكداً قدرته على الحسم وترسيخ دعائم الملك، وأن الأفضل من يفعل لا من يتكلم فحسب ".. عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة.. فيمة كل امرئ ما يحسن إن عاتقاً حمل نجادي لسعيد، وإن عضداً بات وسادي لسديد. وإن فتىً اتخذ دليله لمهدي، وإن امرءاً صيرني سبله لفدي.."[6].

ويدحض القلم أدلة السيف ويقلل من شأنه ليثبت السبق على صاحبه فالسيف بئير الشر والفتنة بين الناس، أما هو فالفائدة منه مزدوجة: "وهل أنا إلا قطبٌ تدور عليه الدول، وجواد شأوه يدرك الأمل، شفيع كل ملكٍ إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه، وشاهد نجواه قبل كلّ شاهد، ووارد معناه قبل كل وارد"[7].

ويسخرالسيف من القلم متجاوزاً في خطابه النقد الهادئ، معتمداً على التهكم والتحقيرمن شأن القلم: " تحاول امتداداً بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناحٍ كسيرة، أمستعرب والفلس ثمنك، ومستجلب وكل بقعةٍ وطنك؟! جسمٌ عارٍ ودمعٌ بار، تخفي فتنعل برياً، حتى يعود جسمك فيا" [8].

ويرد القلم على السيف بلغةٍ هادئة بعيدة عن الانفعال والنزق، محولاً العيوب التي ألصقها السيف به من صغر الحجم وخس الثمن... إلى مزايا قائلاً:" وإن الذهب معدنه في العفر، وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها في الحجر وهي إحدى العناصر، وإن الماء وهو الحياة أكثر المعايش وجداناً وأقلها أثماناً، وقلما تلغى الأعلاق النفيسة إلا في الأمكنة الخسيسة.إن ازدراءك بتمكن وجداني، وبخس أثماني، لنقص في طباعك، وقصر في باعك، ألا وإن الذهب معدنه العفر"[9].

ويصف السيف كلام القلم بالحديث الفارغ قائلاً: "جعجعة رحىً لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مزن.. وجه لئيم، وجسمٌ سقيم، ودموع سجام كأنهن سخام.. فهبْ من نومك، وأفطر من صومك.."[10].

ويجري القلم للرد على السيف متكئاً على الطبيعة بما فيها من أزهار وماء ورياح لدحض اتهامات السيف: " إن كنت

---

٥ - سورة القلم الآية ١-٤

٦ - الذخيرة ٢/٥٢٣.

٧ - المصدر نفسه.

٨ - المصدر نفسه.

٩ - الذخيرة ، ج١ ، ٥٢٣.

١٠ - المصدر نفسه.

ريحاً فقد لاقيت إعصاراً، ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة.. فأقصر عن جهلك من العمر رواقاً واحلل من خصرك للجهل نطاقاً يسفر البلاء لك عن قضيب عاج، وقداح ورقي مجال بالعفيان"[١١].

ويتأمل ابن برد في صوغ الأدلة والبراهين على لساني الطرفين المتجادلين بما ينسجم مع طبيعة كل منهما من دون أن تكتب الغلبة لأحدهما على الآخر.

الخاتمة :

تنتهي المناظرة بعد طول الجدل والملاحاة إلى المصالحة بين السيف والقلم لأن الخير كل الخير يكمن في ائتلافهما، والمساواة بينهما يقول ابن برد على لسانهما " إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا، وتتفرق آراؤنا، وقد جمعنا الله في المآلف الكريم" ، واتفقا على الصلح، واختيار القلم أن يكون العقد شعراً لأنه شدو الحادي وزادُ الرائح والغادي، وسجله في قطعة شعرية بديعة، تمدح الموفق وتدعوه إلى التسوية بين الجند والكتّاب: ويحفظ في القطعة الشعرية هذه الأبيات فقط:

قد آن للسيف ألا يفضل القلما ... مذ سخر الغث حاز العلا بهما

راحا بكف أبي الجيش التي خلقت ... غمامةٌ كل حين تمطرُ النعما

فعاد حبلهما المبتت منعقداً ... وراح شملهما المنفض ملتئما

لولا طلابي غريب المدح فيك لما ... وصفت قبل علاك السيف والقلما

سمات المناظرة الفنية :

اتخذت المناظرة منحىً رمزياً؛ إذ لم يقتصر الكاتب على مدح الموفق بل ضمن رسالته شكوى مبطنة من التفرقة بين الجند والكتّاب في عصر الطوائف فقد تفوق أرباب الجند في عهد ملوكهم على أهل الفكر وكانت مرتبتهم أقل منزلة من أصحاب السيف ، ولم يشأ الكاتب أن يصرح بهذه المعاني تصريحاً مباشراً فلجأ إلى الرمز الفني في اجتماع بصور تنافس السيف والقلم إشارة منه إلى رجال الجند ومنازلهم الرفيعة وأهل الفكر ومراتبهم المتدنية.

وتتسم هذه المناظرة بقدرة الكاتب على صوغ الأدلة والبراهين المنطقية في قالب قصصي على لسان المتناظرين إذ ألف ابن برد لكل منهما حججاً يدلي بها مع نقضه لحجج خصمه دون أن تكتب الغلبة في النهاية لأحدهما.

وقد نوّع الكاتب في أسلوب الحوار بين اللين والشدة بما ينسجم وطبيعة الخصمين المتناظرين فالسيف في نقاشه حاد المزاج، شديد اللهجة، متغطرس ميال إلى السباب لا يرعى للقلم مكاناً "امتنت الفصال حتى الفرعى، ورب صلف تحت الراعدة.. أمستعرب والفلس تملك".والقلم هادئ الطبع، رابط الجأش بعيد عن النزق والطيش قوي الشكيمة والمجادلة: "من ساء سمعاً ساء إجابةً، إنّ ازدراءك بتمكن وجداني، وتحس ألماني، لنقص في طباعك وقصر في باعك...".

---

١١ = المصدر نفسه.

وشّح لنا فكرة بضروب من البيان تؤثر بثري تشكيل المناظرة ، لكن أنواعا من البيان تظهر في المناظرة ولا سيما التشخيص؛ إذ أسبغ على السيف والقلم ألواناً من العواطف البشرية تبث الحياة في الأشياء الجامدة، وتضفي عليها الحيوية والحركة ، كما في : "فقال القلم: ها، الله أكبرا أيها المسائل بدءاً يعقل لسانك وينجز جنانك، خير الأقوال الحق، وأحمدُ السجايا الصدق".

واتكأ على البديع، وأكثر من الطباق ليعكس الأجواء الحادة بين أرباب الجند وأرباب القلم. واختار من الجناس ما يوافق المعنى فجاء عذباً سلساً من غير تكلف أو إسراف ، ولاءم بين الكلمات المتجانسة ملائمات موسيقية تنسجم مع المقام، فجعل النبرة الموسيقية حادة في خطاب السيف للقلم ، وجعل نبرة الخطاب هادئة في خطاب القلم للسيف ، مما يدل على قدرة ابن برد على التحكم بالسياق ، وحسن ذوقه في اختيار الألفاظ ، ومعرفة مواقع الكلام. واقتبس من الأمثال والحكم ما ينبئ عن سعة اطلاعه على الموروث الثقافي ، كما ضمن رسالته آيات من الذكر الحكيم لمنح مؤلفها مصداقية شرعية ، وتضفي على النص النثري هالةً من القدسية ، مما يجعل المتلقي يتقبل رأي الكاتب برحابة صدر .

وختم الرسالة بمجموعة من الأبيات الشعرية من تأليفه، أوصلت صاحبها إلى غايته المنشودة، من مدح الأمير وإقناعه والتنويه إلى الاهتمام بالكتاب، وإعلاء مراتبهم، وتحسين مكانتهم ليسود العدل بين أرباب السيف والقلم تحت لواء (الموفق) في أمن وسلام، وتسكن القلوب وتهدأ النفوس، وتنجلي من سمائها سحابة الحقد والضغينة.

المناظرات بين الأزهار

تطرق الأندلسيون في مناظراتهم الأدبية إلى المفاضلة بين الأزهار والرياحين, وهو موضوع ذو أصول مشرقية, فأول من فاضل بين الأزهار الشاعر العباسي ابن الرومي الذي ذم الورد وفضل النرجس عليه. إلا أن مفاضلته بين الورد والنرجس كانت شعراً فقال في ذم الورد :

يا مادحَ الوردِ لا ينفكَ عن غلطه ... ألستَ تبصرُه في كفِ مُلتقطِه

كأنه سُرُمٌ بغلٍ حين يخرجه ... عند الرّباثِ وباقي الزّوثِ في وسَطَهْ

وقال في تفضيل النرجس على الورد من باب المفاخرة:

خجلتْ خدود الورد في تفضيله ... خجلاً تورُّدها عليه شاهد

للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آبٍ وحاد عن الطريقة حائد

أين العيون من الخدود نفاسةً ... ورياسة لولا الغياثُ الفاسدُ

وتأثر كتاب النثر في الأندلس بهذه المناظرات ،واستحدثوا فيها ونقلوا المفاضلة بين الأزهار من سياقها الشعري إلى السياق النثري وأول من ولج هذا الباب الكاتب عبد الملك بن إدريس الجزيري (ت ٣٩٤هـ) إذ ألف رسالتين للمنصور بن أبي عامر ناظر فيهما بين الأزهار, أظهر من خلالهما براعته الأدبية ، ومدح المنصور على لسان الرياحين التي أولع بها ، فابتكر طريقة غير مباشرة في مدح الحاكم والثناء عليه.

ترجمة أبي مروان الجزيري (ت ٣٩٤هـ):

هو عبد الملك بن إدريس الجزيري الخولاني الأزدي, عرف بالجزيري نسبة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس, عاش في القرن الرابع الهجري وتبوأ منصب كبير الكتاب لدى الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي عرف بحبه للأدب وتشجيعه للأدباء وتسجيلهم في ديوان خاص بهم يرزقون منه على حسب مراتبهم, كما كان له مجلس يعقد كل أسبوع في قصره بالزاهرة يجتمعون فيه للمناظرة بحضرته أثناء إقامته بقرطبة.

كان الجزيري واثقاً من نفسه إلى درجة الغرور, فقد ظن أن المنصور لا يستطيع الاستغناء عنه لحاجته إليه, فما كان من المنصور إلا أن زج به في السجن لقمع غروره, وأرسل الجزيري إلى المنصور رسائل شعرية استطاع من خلالها أن يستل غضب المنصور عليه وينال عفوه ويطلق سراحه ويعيد إليه منصبه وماله ، إلا أن الجزيري سجن ثانية في عهد المظفر وأرسل مجموعة من السودان دخلوا عليه مطبقه, وخنقوه وأخرج ميتاً بعد أيام ودفن في شوال سنة أربع وتسعين وثلاثمئة هـ.

كان الجزيري أديباً موهوباً برع في الشعر والنثر فقربه المنصور بن أبي عامر وجعله كاتباً له ، ثمّ أسند إليه منصب الوزارة في عهده وعهد ولده المظفر من بعده ، وقد وصلت إلينا من أعماله النثرية رسالتان أدبيتان كتبهما على لسان الأزهار لمدح المنصور بن أبي عامر ، الذي عرف بولعه بالورود والرياحين حتى إنه سمى بناته بأسماء الزهور. كتب **الرسالة**

الأولى: في عيد الأضحى سنة ٣٨٣هـ على لسان بنفسج العامرية وأرسلها إلى المنصور ، وكتب **الرسالة الثانية** عن بهار العامرية إلى المنصور أبي عامر ، في كانون الأول من العام نفسه ، وهو بأزمِلاّط ، وبنى الجزيري هاتين الرسالتين على أساس التفاضل بين الأزهار ، فضل في الرسالة الأولى بنفسج العامرية على سائر الأزهار ،وفضل في الرسالة الثانية بهار العامرية على غيرها من رياحين الطبيعة الأندلسية ، وشخص في كلتا الرسالتين الأزهار المتناظرة, وبث فيهما الحركة والحياة, وجعلها تتنافس فيما بينها على نحو ما يحدث بين البشر . وهو أسلوب جديد في معالجة هذا النص لم نجد له نظيراً في مناظرات المشارقة.

الغاية من المناظرتين:

كان القصد المباشر من هاتين المناظرتين وصف الأزهار الأندلسية, إذ راحت كل زهرة تصف فضلها على سائر الرياحين إلا أن الجزيري أراد من هذا الوصف المفاضلة بطريقة غير مباشرة بين « بنات المنصور الذي سمى بناته بأسماء الزهور ،فنظم الشعراء في وصف الزهور قصائد تبين فضيلة كل نوع منها، وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور نفسه». وهذا ما أشار إليه ابن بسام في ذخيرته قائلاً: « ما اندرج له في أثناء نثره الذي مدح فيه ، مخاطبته ، على ألسنة كرائمه بزهور رياضه».

تحليل المناظرتين:

استهل الجزيري, رسالته الأولى بمقدمة يمدح بها المنصور وأثنى عليه على نحو غير مباشر لينال الحظوة لديه من ذلك قوله على لسان البنفسج:

«إذا ترافعت الخصوم . أيد الله مولاي المنصور في مذاهبها وتنافرت في مفاخرها فإليك مفزعها, وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها وعلمك بسرها وجهرها»

وأما الرسالة الثانية فقد استهلها بالبسملة قائلاً :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أطال الله بقاء المنصور مولاي, وأدام عزه, وهنأه سروره, وسوغه نعمه عنده» وكان مديح الجزيري للمنصور يلمس شغاف قلب الحاجب, ويطرب له ويجزل العطاء عليه ولا سيما حين ينثر الكاتب مديحه في سياق وصف الأزهار التي شغف بها المنصور وزين برياحينها جنات قصوره.

وانتقل الكاتب من المديح إلى المفاضلة بين الأزهار لتصف كل زهرة محاسنها وتفخر بنفسها على سائر الأزهار إذ يقول :

«وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بمشابههما في كل مذهب, وما منهما إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا, وأعرف من الغمام الذي يسقينا, مع إني أعطر منهما عطراً, أحمد خبراً, وأكرم إمتاعاً, شاهداً وغائباً, ويانعاً وذابلاً, وكلاهما لا يمنعك إلا ريثما يبدو للعيون ويسلم من الذبول...» ، ورمز

الجزيري من خلال هذه المفاضلة إلى المنافسة الحادة بين أدباء المنصور وكتّابه, مشيراً إلى فضله على أقرانه وعلو كعبه على سائر الأدباء.

وترك الحكم في هذه المفاضلة إلى المنصور الذي يميز الجيد من الرديء والثمين من الغث إذ يقول على لسان الأزهار المتناظرة:

«وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها وعلمك بسرّها وجهرها» ويختم الجزيري مناظرته بمقطوعة شعرية يصف فيها البنفسج ليرضي ذوق المنصور:

شهدت لنوار البنفسج ألسن	من لونه الأحوى ومن إبناعه
ولربما جمع النجيع من الطلى	بصوارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه	لا في روائحه وطيب طباعه

السمات الفنية:

تتسم الرسالتان برقة الألفاظ وعذوبتها ووضوح معانيها وهو ما يتناسب مع ذوق الأندلسي وحبه للسهولة وبعده عن التعقيد فلا توجد كلمة نابية أو غريبة في رسالتيه.

واقتبس الكاتب من القرآن الكريم ليدلل على صحة أفكاره وعلى استيعابه لآيات الذكر الحكيم وحسن توظيفه لها في رسائله النثرية على نحو جيد يدل على بلاغة الكاتب وثقافته الدينية من ذلك قوله في الرسالة الثانية:«.. لما استقلت بزهرتها مائلة قضيب. وافترشت ديباج حديقة بكر وسميها, وتتابع وليها, فالتقى ثراها [حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ][12] وطاب صعيدها... عنّ لي زهو بحسني وارتياح لحالي,.. فحركن مني ساكناً, وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطراً...».

ومزج بين الشعر والنثر في كلتا الرسالتين فقد اعتاد الكاتب على تذييج رسائله النثرية بمقطوعة شعرية من نظمه وقد أشار الكلاعي إلى ذلك قائلاً «كان الجيد كثيراً ما يضمن رسائله أشعاره» ، ولعل الغاية من تذييج النثر بالشعر إرضاء المنصور ونيل إعجابه فقد عرف عن المنصور حبه للأزهار وتشجيعه للأدباء على وضعها . فقد أمر لأحد الشعراء بثوب وألف دينار وسجله في ديوان الشعراء وخصص له ثلاثين ديناراً شهرياً وألحقه بالندماء لإبداعه في وصف زهرة من الأزهار .

واتكأ على ضروب من البيان والبديع لتزيين رسائله وتوضيح معانيه وإظهار قدراته الفنية أمام ممدوحه والسجع أبرز الألوان البديعية وأخفها وقعاً على أذن السامع :«منح الله مولاي صدق النظر, وعرفه جلية الخبر, وأطال مدته, ووصل

---

١٢ - سورة يونس، الآية ٢٤

سلامته وعزته...».

وتعد رسالتا الجزيري قيمتين من الوجهتين التاريخية والأدبية لأن الكاتب أول من نقل التفاضل بين الأزهار من الشعر إلى النثر، مشيراً بذلك إلى مظاهر الحضارة وجمال الطبيعة الأندلسية بأسلوب فريد من نوعه وهو ما جعل المنصور يفضله على كتاب بلاطه حتى في أخر أيامه فقد «هجر الأطباء في علته تلك لاختلافهم فيها واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيري».

وتطورت المناظرات بين الأزهار في القرن الخامس الهجري وكثر كتابها حتى إن كل مناظرة كانت تستدعي معارضتها بأخرى ، ولعل كثرة هذه المناظرات بين الأزهار مردها إلى الطبيعة الأندلسية الساحرة التي استحوذت على قلوب الأدباء وعقولهم، وحركت قرائحهم فجادوا لنا بهذه الرسائل الرائعة التي تصف جمال الطبيعة الفتان وتعرض مهارات أدبائها وتمكنهم من هذا الفن ، وبعد ابن برد الأصغر فارس المناظرات بين الأزهار، إذ دبج رسالة أدبية إلى ابن جهور فاضل بين عدد من الأزهار وجعل الورد رئيساً لها، وعارض رسالته عدد من الكتاب كالحميري والباجي وابن حمداي.

مناظرة ابن برد الأصغر بين الأزهار

ومن اللباب في هذا الباب رسالة كتب بها الوزير أبو حفص أحمد بن محمد بن برد إلى الوزير أبي الوليد بن جهور وصف فيها نواوير خمسة، وغرضه تفضيل الورد بينها وتقديمه عليها بصفات كلها حر الألفاظ، وتشبيهات جميعها حور الألحاظ.

والرسالة: أما بعد يا سيدي ومن أفديه بنفسي، فإنه ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه، وذوي الظرف المعتنين بملح معانيه، أن صنوفاً من الرياحين وأجناساً من أنوار البساتين جمعها في بعض الأزمنة خاطر بنفوسها، وهاجس هجس في ضمائرها، لم يكن لها بد من التفاوض فيه والتحاور، والتحاكم من أجله والتناصف، وأجمعت على أن ما ثبت في ذلك من العهد، ونفذ من الحلف، ماض على من غاب شخصه، ولم يأت منها وفته فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة، وأخصبها تجعة، وأظلها شجراً، وأغضرها زهراً وأعطرها نفس ريح، وأرفها دمع ندى .ثم أخذت مجالسها وانبرت على مراتبها وقام قائمها فقال:يا معشر الشجر وعامة الزهر، إن اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات، وذرأ البريات بابن بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين منحها وأعطياتها، فجعل عبداً وملكاً وخلق قبيحاً وحسناً .فضل على بعض بعضاً حتى اعتدل بعدله الكل، واتسق على لطيف قدرته الجميع، وأن لكل واحد منا جمالاً في صورته، ورقة في محاسنه، واعتدالاً في قده، وعبقاً في نسيمه، ومالية في ديباجته قد عطفت علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس وأصبت بنا الأكف، وأزهت بمحضرنا المجالس حتى سفرنا بين الأحبة، ووصلنا أسباب القلوب، وتحملنا لطائف الرسائل، وحببنا اللهو، واحتضنا السرور، وأخذنا جمالة البشرى، وأكرمنا بنزل الرفادة، وأسنيت لنا صلة الزيادة، وصيغ فينا القريض، وركبت على محاسننا الأعاريض، فطمح بنا العجب، وازدهانا الكبر،وحملنا تفضيل من فضلنا، وإيثار من آثرنا على أن نسينا الفكرة في أمرنا، والتمهيد لعواقبنا، والتطيب لأخبارنا، وادعينا الفضل بأسره، والكمال بأجمعه، ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا، ومن

هو أولى بالرياسة منا، ومن يجب له علينا التحرج ومد اليد بالمبايعة، وإعطاء مجهود الهبة، وبذل ذات النفس، وهو الورد الذي إن بذلنا الإنصاف من أنفسنا، ولم نرتكض في بحر عمانا، ولم نمل مع نزع هوانا، دنا له، ودعونا إليه، واعترفنا بفضله، وقلنا برياسته، واعتقدنا إمرته، وأصفينا محبته، فمن لفيه منا حياه بالملك ووفاه حق الإمامة، ومن لم يدرك زمن سلطانه، ولم يأت على عدان دولته، اعتقد ما عقد عليه، ولبى إلى ما دعي إليه .فهو الأكرم حسباً والأشرف زمناً، والأتم خصالاً، والذي إن فقدت عينه لم يفقد أثره، وغاب شخصه لم يغب عرفه، والطيب إليه كله محتاج، وهو عن كيفه مستغن، وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح، وصيغة الحياة، وهو كالياقوت المنضد في أطباق الزبرجد عليها فرائد العسجد. وأما الأشعار فبمحاسنه حسنت، وباعتدال جماله وزنت، وإنما ما نعتقد إلهامنا إلى هذه المحمدة، واستنظافاً من دنس تلك المذمة إلا من أجل النعم المقسومة لنا والأيادي المتصلة بنا .وكان ممن حضر هذا المجلس،وشهد هذا المشهد من مشاهير الأنوار النرجس الأصفر ، والبنفسج والبهار والخيري النمام .

فقال النرجس الأصفر :والذي مهد لي حجر الثرى، وأرضعني ثدي الحيا، لقد جئت بما أوضح من لبة الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أسر من التعبد له، والشغف به، والأسف على تعاقب الموت، والرجعة دون لقائه ما أحمل جسمي، ومكن سقمي، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خف ثقل البلوى .ثم قام البنفسج فقال :"على الخبير سقطت أنا والله المتعبد له، الداعي إليه، المشغوف به كلفاً، المخصوص ببد النأي عنه أسفاً، وكفى ما بوجهي من ندب وبجسمي من عدم نحوض، ولكن في التأسي بك أنس، وفي الاستواء معك وجدان سلوّ .ثم قام البهار فقال :

ثم قالوا :تحبها؟ قلت :بهراً عدد النجم والحصى والتراب

لا تنظرن إلى غضارة منبتي، ونضارة ورقي، وانظر إلى وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه، وعيناً شاخصة تندى بكاء عليه:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ثم قام الخيري النمام فقال :والذي أعطاه الفضل دوني، ومد له بالبيعة يميني، ما اجترأت قط إجلالاً له، واستحياء منه .على أن أتنفس نهاراً، أو أساعد في لذة صديقاً أو جارا .فلذلك جعلت الليل ستراً، واتخذت جوانحه كناً .

فلما رأت استواء آرائها على التفضيل له، واعتدال مذاهبها في الدعاء إليه قالت :إن لنا أصحاباً وأشكالاً وأتراباً، لا نلتقي بها في زمن، ولا نجاورها في وطن، فهلم فلنكتب بذلك كتاباً، ولنعقد به حلفاً، ولنضع من شهادتنا ما يحتمل في الأقاصي والأداني عليه ، وفيما يلي نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر، وضروب الزهر، وسهبها وشتوبها، وربيعيها وقيظيها، حيث ما نجمت من تلعة أو ربوة، وتفتحت من قرارة أو حديقة، عندما راجعت من بصائرها، وألهمت من رشادها، واعترفت بما سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وأخلصت له محبتها، وعرفت أنه أميرها المقدم بخصاله فيها، والمؤمر بسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة والترمت له الرق والعبودية، وبرئت من كل نور نازعته نفسه المباهاة له، والانتزاء عليه في

كل وطن، ومع كل زمن، فأية زهرة قص عنها لسان الأيام هذا الحلف، فلتعرف أن رشادها فيه، وقوام أمرها به، ولتحمد الله كثيراً على ما هداها إليه، واستنقذها من الضلال ببصرته، ولتشهده على اعتقادها، والله شاهد على الجميع.

شهادة النرجس:

شهد النرجس والله يرى — صحة النيات منها والمرض
أن للورد عليه بيعة — أكدت عقداً فما إن تنتقض

شهادة البنفسج:

شهد البنفسج أنه — للورد عبد مملك
يسعى بقلب ناصح — في حبه مستهلك

شهادة البهار:

شهد البهار ذو الجلالة عالم — بصحيح ما يبدي وما يخفيه
أن الإمارة في الأزاهر كلها — للورد لا يؤتى له بشبيه

شهادة الخيري النمام:

شهادة الخيري براً صادقاً — قوله أبعد عنها الدرك
أن أزهار الثرى أجمعها — أعبد والورد فيها ملك

هذا يا سيدي ما انتهى في المعنى إلي، فتفضلك في تصفحه، والتجاوز عما وقع من زلل في نقله، فأنت السابق الذي نجري في غباره، ونهتدي بمناره، ولولا علمي بموقع هذه المنح منك لم أجشمك مؤونة النظر فيما كتبت منها لك إن شاء الله.

أقسام المناظرة:

المقدمة

يخبر بها بعض أهل الأدب المتقدمين أن مجموعة من الأزهار عقدت اجتماعاً في أكثر البساتين خصوبة للتشاور والمفاوضة في شأن من له حق الرياسة والإمرة فقال:

«.. ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه، وذوي الظرف المعتنين بملح معانيه، أن صنوفاً من الرياحين... في بعض الأزمنة... خطر خاطر بنفوسها... فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة... وأعطرها نفس ريح...» موطناً لعقد اجتماعهم المهيب.

لم يحدد ابن برد من خلال هذه البقعة زمن الاجتماع وإنما تركه مفتوحاً واكتفى بتحديد المكان فحسب كونه أفضل بقعة في أرض الأندلس.

المضمون

انتقل الكاتب من هذه الاستهلالية اللطيفة إلى التفاضل بين الورود, وذكر محاسنها لمبايعة من يفضلهم رئيساً عليهم ألا وهو الورد.

يقول على لسان حكيم مملكة الزهور والمتحدث باسمها «يا معشر الشجر وعامة الزهر, إن اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات فجعل عبداً وملكاً وخلق قبيحاً وحسناً.

فضل على بعض بعضاً حتى اعتدل بعدله الكل... وإن لكل واحد منا جمالاً في صورته ورقة في محاسنه... ومانية في ديباجته فقد عطفت علينا الأعين,... وأزهت بمحضرنا المجالس حتى سفرنا بين الأحبة... وادعينا الفضل بأسره... ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا, ومن هو أولى بالرياسة منا... ومن يجب له علينا مد اليد بالمبايعة... وهو الورد الذي... اعترفنا بفضله وقلنا برياسته...»

وسرد حكيم مملكة الزهور الصفات التي ميزت الورد بين الزهور وخولته منصب الرئاسة وأجلسته مجلس السلطة, فهو يتمتع بالنسب الكريم على مدى الأزمنة بما يحمله من صفات الحمرة وعطر الرائحة قائلاً:«فهو الأكرم حسباً... إن فقدت عينه لم يفقد أثره... وهو أحمر والحمرة لون الدم, والدم صديق الروح... وأما الأشعار فبمحاسنه حنت...».

وراح كل من حضر هذا الاجتماع من الأزهار يدلي بشهادته أو يبايع الورد رئيساً مستشهداً بدليل عقلي على صحة رأيه وحسن مذهبه, من ذلك شهادة النرجس الأصفر «.. ولقد كنت أسر من التعبد له, والشغف به, والأسف على تعاقب الموت والرحمة دون لقائه ما أخل جسمي, ومكّن سقمي, وإذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خفا ثقل البلوى».

ويؤكد البنفسج كلام النرجس قائلاً «.. أنا والله المتعبد له, الداعي إليه, المشغوف به كلفاً, ... وكفى ما بوجهي من ندب وبجسمي من عدم نهوض, ولكن في التأسي بك أنس...».

وأما النهار فيعلق الطاعة والولاء للورد قائلاً «لا تنظرن إلى عضارة منبتي ونضارة ورقي وانظر إلي وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه وعيناً شاخصة تندى بكاء عليه:

ولـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي علـــى إخـــوانهم لقتلـــت نفســـي

وتأتي شهادة الخزامى في منتهى الروعة والإبداع فهو لا يستطيع التنفس نهاراً في حضور الورد استحياء منه وإجلالاً له إذ يقول «.. والذي أعطاه الفضل دوني, ومد له بالبيعة يميني, ما اجترأت إجلالاً له واستحياء منه, على أن أتنفس نهاراً... فقد اتخذت الليل سترا».

الخاتمة

وتأتي خاتمة المناظرة منسجمة مع مقدمتها إذ سطر الكاتب فيها إجماع الأزهار على اتخاذ الورد إماماً لهم, ومنحه الرياسة عليهم وتسجيل هذا الاتفاق في عهد ينفذ على سائر الأمصار «هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر, وضروب الزهر... وأعطت للورد قيادها وملكته أمرها... واعتقدت له السمع والطاعة, ... وبرئت من كل زهر نازعته نفسه المباهاة له... في كل وطن ومع كل زمان...».

الغاية من المناظرة

أراد ابن برد من هذه المناظرة إعلان الطاعة والولاء للأمير ابن جهور, ناقلاً بذلك صوت الأندلسيين من خلال اعتراف الأزهار بفضل الورد وأحقيته بالرياسة عليهم. وصفات الورد التي سردها على لسان حكيم الزهور إنما هي صفات الأمير ابن جهور التي تخوله الرياسة على سائر الملوك.

لقد جمع الكاتب بين الولاء لابن جهور ومدحه في مناظرة واحدة بطريقة غير مباشرة إذ جاء المديح على لسان الأزهار الأندلسية, وهذه الطريقة المبتكرة تحقق الإمتاع, وتلفت انتباه الحاكم إلى أهمية إبداع مؤلفها, وتطلعه إلى نيل مرتبة مرموقة في بلاط ابن جهور تميزه بين كتاب عصره.

سمات المناظرة

لا تختلف هذه المناظرة عن غيرها من المناظرات الأندلسية, فهي مناظرة خيالية نسجها ابن برد في قالب قصصي ممتع, وجعل أحداث القصة تسرد بطريقة شيقة من خلال حوار الأزهار المتناظرة.

* نحا الكاتب في هذه المناظرة منحىً رمزياً من خلال سرد صفات الورد التي رمزت لصفات ابن جهور, ومبايعة الأمصار له بالإمامة لعلوّ شأنه, وتميزه بين الحكام الأندلسيين من خلال مبايعة الأزهار للورد بالرياسة.

والأرض الخصبة التي أشار إليها في مقدّمة المناظرة إنما هي البقعة الأندلسية التي يحكمها ابن جهور.

* اعتمد ابن برد في هذه المناظرة على ضروب من البيان والبديع من دون أن يتكلّف في البحث عنها وإنّما ما جاء منها كان عفوياً لا ينبو عن الذوق ولا تمجّه الأذن.

نذكر على سبيل المثال لا الحصر هذا السجع الهادئ الذي أضفى على النص نغمةً إيقاعية متوازنة من خلال تنويع حروف السجع في قوله:

«هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر وضروب الزهر, واعترفت بما سلف من هفواتها, وأعطت للورد قيادها ومَلّكته أمرها...»

* كما لجأ إلى تشخيص الأزهار, إذ جعلها تنتقد ذاتها وتعترف بأخطائها وتعلن الولاء والطاعة للورد, وتبرأ من كل زهرة تشذّ عن بنود عقد سطرته في نهاية اجتماعها, وكأن النرجس والبنفسج والبهار والخيري أشخاصٌ حقيقيون ينبضون بالمشاعر وتدبُّ فيهم الحركة والحياة.

* ضمّن ابن برد مناظرته بيتاً من شعر الخنساء وجعله من نسيج الرسالة مما يدلُّ على براعته في المزج بين الشعر والنثر وحسن توظيفه لشعر القدماء.

* أما ألفاظه فقد كانت رقيقة سهلة, واضحة المعاني ليس فيها لفظة نابية أو وحشية, استمدّها من معطيات البيئة الأندلسية وجمال طبيعتها الخلاّبة.

قيمتها:

تتجلى قيمة الرسالة في هذا النسيج الخيالي الذي أبدعه ابن برد على لسان الأزهار الأندلسية, فهذه الرسالة الطريفة حركت قرائح الأدباء فعارضوها بعدد من المناظرات الأدبية الخيالية كأبي الوليد الحميري وأبي عمر الباجي, وابن حسداي.. وغيرهم من الأدباء ، فأبوالوليد بن عامر الحميري عارض ابن برد وفضل البهار على الورد في رسالة كتبها إلى المعتضد بن عباد يعلن فيها ولاءه للمعتضد ويثني عليه من خلال مناظرة أدبية بين سبعة من النواوير هي: البنفسج والنرجس والخيري الشامي, والأقحوان والخيري الأصفر والبهار والورد.

الغاية منها :

أعلن الكاتب أن رسالته إلى المعتضد إنما جاءت في إطار الرد على ابن برد الذي فضل ابن جهور أمير قرطبة على سائر الحكام من خلال تفضيله للورد على بقية الأزهار الأندلسية ،فالحميري يرى بأحقية المعتضد في رياسة الأمصار الأندلسية ويفضله على سائر الحكام في الأندلس من خلال تفضيله البهار على سائر الأزهار ، فقد عقدت الأزهار السبع مجلساً خالفت فيه رأي من سبقها في مبايعة الورد قائلة «لو استحق الورد إمامة أو استوجب خلافة لبادر بها آباؤنا ولعقدنا أوائلنا التي لم تزل تجاوره في مكانه ونحيي معه في أوانه».

وترى الأزهار المجتمعة في مجلس الحميري أن البهار أفضل من الورد وأحق منه بالرياسة لأنه «البادي فضله بدوّ النهار والذي لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء مشبهاً بالعيون التي لا يحول نظرها ولا يحور حورها...».

ينهج الكاتب منهج ابن برد في مناظرته فيعتمد على الأدلة العقلية التي تؤيد صحة رأيه وتفند آراء ابن برد إذ جعل الأزهار المجتمعة في مجلس الربيع تتراجع عن مبايعة الورد إماماً, وتعترف بما سلف من هفواتها طالبة الصفح والغفران إذ يقول «فنحن جلّ النواوير وعمدة الأزاهير نعقد للبهار, ونقدمه على جميع الأنوار» قائلين له «مثلك القاد إلى رغبة مؤهليه وأيد مسالف أياديه وغفر ذنوب عشيريه وجرى على أخلاق الملوك في الصفح عن الملوك» ثم يختم المناظرة على نحو ما فعل ابن برد بتسجيل اتفاق الأزهار في عقد ينفذ إلى سائر المدن الأندلسية يبايعون فيه البهار بدلاً من الورد, ويعلنون له الولاء والطاعة «هذا كتاب مبتكري الأنوار وسابقي الأزهار.. أما بعد: فإنا نحمد إليكم الله الذي

لا إله إلا هو, مستنقذنا من الفعلة القبيحة.. التي نفذ بها كتابنا إليكم... وقد بايعنا البهار الباهر جماله, الظاهر كماله على ما رضيتم به ورغبتم فيه, وقد وضعنا شهادتنا على صدق من نباتنا».

وبناء على ما سبق نجد الحميري قد اعتمد أسلوب ابن برد في بسط أفكاره وصوغ حججه وبراهينه على أحقية البهار بالرياسة ما يدل على قدرته على معارضة ابن برد في مناظرته الخيالية, وحسن توظيفه للأمثال الشعبية والأبيات الشعرية التي ختم بها رسالته من غير تكلف أو افتعال.

رسالة الباجي في معارضة ابن برد

ترجمته الباجي:

هو أبوعمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي من بلغاء الكتاب ولد بباجة إحدى مدن الجانب الغربي من الأندلس وقاعدة بلاد ساحل البحر المحيط الروميّ. كان أبوعمر أديباً برع في النثر والنظم معاً. ومن نثره رسالة كتبها إلى ابن هود على لسان البَهار يقول فيها:

نص الرسالة

«أطال الله بقاء المقتدر بالله, مولاي وسيدي, ومُمْلي حالي ومقيم أوَدي, وأعاذني في خيبة العناء, وعَصَمني معه من إخفاقِ الرجاء, ولا أشمتَ بي عدواً من الرياض يناصبني, وحاسداً من النواوير يراقبني, وقد علم الوردُ موقعَ إماريّ, وغني بلطيف إيمائي عن عباريّ, وإنما تحية الزهر حيّاكَ بها, وخَبيئةٌ ذخرها لك وأهلك لها, وقد أتيتُ في أوانٍ, وحضرتُ وغاب أقراني, ولم أحل من خدمتِكَ رتبتي ومكاني, ولم أعز من الحضور بين يديك نوبتي وزماني, وأنا عبدٌ مطيعٌ مسخّر, ومملوكٌ بتصرف مدبّر, حقيق بأن يُحْسَنَ إليَّ فأُدنى, وجديرٌ بأن يُبتهل بي لا أُجفى, لأني سابقُ حَلْبَةِ النَّوار, وأوّل طلائع الأزهار, وأنا ناظرُ الفصل وعَيْنُهُ, ونُضارُ الروضي وَلُجَيْنُهُ, وقائدُ الظَّرفِ وفارسُه, وعاقدُ مجلسِ الأنسِ وحارسه. وفي فصل منها: فهل لمولاي أن يحسنَ إليَّ صنيعاً, ويكرمَ النَّوْرَ جميعاً, ويدنيني فأرقى إلى أختي الثريّا سريعاً, في مجلس قد أخلصتْهُ سحائبه, وأفرغت الحسنَ عليه والطيبُ ضرائبه, وَجْهُكَ بَدْرُهُ وعَزَّتُكَ لجره وأخلاقك زَهْرُهُ وثناؤك دُرُّه وعطره, وتُعمِل في أمر الدنيا رأيَك, وتترك الهمومَ حيثُ تركها الناس قبلك, ولو صلُحَ الكَمَدُ لأحدٍ لكنت أنا أحقَّ من لزمَهُ وأثبت عليه قَدَمَهُ لأني سريعُ الذُّبول, وشيكُ الأفول, لا يصحبني الظهورُ إلا قليلاً, ولا أُمتَّعُ من مَتاع السُّرور إلا تعليماً, غير أني مُغْتَنِمٌ لساعاتي, آخذٌ من الإنسِ بقدر استطاعاتي وقديماً أكرمني مولاي فلا يهيني, ووصلني فلا يصرمني, ومنحني فلا يحرمني

لا تُهني بعد ما أكْرَمْتَني فشديدٌ عادةٌ مُنتَزَعَة

وذهب أبوعمر الباجي مذهب الحميري في معارضته ابن برد وتفضيله البهار على سائر الأزهار في رسالة أدبية وجهها إلى المقتدر بن هود يشكو فيها الورد الذي اغتصب الرياسة منه قائلاً «وقد علم الورد موقع إماريّ, وغني

بلطيف إيمائي عن عبارتي, وإنما تحية الزهر حباك بها, وخبيئة ذخرها لك ولأهلك فيها» ، وأعلن الباجي ولاءه للبهار ذاكراً الصفات الحسنة التي قدمته على سائر الأزهار فاختارته أميراً .

يتطلع الكاتب من خلال إعلان الطاعة والولاء للأمير إلى نيل مرتبة رفيعة لدى المقتدر قائلاً على لسان البهار: «وقد أتيت في أوانٍ, وحضرت وغاب أقراني, ولم أحل من خدمتك رتبتي ومكاني... وأنا عبد مطيع مسخر ومملوك حقيق بأن يُحسن إليّ فأدين... وجدير بأن يتهلل بي ولا أُجفى, ولأني سابق حلبة النوّار, وأول طلائع الأزهار وأنا ناظرُ الفضلِ وعينُهُ... وعاقد مجلس الأنس وحارسه».

رسالة أبي الفضل يوسف بن خسداي

وحذا أبو الفضل بن خسداي حذو الباجي فديج رسالة أدبية أرسلها إلى المقتدر بن هود يفضل فيها النرجس على سائر الأزهار.

تعريف بالكاتب:

أبوالفضل حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي. كان جده حسداي من كتاب الدولة المروانية, وكان في زمان عبد الرحمن الناصر وهو الذي أولاه المراتب السنية, أما أبوه فهو يوسف بن خسداي من بيت شرف اليهود, أديب مشهور في دولة ابن رزين نشأ ابنه أبوالفضل أديباً لا يشق له غبار, عني بالنظر في أنواع التعاليم على مراتبها, وتناول الفنون من طرقها, وأحكم اللسان العربي, وبلغ الرتبة العليا من البلاغة في الشعر والأدب فطار اسمه في أرجاء المعمورة كانت الذمة تقعده عن مراتب أكفائه فأسلم وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم, من نثره هذه المناظرة.

نص المناظرة :

وله من أخرى إلى المقتدر على لسان النرجس :

"أنا . وصل الله بهجة سلطانك, ونضرة أوطانك. إذا لحظتني بعين الاعتبار, قائدُ النوّار, وواقدُ الأزهار وأنا بها جالبٌ ما هي طاردةٌ, ومبشرٌ بورودها وهي مؤيسة متباعدة, فإني غَلَبْتُ بما في طبعي من التيقّظِ والذكاء, خُلْدَ التراب وصُرَدَ الهواء, فقمتُ عن إساءةِ الفَضْلِ عُذراً ونحلتُ الشتاء على الربيع فخراً, وفضلتُ الوردَ سيّد الأزهار طراً, وتوزّدُهُ شاهدُ خجله, وتسترُهُ من الحياء في أكمّته وعلله, فلي عليه فضلُ العيون على الخدود, وشرف السيّد على المسود, فبينا أنا سقيمُ الجفونِ من غير سَقَم, مائلُ الجيد من دون ألم حتى أُتيحَ لي ظريفٌ من خواصّك يقصدني ونبيلٌ من عبيدك يعتمدني, فأوجست خذراً وتشوّفاً, حتى أنّسني بالكلام تألفاً, وقطفني بغير إيلام تلطفاً, وحاورني بلفظٍ يلقنه النوارُ عياناً, وإن لم يحسنْ عنه بياناً, يا أيها الزهرُ القارد, والنّورُ الشارد, الساحر بحدقه وأجفانه, الناظرُ بورَقه وأغصانه, الباهرُ بورقهِ وعِقيانه, مالي أرى قُضبك غيراً ذابلة, ومنابتَك شعثاً ناحلة, وعهدي بك تمجّ الأنواءُ ريقتها في ثغورك فتصبح حافلة وترضع الأندءُ أفنانك فتغدو حاملة, فتسوءُ بحيدكِ منتئياً, كأنك أصبحت مُنْتَئِياً, وقد ساءني ما عانيتُ من ضناك ونحولك, فبادرتُ جَناك إشفاقاً من ذبولك لأنُقلك من جَنابِ النبات الهشيم, إلى جَنابِ السّرور المقيم, وتسعدُ

بالفوز العظيم, يا سلام راحة الملك الكريم.

وفي فصل منها:

فلبت الرياض تعلم بمكاني فتذبل كمداً, وتذوي حسداً, وتراني وقد أنرتُ في أفقك البهيج, وزهرتُ في روضك الأرج, فكم تتمنى الأزهار أن تضام لديك مطالي, وتكدر في ذراك مشاربي, فأزلْ عني حسدهم بكبتهم فقد شجاهم تقدمي قبْلَ وفتهم, وأكمِلْ مَسرّتي وتمِّمْ أنسي, بلقاء شقيقةِ نفسي, فإني فسيمُها وحميمها, ومني لونُها وشميمُها, وأنا أشبَهُ بها إذا شُجِّتْ وأدارت عيون حبب, من حصباءِ درٍّ في أرض ذهب, وطبعي نظيرُ طبعها وما تقرُّ عيني إلا بدمعها, فلا تحتقرْ أبيها العزيزَ مَنالَ مثلي واعظاً مفحصاً, وهنا شفيعاً منجياً, فإن الأزهار على العموم, تحلو قذى العيون ونفضُّ خِتامَ المعوم, فهي كالثغور أوْضَحُها ابتسام, كاللآلي زانها في الأجياد انتظام, وما مثلت بين يديك إلا لاسمَ غُفْل العلم, فالعصا قُرِعَتْ لذي الحلم, فلا تُضِعْ أبها الملكُ سَبْقَ نفسُّمي وحقَّ مُمْدَمي, فقد أشخصت طرفي إليك آملاً, وبسطتُ نحوك كفي سائلاً وحسبي أن تُلاقيني ببشرك, وتناجيني بفكرك, فتنبِّه العزمَ من وسْنه, وتنشرَ الحزم من جَنَبه, فلك من براعة العلا, وأصالة النُّهى, ذكاء يري لأولي اقتداع زنْدهُ, ومضاءٌ يفري بأيسر هزّ حده, ولديك من مناهلِ الكرم, وفواضلِ النعم, ما يزري بالمزْنِ ويوفي على الديم:

فانفحْ لنا من طيب خُلْقِكَ نسيمةً إن كانتِ الأخلاقُ مما توهب

وزِدْ برح ظمأي, وانفع صداي, ولا تكلْ على الأنواء سقياي.

والفرق بين الرسالتين: كما يراه د. إحسان عباس يكمن في الحوار, فالباجي أجرى الحوار في مفاضلته على لسان الأزهار المتناظرة, أمّا ابن خِتْداي فقد أجراه بين النرجس ورجل ظريف من خواص الأمير إذ قال على لسان النرجس « فبينا أنا سقيم الجفون من غير سقم, مائل الجيد من دون ألم, حتى أُتيح لي ظريف من خواصك يقصدني, ونبيل من عبيدك يعتمدني, فأوجست حذراً وتشوقاً, حتى أنسي بالكلام تألقاً, وقطعني بغير إيلام تلطفاً, وحاورني بلفظٍ يلقنه النوّار عياناً».

و **الشبه بين الرسالتين:** يكمن الشبه في غاية مبدع كل رسالة من مدح المقتدر على لسان نوارة من النّواوير هو كما يقول إحسان عباس «تذكير بالذات والتميز على الأقران, والتخلص من حسد الحاسدين». فالباجي مدح المقتدر على لسان البهار قائلاً «أطال الله بقاء المقتدر بالله وعصمني معه من إخفاء الرجاء, ولا أشمت بي عدواً من الرياض يناصبني وحاسداً من النواوير يرافبني...». في حين خاطب ابن حسداي المقتدر على لسان النرجس قائلاً «فأزلْ عني حسدهم بكبتهم, فقد شجاهم تقدمي قبل وفتهم...».

وهكذا نجد أن المناظرات بين الأزهار قد تنوعت في الربوع الأندلسية ولا سيما في القرن الخامس الهجري إذ اتخذ كتاب النثر من الطبيعة موضوعاً لمناظراتهم, وابتكروا في طريقة صياغتها على نحو لم يألفه كتاب المناظرات في المشرق.

المناظرات بين المدن

زعم بعض كتّاب المناظرات أنّ هذا الفن (المناظرات بين المدن) فنّ مُستحدث لدى الأندلسيين، لكن البحث في الكتب المشرقية، ولا سيما في المخطوطات، يُعطي إشارات إلى المفاخرة بين المدن المشرقية لأسباب سياسية وعصبيات قبلية ، وفي إطار الخلافات العصبية بين القيسيين واليمانيين ، اندفع الأدباء إلى الفخر بمدنهم وأعلام مدنهم ، ومن الموضوعات البارزة في فن المناظرات المشرقية ما نقله الجاحظ في رسائله عن الأوطان والبلدان[١٣]:"قال زياد: الكوفة جارية جميلة لا مال لها، فهي تُخطَب لجمالها، والبصرة عجوز شوهاء ذات مال فهي تُخطَب لمالها[١٤]". وما نقله الهيثم بن عدي الكوفي من المناظرات بين الكوفيين والبصريين في كتابه (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة)[١٥]. وكذلك فخر الكوفيين على البصريين في حضرة أمير المؤمنين أبي العباس[١٦].وفضائل البصرة لعمر بن شبّة المتوفى سنة ٢٦٢هـ[١٧].ومخطوط (تاريخ مكة وأخبارها) الذي تضمّن ورقتين تشيران إلى افتخار الحرمين وأشعارهما. جاء فيهما أنه "سمع جميع كتاب مكة، ورسالة المهدي، وافتخار الحرمين، ورسالة البصرة عن الشيخ أبي علي حسن بن خلف بن هبة الشامي في المسجد الحرام، وذلك في سنة ٥١٣هـ[١٨]".

إذا كان المشارقة قد سبقوا الأندلسيين في التفاخر بمدنهم ووصف بلدانهم التي دخلت ميادين المنافسة وإبراز فضائلها، فإن الأندلسيين طوّروا هذه المناظرات بين المدن الأندلسية، ولم يكن وصف المدن عندهم يُقصد لذاته في كثير من الأحيان، وإنما كان ضرباً من الأدب الوصفي يقوم على المفاضلة بين مدينتين أو أكثر، أو بين شخصيتين تفضّل كلّ منهما مدينة معيّنة، وينتقص من مدينة الخصم ليثني على أصحاب المدينة المفضلة، أو يمدح أمراءها وحكامها بطريقة غير مباشرة، تنمّ عن إبداع الأندلسيين وشغفهم بأوطانهم.

ويعود ازدهار المناظرات بين المدن عند الأندلسيين إلى سببين أساسيين:

أولهما التنافس بين الأندلس والمغرب .

وثانيهما: رحيل العلماء عن الأندلس، واضطراب الأحوال السياسية في عهد الموحدين، ما دفع أدباء الأندلس إلى التعريف بمدنهم، والدفاع عن أندلسيتهم، والكشف عن الرقي الحضاري والتطور العمراني الذي وصلت إليه الأندلس.

ومن مناظرات المدن الكثيرة مناظرة صغيرة لكنها مهمة ينقلها المقرّي التلمساني في نفح الطيب هي :

---

١٣ رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون ٤/١٣٦

١٤ المصدر نفسه.

١٥ انظر معجم الأدباء، مصر كحالة ٤/٦٨.

١٦ انظر المفاخرة في الأمصار المؤنثات – للزبير بن بكار، تح: سامي العاني ص ٣٩-١٤٣.

١٧ انظر فضائل الأندلس وأهلها – صلاح الدين المنجد – مقدمة الكتاب، أ.

١٨ انظر تاريخ مكة وأخبارها، افتخار الحرمين وأشعارهما الأزرقي، (١٣٨ ب – ١٤٠ أ) ضمن مجموع عام رقم ٢٤٠٠، الظاهرية.

مناظرة ابن رشد وابن زهر بين قرطبة وأشبيلية[١٩]

جرت المناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، نقل المقري منها : " قال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة:

ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالمٌ بأشبيلية فأُريدَ بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتّى تباع فيها، وإن مات مطربٌ بقرطبة فأُريدَ بيع آلاته حُملت إلى أشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً".

وهذه مناظرة بسيطة لم يسطّرها الكتّاب لنا بالكامل، إنما وجدت نتف منها في كتاب (نفح الطيب) للمقّري كما سلف ، والنص يشير إلى أن مدينة العلم والعلماء هي قرطبة، وأن أشبيلية هي مدينة الطرب والموشحات والرقص.. الخ ، والمناظرة تعطي تصوّراً للواقع الاجتماعي والثقافي في المدينتين المتنافستين .

مناظرة صفوان بن إدريس بين المدن الأندلسية

لكن المناظرة الأساسية التي وجدت بين المدن الأندلسية يعود الفضل في ابتكارها عند الأندلسيين إلى صفوان بن إدريس.

ترجمة الكاتب:

يعد صفوان بن إدريس رائد هذا الفن في عصر الموحّدين، وهو أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم التّجيبي المرسي،[٢٠] ينتمي إلى أسرةٍ عربيةٍ عريقة نابهة بالعلم[٢١]. ولد في مرسية سنة (٥٦٠ هـ) ومات فيها، ولما يتجاوز الأربعين من عمره، وذلك سنة (٥٩٨ هـ).

كان أديباً بارعاً في الشعر والنثر على حدٍّ سواء، يشهد على ذلك شعره المتنوع الأغراض، ورسائله الأدبية الجيدة[٢٢]

---

١٩ نفح الطيب ١/١٥٤.

٢٠ انظر ترجمته في معجم الأدباء – ياقوت الحموي – ١٢.

نفح الطيب، ج٦، ص٣٢٦.

المغرب ج٢، ص٢٦٠.

المقتضب من تحفة القادم لابن الأثير ، تح: إبراهيم الأبياري، ص٨٦-٨٦.

٢١ انظر زاد المسافر لصفوان بن إدريس، ص١٤٢، (فصل في ذكر بني إدريس).

٢٢ انظر نفح الطيب، ج٦.

التي حملت طابع الثقافة الدينية والأدبية في عصره .

ولم تخرج طريقته في الكتابة على طريقة القاضي الفاضل ؛ إذ نهج أسلوبه المسجوع، واعتمد على تضمين كتاباته ثلّة من الأمثال والأبيات الشعرية والمصطلحات العلمية والأدبية التي تدلُّ على سعة اطلاعه وثقافته المتنوعة.

وألف كتاباً في أدباء الأندلس إلا أنه لم يكمله، ومن أشهر مؤلفاته كتاب بعنوان (زاد المسافر وغرّة محيّا الأدب السافر)، جمع فيه أشعار الأندلسيين في عصره ، وله أيضاً كتاب (بداهة المنحفز وعمالة المستوفز)، ويسمّى (العجالة). جُمع شعره ونثره في مجلدين .

وكتب مناظرةً خاطب فيها عبد الرحمن ابن السلطان يوسف عبد المؤمن بن علي،[٢٣] معبّراً عن حبه للأمير ومنزلته في نفوس الأندلسيين ، وأقام الكاتب مناظراته على التفاضل بين المدن الأندلسية؛ إذ راحت كل مدينة تفخر بما خصّها الله تعالى من مزايا ومحاسن ، وتعدّ على المدن الأخرى عيوبها، وتنتقص من مكانتها وآثارها ، وأظهر ابن صفوان في هذه المناظرة تأثره بمدارس الجدل، وأفصح عن براعته في توظيف مخزونه الثقافي من تراث وأدب وعلم في متن الرسالة.

نص المناظرة:

لم تقف غاية أبو بحر صفوان بن إدريس في هذه المناظرة عند وصف المدن الأندلسية بما امتازت به من حسن موقع ، أو بهاء منظر، أو عظيم أثر، وإنما تعدّت ذلك إلى مدح الأمير الموحّدي عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي مدحاً غير تقليدي ، والتنويه بجلال قدره، وسموّ مكانته تقرّباً من الأمير لينال أعطياته، وليتخذ من المدينة المفضّلة لديه عاصمةً لملكه.وفيها قال [٢٤]:

"مولاي أمتع ببقائك الزمان وأبناءه، كما ضمَّ على حُبّكَ أحشاءهم وأحناءه، وأوصل ما شئتَ مِنَ المنّ والأمان، كما نظم قلائد فخرك على لبّةالدهر نظم الجُمّان، فإنك الملك الهمام، والقمر التمام، أيامك غُرَرٌ وحجول، وفرندُ بمائها في صفحات الدهر يجول، ألبست الرّعية برود التأمين، فتنافست فيك من نفيس ثمين، وتلقّت دعوات خلدك لها باليمين، فكم للناس، من أمن بك إيناس، وللأيام، من نوعة فيك وهيام، وللأقطار من لبانات لديك وأوطار، والبلاد من قراع على تملّك لها وجلاد، يمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون، ويغتبقون في رياض ذكرك العاطر ويُصْطبحون، خدام حبك

---

٢٣ يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، أبو يعقوب، أمير المؤمنين من ملوك دولة الموحدين بمراكش وهو الثالث فيه، بايعه الأندلسيون بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٨هـ بأشبيلية ثم كانت البيعة العامة بمراكش سنة ٥٦٥هـ . غزا ، بالغزو والشهادة ومنه لقبه وعلمه لقوم المنتسبة. استقدم أبا الوليد بن رشد، بنى مسجد أشبيلية ٥٦٧هـ، وإليه تنسب المنارة الرومانية في المغرب وكانت علامته في المكاتبات وعلامة من بعده (الحمد لله وحده) وتوالت الفتوحات في عهده إلى مدينة قفصة بإفريقية، أصيب بخروج دمّلة من بعض الفرنجة وهو بتاهرت بالجزائر منصرفا من الحرب فمات بالمغرب من الجزيرة الخضراء وحُمل إلى مسقط رأسه (تينمال) ودُفن بها إلى جانب أبيه.

انظر ترجمته في (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) المراكشي، تح: محمد سعيد العريان ص٢٤٥.

٢٤ نفح الطيب ج١ ص ١٦٧.

ويصطبحون ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢٥]، محبّة من الله ألقاها لك حتى على الجماد، ونصراً مؤزراً تنطق به السنة السيوف على أفواه الأغماد، ومن أسر سرير ألبسه الله رداءها، ومن طوى حسن نيّة ختم الله له بالجميل إعادتها وإبداءها، ومن قدّم صالحاً فلا بدّ أن يوازيه، ومن يفعل خيراً لا يعدم جوازيه، ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار، وطال بها الوقوف على حبّك والاقتصار، كلّها يفصح قولاً ويقول: أنا أحقّ وأولى، ويصيح إلى إجابة دعوته ويصغي، ويتلو إذا بُشّر بك: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[٢٦].

تنمّرت **حمص** غيظاً، وكادت تفيضّ فيضاً، وقالت: ما لهم يزيدون وينقصون، ويطمعون ويحرصون، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ لي السهم الأسد، والساعد الأسد، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمدّ، أنا مصر الأندلس والنيل نهري، وسمائي النأس والنجوم زهري، إن تحاربتم في ذلك الشرف، فحسبي أن أفيض في ذلك الشرف، وإن تبجحتم بأشرف اللبوس، فأي إزار اشتملتموه كشتبوس لي ما شئت من أبنية رحاب، وروض يستغني بنضرته عن السحاب، وقد ملأت زهراي وهادا ونجادا، وتوشّح سيّد نهري بحدائقي نجادا، فأنا أولاكم سيدنا الهمام وأحقّ، ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[٢٧] فنظرتها قرطبة شزراً، وقالت: لقد كثرت نزراً، وبذرت في الصّخر الأصم بزراً، كلام العدى ضربٌ من الهذيان، وأيّ للإيضاح والبيان، متى استحال المستقبح مستحسناً، ومن أروع أجفان المهجور وَسَنا، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[٢٨]، يا عجباً للمراكز على الأسنّة، وللأثمار تفضّل على الأعنّة، إن أدّعيتم سبقا، فما عند الله خيرٌ وأبقى، لي البيت المطهّر الشريف، والاسم الذي ضرب عليه رواقة التعريف، في بقعي نحل الرجال الأفاضل، فليرغم أنف المفاضل، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسبي من نباهة القدر، فما لأحدٍ أن يستأثر عليّ بهذا السيد الأعلى ولا أرض له أن يوطئ غير ترابي نعلا، فأقروا لي بالأبوة، وانقادوا لي على حكم النبوّة، ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾[٢٩] وكفّوا عن تباريكم ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[٣٠].

فقالت **غرناطة** : لي المعقل الذي يمتنع ساكنه من النجوم، ولا تجري إلا تحته جياد الغيث السُّجوم، فلا يلحقني من مُعانِدٍ ضررٌ ولا حيفٌ، ولا يهتدي إليّ خيالٌ طارقٌ ولا طيف، فاستسلموا قولاً وفعلاً، فقد أقلع اليوم من استعلى، لي بطاح تقلّدت من جداولها أسلاكاً، واطّلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً، ومياه تسيل على إعطافي كأدمع العشّاق، وبرد نسم يردّ ذماء بقيّة الروح في المذبوح، المستجير بالانتشاق، فحسبي لا يُطمع فيه ولا يُحتال، فدعوني فكلّ ذات ذيل تحتال، فأنا أولى بهذا السيّد الأعدل، وما لي به من عوض ولا بدل، ومَ لا يعطف عليّ عنان مجده ويثني، وإن أنشد يوماً فإياي يعني: -الطويل-

بـلادٌ بهـا عـقّ الشـباب تمـائمي ... وأول أرضٍ مـسّ جلـدي ترابهـا

---

٢٥ = سورة الروم، الآية ٣٢

٢٦ = سورة الكهف، الآية ٦٤

٢٧ = سورة يوسف، الآية ٥١

٢٨ = سورة فاطر، الآية ٨

٢٩ = سورة النحل، الآية ٩٢

٣٠ = سورة البقرة، الآية ٥٤

فما لكم تعتزون لفخري وتنتمون، وتتأخرون في ميداني وتتقدمون، تبرؤوا إليّ مما تزعمون، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣١].

فقالت مالقة: أتتركوني بينكم هملا، ولم تعطوني في سيدنا أملاً، ولم ومَ ولي البحر العجاج والسُبل الضجاج، والجنات الأثيرة، والفواكه الكثيرة، لدي من البهجة ما تستغني به الحمام عن الهديل، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشي إلى التعويض عنه ولا تبديل، فما لي لا أعطي في ناديكم كلاماً، ولا أثر في جيش فخاركم أعلاماً؟

فكأن الأمصار نظرتها ازدراء، فلم تر لحديثها في ميدان الذكر إجراء، لأنها موطن لا يخلى منه بطائل، ونظن البلاد تأوّلت فيها قول القائل -الوافر-:

إذا نطـق السـفيهُ فـلا تجبْـهُ ... فخيرٌ مـن إجابتـه السـكوت

فقالت مُرسية: أمامي تتعاطون الفخر، وبحضرة الدّر تتفقرون الصخر؟ إن عُدّت المفاخر، فلي منها الأول والآخر، أين أوشالكم من بحري، وخرزكم من لؤلؤ نحري، وجعجعتكم من نفثات سحري؟ فلي الرّوض النّضير، والمرأى الذي ماله من نظير، وزنقاتي التي صار مثلها في الآفاق، وتبرفع وجه جمالها بغرّة الأصفاق، فمن دوحات كم لها من بكور وروحات، ومن رجاء إليها تُمدّ أيدي الرجاء، فأبنائي في الجنة الدنيوية مودعون، ولا يتنعمون فيما يأخذون ويدّعون، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدّعون، فانقادوا لأمري، وحاذروا اصطلاء جمري، وخلّوا بيني وبين سيدنا أبي زيد، وإلا ضربتكم ضرب زيد، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣٢].

فقالت بلنسية: فيمَ الجدل والقراع؟ وعلام الاستهام والافتراع؟ وإلام التعريض والتصريح؟ وتحت الرّغوة اللبن الصريح، أنا أحوز من دونكم، فأخمدوا ناري تحرّكم وهدونكم، فلي الخامس الشاخة الأعلام، والجنات التي تلقى إليها الآفاق يد الاستسلام، وبرصافتي وجسري أعارض مدينة السلام، فأجمعوا على الانقياد لي والسلام، وإلا فعضوا بنانا، واقرعوا أسنانا، فأنا حيث لا تدركون وأنّى، ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منّا.

فعند ذلك ارتمت حُمرة تدمير بالشرار، واستندّت أسهمها لبحور الشّرار، وقالت: عِش رجبا، ترَ عجبا أبعد العصيان والعقوق، تنهياً لرتب ذري الحقوق؟ هذه سماء الفخر ضمّنك أن تعرجي، ليس بعشك فادرجي لك الوصب والخبل ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾[٣٣] أيتها الصانعة الفاعلة من أدّاك أن تطرّي وما أنت ناعلة ما الذي يجديك الروض والزهر؟ أم ما يفيدك الجدول والنهر؟ وهل يصلح العطار ما أفسد الدّهر؟ هل انت إلا شحط رحل النفاق، ومنزلٌ والسوق الخضب فيه من نفاق؟ ذراك لا يكتمل الطرف فيه بهجوع، وقراك لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فإلام تبرز الإماء في منصّة العقائل؟ ولكن اذكري قول القائل -الطويل-:

---

٣١ - سورة البقرة ٢/٧٨ و ٤٠.

٣٢ - سورة فصلت ٤١/ ٣٥.

٣٣ - سورة يونس ١٠/ ٩١.

عجوز تريّني أن تكون فتيةً وقد لحب الجنبان واحدودب الظّهر

تروح إلى العطار تبغي صلاحها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

بيد أني أسأل الله تعالى أن يؤيّد من توفيقك ما جمد، ويسهل من تسديدك ما جمد، ولا يطيل عليك في الجهالة الأمد، وإياه سبحانه نسأل أن يردّ سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده، ويجعل مصائب أعدائه من فوائده، ويمكّن حسامه من رقاب المشغبين، ويبقيه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين، ويصل له تأييداً أو تأييداً، ويهمد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيداً، ويمدّ على الدنيا بساط سعده، ويهبه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده: -البسيط-

آمين، آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضيف إليها ألف آمين

ثم السلام الذي يتألّق عبقاً ونشراً، ويتألق رونقاً وبشراً، على حضرتهم العليّة، ومطلع أنوارهم السنيّة الحليّة، ورحمة الله تعالى وبركاته".

أقسام المناظرة:

المقدمة

وتتضمن دعاءً مسجوعاً للأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي إذ يقول: "مولاي، أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه، كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه، وأوصل لك ما شئت من المنّ والأمان... ومن قدّم صالحاً فلا بد أن يوازيه ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه".

وأراد بهذا الدعاء التقرّب من الأمير والتودد إليه ليحظى بمكانة رفيعة في بلاطه، قائلاً على لسان كلّ مدينة أندلسية: "أنا أحق بالأمير وأولى".

المتن :

ويظهر تنافس كلّ من أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة ومرسية وبلنسية وتدمير، فيما بينها، على احتضان الملك الأمير الموحدي، إذ راحت كلّ مدينة تفخر على صاحبتها بما تتسم به من فضائل على المستويين الجغرافي والحضاري، وتزدري نواقص المدن الأخرى في حوار جدلي شيّق، يعبّر عن خصوبة خيال المؤلف الذي ألبس مناظرته ثوباً قصصياً ممتعاً، وفي الوقت نفسه، وصف مواقع هذه المدن وآثارها الحضارية وصفاً واقعياً من ذلك قول أشبيلية الغاضبة كالنمر:

"تنمّرت حمص غيظاً، وكادت تفيض فيضاً، وقالت ما لهم يزيدون وينقصون.... لي .... النهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمدّ، أنا مصر الأندلس والنيل نهري... لي ما شئت من أبنية رحاب، وروض يستغني بنضرته عن السحاب... فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾".

فردت عليها قرطبة بازدراء قائلة: "... لقد كثرت نزرا ... كلام العدا ضرب من الهذيان .. لي البيت المطهر الشريف... وفي جامعي مشاهد ليلة القدر... فما أجد أن يستأثر عليّ بهذا السيّد الأعلى.. فاقروا لي بالأبوّة وكفّوا عن تباريكم ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾".

وتستمر بقية المدن في تبادل التهم والنظرات فيما بينها إلى أن يصل الكاتب إلى الخاتمة.

الخاتمة :

لم ينه المناظرة بالمصالحة بين المدن المتخاصمة، كما لم يحقّق الفوز لإحدى المدن على صويحباتها، وإنما ترك للأمير حرية اختيار المدينة التي يفضلها لتكون عاصمة ملكه، داعياً له بملك لا يكون لأحد من بعده: "... أسأل الله تعالى أن يمهّد له الأيام حتّى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيدا، ويمدّ على الدنيا بساط سعده، يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ثم السلام ... ورحمة الله تعالى وبركاته".

أسلوب المناظرة وسماتها الفنية:

نهج الكاتب في مناظرته منهج الجغرافيين والرّحالة، إذ وصف المدن الأندلسية وحواضرها، مشيراً إلى ميّزات كل مدينة في الميادين الاقتصادية والحضارية والتاريخية، مركّزاً على موقعها الجغرافي وجمال طبيعتها.

١. جاء أسلوب الكاتب في المناظرة مُشرقاً متأثراً بطريقة القاضي الفاضل في حرصه على تذييج الرسالة بدعاء مسجوع في مقدمتها وخاتمتها بتناسب وشخصية المرسل إليه من جهة، ويضفي على النص من جهة ثانية نغمة موسيقية معتدلة من خلال التنويع في الفواصل السجعية.

٢. اختيار الألفاظ المأنوسة التي تشهد على قدرة الكاتب على التعبير والإنشاء ومجاراة روح العصر.

٣. وشّى مناظرته بضروب من البيان من تشبيه واستعارة وكناية، مفضلاً التشخيص الذي بثّ الحيوية والحياة في الأشياء الجامدة. وشواهد كلّ لون من ألوان البيان (الاستعارة . التشبيه . الكناية . التشخيص) كثيرة في النص؛ منها مثلاً:

التشخيص: (تنمّرت حمص غيظاً)،وعن التشبيه: قلائد فخرك، لبّة الدهر، مدام حبك،والاستعارة: ألبست الرعيّة برود التأمين، ألسنة السيوف، أفواه الأغماد،و الكناية: (فعضّوا بناناً) كناية عن الندم.

٤- كما مزج بين النثر والشعر، فتارةً يأتي بصدر البيت دون عجزه:

شاهده: (من يفعل الخير لا يعدم جوازيه)، وصدره (لا يذهب العرف بين الله والناس)، وتارةً أخرى يأتي بعجزه دون صدره، ويواكب ذلك بإراء تعبّر عن ملكة النقد لديه، وتارةً يأتي ببيتٍ من تأليفه، شاهده:

بـــلادٌ بهـــا عـــقّ الشـــباب تمـــائمي وأول أرض مـــسّ جلـــدي ترابهـــا

٥- وطعّم رسالته بدلّة من الأمثال العربية أوردها بلفظها أو بمعناها، مثلاً:

شاهد اللفظ: "عِش رجبا، ترَ عجباً"،وشاهد المعنى: "ألا ضربتكم ضرب زيد".

ليؤكد فكرةً بعينها، أو يستدل بها على صحّة آرائه ما يدلُّ على سعة اطّلاعه وحسن توظيفه للتراث.

٦- اقتباس آياتٍ من الذكر الحكيم بلفظها أو بمعناها وتضمينها رسالته وكأنّها جزء من نسيج النص، ليضفي هالةً من

القدامة على مناظرته:

مثال: الآية بلفظها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾.

الآية بمعناها: فما عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إشارة إلى الآية الكريمة:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

قيمة المناظرة:

١- تكمن في طرافتها (جدّتها، ابتكارها)، فالكتاب لم يقف عند محاكاة المشارقة في المفاضلة بين المدن ووصفها واقعياً فحسب، وإنما قصَّ لنا حكاية المدن المتنافسة في حبِّ الأمير، ومدحه من خلال حوار متخيّل بين المدن يقوم على الجدل والاستدلال بالحجج والبراهين على صحة آرائهم.

وهي طريقة جديدة لم يسبق للمشارقة أن اعتمدوها في مناظراتهم بين المدن المشرقية.

٢- تعدّ المناظرة وثيقة تاريخية مهمّة تشير إلى خصائص سبعٍ من المدن الأندلسية.

٣- عكست الرسالة انطباعاً مهمّاً عن ثقافة الشاعر المتنوعة والمقاييس الفنية في عصر الموحدين.

كما عبّرت عن تعلّق الشاعر الشديد بالأندلس وشغفه بطبيعتها وإشادته بمظاهر الجمال والحضارة فيها.

فضائل الأندلس لابن حزم الأندلسي

ترجمة المؤلف

ابن حزم الأندلسي هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي المتوفى ٤٥٦هـ. نشأ في أسرة عريقة ذات مكانة سامية في عالم السياسة والسيادة والأدب.

وشى به أحد فتيان المنصور بن أبي عامر فاعتقله أشهراً ثم رد إليه حريته.

وتفرغ لدراسة العلوم اللغوية والدينية والفلسفية بدأ حياته مالكياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي مدة من الزمن ثم تركه في أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهري ناضل عن الإسلام أرباب المذل من اليهود والنصارى وجادلهم في مناظراتهم.

ترك أربعمئة مؤلف أشهرها: (الفصل في الملل والأهواء والنحل) و(الناسخ والمنسوخ) و(طوق الحمامة) و(مجموعة رسائل فضائل الأندلس وأهلها).

له مناظرة مع الفقيه المالكي أبي الوليد الباجي في جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢هـ أحرق المعتضد بن عباد أمير اشبيلية طائفة من مؤلفاته لتفور فقهاء المالكية منها.

أكتوى بنار الفتنة القرطبية ومات سنة ٤٥٦هـ[١].

سبب تاليفها:

ألف ابن حزم رسالته في فضائل الأندلس وأهلها للرد على أبي علي بن الربيب القيرواني[٢] الذي كتب رسالة[٣] إلى إلى الوزير الكاتب أبي المغيرة بن حزم، يلومه فيها على تقصير علماء الأندلس بحق بلدهم والإشادة بعلمائهم ، وقد رد أبو المغيرة علي ابن الربيب برسالة طويلة[٤] أورد ابن بسام جزءاً منها، منوهاً إلى انصراف أهل المشرق عن تدوين علوم الأندلسيين وآدابهم ، وعثر ابن حزم . وهو ابن عم أبي المغيرة . على رسالة ابن الربيب واطلع عليها بعد وفاة مؤلفها، فرد عليه برسالته في فضائل الأندلس، فخر فيها بفضل الأندلس وأهلها ومدحها، ويفتخر بأندلسيته، ويعتز بوطنه ، ويلتمس مواطن الجمال فيه، ويسطر مشاعره الجياشة حياله.وما تتسم به من حضارة وثقافة وجمال بيئي .

موضوعها:

رسالة ابن حزم في ذكر فضائل الأندلس أقرب إلى الكتابة الوصفية منها إلى فن المناظرات، فقد جاء موضوعها محصوراً في ذكر فضائل علماء الأندلس، وتقديم سجل حافل بمآثرهم يبرز مكانة الأندلس وفضلها قياساً إلى المشرق وعلمائه من دون أن يلجأ ابن حزم إلى المفاضلة بين الأندلسيين والمغاربة، أو الاستهزاء بأهل المغرب والانتقاص من قدرهم كما عند الشقندي، فمنطلق رسالة ابن حزم يختلف عن منطلق رسالة الشقندي الذي يفضل الأندلس على المغرب.

أقسامها :

المقدمة

استهل ابن حزم رسالته بمخاطبة صديقه أبي بكر بن إسحاق[٥] مبيناً له اطلاعه على رسالة القيرواني، واتهام الأندلسيين

---

١ – انظر ترجمته: جذوة المقتبس الحميدي ص٢٩٠/ المشجب ص٥٥ وبغية الملتمس للضبي ص٤٠٣، والمعجب ٩٣ ، معجم الأدباء ٢٢٥/١٢ تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ص١٤ ، ص١٩ ، ٧٤، ٧٧، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٤٢٦. دراسات عن ابن حزم. ط الجابري، الطاهر مكي، عبد الكريم خليفة.

٢ – هو أبو علي بن محمد القيرواني المعروف بابن الربيب، كان عارفاً بالفقه، شاعراً مقدماً في الأدب وعلم الخبر والنسب، قوي الكلام، توفي سنة ٤٢٠هـ، انظر ترجمته في بغية الوعاة الوعاة للسيوطي ج١، ص٥٢٤.

٣ – انظر رسالة ابن الربيب في الذخيرة ق١، م١، ص١٢٣ . ١٢٦.

٤ – الذخيرة: ق١، م١، ص١٢٦.

٥ – محمد بن إسحق النهاوي، من أهل العلم والأدب صاحب ابن حزم وشريكه في محنة الاعتقال على يد جواد العامري، (انظر الجذوة ص٤٤).

الأندلسيين بالتقصير بحق علمائهم وأدبائهم. يقول: " أما بعد يا أخي يا أبا بكر، سلام عليك سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالي، ثم لقينك في حال سفر ونقلة، وذلك في خلال جولة ورحلة، فلم يقض من محاورتك أربا، ولا بلغ في مجاورتك مطلباً، وإني لما احتللت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك، ومضمون دواوينك، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً فتأملته، فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبينا في الدار أهل إفريقية ثم من ضمه حاضرة قيروانهم، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه، ولا ذكره بنسبة، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف فإن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم مفوكهم، ومحاسن فقهائهم ومناقب قضائهم، ومفاخر كتابهم، وفضائل علمائهم، ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم، ويبقي علمهم بل قطع أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه، وحقن ظنه في ذلك، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئاً من هذه التآليف لو كان بيننا موجوداً لكان إليهم منقولاً، وعندهم ظاهراً، لقرب المزار، وكثرة السفار، وترددهم إلينا، وتكررهم علينا"[1].

المضمون

ثم انتقل إلى الثناء على صاحب (البونت)[2] الذي عقد في بلاطه مجلساً حافلاً بأنواع العلوم والمعارف، يصغي فيه إلى جلسائه يقول ابن حزم:

" ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيعة، من دقيق المعاني وجليل المعالي، قرارة المجد ومحل السؤدد، ومحط رحال الخالفين، وملقى عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته، ولا ينال حضره هويناه، وأربى به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه، ولا يدنو من المعاني دنوه، ولا يعلو في حميد الخلال علوه، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور، وأجتزي من الإطالة في تقريظه بمنتهاه المذكور، فحسبي بدينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور، وفضله المشهور، أبي عبد الله محمد بن قاسم صاحب البونت أطال الله بقاءه، وأدام اعتلاءه! ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه، فرأيته أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب، وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي، أو بعد عنه فخفي فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات، رحمنا الله تعالى وإياه! فلم يكن لقصيده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مغنى، فلسنا بمسمعين من في القبور. فصرت عنان الخطاب إليك، إذ من قبلك

---

١ - الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة ص٦١٤ ، ٦١٥.

٢ - قرية من أعمال بلنسية انتقل فيها بنو قاسم بعد الفتنة، انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٢١٨.

صرت إلى الكتاب المجاوب عنه، ومن لدنك وصلت إلي الرسالة المعارضة، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن هذا الباحث الأول، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإن كنت في إخباري إياك بما أرسمه في كتابي هذا كمهد إلى البركان نار الحباحب، وباني صوى في مهيع القصد اللاحب، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه، فإنما المراد من أهل تلك الناحية من نأى عنه علم ما استجلبه المسائل الماضي، وما توفيقي إلا بالله سبحانه".

ثم يسرد فضائل الأندلس ومآثرها وأهم مؤلفاتها مضيفاً صفة القداسة على وطنه بذكر حديث شريف نُسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:" فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتباً جمة: منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها، وأمهات مدنها وأجنادها الستة، وخواص كل بلد منها، وما فيه مما ليس في غيره. وهو كتاب مريح مليح. وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة، في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس[1] بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك، لكفى شرفاً بذلك يسر عاجله، ويغبط آجله.فإن قال قائل: لعله صلوات الله تعالى عليه إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية وإفريطش، وما الدليل على ما أدعيته من أنه صلى الله عليه وسلم عنى الأندلس حتماً، ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح، وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التجريح.فالجواب، وبالله التوفيق، أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم، وفصل الخطاب، وأمر بالبيان لما أوحي إليه. وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاة، واحدة بعد واحدة. فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها صلى الله عليه وسلم، وخبره الحق، بأنها من الأولين. وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وصح البرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغزاة إلى قبرص، وخرت عن بغلتها هناك، فتوفيت، رحمها الله تعالى، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر. فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرص هم الأولون الذين بشر بهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولا سبيل أن يظن به وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى إلا والثانية لها ثانية، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية، ولا الثانية ثانية إلا لأولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة، وهو صلى الله عليه وسلم إنما ذكر طائفتين، وبشر بفئتين، وسمى إحداهما الأولين، فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه، أولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده. ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى

---

١ - (الحديث في صحيح مسلم ج٣/ ١٥١٨)، أن الرسول صلى الله عليه وسلم نام ثم استيقظ وهو يضحك فقالت له ما يضحكك يا رسول الله؟ قال ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة)).

القسطنطينية، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢، أيام قاد إليها السفن غازياً أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى، وبمامات.

وأما إقريطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمئتين، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ، من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس، وكان من فل الربضيين، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيام أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠، وكان أكثر المفتتحين لها أهل الأندلس".

وفي قسم الأقاليم الإسلامية يحدد موقع الأندلسيين فيها، ويبين أثر البيئة الأندلسية في ذكاء أهلها قائلاً:

" وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة مسقط رؤوسنا، ومعقد تمائمنا، مع شر من رأى في إقليم واحد، فلنا في الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا، وإن كانت الأنوار لاتأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور".

ويحدد ابن حزم الشخصية الأندلسية مستعيناً برأي الجماعة من المؤرخين والأئمة السابقين، فهم: "متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يحل عنها، رحيل ترك لسكناها إلى أن مات"(١).

ويذكر مثالاً على ذلك محمد بن يوسف الوراق الذي ألف للمستنصر ديواناً في مسالك إفريقية وممالكها إذ يقول: "ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع، آباؤه من وادي الحجارة، ومدفنه بقرطبة، وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقيروان" (٢).

ويخرج بنتيجة مفادها أنّ: " من هاجر إلينا من سائر البلاد، فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا.. ومن هاجر منا إلى غيرها فلا حظ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم (أبو علي القالي)، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانئ سوانا...." (٣).

ويشير ابن حزم في رسالته إلى مكانة العالم في بلده، منوهاً إلى تنكر الأندلسيين لمن نبغ منهم في العلم، وإن له من غبن وجور من أهل زمانه الذين تحاملوا عليه وأحرقوا بعض مؤلفاته "وأما جهتنا بالحكم من ذلك ما جرى به المثل السائر أزهد الناس في عالم أهله.. ولاسيما أندلسنا، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد. إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد وضعيف ساقط، وإن بالغ الحيازة

---

١ - رسائل ابن حزم ج٢/ص١٧٥.

٢ - المصدر نفسه.

٣ - المصدر نفسه.

لقصب السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟...." [1].

وفي القسم الثاني من الرسالة يحصي ابن حزم علماء الأندلس من معاصريه وسابقيه، ويذكر أسماءهم ويعدد مصنفاتهم وكتبهم في مختلف العلوم من تاريخ وفقه ولغة وشعر وطب وفلسفة وهندسة وحديث وتفسير وعلم كلام وغيره.. الخ. "ولم يورد من تلك التآليف إلا المستحقة الذكر، أما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم يلتفت إلى ذكرها، وهذا يدل على سعة ثقافة ابن حزم وعمقها، وعلى اطلاعه الواسع، ومقدرته على تقويم المصنفات والتآليف ونقده" [2].

الخاتمة

والقسم الثالث من الرسالة يختمه بمقارنة يجريها بين أعلام الأندلس وأمثالهم من المشارقة في كل ميدان، مفضلاً علماء وطنه على نظرائهم من المشارقة من غير استخفاف أو استهزاء بأي عالم أو أديب مشرقي يقول: "ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب، جعونة بن الصمة الكلابي (من قدماء شعراء الأندلس) في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه من عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين... وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري.. وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي، وأبي عبد الله بن محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد....".

فالعلماء وحدهم هم الذين يحق للبلدان أن تتفاضل بهم لأن العلم أساس الحضارة.

أسلوبها :

إن طبيعة موضوع الرسالة جعلت صاحبها لا يتكلف في البحث عن الصنعة البديعية إلا ما جاء عفو الخاطر.

وكان أسلوبه سهلاً مرسلاً أسعفه على سرد فضائل الأندلس ومآثرها، ولقد تأثر ابن حزم بأهل المنطق في سوق الحجج والبراهين وبسط المقدمات حتى ينتهي إلى النتائج التي يراها ويرضاها من ذلك قوله:" وقد صدق ذلك الخبر، وأبانته التجربة، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات.. بمكان رحب الفناء واسع العطن [3] ، متدالي الأقطار فسيح المجال".

ولا تخلو الرسالة من تضمين لبعض آيات الذكر الحكيم أو إشارة إلى حديث نبوي شريف، أو مثل عربي سائر يشهد على ثقافة ابن حزم ونبوغه في الكتابة من غير إغراب أو تعقيد فلسفي.

---

١ - قرية من أعمال بلنسية استقل فيها بنو قاسم بعد الفتنة، انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٢١٨.

٢ - أدب الرسائل في الأندلس ص٢١٣.

٣ - العطن: واسع الموضع.

قيمتها:

تعد الرسالة سجلاً أدبياً حافلاً بعلماء الأندلس ومؤلفاتهم مما جعل شارل بلا أن يسمي ابن حزم بمفهرس الأندلس ومداحها [1].

كما تشير إلى أندلسية ابن حزم ومباهاته ببلده الذي يعده المثل الأعلى في التقدم والحضارة لا يقل مكانة وعظمة عن المشرق.

بين الأندلس والمغرب للشقندي

ترجمته

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي [2] نسبة إلى قرية شقندة التي تطل على نهر قرطبة وتجاورها من جهة الجنوب.. وكان جامعاً لفنون من العلوم الحديثة والقديمة، وعني بمجلس المنصور فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة ولي قضاء بياسة وقضاء لورقة ولم يزل محفوظ الجانب، محمود المذاهب. كتب شعراً في مدح المنصور إذ قال:

لـــك البســـيطةُ تطويهـــا وتنشـــرُهَا فلـــيس في كـــل مانويـــه معـــترض

كان بينه وبين والد ابن سعيد صحبة متينة ومجالسات أنس عديدة له رسالة في تفضيل الأندلس يعارض بها أبا يحيى في تفضيل بر العدوة أورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزع، وعذوبة المشرع.

سبب التأليف :

جرت مناظرة في مجلس صاحب سبتة ، الأمير أبو يحيى بن أبي زكريا الموحدي . بين أبي الوليد إسماعيل الشقندي وأبي يحيى المعلم الطنجي ، فضّل الأول بر الأندلس، وفضل الثاني بر المغرب ، واحتدم الجدال فيها ، ووقف الأمير على الحياد من دون أن ينحاز إلى علماء المغرب ، فقد كان تزيها غير متزمت ، ويفسح المجال للعلماء والأدباء للتناظر بحريّة في مجلسه ، ما يدل على حرية التعبير في عهد الموحدين وفي حضرة الأمير أبي يحيى ، حين قارن الشقندي بين حكم الموحدين بالأندلس وحكم المغاربة سابقا إذ قال: "أما قولك "الملوك منا" فقد كان الملوك منا أيضاً، وما نحن إلا كما قال الشاعر: [المتقارب].

فيومٌ علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وانطلاقاً من إيمان الأمير بحرية الرأي فقد طلب من الكاتبين المتناظرين أن يعملا فكرهما ويسجلا من تناظرهما ما يحسن تخليده إذ قال: "الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً، وأرجو

---

١ - انظر حوليات الجامعة التونسية ٢٠٠٤، ص٣٨.

٢ - انظر ترجمته في نفح الطيب ج٤، ص١٩٥. اختصار القدح المعلى في التاريخ المعلى، ابن سعيد، دار الكتاب اللبناني /١٩٨٠/ ص١٣٨.

إذا أخليتما له فكركما بصدر عنكما ما يحسن تخليده . ففعلا ذلك"[1].

ومن المؤسف أن أغفلت المصادر رسالة ابن المعلم في فضل أهل المغرب ؛ ما ضيع علينا فائدة الاطلاع عليها والموازنة بين الرسالتين ، ومعرفة مضمونها ومنهج كاتبها وأسلوبه.

أقسامها:

المقدمة:

استهل المقدمة بدعاء يحمد الله تعالى على ما خص الأندلس بفضائل لا تعد ولا تحصى، ويحمل حمده تعريضاً بالمغرب وأهله إذ يقول:"الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بالأندلس أن يتكلم مل، فيه،... إذ لا يقال للنهار: يا مظلم، ولا لوجه النعيم: يا قبيح: [البسيط]

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لساناً قالاً فقلِ

أحمده على أن جعلني ممن أنشأته، .. فامتد في الفخر باعي، وأعانني على الفضل كرم طباعي، وأصلي على سيدنا محمد... وأسلم تسليماً "

ويبدو الشقندي، في هذه المقدمة التي دبج بها رسالته، وديعاً للغاية في دفاعه عن الأندلس، والافتخار بفضلها؛ فمنذ الوهلة الأولى يشعرنا بأنه مطمئن في مناظرة خصمه لأن القول يسعفه والواقع يدعمه والمفارقة جلية لا تحتاج إلى عناء من أجل إبرازها.

المضمون:

وأما مضمون رسالته فيقسم بدوره إلى قسمين، ذكر في القسم الأول منه فضل الأندلس وأهلها في كل العلوم والميادين، وشغفه بأسماء الأدباء والعلماء والفرسان والأمراء والملوك الذين أعلوا من شأن الأندلس، وعرض نماذج من شعر الأندلسيين ممن عرفوا بالمواهب والنبوغ ، وحاول إبراز الهوة التي تفصل بر الأندلس عن بر العدوة، فالمغرب لا يساوي شيئاً يذكر أمام الأندلس وفضلها، كما أن العجوز الشمطاء لا تساوي شيئاً أمام الفتاة الحسناء ، ولولا منازعة الخصم وعصبيته لاكتفى الكاتب بالصمت إذ الأمر لا يحتاج إلى بيان.

وبينما كان الشقندي مندفعاً في افتخاره بدره من دون أن يشعر بأدنى حرج من أمير سبتة الموحدي المغربي ، ويذكر من الخلفاء المنصور، وملوك الطوائف، وفضلهم على الأندلس ويقلل من قيمة خلفاء المغرب وحكامه الذين حكموا قبل مجيء الموحدين إلى الحكم بأسلوب ساخر فيه من الاستهزاء مالا يحمله إلا ذو صدر رحب وروح سامية . ويقول ساخراً:

---

١ - النفح ج٤، ص١٦٤.

".. وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية أبسقوت الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟ أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عباد الشعراء الأندلس من مدحه ما أجروا له ذكر ولا رفعوا لملكه قدرا...".

وركز الشقندي في هذا الخطاب على بعض الجوانب التاريخية مع المبالغة المفرطة فيها مثلما فعل في تركيزه على عدم قدرة خليفة المرابطين يوسف بن تاشفين على فهم الشعر العربي وتذوقه، وعلى نعته بالبغل يقود حمرا. وفي كلامه مجانبة للحق، وعدم إنصاف لخليفة المسلمين، وأياديه البيض على العرب، وتثبيته لحكمهم ودفاعه عنهم في معاركهم مع الإسبان.

إنها المفاضلة وما يتبعها من ادعاء حيناً وانسياق وراء العواطف الجياشة والذاتية المطلقة والإقليمية الضيقة حيناً آخر، وهو ما جعل الشقندي لا يلتفت إلى محاسن الرجل بل انصب في هجومه على منازعه، وأقبل على ذكر نقائص يوسف وأمثاله من الحكام المغاربة في العهد السابق لحكم الموحدين. ثم ينتقل بعد ذلك إلى مجال العلم والعلماء فيعدد منهم ما يفي بالغرض في كل علم وفن ممن احتفلت به الأندلس في سالف عهودها يقول:

"... وإن تعرضت للمفاضلة بالعلماء فأخبروني:

هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب.. ومثل أبي الوليد بن رشد الأكبر ؟

وهل لكم في الحفظ مثل.. ابن حزم.. ؟

وهل لكم في حفاظ اللغة كابن سيده.. ؟

وهل لكم في النحو مثل ابن الطراوة.. ؟

وهل لكم في علوم الفلسفة كابن باجة..؟

وهل لكم في الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان؟

وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تمنع الكنيسة في البيت الفارغ.." ويقصد : أنه ليس في بر المغرب من يفتخر به أمثال ابن بسام وإن وجدوا فما عساهم أن يقولوا لو أرادوا التأليف في ذكر فضائل المغرب.

ولا يكتفي الكاتب بذكر علماء الأندلس وكتابهم وشعرائهم والمفاخرة بهم على المغاربة بل يتطاول بهم على المشرق وأدبائه ، فهو يفضل ابن دراج على المتنبي بل يفضله على سائر الشعراء، فالشقندي يعلي من مكانة الأندلسيين، ويجعلهم أعلى مرتبة من المغاربة والمشارقة على حد سواء، فإذا كان أبو المنصور الثعالبي قد جعل في التتمة ابن دراج بمنزلة المتنبي عندما قال: هو بالصقع الأندلسي بمنزلة المتنبي بصقع الشام.. فإن ابن دراج أحسن من المتنبي بل أحسن الشعراء في مثل هذه الطريقة من مدح الملوك.

ويتابع الشقندي أحكامه، ويبالغ في ادعائه ، وبالميل من فطاحل المشرق في الشعر والنثر معاً كتفضيله ابن شهيد على ابن أبي ربيعة ، ولقد سلك في مفاضلته طريقتين: إبراز فضائل أهل الأندلس على أهل المغرب، وعمد إلى الموازنة بين المشرق والأندلس، وفضل أدباء الأندلس على غيرهم.

وينتقل الكاتب في توجيهه الخطاب إلى خصمه مفاضلاً في شتى الأغراض والفنون الشعرية إلى أن وصل إلى شعراء الأندلس ويذكرشاعراته ويفاخر بهن ولاسيما ولادة وزينب بنت زياد المؤدب.

وبعد أن يعرض نماذج شعرية أندلسية يوجه الخطاب إلى منازعة قائلاً:

"فبالله إلا ما أخبرتني: من شاعركم الذي تقابلون به شاعراً ممن ذكرت، لا أعرف لكم أشهر ذكراً وأضخم شعراً من أبي العباس الجراوي ، وأولى لكم أن تحمدوا فخره ، وتنسوا ذكره، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم من قوله من قصيدة يمدح بها خليفة: [الطويل]

إذا كـان أمـلاك الزمـان أراقمـاً فإنـك فـيهم دائـم الـدهر ثعبـان

فما أقبح ما وقع (ثعبان) وما أضعف ما جاء، دائم الدهر، ولقد أنشد أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت، فقال: لا ينكر هذا على مثل الجراوي ، فسبحان من جعل روحه ونسبه وشعره تتناسب في الثقالة ".

وبعد أن يشفي الشقندي غليله من شعراء المغرب ينتقل إلى ميدان الفروسية فيذكر المنصور وابن مردنيش .. وغيرهما.

. وأما في القسم الثاني من مضمون المناظرة فنراه يصف بعض المدن الأندلسية منوهاً بفضلها ومشيراً إلى ما تفردت به من سمات ومزايا من حيث الطبيعة والعمران والصناعة والحضارة حتى إن القارئ ليعد هذا القسم سجلاً أدبياً واجتماعياً وتاريخياً وعلمياً للمدن الأندلسية يقول:

((إن تعرضت إلى ذكر البلاد وتفسير محاسنها.. فاسمع ما يهيت الحسود كمداً...)).

ويبدأ بحمص الأندلس (اشبيلية) بلدته التي من"محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني.. حتى إن العامة تقول: لو طلب لبن الطير في اشبيلية وجد..."، ولا يكتفي بتفضيلها على مدن المغرب بل يفضلها على مدن مصر والشام فيها:"... غابة بلا أسد . أي غاب الزيتون، ونهرها نيل بلا تمساح.. وفيها من التين القوطي والشعري" ما لا يوجد في أقطار الأرض.

ويركز الشقندي في مفاخرته بين المدن على خصائص حضارية افتقدتها مدن المغرب أو تأخرت في ميدانها مثيلاتها في الأندلس كالآلات الموسيقية.. وكذلك الحال في ميدان الشعر والتوشيح والزجل. يقول: " ليس في بر العدوة من شيء إلا ما جلب إليه من الأندلس، وحسبهم الدف ، وأقوال والبرا ، وأبو قرون ، ودبدبة السودان ، وحماقي البرابر ".

وينتقل إلى **قرطبة** فهي "كرسي المملكة في القديم ، ومركز العلم ومنار ، ومحل التعظيم والتقدير ".

ثم يذكر قلعة **جيان** الحرير لاعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير. ثم **غرناطة** " هي دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الإبصار ومطمح الأنفس.." أما مدينة **مالقة** فقد "جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة.. والبروج التي شابهت نجوم السماء.. وتخلل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع... وما اختصت به من سائر البلاد التين الربي المنسوب إليها، لأن اسمها في القديم ربة.. " إلى أن يأتي على ذكر الحواضر الأندلسية كافة كالمرية، ومرسية، وبلنسية وجزيرة ميورقة، ويقدم فوائد تاريخية عنها، ويعرفنا بمنتجاتها التي اشتهرت بها ونشاطها التجاري، ويصف أهلها وسماتهم الخلقية والخلقية مما يجعلك تتجول في بقاع الأندلس، وتتعرف عليها وأنت جالس على أريكتك تتخيل جمال تلك البلاد.

الخاتمة:

ختم الشقندي في القسم الثالث من الرسالة بمثل ما بدأ به، إذ حمد الله تعالى على ما خص به الأندلس من فضائل، وصلى على المصطفى المختار " فالحمد لله الذي أطلع.. هذه الشموس وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤوس، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه المختار من صفوة العرب وعلى آله وصحبه، صلاة متصلة إلى غابر الرقب".

منهجها:

جاءت مقدمة الرسالة وخاتمتها مناسبتين لموضوع المناظرة بين الأندلس والمغرب، حمد فيهما الكاتب الله على أنه من الأندلس، وأما المضمون فقد اتبع الشقندي في القسم الأول منه منهجاً سردياً، إذ أجهد حافظته وعرض لنا من الأسماء والأعلام في ميادين الحكم والرياسة والنظم والنثر والفلسفة والفروسية.. ما يحرز لأهل الأندلس قصب السبق، ويسجل أسباب التفوق على المغاربة ولاسيما في عرضه للمنتجات الشعرية الأندلسية فلا يكتفي في مفاضلته بين الأندلسيين والمغاربة فحسب، بل عمد إلى المفاخرة بمدن أندلسية وشعراء أندلسيين على حواضر مشرقية كالشام من المدن المشرقية، والمتنبي من الشعراء المشارقة. غايتها في ذلك زيادة الهوة بين الأندلس والمغرب، وتوضيح المفارقة بين صورة الأندلس المشرقة وصورة المغرب القاتمة.

وفي القسم الثاني من متن الرسالة اتبع الكاتب منهج الجغرافيين والرحالة، إذ وصف فضائل المدن الأندلسية وحواضرها، مركزاً على الموقع الجغرافي، وعمارة المباني، والأعلام في كل مدينة، ناهيك عن التركيز على سمات كل مدينة في الميادين الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والحضارية والتاريخية وسيلته في ذلك المقارنة بين المدن الأندلسية والمغربية من جهة، وبينها وبين بعض المدن المشرقية من جهة أخرى، لتعزيز مذهبه، وتحقيق غايته المنشودة من هذه المفاضلة.

أسلوبها وسماتها الفنية:

اعتمد الشقندي في كل قسم من رسالته أسلوباً ينسجم وطبيعة المادة فيه، ففي القسم الأول من متن المناظرة كان أسلوبه مشرقاً امتزج فيه النثر بالشعر، فقد انتقى الكاتب مقطوعات من الشعر الأندلسي الجميل في عديد من الأغراض

الشعرية ما بين مدح ووصف وغزل وخمر وجد وعبث وزهد، تمنح القارئ وتشهد على حافظة الشقندي القوية وسعة اطلاعه على شعر الأندلسيين، وذوقه الأدبي في انتقاء الشواهد الشعرية المناسبة وتضمينها الرسالة وكأنها جزء من نسيج المناظرة، كما تبدو الصنعة جلية في هذا القسم، إذ حرص الكاتب على السجع، متأثراً بأسلوب الكتابة في عصره.

أما في القسم الثاني من المتن فإن الشقندي يتخفف من الاستشهاد بالشعر ويتخلى بعض الشيء عن التأنق في أسلوبه، ويعمد إلى أسلوب علمي مرسل يطاوعه في سرد الحقائق التي ينشدها من وصف المدن الأندلسية وفضائل أهلها وأنماط سلوكهم.

قيمتها:

انطوت الرسالة على أحكام نقدية وأدبية انطباعية تستدعي القارئ أن يتمهل في قراءتها لمجاذبة بعضها العدل والإنصاف ولاسيما حين طعن في سيرة بعض خلفاء المغرب وحول فضائلهم إلى نقائض. و تعد الرسالة سجلاً أدبياً حافلاً بالفوائد العلمية والأدبية والتاريخية لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة أي نشاط في الأندلس في عهد الموحدين.

وعبرت الرسالة عن المستوى الفني للكتابة الوصفية في عهد الموحدين.ودلت الرسالة على ثقافة الكاتب المتنوعة وقوة حافظته من خلال الاستشهاد بالتراث المشرقي والأندلسي، ناهيك عن الثبت الطويل الذي قدمه لأدباء الأندلس وعلماء عصره والعصور التي سبقته.

الموازنة بين رسالة ابن حزم والشقندي في فضائل البلدان:

. لم يفاضل ابن حزم بين بر الأندلس وبر المغرب كما فعل الشقندي لأن منطلق كل منهما مختلف عن الآخر، فغاية ابن حزم إبراز فضائل الأندلس وغاية الشقندي تفضيل بر الأندلس على بر المغرب.

. لجأ الشقندي إلى الاستهزاء والسخرية من خصمه لينقص من قدر المغاربة ويدحض حجج منازعه على النقيض من ابن حزم الذي قارن بين علماء الأندلس والمشرق من غير تجريح أو استهزاء، مفضلاً بأسلوب غير مباشر علماء الأندلس على غيرهم.

. نقلت رسالة ابن حزم ذكر حواضر الأندلس على النقيض مما وجدناه في رسالة الشقندي اللهم إلا إشارة طفيفة عن قرطبة مسقط رأس ابن حزم.

. تشترك رسالة ابن حزم مع رسالة الشقندي في الحديث على فضائل علماء الأندلس إلا أن رسالة الشقندي أعم وأشمل وأحفل من رسالة ابن حزم لشمولها علماء الأندلس وشعراءها وحكامها وفرسانها ومدنها. وهو أمر راجع إلى الدافع الذي حدا بالشقندي إلى كتابتها وتفضيل بره على بر المغرب.

مناظرة بين مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب *

ترجمة: هو لسان الدين بن الخطيب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ هـ في غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب في غرناطة ما قرّبه عند أمرائها بني الأحمر ، عني أبوه بتربيته فشب الابن أديباً لا يشق له غبار ، و كاتباً من كتاب الدواوين للمدودين ، وسرعان ما ترقى فصار رئيس الكتاب، ثم احتل مكانة الوزير الأول ، وتقلد منصب الوزارة في عهد الغني بالله فلقب بذي الوزارتين .ألب أعداؤه السلاطين عليه بتهمة الزندقة والقول بالحلول والاتحاد ، فزج بالسجن.ثم قُتل خنقاً في سجنه بفاس.

رحلات لسان الدين بن الخطيب:

سجل لسان الدين رحلاته في بعض كتبه وفي رسائل قصيرة، جعلها على هيئة رسائل أو محاورات، ومنها:نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ومعيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار، ومفاخرات مالقة بالأندلس وسلا بالمغرب.

أقسام المناظرة:

المقدمة :

---

* الاقتباسات من ص ٢٢٤-٢٢٦ من عمل ا.د. مرهف طرابي

شرع ابن الخطيب في المقدمة بتوضيح سبب كتابة المناظرة ، وبين أنه كتبها رداً على من طلب منه ذلك " بعد أن رضيت بحكمي قاضياً.. لاختصاصي بسكن البلدين..."، وبين أنّه من الظلم أن تجري المقارنة بين مدينتين غير متماثلتين ولامتناظرتين ، " على أن التفضيل يقع بين ما تشابه وتقارب أو تشاكل وتناسب ، وإلا فمتى يقع التفضيل بين الناس والنسناس والملك والخناس وقرد الجبال وظبي الكناس ؟" [1]

الصلب :

يقارن في الصلب بين الثغرين الأندلسي والمغربي ، مالقة في الأندلس وسلا في المغرب ، من حيث المنعة والصنعة والبقعة والشنعة (السمعة) والمساكن والحضارة والعمارة والنضارة وينتصر لمالقة الأندلسية، فيقول : " فأما المنعة فلمالقة، حرسها الله، فضل الارتفاع ومزية الامتناع. ومالقة " أرفع قدراً ، وأشهر ذكراً وأجل شأناً وأعز مكاناً وأكرم ناساً وأبعد التماساً من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض ... " فهي متفوقة على سلا من حيث موقعها وجمال

قصورها وبساتينها وكثرة صناعاتها وزرعها ، يقول : " فبينما تحتل مالقة موقعاً منيعاً ولها أسوار وأبراج وأرباض عظيمة ، إذ بسلا تمتلك موقعاً متواضعاً وأسواراً خامدة استباحها الروم ، وبينما تفتخر مالقة بصناعة الفخار والثياب ، وبناء القصور ، والأسواق العامرة بالنعم وبساتين اللوز والتين، إذ بسلا بلد عديم الظلال، أجرد التلال، إذا ذهب زمن الربيع والخصب المربع صار هشيماً، وأضحى ماؤه حميماً، وانقلب عذابه أليماً.." ، أسواقها صغيرة ، وعماراتها متواضعة ....

الخاتمة :

١نفح الطيب ج٨/١٤٩ وما بعدها ، ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق العبادي ص ٥٧-٦٦

للذمة : الفرة

الصناعة : عمل الصانع وحرفته .

الرقعة : القطعة من الأرض تتميز عما حولها .

السمة : الصيت .

المربع : الخصب

الهشيم : اليابس من كل شيء

الآية ١٧٣ / سورة آل عمران

وفي ختام المناظرة ، يذكر فضل سلا على غيرها من المدن المغربية ، لكن لا يقارنها بمالقة، فيبقى للأندلس السبق والتقدم في جميع المجالات الطبيعية والحضارية والبشرية :((وفضل الخطة أن لمالقة المزية بجلالها وكمالها ، وحسن أشكالها ، ووفور مائها ، وتعدل ظلالها ، وشهرة رجالها، وطرق صنائعها وأعمالها ، ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب ، وأشكالها ، إذ لا ينكر فضل اعتدالها وأمنها من الفتن وأهوالها عند زلزالها وصدفن الملوك بجبالها ، مالقة قطر من الأقطار ذوات الأقدار والأخطار وتحصيل الأوطار ، وسلا مصب الأمطار ومرعى القطار ، وبادية بكل اعتبار، وهنا نلقي عصا التسيار ونقبض من عنان الاكتثار ((حسبنا الله ونعم الوكيل)) .

أسلوب المناظرة:

يقدم ابن الخطيب تقريراًعلمياً دقيقاً لأحوال المدينتين فيما يتعلق بالطبيعة والعمران والمسكن والملبس والمأكل ، وهو وصف واقعي يقوم على التتبع والاستقصاء على التجربة والمعايشة ولا يخفى مجهود ابن الخطيب في المقارنة بين المدينتين، إذ يورد فيها الكثير من المعلومات الجغرافية المهمةبأسلوب المناظرات ، . ومثل هذا الوصف المقارن على درجة من

الأهمية في فن المناظرات . ولكن لسان الدين ينكر لفضل المدينة المغربية عليه ويصب جام غضبه عليها مع أنها أوته وقت محنته، واحتوته عزيزاً مكرماً، فما كان منه إلا أن تعصب لبلاده وانحاز إلى مالقة متغاضياً عن فضائل سلا بدافع من المنافسة بين الثغرين الأندلسي والمغربي وانسياقاً وراء النزعة الأندلسية المحتدمة في صدره. ويعبّر ابن الخطيب عن تعلقه الشديد بوطنه غرناطة إذ تعد مالقة جزءاً منها ، كما يعبر عن حالته النفسية القلقة في الفترة التي عاشها منفياً في مدينة سلا المغربية حيث تذكر معظم أعمالها له ، وهو الذي كان يعتز بمركزه السياسي أيما اعتزاز ، وسعى لإبراز إعجابه الشديد بأندلسيته وكرهه لمهجره الذي حاول أن يجرده من كل ما هو جميل وحسن .

. يجري الوصف – كما لاحظنا – بأسلوب مسجع تكثر فيه المحسنات البديعية ، ويغلب عليه الطابع الأدبي ، ونجد في المفاخرة اقتباساً من القرآن الكريم ، ودقة في التصوير والبيان ، كما يكثر

ابن الخطيب من استخدام العبارات المسجعة الفكهة في ذكره معايب سلا . وهو متأثر إلى حد كبير بطريقة القاضي الفاضل التي شاعت في المشرق آنذاك .

المناظرات بين القصور

جدد الأندلسيون في موضوعات المناظرات فتفاضلوا بين قصور الأمراء والخلفاء والملوك، ووصفوا الترف الحضاري، والتقدم العمراني الذي اتسمت به، وأبرزوا مواطن الجمال فيها ، غير مكتفين بوصفها الخارجي بل اتخذوها وسيلة لمدح الحكام والعظماء تقرباً منهم وتزلفاً إليهم لنيل الحظوة في بلاطهم والتنعم بأعطياتهم .

وكانت حياة هذه القصور مرتبطة بحياة بنائيها تبقى ما بقوا وتذهب بأفول نجمهم وزوال ملكهم ، من ذلك مناظرة للكاتب الأندلسي أبو جعفر الداني من عصر ملوك الطوائف تاضل فيها بين قصرين من قصور المعتمد بن عباد في إشبيلية هما قصر المبارك، وقصر المكرم .

الكاتب من أدباء مدينة دانية ، كان أنبههم موضعاً ، وأوسعهم عند ملوك الطوائف أفقاً وموقعاً ، وله إحسان كثير منظوم ومنثور ، بين قلب ذكي ولسان غير بكي ، شهد له بفضل البراعة. وتقدم في هذه الصناعة ، وتفاوت هو وأخوه تفاوتاً عظم فيه الشأن، وأعرب به عن ذات نفسه الزمان .

ألقى الكاتب على القصرين عواطفه وأحاسيسه، وبثهما روحاً من تطلعاته في جوار ابن عباد فأنشأ خطاباً على لسان قصر المبارك الذي انتقل عنه المعتمد بن عباد إلى قصر المكرم من قصور إشبيلية قائلاً : " نحن أيها المحل السعيد، والقصر القديم الجديد، وإن نبضت فينا للنفاسة عروق، نعلم أنه لبعضنا على بعض حقوقٌ فما أحفنا بحق المشايعة والمتابعة، لما نظمنا من سناء الدولة اللخمية، وتشرفنا به من ولاء المملكة المعتمدية _ عقد الله لنا أسبابها ومد علينا أطنابها.....".

ثم يؤكد أهمية القصر بأنه الأول والأقدم، ويذكر بعزه السابق وقد كان متشرفاً بأن اتخذه مؤسس الدولة العبادية القاضي أبو القاسم بن عباد وابنه المعتضد من بعده قصراً لهما يقول :" وحقاً أقول أيها القصر المكرم، لا جرم أنه لك السبق والتقدم ،فإنك أس الخلافة، وقرارة الرياسة، ومركز الدولة المتداولة، شهدت الأشهاد أنه بك مهدت البلاد ... بتدبير قاضي العدل وحكم عباد البأس ... فهنيئاً لك النعمى ..".

ويصف القصر الذي انتقل إليه المعتمد بحدائقه وبساتينه ويبدي ندمه على عدم صلته السابقة بزميله قصر المكرم عندما كان زاهياً ومتألقاً بإقامة آل عباد فيه :" ولا عجب من غضارة بساتيني، ونضارة رياحيني، فإنما كان ذلك في مدد

متراخية، وأيام وليال علي متعاقبة، وإنما العجب الأعجب، فإني عنك، مما تكافل فيك واجتمع لك من حدائق بواسق ... إلى أنوار أينعت وأزهار تنوعت .. ونضمخ حكى زرق اليواقيت ... وياسمين يذكر بالخدود البيض ... وإن الخجل منك ليكسوني أثواباً .. على ما ضيعته قبل من مداخلتك , وفرطت قديماً فيه من مواصلتك، فإني كنت آنفاً في نحو ما أنت فيه اليوم زاهياً، هناك الله المنحة منه، وسوغك النعمة الجسيمة به، من الشغل المطرد بخدمة المولى المعتمد".

ويطلب المبارك من القصر الجديد أن يعتني بمنشئ هذه الرفعة وأن يكون له شفيعا عند المعتمد ويلوه فإن أحسن وسع عليه :" وأسألك فضل العناية به دوني وصدق الشفاعة له عني عند المولى المنعم، ولا أقل من أن يلوه ويخبره، فإن استحق بالإحسان إحساناً، أوسعه وأوسعني عنه إنعاماً وامتناناً".

ويجيب المكرم صديقه المبارك فيمدح القصر المهجور، ويفخر بمحاسنه وفضائله ورياضه وحدائقه وبهجته التي تأخذ بروع القلوب فيقول : "أحسنت أيها القصر المبارك ..... والله يتم سناءك وينمي بهاءك . .. أنت ملك نجوم الملك، وسماء رجوم الشرك، وقص عنك إلي من محاسن أحرزتها صفتك، من تمايك بوجهين على منصبين منفضين إلى محلين حسنين، كلاهما محاسنه فائقة وبساتينه رائعة ،، لا ترى إلا روضة غناء , وحديقة خضراء .. أشجار نجمت لجنبها، ونفتقت أثناء رياحينها أنقلت عن ري إلى ري فتجلت في أحسن زي" .

ثم يختم المناظرة بالسلام قائلاً :" والسلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى" .

تشير هذه المناظرة إلى تغير الملوك على العروش، وتبدل سكان القصور، وتقلبهم على الناس فمن المحال دوام شيء على حال ...

ويظهر الكاتب من خلال الحوار الشيق بين قصر المبارك و قصر المكرم رغبته في التقرب من الملك ومدحه لينال حظوةً لديه ويرفل في أثواب النعمة عند المعتمد ابن عباد .

السمات الفنية في المناظرة :

- صاغ الكاتب مناظرته بين القصرين الأندلسيين على شكل قصة يحكيها على لسان المبارك والمكرم بأسلوب هادئ رصين، وحوار شيق، و اعترف كل منهما بفضل الآخر ومنزلته عند آل عباد .
- استطاع الكاتب من خلال تحاور القصرين أن يمدح المعتمد بأسلوب غير مباشر ويلفت انتباهه إلى العناية بالكاتب من خلال وساطة قصر المكرم.
- اعتمد الكاتب بشكل واضح على ضروب البديع من ذلك قوله :

(ولما ثاب من سعدي ثابت، وأسعد جدي قدر غالب، درج عنك إلي وطلع من تلقائك بطالع الإقبال علي، المولى المعتمد الذي أحياك رفاتاً قدم، وأشب منك كبيراً قد هرم)

فجانس جناساً ناقصاً بين (ثائب وغالب)، (إلي وعلي) وطابق بين الشباب والهرم وما إلى هناك من ألوان البديع في نسيج المناظرة .

☐ وضمن رسالته بعض الأشعار إذ قال :

جـار ذا الـدهر علينـا وكـذا الـدهر يجـور

☐ كما ضمنها بعض الأمثال التراثية (سهمكم هريق في أديمكم) وقوله: (ضغثاً على إبالة) و (الأقصر من إكام الحبارى).

ما يدل على ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه، وحسن توظيفه للتراث العربي بشكل جيد .

☐ وأفاد الكاتب من معاني آيات الذكر الحكيم في نحو قوله : " وإنكم لتفسدون في الأرض ولا تصلحون" .

وقوله : " فإن الله لكم في المرصاد ولن يتولى كيدكم إلا أقل الأعداد وتصيروا إلى جهنم وساءت مصيراً".

كما عكس الكاتب من خلال المناظرة بين المبارك والمكرم ما اتسمت به البيئة الأندلسية من مظاهر حضارية وترف مادي تجلى واضحاً في القصور الأندلسية التي كانت هضبة القصاد ونجعة الرواد من ذلك قوله على لسان المبارك :" وإنما العجب الأعجب ما في إلي عنك مما تكامل فيك واجتمع لك من حدائق بواسق ... ونرجس كمقل العيد وسوسن كأنه راحة ثنت البنان على قراضة من العقيان، وأذريون كمداهن عسجدية على قضب زبرجدية ." فالعقيان والعسجد والزبرجد وما إلى ذلك من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة تعكس صفات البيئة الأندلسية والترف فيها .

مناظرات الشعوبية

الشعوبيةلغةً : من شَعَبَ, الشَّعْب: الإفساد والتفريق.ويقول ابن منظور : «وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم, حتى قيل لمحتقر أمر العرب: شُعَيّ: أضافوه إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري, وعند الشعوب فرقة لا تفضل العرب على العجم, والشُعيّ الذي يصغر شأن العرب[1].

والشعوبية اصطلاحاً :تطلق على الشعوب الأعجمية الذين نقموا على العرب وحنقوا عليهم, وانتقصوا من قدرهم وتعصّبوا لشعوبهم وافتخروا بمكارمهم ،ولقد قال عنهم الزمخشري في أساس البلاغة «وهم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم»[2].

واستند أصحاب هذه الحركة الحاقدة على العرب على الآية الكريمة:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3] في حين لم يأبهوا لقوله تعالى في العرب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4].

إذن هذه الحركة نادت بادئ الأمر بالتسوية بين حقوقهم وحقوق العرب إلاّ أنّها بعد ذلك دعت إلى تفضيل العجم على العرب.

عوامل انتشار الشعوبية:

بدأت هذه الحركة في الظهور بين المسلمين الفرس في العصر الأموي ثمّ توسّعت آفاقها وتجلّت أفكارها في العصر العباسي لتشمل شعوباً كثيرة من الأعاجم .

ومن أشهر دعاة الشعوبية في العصر العباسي علاّن الشعوبي وسهل بن هارون وبشار بن برد وأبو نواس.وأقدم من تصدّى للشعوبيين في العصر العباسي الجاحظ في كتابيه (البيان والتبيين) و(الحيوان) وعدد من الرسائل والكتب مثل كتاب العرب والرّد على الشعوبية. ودافع ابن قتيبة أيضاً عن العرب وفنّد آراء الشعوبيين في كتابه : (رسائل البلغاء)[5].

---

١ - لسان العرب, ابن منظور, مادة شعب, دار إحياء التراث العربي, بيروت, ج٧, ص١٢٥ ١٢٧.

٢ - أساس البلاغة, الزمخشري, مادة شعب.

٣ القرآن الكريم , سورة الحجرات, آية ١٣.

٤ القرآن الكريم , سورة آل عمران, آية ١١٠.

٥ - انظر رسائل البلغاء, ابن قتيبة, تح , محمد كرد علي , مطبعة التأليف والترجمة بمصر, القاهرة , ص٣٤ وما بعدها.

أهداف الشعوبية:

سعى الشعوبيون إلى النيل من العرب والعروبة والانتقاص من قدرهم وتشويه حضارتهم والصاق العيوب بهم ونفي الفضائل عنهم كما أكد ابن قتيبة في كتابه رسائل البلغاء إذ قال: الشعوبية «تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة»[٦]

وإلى هذا المعنى يشير د. نعمة بقوله: «كما أنّ مظاهر نشاطها - أي الشعوبية - جميعاً هدفت إلى النيل من العرب، ومن الدين الحنيف الذي سطعت شمسه بين ظهرانيهم، وانتشر أريجه في ربوعه وندبهم الله لنشره والمسير به في شرق الأرض وغربها»[٧].

مظاهر الشعوبية :

تركت الشعوبية أثراً كبيرا في الأدب ولاسيما في العصر العباسي ؛ إذ أثرت في الشعر العربي " فبعد أن كان الشعراء يترفعون عن المعاني القبيحة والأفكار المبتذلة ويأنون بشعرهم عن معالجة الرذيلة وتصوير الشهوات الرخيصة صار الشعراء الشعوبيون يستهينون بقيم الأخلاق ،ولايقيمون وزنا للفضيلة فأصبح الفسق غرضا من أغراضهم ، وأخذوا يكثرون من النظم فيه يريدون بذلك إشاعة الرذيلة في المجتمع العربي لتندرس مثله وقيمه "[٨] .

ونادى أعلام الشعوبية في العصر العباسي بظاهرة التغزل بالغلمان حتى انتشرت بين العامة والخاصة،وهي ظاهرة شعرية جديدة أدخلها بشار بن برد وغيره إلى الشعر العربي. ونجد مظاهر الشعوبية أيضا في النثر من ذلك رسالة سهل بن هارون التي قامت على فكرة ذم الكرم ومدح البخل . وقد تصدى الجاحظ لتفنيد آراء ابن هارون في كتاب ظاهره الإمتاع وباطنه الدفاع عن العرب وعاداتهم وهو كتاب البخلاء .

وفي المجتمع الأندلسي ألف الشعوبي ابن غرسية رسالة ذم فيها العرب وافتخر بالعجم وحضارتهم وقد رد عليه "كتاب القرنين الخامس والسادس الهجريين.

ترجمة ابن غرسية:

---

٦ رسائل البلغاء/ ص٣٤٤.

٧- مقالات في أثر الشعوبية، ص١٧.

٨ مقالات في أثر الشعوبية ، ص ٨١

هو أبوعامر أحمد بن غرسية[9] من أبناء نصارى البَشكُنس في شمالي إسبانيا، سبي صغيراً، وترعرع في كنف مجاهد الصقلبي[10] ملك دانية والجزر المقابلة لها في البحر المتوسط، أتقن ابن غرسية اللغة العربية وبرع في فنونها فألحقه مجاهد بديوانه.

هجا ابن غرسية أبا جعفر أحمد بن الجزار وعيّره بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة.

الغاية من الرسالة:

كتب ابن غرسية رسالة إلى ابن الجزار فخر فيها بالعجم وذمّ العرب[11] وجاءت رسالته رداً على مدائح ابن الجزار لأمير المرية معن بن صمادح مؤسس الدولة الصمادحية.

وبدأ الكاتب رسالته بمقدّمة ساخرة هجا فيها الجزار الذي أوقف مديحه على الأمير الصمادحي من دون مجاهد الصقلبي، يقول: «سلام عليك ذا الرّوي المرويّ، الموقوف فريضة على حلقه، بحارة أرشى اليمن[12]، بزهيد الثمن، كأن ما في الأرض إنساناً إلاّ من غسّان....وأحسبك أن أزريت وبهذا الجيل النجيب ازدريت وما دريت أنّهم لصُهب الشّهب...»[13].

وانتقل من التهكم والسخرية إلى الافتخار بالأعاجم من بني الأصفر والأكاسرة وأصحاب الأروقة الرومية فبغلبي من شأنهم، ويعقد موازنة بين حياتهم المترفة في ظلّ القصور وحياة العرب في الخيام بين الإبل والأنعام قائلاً إنّهم: «الصهب الشهب، ليسوا بعرب، ذوي أينق جرب، بل هم القياصرة الأكاسرة، نُجْدٌ نُجُدٌ، بُهَمٌ، لا رعاة شويهات ولا بُهَم....»[14].

ويذم ابن غرسية العرب ويعيب عليهم عاداتهم في المأكل والمشرب والمسكن.... إلخ، ويلصق بهم العيوب والنقائص وينكر عليهم العلوم والمعارف، مستنداً في هجومه على المطاعن التي اعتمدها الشعوبيون في القرنين الثاني والثالث في العصر العباسي من أنّ العرب رعاة أغنام وإبل يسكنون الخيام، ليس لهم ملك ولا حضارة على النقيض من العجم أصحاب الحضارة والعلوم وأرباب القصور يقول عن العجم: «شغلوا بالمآذي والمران عن رعي البعران، وبحلب العزّ عن

٩- المغرب في حلى المغرب، ٢/٤٠٦- الذخيرة ٣/٧٠٤ :- تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس ص١٧٠ :- تاريخ الأدب العربي - بروكلمان/ طبع دار المعارف ٥/١٤٤.

تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف ص٤٧٢.

١٠- من الصقالبة الذين ذاع لهم شرقي الأندلس في أوائل عصر أمراء قرطبة، أبناء الفئة التي أحاطت بالدولة الأموية وكان مجاهد عبد من قبل المنصور بن أبي عامر، انظر المغرب ٢/٤٠٦، تاريخ الأدب العربي - شوقي ضيف ص٤٧٢.

١١- نوادر المخطوطات، تح. عبد السلام هارون/ ج٣، ص٢٤١ ← ٢٤٢.

١٢- أرشى اليمن: يقابل في شرق الأندلس أزال الأمويون فيه على مزاج الفصاحين وجعلوا إليهم حراسة ما يلونهم من البحر وحفظ الساحل فكان ما جمعوا مسمى أرشى اليمن أي جمعهم وحشدهم/ انظر الروض المعطار: ص٣٧.

١٣- نوادر المخطوطات ج٣/ ص٢٤٦ وما بعدها.

١٤- المصدر السابق ص٢٤٧.

حلب المعز, جبابرة فياصرة.... غنوا بالإستبرق عن البتّ المجموع من النعيجات طعامهم الحنيذ لا العُبيد, بسل لا حرّاس مسل, ولا غراس فسل .... ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية...»[1].

– وأمّا خاتمة الرسالة فجاءت في تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام قائلاً: «فلا فخر معشرَ العربان الغربان, بالقديم المغرى الأديم, لكن الفخر بابن عمّنا الذي بالبركة عمّنا, الإسماعيلي الحسب, الإبراهيمي النسب, هذا النبي الأمي أفاخر... وأصلّي عليه عدد الرمل.... وكذلك أصلّي على.... صحابته الكرام عليهم من الله أفضل السلام»[2].

إنّ هذه الرسالة التي تقدح في العرب وتفخر بالعجم أثارت عدداً من الرّدود فقد اتبرى بعض الكتّاب الذين عاصروا ابن غرسية للردّ على رسالته الذميمة كأبي جعفر أحمد بن الدّوْدين البلنسي[3].وأبي الطيب عبد المنعم القروي[4].وابن أبي الخصال في رسالة سمّاها:«خطف البارق وقذف المارق في الرّد على ابن غرسية الفاسق»[5]... ورسالة تنسب إلى ابن عباس في القرن الخامس الهجري.– أمّا في القرن السادس الهجري فقد ردّ ابن غرسية أبويحيى بن مسعدة في عصر الموحّدين, والفقيه أبومروان عبد الملك بن محمد الأرسي, وابن الفرس وعبد الحق بن فرج وأبو الحجاج البلوي[6].

البلوي[6].

رسالة ابن الدّودين البلنسي[7]

قال ابن بسام في صدر ترجمته له " ما أخبرني برسالته التي رد فيها على أبي عامر بن غرسية و كان ... لحاه الله و أبعده – قد استقر بمدينةدانية في كنف مجاهد , مخاطباً الأديب أبا جعفر بن الجزار , معاتباً له لتركه مدح مجاهد و اقتصاره على مدح ابن صمادح التجيبي .

استهلّ ابن الدودين رسالته بالشتائم والسباب خارجاً بذلك عن آداب المناظرة وأصول اللياقة التي تعارف عليها المتناظرون إذ قال ساخراً من ابن غرسية: «اخسأ أيّها الجهول المارق, والمرذول المنافق, أين أمّك, ثكلتك أمّك . أو ما

1- المصدر نفسه ص٢٤٧.

2- المصدر نفسه ص٢٥٢.

3 - انظر ترجمته في المغرب ج٢, ص٣٢٢.

4 - أديب وشاعر دخل الأندلس, توفي سنة ٤٩٣ . انظر ترجمته في الصلة ج١, ص٣٩٢.

5- تاريخ الأدب, إحسان عباس ص١٢٢.

6- المرجع نفسه ص١٧٦.

7 نوادر المخطوطات ص٢٥٨.

علمت أنّك إنّما سحبت من عقالك لعقّالك. وقدمت أول قدمك لسفك دمك...»[1] .

– وانتقل ابن الدودين, من المقدّمة الساخرة التي شنع بها ابن غرسية إلى ذمّ العجم وهجاء قوم ابن غرسية, ردّ كل مثلبة للعرب إلى محمدة وكلّ محمدة للعجم إلى مثلبة،منها قوله: «وأما فخرك برية الإبادة سارة فبالبتها حين ولدتكم نكلتكم فلقد سربلتموها عاراً... حين جثم من الكفاح... فأسلمتم لُعُداتها من بناتها كل طفلة رداح جائلة الوشاح (كناية عن دقة الخصر) ذات ثغر كالأقاح»[2].وقوله ردّاً على ابن غرسية في قوله عن قومه إنّهم الصُّهب الشُّهب:«الصّهب السبال (ما على الشفة العليا من الشعر) ومن ولغ الدّم وشرب الأبوال, أكلة الجيف, وخَلَلَةِ الكنف...»[3]

– ويعيّرهم بالإباحية وعدم الغيرة على نسائهم ومزاولة الرّذيلة لحماية عروشهم يقول:«هل يجوز في زمن التحصيل أو يصحُّ في العقول, أن يمحي قومك سروج شأنهم, وقد أباحوا فروج نسائهم؟! أليس هذا عين الخال ومغالطة الجهال...»[4].

وأنكر البلنسي على الأعاجم معرفتهم بعلم الشرائع وفنون الحرب لأنها من علوم العرب الذي يجاهم:«السروج ريحانهم الوشيج وموسيقاهم رنات الرديني‍ات وطوبيقاتهم نفحات السرنجيات...»[5].

وختم رسالته بمثل ما بدأها من السخرية والتهكم بابن غرسية الذي أراد أن يفصح فأعجم بقصور منطقه وضعف نظره.

أبوالطيب عبد المنعم القروي

فقد دخل الأندلس, ودرس الحديث فيها إلى أن مات سنة ٤٩٣هـ.وكان أديباً شاعراً, اطّلع على رسالة ابن غرسية فحرّكت قريحته, واستوفزت مشاعره فيكتبه حتى أسكته برسالة سمّاها:«حديقة البلاغة ودوحة البراعة, الموروقة أفنانها, المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية والرّد على ابن غرسية فيما ادّعاه للأمم الأعجمية».

ترجمة ابن من الله القروي

١- نوادر المخطوطات ١٥٦.

٢- المصدر نفسه ص١٥٩.

٣- المصدر نفسه, ص١٥٧.

٤- المصدر نفسه ص١٥٨.

٥- المصدر نفسه.

هو الفقيه الأديب أبو الطيب عبد المنعم بن من الله الطواري القيرواني كما في الصلة لابن بشكوال, و نسبة القروي هي الثابتة في نص مجموعة الإسكوريال , و أما كتاب ابن بشكوال فيجعلها القيرواني .[1]

قال : " قدم الأندلس و حدث بشرقيها عن أبي بكر محمد بن علي بن الحسين بن البر التميمي , و كان أديباً و شاعراً , توفي يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ٤٩٣".[2]

وردّ القروي كما هو واضح من عنوانها طويل يفوق حجم رسالة ابن غرسية إلى نحو خمس وعشرين صفحة يستهلّها بمقدّمة ساخرة, يستنكر فيها الكاتب طباع ابن غرسية الذميمة وجحوده لأيادي العرب عليه قائلاً:«أخبرني عنك أما كانت للعرب بدّ تشكرها, ومنّةٌ تذكرها؟!.. ألم تُرَبّك فينا ولِيداً؟..أما أنطفتك بعد المجمة؟... حتى إذا اشتدّ كاهلك, وقوي ساعدك كفرت نعمتها لدن ؛...»[3].

- وينتقل القروي من كفران النعمة عند ابن غرسية إلى الفخر بمآثر العرب معدّداً صفاتهم المزدوجة في كلمتين مسجوعتين منهم «... السُّمر القُمُر, البيض غُرراً و صفاحاً, السود طُرزاً و أوضاحاً...»[4].

- ويسرد الكاتب على مسامع خصمه فتوحات العرب وانتصار المسلمين على الأكاسرة والقياصرة, فوحدهم من هزّ عروشهم على مبانيها, وكسر شوكتهم وسفك دماءهم بقول:«سعروا عليكم نار الحرب, بتلك الأيدي الجرب, فكسروا أكاسرتكم وقصروا قياصرتكم, فسفكوا دماءهم, وأخمدوا نار صولتهم, ومحوا آثار دولتهم.... وطهروا المسجد الأقصى من أرجاسكم....»[5].

- ويفاخر القروي بمعرفة العرب للخيل وأنسابها مشيداً بعلوم أسلافه في الطّب والفلك ومعرفة الشهور والأيام... إلى ما هنالك من معارف اشتهر بها العرب, مما يدل على سعة اطلاع الكاتب وتبحّره في معرفة أخبار العرب وعلومهم وأشعارهم معرفة تشهد له بالتمكن والبراعة في الرّد على خصمه بأسلوب جدلي رصين يقول:

«الخيل إرث العرب وأمجادها ليست أمّة من سائر الأمم تنازعها ذلك... تسمّيها بأسمائها, وتنسبها إلى آبائها....»[6].

- ويقول عن معرفة العرب بالطّب «جمعت العرب في كلمتين معلومتين.... فقالت: المعدة بيت الدّاء والحمية رأس

---

١ : ذكر المخطوطات (٢٣٥)

٢ : المصدر نفسه

٣ : نوادر المخطوطات ص٣١٠.

٤- المصدر نفسه ص٣١١.

٥- المصدر نفسه ص٣١٢.

٦ : المصدر نفسه ص٣١٨.

الدواء»[1].

- وإذا كان القروي قد تفوّق على خصمه وأجاد في تعداد مآثر العرب ومفاخرهم الإسلامية إلاّ أنّ أخفق في الرّد على ابن غرسية في معرض العلوم المنطقية التي نسبها إلى العجم، فلم يفرّق القروي بين علم الطبّة وعرافة العرب إذ ادّعى أنه علم فيه للعرب اليد الطولى[2].

وهذا الخلط يأتي من باب الجدل بين الخصمين المتناظرين ومَيلِ كلٍّ منهما في نسب المحامد إلى قومه والصاق العيوب بأعدائه.

ردُّ أبي يحيى بن مسعدة[3]

وبعد قرن من الزمان يأتي على رسالة ابن غرسية.

يستهلّها بهجاء شديد لابن غرسية ينمُّ عن غضب الكاتب وثورته على خصمه فهو:«لا خيرَ فيه، آبق وقاح، لئيم الجدود.

ومـــن يعـــصِ أطـــرافَ الزجـــاجِ فإنّـــه يطيـــعُ العـــوالي ركّبـــت كـــلَّ لهـــذمِ

إيّاك أعني أبا عامر... شريك الحميم، وشعاري حاميم...وذق إنّك أنت العزيز الكريم... لما بعثت يا غلمة من هامد دجنك أُوارا...»[4].

- وينتقل ابن مسعدة من هجاء ابن غرسية والدّعاء عليه إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاث، وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أباً للعجم أو تكون سارة أمّاً لهم، كما ينفي عن العرب التّهم التي ألصقها ابن غرسية بهم عن طريق الأساطير والأخبار المزعومة التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولا يكتفي بذلك بل يسخر من العلوم التي افتخر بها خصمه ونسبها إلى الأعاجم قائلاً:«إنّه كفر الجارية بجودج سيدتها»[5]. فالعلوم التي عدّدها ابن غرسية ليست لقومه وإنّما هي لليونان والفرس والكلدان.

- ويدحض ابن مسعدة مزاعم ابن غرسية مفتخراً بانتصار العرب على الفرس والروم في معركتي القادسية واليرموك التي

١- المصدر نفسه، ص٣٢٢.

٢- انظر نوادر المخطوطات، ص٣٢٢.

٣- نوادر المخطوطات ص٢٥٦.

٤- المصدر نفسه ص٢٥٦.

٥- المصدر نفسه ص٢٧٥.

غنموا منها القيان والإماء[1].

- ويشيد بشجاعة العرب وفروسيتهم التي مكنتهم من سيادة البلاد وحكم العباد.

- ثمّ يختم رسالته بالافتخار بالنبي العدنان على غرار ما فعل ابن غرسية قائلاً:

«وكفى ابن غرسية والعجم أنّ في العرب رسول الله هاديا... سيّد البشر وشفيع هذه الأمة... وبه يفاخر العربُ البشرَ»[2].

- كما يشيد في الخاتمة بابن تومرت داعية الموحدين وخليفة عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم في المغرب والأندلس.

سبب تأليفها وزمنها:

إنّ رسالة أبي يحيى بن مسعدة في الرّد على رسالة ابن غرسية تدخل ضمن إطار الردود الكثيرة التي كتبت في عهد الموحّدين فقد دبّج ابن مسعدة رسالته في عهد عبد المؤمن بن علي (ت ٥٥٨هـ) ليرد على رسالة ابن غرسية في الشعوبية التي يفخر فيها بالعجم ويذم العرب.

ويعدُّ هذا الرد من أكبر الردود وأحفلها, فقد استثارت رسالة ابن غرسية مشاعر ابن مسعدة بعد قرن من الزمن واستفزته لما في رسالة الخصم من طعن في شرف العرب وعاداتهم.

- أراد ابن مسعدة أن ينقض مزاعم ابن غرسية لأنه لم يجد في الردود السابقة في ق ٥هـ ما يشفي غليله من خصمه. كما أراد تأديب كل من تسوّل له نفسه الطعن في الشرف العربي.

والخطاب موجّه لابن غرسية على سبيل المجاز والتعريض لأن صاحبها وري التراب قبل ردّ أبي يحيى بن مسعدة بمئة سنة تقريباً.

- وتطلّع ابن مسعدة إلى التقرّب من المهدي بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي إذ ذكرهما في رسالته وأقرّ نسبهما العربي الذي يفخران به.

منهجها:

سبق أن اطّلعنا على المنهج الذي اتّبعه ابن غرسيه في رسالته والمحاور التي دارت حولها الرسالة.لقد وجد ابن مسعدة نفسه مجبراً على الالتزام بمنهج خصمه والمحاور التي ذكرها في رسالته ليردّ عليها وينقضها مع شيء من التصرف في تقديم بعضها وتأخير بعضها الآخر وهو ما يدلُّ على براعة ابن مسعدة في الحوار والجدال ودحض آراء الخصم بالأدلّة

١- نوادر المخطوطات ص٢٧٦.

٢- المصدر نفسه ص٢٧٠.

والبراهين المنطقية.

واعتمد في منهجه على المقارنة والموازنة بين العرب والعجم فقيمة الشيء لا تظهر إلاّ بذكر قرينه من جهة ومن جهة أخرى اختار مقارنة أكثر إفحاماً للآخر لأنها تنطوي على الأدلة وتفصّل في الحقائق.

اسلوبها:

جاءت رسالة ابن غرسية لإبراز فضل العجم على العرب في ظل حكم إسلامي, ابتعد فيها المؤلّف عن طابع الانفعال واكتفى بما يمكنه من تحقيق غايته ويضمن سلامته وإن كان الموضوع حساساً وخطراً؛ فالطعن في نسب العرب والنيل من شرفهم ليس من الأمور الهيّنة التي يسكت عليها العربي, ناهيك عن هذا التحدي من شعوبي مثل ابن غرسية الذي لم يكن يجهل مثل هذه الحقيقة, فهو على علم ومعرفة سابقة بحساسية الموضوع وخطورته.

– لقد تناوله ابن غرسية بأسلوب ذكي فكان هادئاً في طرح أفكاره يوهم قارئه بالمباقة والموضوعية, ويوظف في ذلك بعض الروايات المشوهة والأخبار المزعومة لخدمة غرضه ناهيك عن إظهاره التقوى في آخر الرسالة.

وتنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم لإيهام المتلقي بأنه تقي, ولا يمكن أن يمسّ العقيدة الدينية وهو في ذلك يتملّق لحكام المسلمين العرب ويجحد فضلهم في نشر الدين.

– أمّا ابن مسعدة فإنّه اختلف معه في طريقة المعالجة لأن المقام يختلف جذرياً فذاك كان مهاجماً وابن مسعدة مدافع عن العرب, الأوّل فاعل والآخر منفعل, ولا سيما أنّ الأمر يتعلق بجوهر الكيان العربي.

– ومن هنا اختار ابن مسعدة الأسلوب المناسب للرّد على خصمه والذود عن حمى العروبة فبدا الكاتب منفعلاً ثائراً على ابن غرسية وكأنّه ماثل أمام عينيه.

ومن هنا أيضاً نجد الخطاب المباشر في ردّ ابن مسعدة والكلمات النابية التي تمثل الجانب الذاتي في ردّه على ابن غرسية.

أمّا الجانب الموضوعي فيتمثّل في دحض مزاعم الخصم ونقضها بالتحليل العميق والحجج التي تسعف على تحقيق الغرض.

وأظهر ابن مسعدة أنّه غزير الثقافة, كثير الدّراية بالأعاجم الأمر الذي ساعده على إغناء ردّه وجعله يفوق حجم رسالة ابن غرسية من دون أن نشعر بالإطناب أو الحشو فيها.

– **السمات الفنية:**

لقد اطّلع ابن مسعدة على رسالة ابن غرسية فوجدها متضمّنة خصائص أسلوبية معيّنة من بينها:السجع/ الجناس/ التضمين الشعري/ الإشارات التاريخية والعلمية.

وعرض ابن غرسية رسالته في أسلوب بديع من الصنعة جعلها تحظى برضى أدباء عصره وكتّابه ولا سيما في السجع الذي:«تتفاوت فقراته في الطول, حتّى تختلف أحياناً كل سجعتين, وإنّه كان يبدأ أكثر فقراته فيها بكلمتين

مسجوعتين، ثم يأخذ في التفصيل، كأن يقول: بصر صير، شمخ بذخ... وضح رجح... حلم علم.... وهكذا؛ وهذه الفواتح المزدوجة قيد الذين ردّوا عليه واضطرهم إلى تناولها واحدة إثر واحدة»[1].

وحاول ابن مسعدة مجاراته في ذلك حتى لا يُتّهم بالتقصير؛ فأكثر من المحسّنات اللفظية، ولا سيما السجع والجناس، إذ لا تكاد تخلو فقرة منهما ناهيك عن الطباق والتضمين الشعري والأمثال العربية السائرة والإشارات التاريخية والمصطلحات العلمية والاقتباس من القرآن الكريم، وذكر الأعلام من أسماء الأفراد والقبائل والبلدان.

- استطاع ابن مسعدة أن يقدّم نموذجاً من الكتابة الوصفية التي اتّخذت شكل الردود وسيلة للمناظرة في عهد الموحدين.

- وبناءً على ما تقدم فإنّ الشعوبية في الأندلس لم تكن نزعة اجتماعية دينية وإنّما كانت نزعة فردية دعا إليها ابن فرسية في رسالة وحيدة ذمّ فيها العرب وافتخر بالعجم.

- ولم يتدعُ في رسالته إلى الإلحاد أو الزندقة والطعن في الشريعة الإسلامية كما عند الشعوبيين في العصر العباسي بدليل افتخاره بالرسول وصحبه الكرام وإنّما هي رسالة بناها على شعور ذاتي حاقد اتجاه ابن الجزار الذي مدح العرب وتجاهل الصقالبة.

- أثارت هذه الرسالة حفيظة كتّاب الأندلس في القرنين الخامس والسادس فردّوا عليها برسائل لا بأبحاث وكتب كما فعل الجاحظ وابن قتيبة في العصر العباسي، واستطاعوا من خلال ردودهم نقض مزاعم ابن فرسية، وتفنيد آرائه والدفاع عن العرب وحضارتهم.

---

١ - تاريخ الأدب الأندلسي/ إحسان عباس/ ص١٧٤.

السمات العامة للمناظرات

حاكى الأندلسيون في مناظراتهم المشارقة غير أنهم لم يقفوا عند حدود التقليد بل تجاوزوه إلى التغيير والإبداع من حيث البناء الفني, والخصائص اللفظية والمعنوية والصور البيانية.وقد أشار د. القيسي إلى هذا الاختلاف قائلاً:«لم يحفل الكتّاب الأندلسيون احتفال المشارقة بمطالع الرسائل وخواتيمها ولهذا اتخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً جديداً, يختلف في بعض جزئياته عما ألفناه في الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة والتحميد والصلاة على الرسول الكريم, فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف, وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه, أو بالمنظوم, أو بالدخول في الموضوع مباشرة, أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار تبعاً لتنوع مقامات المرسل إليهم, واستخدام الألقاب التي تتناسب ومن يكتب إليه أميراً أو وزيراً أو صديقاً»[1]من ذلك دعاء أبي مروان الجزري للمنصور بن أبي عامر بالتأييد في مناظرة له على لسان بنفسج العامرية قائلاً:«إذا تدافعت الخصوم . أيد الله مولانا المنصور . في مذاهبها, وتنافرت في مفاخرهافإليه مفزعها, وهو المقنع في فصل القضية بينهما؛ لاستيلائه على المفاخر بأسرها, وعلمه بسرها وجهرها.....»[1].

وقد يبدأ الكاتب الأندلسي مناظرته بالدعاء, ويختمها بمثل ما استهل به على نحو مناظرة أبي بحر صفوان بن إدريس بين المدن الأندلسية الذي استهلّها بدعاء مسجوع للأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن قائلاً:«مولاي, أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه, كما ضم على حبك أحناءهم وأحناءه, وأوصل لك ما شعت من المنّ والأمان ما نظم قلائد فخرك على لبّة الدهر نظم الجُمان, فإنك الملك الهمام والقمر التمام»[2].

وختم صفوان مناظرته بالدعاء للأمير بالتوفيق والسداد والتأييد ثم السلام قائلاً:«بيد أني أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد, ويسيل من تسديدك ما جمد, ولا يطيل عليك في الجهالة الأمد وإياه سبحانه نسأل أن يردّ مولانا إلى أفضل عوائده, ويجعل مجانب أعدائه من فوائده ويمكّن حسامه من رقاب المشغبين, ويبقيه وجيهاً في الدنيا والآخرة

١- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الثامن الهجري . ماجد عبد الغني قلاع القيسي, دار الفكر, عمان, الأردن, ط١, ١٩٨٩, ص٣١٥.

٢- الذخيرة, ابن بسام, تح سالم مصطفى البدري, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ١٩٩٨, ج٤, ص٣٠.

٣- نفح الطيب, المقري التلمساني, تح مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل, ج٦, ص١٧١.

ومن المقرّبين, ويصل له تأييداً وتأبيداً, ويمهد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيداً, ويمدّ على الدنيا سعده ويهبه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده:آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألفَ آمين ثمّ السلام الذي يتألق عبقاً ونشراً... ورحمة الله تعالى وبركاته»[1].

وقد يباشر الكاتب مناظرته من دون مقدمات أو دعاء, كما ورد في رد أبي الطيب عبد المنعم القروي على رسالة الشعوبي(ابن غرسية)إذ باشر موضوعه من دون مقدمات وبدأ بأبيات شعرية تشير إلى بطلان مزاعم ابن غرسية وخطل أقواله:

وذي خطـل في القـول يحسـب أنـه ... مصيب بما يُلْيم به فهو قائله

تعـال فخـبرني عـلام تشـددت ... قـوى العير حتى أحرزتك مجاهله

ومع أنّ الردود على ابن غرسية (رد ابن مسعدة والدَّوْدين والقروي) جاءت بعد قرون من الزمان فإنها تدل على انفعال كتّابها وأصالة عروبتهم.

وتعدُّ المناظرات التي سارت على نهج المشارقة من حيث البدء بحمد الله والصلاة على نبيّه الكريم جد قليلة مثل مناظرة ابن برد الأصغر بين السيف والقلم الذي استهلّها بقوله:«أما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه, والصلاة على خاتم أنبيائه, فإن التسابق مع جوادين سبقا في حلبة.... لأحمد وجوه الحسد...».

الجمع بين الشعر والنثر في مناظرة واحدة:

ضمّن الأندلسيون مناظراتهم أشعارهم وأشعار غيرهم للتأكيد على صحة أفكارهم, ولتزيين نصوصهم النثرية بما ينسجم مع مقام المخاطب ومضمون المناظرة, وقد أشار الكلاعي إلى ذلك قائلاً:

«كان الجيد (منهم) كثيراً ما يضمّن رسائله أشعاره وأشعار غيره»[2].فإن استشهد بأبيات شعرية لشاعر آخر فإنه يخالف بين قافية الشعر والسجع الذي قبلها ليدرك القارئ أنّ هذه الأبيات ليست له, وأما إن كانت الأبيات له فإنه يوافق بين قافية الشعر والسجع الذي قبلها ليعلم أنه صاحب الأشعار.

- وأمّا الصورة الأولى من التمثل بالشعر فنجدها في مناظرة ابن برد الأصغر التي كتبها لأمير قرطبة أبي الوليد بن جهوريفضل فيها الورد على سائر الأزهار مستشهداً ببيت من شعر الخنساء.يقول على لسان النهار الذي يعلن الطاعة والولاء للورد:«لا تنظرن إلى غضارة نبتي, ونضارة ورقي, وانظر إليّ وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه, وعيناً شاخصة تندى بكاءً عليه:

1-نفح الطيب , ج1, 172.

2- إحكام صنعة الكلام , أبوالقاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي الكلاعي, تح رضوان الداية, دار الكتب, بيروت, ١٩٨٥, ص٧١.

ولـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي علـــى إخـــوانهم لقتلـــت نفســـي

- ونجد الصورة الثانية من التمثيل بالشعر في مناظرة ابن برد أيضاً بين السيف والقلم إذ ختم المناظرة بقصيدة نظمها في مدح المجاهد العامري يدعو فيها إلى عقد صلح بين السيف والقلم قائلاً:

قـــد آن للســـيف ألا يفضـــل القلمـــا مـــذ ســـخر الضـــنى حـــاز العـــلا بهمـــا
فعـــاد حبلهمـــا المبـــتّ منعقـــدا وراح شملهمـــا المـــنفضُّ ملتئمـــا
لـــولا طـــلابي غريـــب المـــدح فيـــك لمـــا وصـــغت قبـــل عـــلاك الســـيف والقلمـــا

ومن ذلك أيضاً ما نجده في رسالة أبي الطيب القروي الذي دحض مزاعم ابن غرسية في الشعوبية وذكّره بانتصارات المسلمين على الأكاسرة الفرس قائلاً:

إنا إذا مســـــا فعـــــة نلقاهـــــا نـــــرد أولاهـــــا علـــــى أخراهـــــا
نردهـــــا داميـــــةً كُلاهـــــا قـــد أنصـــفَ القـــارةَ مـــن راماهـــا

وقد يلجأ الكاتب الأندلسي إلى نثر أبيات شعرية ضمن مناظرته بأسلوب فني بديع كما فعل صفوان بن إدريس في المناظرة التي أرسلها إلى الأمير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المؤمن, إذ نثر المصراع الأول من قول الحطيئة:

مـــن يفعـــل الخـــير لايعـــدم جوازيـــه لا يـــذهب العـــرف بـــين الله والنـــاس

وأدخل معاني هذا الشطر في مقدمة المناظرة قائلاً:«ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل, ومن قدم صالحاً لا بدّ أن يوازيه ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه».أو حين يقول صفوان بين إدريس على لسان إحدى المدن الأندلسية «كلام العدا ضرب من الهذيان» فقد أخذه من قول أبي الطيب المتنبي في كافور الإخشيدي:

ولله ســـــر في عـــــلاك وإنّمـــــا كـــلام العـــدا ضـــربٌ مـــن الهـــذيان

إنّ استشهاد الكاتب بالشعر في مناظرته يؤكد صحة أفكاره ويدلّل على سعة اطّلاعه وغزارة ثقافته ويعلي من قيمة عمله وينأى به عن الإطناب في شرح الفكرة والتفصيل في جزئياتها, كما يدفع الشأم عن القارئ من خلال الإيقاع الموسيقي للأبيات.

الاقتباس والتضمين:

عُني الأندلسيون بالاقتباس من القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام, وضمّنوا مناظراتهم مجموعة من الأمثال السائرة والمصطلحات العلمية حتى غدت هذه الظاهرة سمة عامة في أغلب مناظراتهم على اختلاف مضامينها.وجاء اقتباسهم من القرآن والسنة على صورتين:

الأولى اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بصيغتها ولفظها, فمن القرآن ما ورد في مناظرة ابن برد الأصغر بين السيف والقلم مؤكّداً على فضل القلم ومكانته إذ يقول: «خير الأقوال الحق وأحمدُ السجايا الصدق, وأفضل من فضّله

الله عز وجل في تنزيله مقسماً به لرسول فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) سورة القلم. وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٣-٤) سورة العلق فجلّ من مُقْسِم وعزّ من قَسَمُ...».

والثانية: اقتباس معنى الآية أو الحديث دون لفظهما على نحو ما جاء في مناظرة أبي بحر صفوان بن إدريس مخاطباً أمير الموحدين عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن فقد ضمّن حواره بين الملدن آيات من الذكر الحكيم يقول على لسان قرطبة. «فأقرّوا لي بالأبوّة، وانقادوا لي على حكم النبوة، وكفّوا عن تباريكم ذلك خيرٌ لكم عند باريكم»

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء». وقد ضمن القروي رسالته هذا الحديث في الردّ على ابن غرسية. وكذلك قول الكاتب «فأقسم بباريء النسيم، وناشر الأمم من رفات الرمم... لأجمعن بين سحرك وسحرك» فقد ضمّنها حديث عائشة رضي الله عنها: «مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري».

وفي أغلب الأحيان لا يقول الكاتب قال الله تعالى، أو قال الرسول وإنما يجعل الاقتباس في سياق المناظرة من غير تكلف، وكأنه من أصل المناظرة.

إنّ الاقتباس من القرآن والسنة والأمثال وما شابه ذلك يدل على سعة اطلاع الكتاب الأندلسيين، الذين تعلموا من علوم القرآن والسنة لدعم حججهم والتأكيد على صحة آرائهم، ولإضفاء هالة من القدسية على مناظراتهم.

نخلص من ذلك إلى أنّ كتاب الأندلس قد تأثروا بالثقافة الدينيّة وتشبعوا بها ووظفوا محفوظهم من القرآن في نصوصهم النثرية على نحو يُظهر امتلاكهم لأدوات الكتابة وقدرتهم البارعة على الإفادة من آيات الذكر الحكيم وألفاظه ومعانيه وصوره في المعاني المناسبة وكأنها جزء لا ينفصل عن نسيج المناظرة ما يدل على استيعابهم لروح القرآن الكريم.

- واحتفل كتّاب المناظرات الأندلسية بتضمين نصوصهم النثرية ثلّة من **الأمثال** والحِكَم لتقديم العظة والاعتبار للآخرين من خلال الجدل والحوار ما يدل على سعة اطلاعهم ووفرة مخزونهم الثقافي، وشغفهم بالتراث العربي وتتسم الأمثال بالإيجاز وقوة التمثيل، إذ يدلي بها الكاتب لدعم آرائه. والأمثال نوعان:

أمثال نثرية

وردت في مناظرة ابن برد الأصغر بين السيف والقلم من ذلك قوله على لسان القلم أثناء محاورهما: «من ساء سمعاً ساء إجابة... ولولا جلاء الصياقل صدأك لأسرعت ذهاباً وعدت مع التراب تراباً». فقال السيف: «جعجعة رحى لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مُزن فهبّ من نومك وأفطر من صومك».

وقال القلم: «إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً». «ما كلّ بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة».

أمثال شعرية: ومن الأمثال الشعرية ما جاء في رد أبي الطيب عبد المنعم القروي على ابن غرسية الذي تنكّر للعرب بعد أن ترعرع في ربوعهم وأتقن علومهم: «فأخبرني عنك، أما كانت للعرب يد تشكرها ومنّة تذكرها ألم تربّك فينا وليداً.... أما أنطقتك بعد العجمة.... حتى إذا اشتدّ كاهلك.... وقوي ساعدك.... كفرت لديك....»

أعلّمـــه الرمايـــة كـــل يـــوم فلمّـــا اشـــتدّ ســـاعده رمـــاني

- وكذلك رد ابن عباس على ابن غرسية: «عليك السّلام لا السّلام.... يا ذا الوسن لا الفسن وابن المراغة لا البلاغة، المزري الحجارة بولاء مواليه المغري بهاجر ونسي أزفاء مواليه، الجاني لهم شرّ ما يجني: وعلى أهلها برافش تجني» فقد ضمّنه المثل الشعري.

بـــل جناهـــا أخ علـــيّ كـــريم وعلـــى نفســـها جنـــت بـــراقش

المصطلحات:

إنّ مناظرات الأندلسيين على اختلاف موضوعاتها بمنزلة الموسوعة العلمية سكبت فيها الأندلسيون ثقافتهم، وعصارة وجدانهم واطلاعهم على المصطلحات العلمية والنحوية لإظهار بلاغتهم وقدرتهم على توظيف هذه المصطلحات توظيفاً رائعاً ينسجم مع ثقافة الكاتب **وبدعه الأندلسية**. من ذلك قول ابن غرسية: «فنحن عُرُقٌ عُرُقٌ في الأنساب الصحيحة.... وقد رسّخت المجد أصولنا... حلم عُلّيّ ذوو الآراء الفلسفية، حملة الاسترونوميقي علم الفلكوالجومطريقي الهندسة والقومة بالموسيقا والبوطيقا الشعر».

ومن المصطلحات النحوية ما ورد عند أبي صفوان بن إدريس في مناظرته بين المُدن الأندلسية إذ قال على لسان مرسية: «قالت مرسية: فأنبأني فيه في الجنة الدنيوية مودعون، يتنعمون بما يأخذون ويُعطون، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدّعون فانقادوا لأمري، وحاذروا اصطلاء جمري، وخلوا بيني وبين سيدنا أبي زيد، وإلاّ ضربتكم ضرب زيد، أنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) سورة فصلت....».

التمثل بقصص القدماء: على نحو ما جاء في مناظرة الشعوبية لابن غرسية الذي أشار إلى قصة منسوبة إلى العرب تقول: «ليس بالسفسان تعقل نائلة وإساف[1]، أصغر بشأنكم، إذ بزق خمر باع الكعبة أبو غشانكم[2]، وأبو رغالكم[3] قاد فيل الحبشة إلى حرم الله...».

١- يروى أن نائلة بنت سهل وإساف بن عمرو ارتكبا الفاحشة في الكعبة فمسخا حجرين ومن ثم عبدتهما قريش.

٢- أبو غشان: هو الحارث من بني خليل بن حبشية، عاقر الخمرة فلما سكر وغاب عن رشده باع الكعبة بزق خمر إلى قصي بن كلاب.

٣- أبو رغال: رجل من ثقيف دل أبرهة الحبشي على الطريق إلى مكة لهدم البيت الحرام.

إنّ الاقتباس من الشعر والقرآن والأمثال وقصص القدماء يدل على براعة الكتاب في الأندلس الذين ساروا على نهج أسلافهم المشارقة في فن المناظرات فضمّنوها ثقافتهم الدينية والأدبية والعلمية, وأحسنوا في تذييجها بنصوصهم النثرية على نحو جيد يثير الإعجاب.

الاتكاء على أسلوب الإنشاء : هو سمة عامة في فن المناظرات المشرقية والأندلسية على حدٍّ سواء «فمن ركائز الأسلوب العاطفي, وشحن العواطف والتلاعب بها هو الاتكاء على الأسلوب الإنشائي, باستخدام **صيغ النداء والتعجب والاستفهام بالتساؤل والتمني والأمر والنهي** مع ما تؤديه هذه الصيغ من معان إضافية كالتوبيخ والتقريع والتهديد والدعاء والتبئيس والتهكم والتحقير ونحو ذلك. و من ركائز هذا الأسلوب أيضاً البراعة في استخدام الألفاظ القوية الإيحاء أو التي تؤثر في النفس بجرسها ورنينها.

ومن ركائزه أيضاً اللجوء إلى إيراد الصور المثيرة للخيال بقصد التهديد والإغراء أو التنفير أو غير ذلك, واللجوء إلى أسلوب التوكيد عن طريق استخدام أدوات التوكيد البلاغية والقسم والتكرارات»[1].

وأكثر الصيغ الإنشائية شيوعاً في مناظرات الأندلسيين صيغة **الدعاء والجمل الاعتراضية**.

وغالباً ما ترد هذه الصيغ في بداية المناظرة ونهايتها. ويكون القصد من الدعاء مرتبطاً بشخصية المخاطب, فقد يكون دعاء له بدوام العزّ والسلطان إن كان حاكماً على نحو قول أبي مروان الجزيري في مناظرة له على لسان البنفسج العامرية يبدؤها بعبارات الدعاء للمنصور بن أبي عامر إذ يقول: «منح الله مولاي صدق النظر, وعرفه جلية الخبر وأطال مدّته ووصل سلامته وعزته, إذ تدافعت الخصوم ـ أيد الله المنصور مولاي ـ في مذاهبها, وتنافرت في مفاخرها فإليه خضوعها, وهو المقنع في فصل القضية بينهما, لاستيلائه على المفاخر بأسرها, وعلمه بسرها وجهرها...».

فقد تضمنت دعاء الحريري للمنصور بطول البقاء ودوام العزّ والملك والسلامة في كل شيء, والتوفيق في سياسة الدولة وتدبير شؤونها... وهو دعاء ينسجم مع شخصية المنصور وجبروته وحبه للتعظيم والتصدير من أبناء الرعية الخاصة والعامة على حدٍّ سواء.

وعلى هذا النحو أيضاً بدأ أبوبحر صفوان بن إدريس مناظرته بين المدن الأندلسية بدعاء للأمير عبد الرحمن بن سلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي إذ يقول:«مولاي, أمتع الله ـ ببقائك الزمان ـ وأبناءه, كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه, فأوصل إليك ما شئت من المنّ والأمان, كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان, ألبست برود التأمين فتنافست فيك من نفيسي وثمين».

- كما ختمها أيضاً بالدعاء للأمير بالتوفيق والتأييد والسداد فقال:«ثم السلام الذي يتألق عبقاً ونشراً ورحمة الله وبركاته».

---

١ الخطابة السياسية : إحسان النص ص١٣٥.

فالدعاء للمخاطب يتّسم بالهدوء والاتزان (نلمس من هذا التعقّل والمنطق المقنع) للتأثير في نفسية المخاطب ومدحه والثناء عليه لنيل الحظوة لديه.

- وقد يخرج الدعاء عن آداب المناظرات وأسلوب الاتزان والهدوء ويتّسم بالانفعال الملتهب إلى درجة تخرج الداعي عن حدود الأدب فيلجأ إلى السباب والشتائم على نحو ما وجدناه فيمن ردّ على مناظرة الشعوبية لابن غرسية.

فقد دعا ابن الدَّوْدِين البلنسي عليه ولم يدعُ فقط بل شتمه قائلاً: «اخسأ أيها الجهول المارق، والمرذول المنافق، ابن أمك . ثكلتك أمك . أو ما علمت أنك إنما سحبت من عقالك لعقالك، وجررت أول قدمك لسفك دمك...». واتسم دعاؤه بالسخرية والتهكم والازدراء من شخص رجل تنكّر للعرب وتطاول عليهم وجحد فضلهم عليه.

وكذلك دعاء ابن مسعدة عليه قائلاً: «شريك الحميم، وشعاري لك حاميم، فاخلع عن مقلدك البرسم، وذق إنك أنت العزيز الكريم». يسري في هذا الدعاء على المخاطب النفس القرآني إمعاناً في التأثير النفسي في السامع عن طريق الحجة الدينية.

وعلى الرغم من تأخر دعاء ابن مسعدة على ابن غرسية مدة عام إلاّ أنّ **الداعي** غاصب على ابن غرسية وكأنّه أمام عينه.

سهولة الألفاظ وجزالتها:

تأثر الكتاب بالبيئة الاجتماعية والطبيعية للأندلس إذا أثّرت الطبيعة الساحرة في نفوس الكتاب فاتخذوها موضوعاً لمناظراتهم ونهلوا من معينها فجاءت رقيقة عذبة، ولا سيما في مجال التعبير عن الأزهار والرياحين والمدن الأندلسية الساحرة، فقد انتقت من هذه المناظرات المفردات الوحشية أو الغريبة ونأى أصحابها عن أسلوب البداوة الذي ساد في عصر بني أمية لعدم مراعاة الذوق في المجتمع الأندلسي. فقد عرف عنه إلى البساطة والرّقة والتأنق وبعده عن التكلف والتعقيد والفلسفة كما يقول الثعالبي: «إن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع» ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة الجزيري على لسان البنفسج: «وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما، والفخر بمناقبهما كل مذهب، وما منهما إلاّ ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعذب من الغمام الذي يسقينا، مع أن أعطر منهما عطراً، وأحمد خبراً، وأكرم إمتاعاً شاهداً أوغائباً، وبائعاً وذابلاً»

فقد استمد الكاتب ألفاظه السهلة الرقيقة من بيئة الأندلس وجمالها الساحر فصبغ رسالته (بين الأزهار بألوان الطبيعة وأضفى الجمال والتأنق على معظم ألفاظه بما ينسجم مع موضوع المناظرة ونفسية المنصور بن أبي عامر الذي عرف بحبه للأزهار وولعه بها وتشجيع الكتاب على المباراة في وصفها وإغداق الجوائز والعطايا عليهم. وعلى الرغم من السهولة التي طبعت معظم مفردات المناظرات الأندلسية إلاّ أنّ بعضها جنح إلى الغرابة والتعقيد فاتّسمت ألفاظها بالصعوبة على نحو ما جاء في رسالة الشعوبية لابن غرسية والردود عليها.

فهذه النصوص ملأى بالألفاظ الصعبة والمعاني الغريبة التي تحتاج إلى الشرح والتفسير ومراجعة المعاجم اللغوية

لمعرفة دلالاتها.من ذلك قول ابن غرسية مخاطباً أبا عبد الله بن الحداد:«أحسبك أزريت، وبهذا الجيل البجيل ازدريت، وما دريت أنهم الصهب الشهب... شغلوا بالماذي والخران على البعران... نماة الصروح، صقورة، عابهم شقورة، شرهوا برنات السيوف لا برنات الشنوف... وبالحب عن الحيث وبالشليل عن السليل... وضح رجيح، لا سفرة عكر، ولا حفرة أكر... غنوا بالإستبرق.. عن البتّ... سبل... لا غراس مُسل... طعامهم الحنيذ لا زهيد الخبيذ... فلا يقعقع لهم بالشنان ولا يوعوع لهم بالشنان، فكفّ أيها الشنان فلهم عظيم الشأن... إلخ»فكل كلمة تحتاج إلى شرح وتفسير.

ولعلّ ابن غرسية خرج عما هو مألوف لدى كتاب المناظرات في الأندلس باتكائه على الألفاظ الوحشية المتنوعة بعرض مقدراته اللغوية وكنوزه الثقافي وإتقانه العربية وحسن توظيفه الوحشي منها في مناظرته... وارتضى خصومه هذا المنهج للرد عليه بالأسلوب نفسه والوعورة ذاتها لمجاراته فيما ذهب إليه وكيلا يكتب له السبق على فرسان العربيّة وكتّابها.

الإمتاع والإطناب:

تتسم معظم المناظرات الأندلسية بالإطناب فهذه الميزة تسعف الكاتب في بسط أفكاره،وعرض مهاراته اللغوية والأدبية وتكشف عن ثقافته المتنوعة... وقد أكد د. زكي مبارك على ميل الكتاب الأندلسيين في مناظراتهم إلى الإمتاع والإطناب «لأنّ عناصر هذا الترجيح تتطلّب التمهيد لها بما يناسبها في المعاني المنثورة، كما تتطلّب التعليق المناسب عليها».

وتظهر هذه السمة واضحة جلية في المفاضلات بين الأزهار والرياحين على نحو رسالة ابن برد الأصغر في مناظرته بين خمس من الأزهار وتفضيل الورد عليها، ورسالة أبي الوليد الحميري في معارضته ابن برد الأصغر وتفضيله الورد على سائر الأزهار، وفي المناظرات بين المدن وبين السيف والقلم وكذلك في ردّ أبي يحيى بن مسعدة على ابن غرسية الشعوبي، إذ جاء الرد أكثر طولاً من رسالة ابن غرسية.

- اتكأ كتاب المناظرات في الأندلس على **ضروب من البديع** لإخراج رسائلهم بأسلوب جميل مؤثر كان من أبرزها **السجع والجناس والطباق والمقابلة** وما إلى ذلك من ألوان الترف الذهني والتنميق اللفظي «فالسجع نسمة زخرفية لفظية تختص باللفظة المركبة في جملة تتوافق فيها بعض فواصل الكلام المنثور على حرف واحد» ويعد هذا اللون البديعي محموداً إن جاء عفو الخاطر من دون تكلف أو افتعال وقد اعتدل الأندلسيون في استخدامه فلم يتكلفوا في اصطياده وإنما كان سجعهم عفوياً ينسجم مع طبعهم وثقافتهم بسهولة وانسياب من ذلك ما ورد في مناظرة السيف والقلم لابن برد الأصغر إذ انبرى القلم للدفاع عن نفسه مجادلاً السيف بقوله «إن ازدراءك بتمكن وجداني وبخس أثماني، لنقص في طباعك، وقصر في باعك، إلا أن الذهب معدنه في العفر، وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها في الجمر، وهي إحدى العناصر، وإن الماء وهو الحياة، أكثر المعايش وجداناً وأقلها أثماناً...» فقد جاء السجع عند ابن برد قصير الفقرات متنوعاً في فواصله السجعية عفوياً من دون تعقيد أو افتعال، أسهم في تحسين المعنى، وأضفى على النص رونقاً وطلاوةً من خلال الجرس الموسيقي اللطيف الذي يدغدغ الأسماع ويؤثر في المشاعر.

ونجد مثل هذا السجع في كافة المناظرات الأندلسية التي تتسم بالعفوية وتقوم على التنويع في الفواصل.

ويلجأ بعض الكتاب إلى **الازدواج** في مناظراتهم النثرية لأنه محمود في النثر كما يقول أبوهلال العسكري «إذ لا يحسن منثور الكلام, ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً, ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج ولو استغنى كلام عن الازدواج, لكان القرآن, لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق, وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه...»

وتظهر سمة الازدواج في مناظرة ابن حسداي بين الأزهار والورود إذ يقول مخاطباً النرجس على لسان رجل ظريف من خواص الأمم: «يا أيها الزهر الفارد, والنّور الشارد, المتاجر بحدقه وأجفانه, الناظر بورقه وأغصانه, الباهر بورقه وعقيانه ما لي أرى قُضُبك عُيراً ذابلةً...» فقد جاء الازدواج في سجعتين اثنتين مبنيتين على حرف واحد الزهر والنور,والفارد والشارد, بحدقه وبورقه, أجفانه وأغصانه ومن ذلك أيضاً ما ورد في مناظرة ابن الخطيب بين مالقة وسلا قائلاً: «على أن التفاضل يقع بين ما تشابه أو تشاكل وتناسب, وإلا فمتى يقع التفضيل بين الناس والنسناس, والملك والخناس, وقرد الجبال وظبي الكناس» فالازدواج واضح في هذا النص أضفى عليه جرساً موسيقياً عذباً إذ يدل على قدرة ابن الخطيب على تحقيق الانسجام بين الألفاظ بما ينسجم مع المعنى, وبظهوره في نسق إيقاعي مؤثر لا تمجه الآذن ولا تجافيه الطبع.

الجناس: من الألوان البديعية التي تغني الإيقاع وتبرز المعاني في حلة جميلة ومؤثرة. وحرص الأندلسيون على شيوعه في مناظراتهم سواء أكان جناساً تاماً أم ناقصاً على نحو ما ورد في مناظرة ابن غرسية مفتخراً بقومه على العرب «شُدّوا برنات السيوف عن ربات الشغوف (الأقراط) وبالنفير عن النفير... وبالحبّ عن الحبّ وبالشابل عن السليل, وبالأمر والذمر عن معاقرة الخمر والزمر» فقد جانس الكاتب جناساً تاماً بين الحبّ (ضرب من العدو) والحب (الخداع) وجانس جناساً ناقصاً بين رنات وربات, السيوف والشغوف ،النفير والنفير ما يدل على أنّ أكثر أنواع الجناس شيوعاً في المناظرات ما كان ناقصاً ومن هذا القبيل أيضاً ما ورد في قول ابن برد الأصغر على لسان السيف «إن الملوك لتبادر إلى دركي وتخلفني بخلل كخلل وخمائل كخمائل...»فقد جانس جناساً ناقصاً بين خلل وخلل, وخمائل وخمائل.

الطباق: استعان الأندلسيون بالطباق لتوضيح معانيهم وتزيين نصوصهم النثرية, فقيمة الشيء لا تتضح إلا بذكر نقيضه «وهو نوعان طباق إيجاب, إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظاً ومعنى, وطباق سلب إذا تحقق التضاد بوجود اللفظ ومنفيه في الكلام» والنوع الأول هو الشائع في مناظرات الأندلسيين لأنه يتسم بالسهولة والوضوح وهذا ما ينسجم مع طبع الكتّاب الأندلسيين وذوقهم وميلهم إلى السهولة والوضوح والابتعاد عن التكلف والصنعة قدر المستطاع.

ومثاله ما جاء في قول ابن برد الأصغر على لسان السيف «إن ماءك السائل لجامد, وإجراءك الملتهب لبارد» وكذلك قوله «المقدم إذا حجمت الأبطال, والضاحك إذا بكت الآجال, الساري إلى العلياء إذا أدلج الكرام, والمهدي في الآراء إذا هجر الأنام» فالكاتب طابق طباق إيجاب بين سائل وجامد, وملتهب وبارد, وإقدام وإحجام, والضحك

والبكاء, والسرى والإدلاج.

فقد أسهمت هذه المطابقات في تنميق الرسالة وتزيينها كما أضفت روح السخرية والتهكم على المتخاصمين، ودفعت السأم والملل عن المتلقي.

المقابلة: تعد المقابلة من ضروب البديع إذ تعني بتزيين المعنى وتحسين العبارات، وقد وردت في رسائل الشعوبية ومثالها قول ابن غرسية مفتخراً بقومه «هم القياصرة والأكاسرة, مجدٌ تجدّد, همٌّ لا رعاة شوبهات ولا بهم, شغلوا بالحاذي والمران عن رعي البعران, وبجلب العزّ عن حلب المعز....»فقد قابل الكاتب بين صورة متناقضين صورة فاتحة لحياة العرب القدامى في ظل الإبل والشاء, وصورة مشرقة لحياة القياصرة والأكاسرة في ظل السيوف والرماح.

والقصد من المقابلة إظهار البَوْن الشاسع بين العرب والقياصرة وتاريخ كل منهما.

الاتكاء على أساليب البيان:

بني الخيال عند كتاب المناظرات في الأندلس على التصوير البياني إذ يتيح للكتاب تجسيم معانيه عن طريق التشابيه والاستعارات والكنايات, وإخراجها في لبوس فني رائع ليبرهن على ملكة الأديب الخيالية وقدرته على الإبداع الفني من ذلك قول أبي بحر صفوان في مناظرته بين المدن الأندلسية على لسان غرناطة: «لي المعقل الذي يلتمع ساكنه من النجوم, ولا تجري إلا تحته جياد الغيث السجوم, إلى بطاح تقلد من جداولها أسلاكاً واطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً, ومياه تسيل في أعطافي كأدمع العشاق...» فالطرافة تكمن في تشبيه سيلان الماء بأدمع العشاق ناهيك عن الاستعارة الرقيقة في هذا التعبير.

ألبس الأندلسيون مناظراتهم ثوب القصة وأقاموا مجادلاتهم على الحوار بين شيئين أو أكثر لما لهما من أثر فعّال في نفس المتلقي؛ فقد فطر الإنسان على حب القصص لما فيها من تشويق يسارع من الوصول إلى العقدة ويلهب المشاعر الإنسانية سواء أكانت إيجابية أم سلبية والحوار يمنح المتناظرين الحيوية ويضفي عليهما الحياة حتى لو كانا من الأشياء الجامدة.

وأدرك كتاب الأندلس أهمية الحوار المتخيل الذي قامت عليه المناظرات بين الأشياء وأضفوا عليها صفات البشر فجاءت مفعمة بالحياة والحركة.

من ذلك مناظرة ابن برد بين الأزهار, إذ أجرى حواراً شيقاً بين الأزهار, وضمنه تشابيه متلاحقة حملت رموزاً شفافة أراد الكاتب من خلالها إعلان الطاعة والولاء لابن جهور الذي رمز له بالورد, فهو يستحق الزعامة والسيادة على سائر الأمصار كالورد الذي يستحق السيادة على سائر الأزهار فالخيري من شدة إجلاله للورد يكتم أنفاسه ولا يستطيع أن يتنفس نهاراً فيقول «والذي أعطاه الفضل دوني, ومد بالبيعة يميني ما اجترأت قط إجلالاً له, واستحياءً منه, على أن أتنفس نهاراً»

وأما الجانب الحسّي للصورة البيانية فقد ظهرت على هيئات متعددة أبرزها:

١ – **التشخيص وأنسية الأشياء الجامدة** وبث الحياة فيها كما فعل ابن برد الأصغر الذي أضفى عنصر التشخيص على موصوفاته في مناظرته بين السيف والقلم؛ إذ جعل القلم في مخاطبته السيف يقول: أحكم فأعدل, وأشهدُ فأقبل, واستكفي فأكفي ويقول مفتخراً «لقد أخذت الفضل برمته, وقدت الفضل بأزمته» وكل من يقرأ هذه المناظرات لا يشعر بالجمود أو رتابة الأشياء المناظرة لأن أصحابها خلعوا عليها المشاعر الفياضة فجاءت مفعمة بالحركة والحياة والرقة والعذوبة التي منحتها الطبيعة الأندلسية لكتابها.

١ – الصورة الحركية:

إذ استعان الكاتب بالحركة لرسم الصورة البيانية على نحو ما جاء في مناظرة ابن بردعلى لسان السيف:«جعجعة رحى لا يتبعها طحن...وجلجلة رعدٍ لا يليها مزن...وجه لئيم وجسم مسقيم... ودموع سجام كأنها سخام....فهبت من نومك وأفطِر من صومك.... أكرعُ يوم الوغى في لبة البطل فأعود كالخدّ تُكسى صبغة الخجل...»ويجيبه القلم: «إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً, إنّ ماءك السائل لجامد وإن جرمك الملتهب لبارد... فأقصر عن جفنك من العمى روافا...»فالحركة التي أضفاها ابن برد على لسان أدواته لجعل السيف والقلم نابضين بالحياة والمشاعر الدافقة.

٣– **الصورة اللونية**: كما وردت في مناظرة أبي جعفر بن أحمد بين قصري المبارك والمكرّم إذ وصف أزهار القصور قائلاً: «فمن ورد كنوريد الخدين ونرجس كمقل الغيد وسوسن كأنّه راحة نُشت النبات على قراضة من العقيان وخيري كأنما استعار رسطه واختار بذلة المحزون, وبنفسج حكى زرق البواقيت وبقية الذار في أطراف كبريت وياسمين يذكر بالخدود البيض».

واستعان الكاتب بعدد من الألوان، حمرة الورد وزرقة البنفسج وبياض الياسمين ليلون صوره البيانية المشرقة...ويفيض عليها جمالاً أنثوياً؛ فالورد محمّر كالخدود والبنفسج أزرق كالياقوت والنرجس كعيون الحِسان والخيري كأنّه بنان انتشى على قطعة ذهب.

و تنوعت مصادر الصور البيانية فبعض الكتّاب استمدّوا صورهم وتشبيهاتهم من الطبيعة الأندلسية كما أسلفنا سابقاً واستلهم بعضهم الآخر صورهم من القرآن الكريم والأمثال العربية من ذلك قول أبي جعفر بن أحمد:«وإن الذي بينكم وبين الملكة لأقصر من إبهام الحبارى, في يوم تُرون فيه سكارى,وما أنتم بسكارى, ولكن عذاب الله الواقع» فقد جعل الكاتب هلاك الكفار على يد المسلمين في وقت قصير أقصر من إبهام الحبارى.وصوّر خوفهم من المسلمين وهم يغرقون من بطشهم بالسكارى.وهي صورة مستوحاة من القرآن الكريم.

وصفوة القول:

نخلص من دراسة هذا الفن في الأندلس إلى أن فنّ المناظرات فنّ مشرقي أصيل إلاّ أنّ الأندلسيين طوّروا فيه, فلم يقفوا عند حدود التقليد والمحاكاة بل فتحوا درباً جديداً فيه ، ونفّنّوا في موضوعاتها ونسجوا مناظراتهم في ثوبٍ قصصي ممتع عمّ عن أصالة الكاتب الأندلسي, وخصوبة خياله وتطلّعاته، كما رصد آثار البيئة الأندلسية من كافة جوانبها الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

الفصل الخامس

أدب الرّحل في المغرب الإسلامي

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد

عُرف العرب منذ القديم بحب الرّحل والأسفار، فتواترت الأخبار عن رحل فردية وجماعية طلباً للرّزق والتّجارة، والاطّلاع والمعرفة، فقام بعض الشُّعراء في الجاهلية بالرّحلة إلى الحيرة ودمشق وبلاد الروم، وذكروا ما جرى معهم في هذه الرّحل. كما كان لقريش رحلتان؛ إحداهما في الشّتاء والأخرى في الصيف، وجاء ذكرهما في القرآن الكريم.

وعندما صدع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بدعوته، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، ثم تولّى الخلفاء الرّاشدون أمور المسلمين من بعده قاموا بتجييش الجيوش للفتوح الإسلامية في المشرق والمغرب، فانضوى تحت لواء الخلافة الإسلامية دول كثيرة ما أدى إلى اتّساع رقعة الدولة. وكان لزاماً على القائمين على الأمور أن يعرفوا مسالك هذه البلاد وطرقها. فقاموا بفتح الطريق بين المدن المختلفة، وأنشؤوا نظام البريد الذي أسهم في تشجيع الرحلة بين أجزاء هذه الدولة. كما «عيّنوا موظفين مخصوصين لمعرفة الأراضي وتسجيل الجباية وتوزيع الحقوق على أصحابها»[1] وشجع هذا الاتساعُ العرب على السّياحة والوقوف على ما في هذه البلاد من عجائب وغرائب.

وكان هؤلاء الرّحالون يقصّون مشاهداتهم على النّاس عند عودتهم، ويدوّنون بعضها في ملاحظات وصلت إلينا عن طريق المؤرخين الذين أوردوها في مصنفاتهم. ولم تأخذ هذه الملاحظات شكل الرّحلة إلا في عصور لاحقة.

أما بدايات الرّحل فقد أخبرنا بها بعض المؤرخين، وتعود أولى هذه البدايات إلى العصر العباسي كرحلة سلام الترجمان سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م، ورحلة سليمان التاجر ٢٣٧هـ / ٨٥١م، ورحلة ابن وهب القرشي سنة ٢٥٧هـ / ٨٧١م، ورحلة ابن موسى المنجم سنة ٢٧٧هـ / ٨٥٠م[2]. ورحلة اليعقوبي سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م.

بيد أن هؤلاء لم يدونوا رحلهم بل وصلت إلينا أخبارها عن طريق الرواة والمؤرخين الذين أشاروا إليها، وأوردوا مختارات منها في مصنّفاتهم.

أما الرّحل المدوّنة – فأقدمها فيما نعلم – رحلة ابن فضلان[3] التي قام بها سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م إلى بلاد البلغار بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله ليقوم بتفقيه النّاس في تلك البلاد بتعاليم الدّين الإسلامي. فكتب وصفاً

---

(١) الأدب في العصر العباسي، الجزء ٣٨٨

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١/١٤٦.

(٣) طبعت في عام ١٤٨٥ الهجرية بمدينة بغداد سنة ١٩٥٩م بتحقيق أحمد مختار العبادي بعنوان (رسالة ابن فضلان)

لمشاهداته في تلك الرّحلة، وكانت أوّل رحلة مكتوبة نقف عليها. ومنذ ذلك الحين بدأت الرّحلة تأخذ شكلها المستقلّ إلى أن أصبحت فناً له قواعده وأسسه.

ومن المؤكد أن قسماً كبيراً من الرّحل المدّونة أتت عليه غوائل الدهر، ولم يسلم منها إلا النّزر اليسير، ولكن هذا القسم الذي وصل إلينا واطّلعنا عليه يدلّنا على كثرة الرّحل المؤلفة، وتنوع اتجاهاتها وطرائقها واختلاف أهدافها[1].

أما الأندلس فقد أولع أهلها بالرّحلة منذ القديم، ونقف في كتب التراجم والسير والتّاريخ على أسماء أعداد كثيرة منهم. فهذا المقّري يذكر في كتابه (نفح الطيب) ما يزيد على ثلاث مئة راحل في طلب العلم إلى المشرق فقط، ونراه مع ذلك يصرّح بقصوره عن استيعاب الرّاحلين جميعهم[2].

هذا في الأندلس، وكان في المغرب أكثر منه، ذلك أن (اهتمامَ المغاربةِ بالرّحلة يتجاوز اهتمام الأندلسيين)[3].

دوافع الرحلة وبواعثها:

إن كثرة الرّحل المدوّنة وتنوعها في المغرب الإسلامي تبعث في نفوسنا التساؤل عن دوافع هذه الرّحل وبواعثها، لأنه غالباً ما يكون دافع الرحلة سبباً في تصنيفها[4].

وتحتل **الرحلة الحجازية** إلى الأماكن المقدّسة المرتبة الأولى بين الرّحل لأن هذه الأماكن تتمتع بمكانة خاصة عند المسلمين في كل الأصقاع، فالحج من أهم البواعث للرّحلة لما كان يتمتع به المجتمع المغربي المسلم من تمسّك بالقيم الرّوحية، فكان أقصى أماني المسلم أن تتاح له فرصة زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يتحمل المشاقّ والأخطار في الطريق إضافة إلى مشاعر الغربة والبعد عن الأهل والأصحاب، وكل ذلك عن رغبة وطيب خاطر.

ولم يكن الإنسان المغربي — شأنه شأن المسلمين جميعهم — يقنع برحلة واحدة إلى الحج، ولكنه ما إن يعود إلى بلاده ويستقر بين أهله حتى يعاوده الشوق والحنين مرة أخرى أشد وأقوى، فيشدُّ الرّحال من جديد إذا تمكن من ذلك.

---

(١) انظر الرحلات الأندلسية في العصور الوسطى لأرين بالنثيا ص ٥ وما بعدها.

(٢) نفح الطيب ١/٤.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/٣٨٩.

(٤) انظر أبواب الرحلة في مقدمة الإكسير في فكاك الأسير مقدمة أ/ب بتحقيق الدكتور محمد الفاسي.

وغالباً ما كانت الرحلة إلى الحج **تقترن بزيارة الأماكن المقدسة بالشام وفلسطين**، لما لهذه الأماكن من مكانة خاصة عند هؤلاء، ولما تناقلته كتب الحديث من أحاديث نبوية شريفة في فضل الشّام، ولما تحظى به مدينتا القدس والخليل من مكانة أثيرة في نفوس المسلمين باعتبار القدس أولى القبلتين، ووجود مدافن كثير من الأنبياء في الخليل، فزيارتهما لا تقل أهميّة عن زيارة مكّة والمدينة.

وهناك الرحلة **في طلب العلم** وهذه الرحلة تتعلق بسبب أو بآخر بالناحية الدينية، لأن الإسلام حضَّ على طلب العلم، وفرضه على كل مسلم ومسلمة، لذا فقد اهتم طلبة العلم منذ القديم بالرحلة فقطعوا الصحارى والقفار بحثاً عن فائدة، أو سماعاً لحديث، أو رجاء لقاء عالم، حتى أصبحت الرحلة فيما بعد شرطاً لازماً للعالم عموماً، ولعالم الحديث خصوصاً.

فقد رُوي عن الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعود أنه قال: «ما أُنزِلَتْ آية إلاّ وأنا أعلم فيما أُنزِلَتْ، ولو أنّي أعلم أنّ أحداً أعلمُ بكتاب الله مني تُبلّغهُ الإبلُ والمطايا لأتيتُه»[1].

ورُوي عن الشَّعبيّ (ت ١٠٣هـ / ٧٢١م) قوله: «لو أنّ رجلاً سافر من أقصى الشّام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمةً تنفعُهُ فيما يستقبِلهُ من عمره رأيتُ أنّ سفرَه لا يضيع»[2].

وكثيراً ما كان **الغرضان يمتزجان معاً فتكون الرحلة جامعة الأمرين معاً: الحج وطلب العلم** كما نرى عند ابن رُشَيد والعَبْدَريّ والتُّجيبيّ[3] والبَلَويّ[4] وغيرهم، فلا عجب إذاً إذا ألفينا معظم الرِّحل تتجه من المغرب إلى المشرق، وإنّما في المغرب والأندلس أكثر منها في المشرق، ويتضح ذلك من خلال مراجعة ما وقفنا عليه من رحل، ولعل السّبب في ذلك يعود إلى عدة عوامل:

أولها: الديار المقدسة في المشرق.

وثانيهما: كثرة العلماء الذين كانوا مقصداً لطلاّب العلم من كل البقاع إضافة إلى كون مركز الخلافة في الشرق.

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ٩٨.

(١) الرحلة في طلب الحديث: ٩٦.

(٣) تقدم حول من رحلة ابن رشيد عند الحديث بتصرف = بعنوان «دراسة الرحلة والرحالة».

(٤) طبعت رحلة البلوي بتحقيق الجنوي في الدار بعنوان «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق».

وثالثها: لما كانت تحتوي عليه المدن المشرقية من مكتبات ومدارس تضم الكتب القيّمة والمؤلفات العلمية النفسية.

وهناك **الرِّحل السياحية** التي كان الهدف منها الاطلاع على غرائب البلاد والسِّياحة في الأرض **كرحلة ابن بطوطة**. وهناك **الرحل السِّفارية** التي كان يُرسل أصحابها للقيام بسفارات ذات هدف سياسي كرحلة «الإكسير في فكاك الأسير»[1]. إذ دوّن صاحبها مشاهداته في سفارته لتخليص جماعة من الأسرى المسلمين في إسبانيا، إضافة إلى أنواع أخرى من الرِّحل[2].

طرائق تدوين الرِّحل:

اتبع الرّحالون طرائق عدّة في التّدوين يمكن أن نصنّفها وفق الآتي:

- رحل كتبها أصحابها في أثناء الرِّحلة، وتخضع تدوينها إلى التسلسل الذي سار عليه الرّحالة، فيدون فيها الأحداث والمفاجآت التي تحصل وفق زمن حدوثها ومكانه، وقد سلك العبدري هذه الطريقة في التّدوين، ودليلنا على ذلك قوله حين التقى ابن دقيق العيد في القاهرة وحصل منه على الإجازة: «ووقف على ما تقيّد من هذه الرحلة واستحسنه، وأفادني فيها أشياء، وقيد منها وفاة الشّقراطسيّ صاحب القصيدة الشقراطسيّة حسبما تقيدت في موضعها»[3].

- رحل كتبت من المذكّرات التي دوّنها أصحابها في أثناء الرحلة، وهي عبارة عن عناوين القضايا والفوائد التي أفاد منها، والأسانيد التي حصل عليها، فقد كان بعض الرّحالين يلجؤون إلى تقييد الأمور المهمة التي مرت معهم حتى لا ينسوها، وعندما كانوا يعودون إلى بلادهم ويستقرّون، كان واحدهم يُخرج هذه الملاحظات ويرتبها ويخرجها بعد مرور مدّة تطول أو تقصر، ونظن أن التُّجيبي في «مستفاد الرّحلة والاغتراب» لجأ إلى هذا النوع من التّدوين لأنه ذكر في رحلته أحداثاً تتعلق بسنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م مع أن الرحلة كانت سنة (٦٩٦هـ / ١٢٩٧م) ونعتقد أن ابن رُشَيد أيضاً لجأ إلى الطريقة نفسها في التّدوين إذ سجل في أثناء رحلته بعض الأشعار والمذكرات والأسانيد، ثم نظم ما جمعه بعد عودته من رحلته وبوّبه وأخرجه منسّقاً، ويؤكد ابن رُشَيد بين الفينة والأخرى أن ما يرويه قد كتبه زمن الرحلة.

---

(١) المصدر: في الرحلة بخطوط الدكتور محمد الفاسي.

(٢) انظروا دراستنا في مقدمة الإكسير صفحة ج.

(٣) رحلة العبدري (٢٠١).

- رحل دُوِّنت من الذاكرة: وهذا الضرب من التدوين يتم بعد عودة الرحالة من رحلته إذ يقوم بإملاء رحلته من الذاكرة من دون أن يعتمد أصولاً أو ملاحظات مدوّنة عن رحلته، ومن هذا النوع «رحلة ابن بطوطة» التي قام بتدوينها الكاتب ابن جُزَيّ بتكليف من أبي عِنان المريني (ت ٧٥٩هـ) الذي أعجب بأخبارها وعجائبها.

٣- عوامل ازدهار الرِّحل:

يمكن أن نُرجع هذا الازدهار إلى العوامل الآتية

أ- تأمين الطرق: عمل ملوك الدُّول الإسلامية على تأمين طرق القوافل المتجهة إلى الحج وذلك بالقضاء على قطاع الطرق والمفسدين الذين كانوا يتربصون للحجاج ويعترضون طريقهم ويعيثون في الأرض فساداً، فأخذوا على أيديهم، ومنعوهم من القيام بمثل هذه الأعمال التي كانت في كثير من الأحيان تجعل الحُجّاج يتردّدون في أداء فريضتهم، أو يحجمون عن القيام بها. كما قاموا بإنشاء مراكز ومحطّات يستريح بها الرّحالون والمسافرون على طول الطريق، إضافة إلى المحارس والمنازل والمخيّمات لحماية هؤلاء الحجاج وتموينهم بما يلزم من الأغذية والعلاج، وإرشادهم إلى أقرب الطرق وأسلمها.

ب- تنظيم ركب الحاج المغربي: كما قام هؤلاء الملوك بالإشراف على تنظيم الرّكب وتقديم يد العون للحجاج، وتأمين احتياجاتهم، وكانوا يتكفّلون بحماية الرّكب إلى أن يغادر حدود دولتهم، فتتكفّل الدولة الأخرى بحمايته لحين خروجه من حدودها إلى أن يصل إلى بغيته بسلام.

وكان هناك غيرُ ركب يُنظَّمُ في كل موسم، وكانت تسمية الرّكب ترتبط بالمدينة أو بالمنطقة التي ينتمي إليها، فكان هناك الرّكب الفاسي والسِّجِلْماسيّ والمرّاكشيّ والشّنقيطيّ والبحريّ.. وغير ذلك من التّسميات[1]، وكثيراً ما كان الملوك المرينيون وغيرهم يحملون الرّكب الهدايا والكسوة للحرمين الشريفين، وملوك مصر، كما يكون مناسبة لإرسال المصاحف والأموال لوقفها على المساجد في الأماكن المقدسة في المشرق كمكة والمدينة والقدس والخليل.

ج- انتشار الزوايا في الطرق: وكان للزوايا أثرٌ إيجابي في ازدهار الرحلة، إذ كانت تقدّم للمسافرين والحُجّاج الطّعام واللباس، وقد انتشرت الزوايا في ذلك الوقت في معظم بقاع العالم الإسلامي ما هيأ للرّحالة كثيراً من متطلّباته وهو في الطّريق شرقاً وغرباً، فكانت الزّوايا دور ضيافة بالمجّان للجميع، يكرم فيها الزّائر قبل أن تُعرف هويته.

(١) كتاب الدكتور عمر رضا كحالة

كما كان لإسقاط المكوس عن الحجّاج في بعض الأحيان أثر كبير في تنشيط الرّحلة لأنّ تأدية هذه المكوس كان أحد العوائق التي كانت تحول دون القيام بفريضة الحج، وقد أشار غير رحالة[1] إلى المضايقات التي كان يعانيها الحاج من رجال المكوس المصريين، وهذا ما دفع ابن جبير إلى مدح صلاح الدين الأيوبي عندما رفع المكوس والمغارم عن الحجاج بقوله[1]:

رفعـــتَ مغـــارمَ أرضِ الحجـــازِ ... بإنعامـــك الشـــاملِ العـــامرِ
وأمّنـــتَ أكنـــافَ تلـــك البـــلادِ ... فهـــانَ الســـبيلُ علـــى العـــابرِ

وهكذا فإن الرّحل كانت تُؤتي أُكُلَها وتعود بالفائدة على الرّحالة والبلدان، فكان الرّحالة يفيد علماً كثيراً، وثقافة متنوعة تدين للثقافة الأكابر من العلماء الذين تنوعت مشاربهم، واختلفت ممارُ جنيهم، فكان يأخذ عن هؤلاء ما ينمي ثقافته، وينوع معارفه، وكم من عالم لم يبلغ المرتبة العليا إلا بالرحلة، وقد نبّه ابن خلدون على هذا في قوله: «إنّ الرّحلة في طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال في التعلم... فالرحلة لابد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[3].

كما يتمكن الرّاحل من بعض الأخلاق السّامية كالصّبر على ما يلاقيه من متاعب بدنية وآلام نفسية كفراق الأحبة، ومثل آداب المداراة لأن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى هذا الأدب[4].

كذلك كان لانتقال هؤلاء العلماء أثر واضح في نقل معارف قومهم وبلدانهم إلى أماكن جديدة ما يفيد بنقل الثقافة من مكان لآخر[5].

أما البلاد التي يرحل أبناؤها عنها إلى الحواضر فإنّها تعود إليها الحياة ثانية بعد عودة هؤلاء مُحمّلين بأنواع متعدّدة من العلوم، إذ يقومون بنشرها في بلدهم ، فالأندلس بلغت فيها الحالة العلمية منزلة أرفع بعد عودة أبي الوليد الباجي

---

(1) من الرحالة: ابن جبير في رحلة (١٢) والعبدري (١٢٠-١٢٧) والتجيبي في رحلة الأشراف (١٧٧).

(2) القصيدة في رحلة العبدري (٢١٨-٢٢١).

(3) مقدمة ابن خلدون ٥٤٨.

(4) الرحلات عند: الخضر حسين ١٤.

(5) الرحلات عند: الخضر حسين ١٥.

(ت ٤٧٤هـ / ١٠٨٢م) من رحلته المشرقية، وكذلك تونس بعد عودة أبي القاسم بن زيتون (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩٠م) إليها.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أعلام الرّحالين في المغرب الإسلاميّ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

فمن المعروف أن القاضي أبا بكر بن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٩م) هو (أول من وضع الأساس لهذا الفن، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير)[١]. كانت لهذا العالم رحلة إلى المشرق دامت نحواً من ثمانية أعوام، التقى فيها بمجموعة من العلماء وأخذ عنهم أمثال أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، وأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م)، والخطيب النيريزي (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م). أما تقييد رحلته فلم يصل إلينا بتمامه، ولكنّ ابن خلدون والمقّري نقلا عنه فقرات كثيرة في كتبهما.

وفي القرن السّادس الهجري تصادف اثنين من الرّحالين الأندلسيين قاما بتدوين مشاهداتهما في كتابين مستقلين: الأول – هو أبو حامد الغرناطيّ (ت ٥٦٥هـ / ١١٧٠م) الذي رحل إلى المشرق وسمع من علمائه ودون رحلته هذه بعنوان «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»[٢].

والثاني – هو محمد بن أحمد بن جُبَير الكِنانيّ (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) الذي «رفع هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية»[٣]، في رحلته لتأدية فريضة الحج عن طريق البحر المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»[٤] وكانت هذه الرحلة على غاية من الأهمية لأنها الرحلة المدوّنة الأولى التي وصف صاحبها طريق الحج وصفاً مفصّلاً، وصوّر بها عادات البلاد التي مرّ بها وتقاليدها.

أما إذا انتقلنا إلى القرن السابع الهجري فنقع على أولى الرّحل المغربية المدّونة التي وصلت إلينا وهي رحلة ابن رُشَيد (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م) المسماة «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»[٥]، وهي أكبر الرّحل المغربية من حيث الحجم إذ تقع في سبعة أجزاء، صرف مؤلفها جلّ اهتمامه إلى الحالة العلمية التي كانت تتصف بها البلاد التي مر بها. ثم كانت رحلة العبدري ورحلة ابن بطوطة ومستفاد الرحلة والاغتراب للتجيبي، وتاج المفرق للبلوي وغيرها كثير. وسنحاول أن نستعرض أهمّ الرّحل المدّونة المغرب والأندلس وانتهت إلينا.

---

(١) انظر ص ٢٨٠.

(٢) طبعت مع ترجمتها إسبانية وفرنسية، في مدريد سنة ١٩٥٢ بعناية الأب دوبلر.

(٣) تاريخ الأدب المغربي لعمر، ص ٢٨٠.

(٤) طبعت عدة طبعات منها في القاهرة وبيروت.

(٥) طبع منها جزآن في تونس وتحقيق محمد الحبيب، وفي المغرب والقاهرة، وقد ترجم إلى الإسبانية.

أبو بكر بن العربي – ٥٤٣هـ

ترجمته: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري[١].

ولد بإشبيلية في ٢٢ شعبان ٤٦٨هـ / إبريل ١٠٧٦م، ونشأ فيها، وأخذ عن أبيه الذي كان من علماء إشبيلية المعروفين، ودرس على الجلّة من مشايخها[٢].

صحبه أبوه إلى المشرق في رحلة للحج وطلب العلم، وبعد عودته إلى بلده انصرف إلى التدريس والتأليف حتى سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م، عندما دعاه تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين والي إشبيلية إلى تولي القضاء، فحسنت سيرته وعدله، فأثار حفيظة بعض صغار الفقهاء فسعوا به عند الأمير فصرف عن القضاء، فانتقل إلى قرطبة وتفرّغ للتدريس والتأليف، ثم عاد إلى أشبيلية سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م. وبعد سقوط دولة المرابطين واستيلاء الأمر للموحّدين، رحل ابن العربي مع وفد إلى مراكش لتهنئة عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين. فسأل عبد المؤمن ابن العربي فيما إذا كان لقي محمد بن تومرت في مجلس الغزالي، فأحرج الشيخ، واحتال في الإجابة التي لم ترُق لعبد المؤمن، فصرف الوفد، وتوفي ابن العربي في عودته إلى الأندلس بالقرب من فاس ودفن فيها في ٧ ربيع أول ٥٤٣هـ / يوليو ١١٤٨م.

رحلته: كانت رحلة أبي بكر بن العربي وأبيه عن طريق البحر، فرست السفينة في مدينة (بجاية)، حيث اختلف ابن العربي إلى مجالس بعض علمائها كأبي عبد الله الكلاعي وأخذ عنهم. ثم انتقل إلى مدينة (المهدية) أواخر سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، ولقي فيها إمام المالكية في وقته محمد بن علي المازري، وأبا الحسن بن الخدّاد الحولاني، وسمع عليهم الفقه والحديث.

ثم رحل أبو بكر وأبوه من (المهدية) إلى (الإسكندرية)، وكان الجوّ عاصفاً ما أدّى إلى تحطّم السفينة وغرق كثير من ركّابها، وأشرف ابن العربي وأبوه على الغرق، ولكنهما تمكّنا من النّجاة فوجدا نفسيهما على ساحل (طرابلس)، فاستضافهما بعض وجهاء بني سُليم، وأكرمهما، وعندما تحسّنت الأحوال أكملا طريقهما إلى الإسكندرية فأقاما فيه مدّة وجيزة، ثم توجّها إلى القاهرة. وكان ذلك قبل نهاية سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، وكانت الدعوة الفاطميّة على أشدّها،

---

(١) انظر في ترجمته: الصلة ٥٤٥/٢، نفح الطيب ٢٩٧/٢، وفيات الأعيان ٢٩٦/٤، الديباج المذهب ٢٨٦/٢، شذرات الذهب ١٠٠/٤، شذرة الذهب ١٧٦/٤، الوافي بالوفيات ٢٥٤/٢...

(٢) النفح ٢٨٤/٢.

ما اضطر علماء السُنّة إلى إقامة مجالس دروسهم سرّاً، فكان ابن العربي يذهب إلى القرافة الصُغرى قريباً من قبر الإمام الشافعي ليحضر بعض الدروس خفيةً.

ثم انتقل ابن العربي إلى بيت المقدس فأقام فيها ثلاث سنوات والتقى بأبي بكر الطرطوشي، ولازمه مدّة، وأفاد من دروسه وتشبّع بآرائه، وكان له أثر في تكوينه العلمي. ثم رحل إلى دمشق وسمع من بعض شيوخها، فبغداد حوالي سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م وطالت إقامته فيها فسمع من شيوخها بمذاهبهم المختلفة، فاكتمل تكوينه الذهني والفقهي. ثم غادر ابن العربي بغداد إلى دمشق فبيت المقدس، وانتقل منها إلى الإسكندرية، ومنها عاد إلى الأندلس.

ذكرت المصادر أن اسم رحلة ابن العربي «ترتيب الرّحلة للترغيب في الملّة»، ولم يصل إلينا الكتاب بل وقفنا على نقول منه في المصادر المختلفة.

ويبدو أن ابن العربي ألف كتابه للدفاع عن نفسه ضد خصومه الكثيرين، وإظهار تفوّقه على غيره ممّن درس في المشرق، وبيان ما حصّله من العلوم المختلفة في رحلته.

قال كراتشكوفسكي عن ابن العربي: هو أوّل من وضع الأساس لأدب الرحلة[1].

مختارات من رحلته:

ركوبه البحر في رحلته من إفريقية:

«.. وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر، خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سُلَيم، ونحن من الشّغب[2] على عطب[3]، ومن العُرْي في أقبح زيّ، قد قذف البحر زقاق[4] زيت مزّقت الحجارةُ منيتها[5]، ودسّمت الأدهان وَبَرها وجلدها، فاحتزمناها أُزُراً،

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/٣٤٨.

(٢) الشغب: الشر.

(٣) العطب: الهلاك.

(٤) زقاق: واحدها زق، وهو كل وعاء من الجلد يابساً أو مبلولاً.

(٥) منيتها: قد تزل بالكامل.

واشتملناها لُمعةً[1]، تمجُّنا[2] الأبصار، وخذلنا الأنصار، فعطف أمرهم علينا فأوينا إليه فأوانا، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا، وكسانا بأمرٍ حقير ضعيف، وفنٍّ من العلم طريف...». نفح الطيب ٢/٣١، نيل الابتهاج ٨٩/٢

وصف القنوات بدمشق:

وذكر، رحمه الله تعالى، في رحلته عجائب منها: «أنّه حكى دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر أنّه رأى فيه النهر جانباً إلى موضع جلوسهم، ثمّ يعود من ناحية أخرى، فلم أفهم معنى ذلك حتّى جاءت موائد الطّعام في النّهر المقبل إلينا، فأخذها الخادم ووضعوها بين يدينا، فلمّا فرغنا ألقى الخادم الأواني وما معها في النّهر الرّاجع، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخادمُ تلك الناحية، فعلمت السّر...».

نفح الطيب ٢/٣٣

وصف المائدة بطور زيتا:

«.. شاهدتُ المائدة بطور زيتا مراراً، وأكلتُ عليها ليلاً ونهاراً، وذكرتُ الله سبحانه وتعالى فيها سرّاً وجهاراً، وكان ارتفاعها أشفُّ[3] من القامة بنحو الشّبر، وكان لها درجتان قبليّاً وجنوبيّاً، وكانت صخرةً صلودا[4] لا تؤثّر فيها المعاول، وكان الناس يقولون: مُسخت صخرةً إذ مُسِخ أربابُها قردة وخنازير، والذي عندي أنّها كانت صخرةً في الأصل قطعت من الأرض تعلاً للمائدة النّازلة من السّماء، وكلّ ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفاً بقصور، وقد نُحتت في ذلك الحجر الصّلد بيوتٌ أبوابها منها ومجالسها منها، مقطوعة فيها، وحناياها في جوانبها، وبيوت خدمتها قد صُوِّرت من الحجر كما تُصوَّر من الطّين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض، وإذا هبت الريح وحلّت تحته التّراب لم يُفتح إلا بعد صبّ الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب، ويتفرج مُنْفَرَجُ الباب...».

نفح الطيب ٢/٣٧

---

(١) اللمعة: ما يلمع من ثوب وغيره.

(٢) تجنا الأعمى: غمر ما.

(٣) أشف: أزيد.

(٤) صلودا: صلبة.

بعض فوائد ابن العربي:

منها قوله في تصريف المحْصَنات: يُقالُ: «أحصنَ الرَّجلُ فهو مُحْصَنٌ – بفتح العين في اسم الفاعل –. وأسهبَ في الكلام فهو مُسْهِب، إذا أطال البحث فيه، وأفْضَ فهو مُفْضِج، إذا كان عديماً، لا رابع لها...».

ومنها قوله: «سمعت الشّيخ فخر الإسلام أبا بكر الشّاشي وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النّظر يقول: يُقال في اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا – بفتح الرّاء – أي لا تتلبّس بالفعل، وإذا كان بضمّ الراء كان معناه لا تَدْنُ من الموضع»، وهذا الذي قال صحيح مسموع». نفح الطيب ٢/٣٦ -٣٧٠

أبو حامد الغرناطي-٥٦٥هـ

ترجمته: محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسي الغرناطي[1].

ولد سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م في غرناطة، ونشأ فيها، وتلقّى علومه الأولى على مشايخها. ولا نكاد نقف على معلومات ذات شأن عن نشأته وشبابه، ولم تسعفنا المصادر بما يفيد في جلاء ذلك، وأوّل إشارة نقف عليها هي مغادرته الأندلس حوالي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م - وكان في السابعة والعشرين من عمره — ووصوله إلى المغرب الأقصى، وتنقّله بين حواضرها، ثم وصوله إلى إفريقية (تونس) وزيارته بعض معالمها، ثم ركب البحر من تونس سنة ٥١١هـ / ١١١٧م إلى سردانية، ووصف لنا بركاناً ثار فيها، ثم انتقل إلى الإسكندرية والتقى بعض العلماء فيها، ووصف لنا منار الإسكندرية، ثم تحوّل إلى القاهرة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م، فوصف جامع عمرو بن العاص، وأهرامات مصر، وكثيراً من آثارها وعجائبها، وتحدّث عن مقياس النيل وفيضانه وهروب الزواحف والهوام ودخولها على الناس في القرى.

وبقي أبو حامد في مصر حتى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م، ثم توجّه إلى دمشق، ودرّس الحديث فيها، وحدّثنا عن بعلبكّ وتدمر، ثم وصل إلى بغداد سنة ٥١٦هـ / ١١٢٣م، وأقام فيها أربع سنوات تقريباً.

وفي سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م نجد أبا حامد في إيران، ويتّجه شرقاً ليصل إلى (باب الأبواب) وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقاً على يد مسلمة بن عبد الملك أيّام الأمويين. ويتكلّم على بعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية لأهل تلك البلاد. وزار كثيراً من الأقاليم مثل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا، واستقرّ بها مدّة طويلة اتخذ بها أمّهات أولاد وأنجب بنين وبنات.

ونجده سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م في بلاد البلغار، ثمّ يكون في سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م في الفجر فيصف مدنها ورخاءها، وبعدها رحل أبو حامد إلى خوارزم، وخرج منها سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م متوجهاً إلى الحج مارّاً ببخارى ونيسابور، والريّ، وأصفهان، والبصرة، فأدّى الفريضة وتوجّه إلى بغداد، فالموصل سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م، ثم توجّه إلى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م، ثم انتقل إلى دمشق حيث أدركته المنية سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م عن التنين وتسعين سنة.

رحلة أبي حامد الغرناطي :

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢/٤٥٤، ذيل تذكرة الحفاظ ٤/٨٩، مرآة الجنان بالحوادث ق ٥ ص ١٢٦-١٢٦ وفيه مقالة في التعريف بما سموه هن كلي حامد الأعلام ٦/١١٩.

دوّن أبو حامد الغرناطي مشاهداته في كتابين اثنين الأول «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب»، والثاني «المغرب عن بعض عجائب المغرب».

١ـ المغرب عن بعض عجائب المغرب:

ألّفه بعد وصوله إلى بغداد سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م وأهداه إلى الوزير عون بن هبيرة، وخصّصه للحديث عن العجائب المنتشرة في مدن المغرب الإسلاميّ، فذكر كهفاً بجوار مدينة (لوشة) فيه سبعة أشخاص نيام منذ زمن قديم، يشبهون أهل الكهف. وتكلّم على كنيسة قرب جبل الثّلج المطل على مدينة غرناطة بجوارها شجرة زيتون عجيبة تزهر وتثمر الزيتون وتنضجه في يوم واحد من أيام الربيع.

ويصف مدينة النحاس وعجائبها، وقنطرة طليطلة، وتفاح شنتوة، والبحر الأسود المعروف ببحر الظُّلُمات[١]، ومجمع البحرين[٢] ويتحدّث عن عجائب مخلوقاته.

ثمّ يترك الأندلس يتحدّث عن عجائب الجبال، ويذكر عجائب جبل الدُّكام، وعجائب جبل الشراة في بلاد العرب، وجبل الزّاهون بسرنديب الذي نزل عليه آدم عليه السّلام.

ويخصّص باباً من الكتاب للحديث عن أوقات الصّلاة، ومعرفة الفيء والزّوال[٣]، ثم يتبع ذلك بفصل عن ذكر ساعات اللّيل والنّهار في الزّيادة والنُّقصان بحسب شهور السّنة.

ثم يعود أبو حامد إلى العجائب فيصف بركاناً في جزيرة صقلية، وينتقل إلى ذكر الإسكندرية وبعض عجائبها، فيصف منار الإسكندرية بإسهاب قبل تهدّمه، ثم يذكر عجائب مصر كالأهرامات والبرابي[٤].

ويستطرد إلى ذكر فصول فلكية فيتكلّم على الجبّة وطريقة الاستدلال بها على القبلة، ويتحدّث عن صفات الأرض وطولها وعرضها، ويختم كلامه الجغرافي بالحديث عن الأقاليم السبعة، ويصف الجبال ويحدّد المسافات والمراحل بينها والطرق والمسالك فيها.

٢ـ كتاب تحفة الألباب ونخبة الأعجاب:

---

(١) بحر الظلمات: هو المحيط الأطلسي.

(٢) مجمع البحرين: مضيق جبل طارق.

(٣) الفيء: الظل الزوال: تعامد الشمس.

(٤) البرابي: المعابد.

كتبه أبو حامد الغرناطي بعد الفراغ من كتابه السابق (المعرب) وذلك عام ٥٥٥٧ / ١١٦٢م، بعد خروجه من بغداد واستقراره في الموصل.

رتّب أبو حامد كتابه في مقدّمة وأربعة أبواب، فالمقدمة للبيان والتمهيد، والأبواب لتتمّة المقصود. وجعل الباب الأول: في صفة الدنيا وسكّانها من إنسها وجانها.

والباب الثاني: في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان.

والباب الثالث: في صفة البحار وعجائب حيواناتها، وما يخرج منها من العنبر والقار، وما في جزائرها من أنواع النفط والقار.

والباب الرابع: في صفة الحفائر والقبور، وما تضمّنت من القفار إلى يوم النُّشور.

والتزم المؤلف بالمنهج الذي وضعه لتأليف كتابه التزاماً دقيقاً على عكس كتابه الأول الذي اتصف بالاستطراد وتداخل الموضوعات.

ولكن كتاب (تحفة الألباب) خليط عجيب من المفيد وغير المفيد، ومن الواقعي والأسطوري مما يدخل في نطاق العلم، وما يدخل في نطاق علم العوام والقصص الشعبي، وهو بالعموم تصوير لعجائب الكون بأسلوب مُسْتَلِّ.

لقد زار أبو حامد الغرناطي كثيراً من البلاد في الشرق والغرب، وكان بإمكانه أن يؤلّف كتاباً في وصف رحلته وصفاً مفيداً ممتعاً، غير أنه أولى اهتمامه إلى العجائب والغرائب، فجاء كتاباه أقرب إلى القصّ الشعبي منه إلى أدب الرّحل، وضمّنا مادّة عجائبية تشد الأسماع وتثير الإعجاب.

مختارات من رحلته:

وصف (سجسين):

«ودخلت البحر إلى بلاد الخزر، فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدّجلة مرّات أضعافاً مضاعفة، كأنّه بحر تخرج منه أنهار عظيمة[1]، وعليه مدينة يقال لها (سجسين)، فيها من الخُزّ أربعون قبيلة، لكل قبيلة أمير على حدة، ولهم دُور

(١) يريد نهر إتل وهو نهر الفولغا.

كبيرة، وفي كل دار خركاه[1] عظيمة كالقبّة الكبيرة، تسع الواحدة مئة رجل وأكثر، مُعَشَّاة بالُّلبود. وفي المدينة من أمم التُّجّار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يُحصى عددهم، وفيها جوامع يُصَلّى فيها الجمعة في الحَرّ، وهم أمم أيضاً، وفي وسط البلدة أمير من أهل بلغار، لهم جامع كبير يُصلّى فيه الجمعة، وحوله أمم من البلغاريين، وجامع أيضاً آخر فيه أئمة يقال لها أهل صُوَار[2]، وهم أيضاً كثيرون. ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة، يصلّي كل أمير بأمم كثيرة، ولكلّ أئمة قضاة وفقهاء وخطباء، والجميع على مذهب أبي حنيفة، إلاّ أولاد المغاربة، فإنّهم على مذهب مالك، والغرباء على مذهب الشّافعي، وداري الآن فيهم، وأمّهات الأولاد وأولادي وبناتي..»

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس عن المغرب ٣١٤-٣١٥)

وصف رجل من نسل عاد في مدينة بلغار:

«ولقيت من نَسل العاديّين رجلاً طويلاً، كان طوله أكثر من سبعة أذرع كان يسمّى (دنقي)، كان يأخذ الفرستحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحَمَل الصّغير، وكان من قوّته يكسر ساق الفرس بيده، ويقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل. وكان صاحب بلغار قد اتّخذ له درعاً يُحمل على عجلة، وبيضته لرأسه كأنّها مِرْجل[3]، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلّوط يمسكها كالعصا في يده، لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيّراً متواضعاً، كان إذا التقاني يسلّم عليّ ويرحّبُ بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حَقْوه[4] رحمه الله. ولم يكن ببلغار حمّام يمكن أن يدخل فيها إلاّ حمّام واحدة واسعة الأبواب، وكان من أعجب بني آدم. لم أشاهد قطّ مثله، وكان له أخت على طوله، ورأيتها مراراً عدّة في بلغار. وقال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعمان إنّ هذه المرأة الطويلة العاديّة قتلت زوجها، وكان اسمه (آدم)، وكان من أقوى أهل بلغار، ضمّته إلى صدرها فكسرت أضلاعه، فمات في ساعته».

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس نقلاً عن تحفة الألباب ٣١٦-٣١٧)

وصف سعة العيش في بلاد المجر:

---

(١) الخركاه: خيمة كبيرة مستديرة، أو غرفة مدكاة على هيئة القبة.

(٢) صوار: هيئ مجهول الأصل، من اسم القائد بلكار الصقلبي الشهير لدى البلغار.

(٣) المرجل: القدر.

(٤) الحقو: الخصر.

«... وتلك الولاية[1] من رومية العظمى، وفيها جبال يخرج منها الذّهب والفضّة، وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعمة، يكون الغنم عشرين بدينار، والحملان والجداء ثلاثين بدينار، والعسل خمس مئة رطل بدينار، والجارية الحسناء بعشرة دنانير. وفي وقت الغزو تشتري الجارية الجيدة بثلاثة دنانير واشتريت جارية مولّدة، أبوها وأمها وإخوتها بالحياة، اشتريتها من سيّدها بعشرة دنانير، بنت خمس عشرة سنة أحسن من القمر، سوداء الشعر والعين، بيضاء كالكافور، تعرف الطّبخ والخياطة والرّقم[2]...»

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين بالأندلس نقلاً عن المغرب ٣٢٠-٣٢١)

فصول قصار عن خصائص بعض المدن:

الهند: «بحرها دُرٌّ، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر» كرمان: «ماؤها وَشَل[3]، وتمرها دَقَل[4]، وعَبْدُها بَهَل[5]»الشام: «والشّام عروس بين نساء جلوس» مصر: «ومصر هواؤها راكد، وحرّها منزايد، تطوّل الأعمار وتُسوّد الأبشار». (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٣٥٢ نقلاً عن المغرب ٢٠٧)

---

(١) أي بلاد الروم.

(٢) الرّقم: الخياطة والتطريز.

(٣) الوَشَل: الماء القليل يسقُب من جبل أو صخرة بقطر، وقد وشَلَ الماء يشِلُ وشلاً.

(٤) الدَّقَل: نوع التمر.

(٥) بَهَل: أحمق. وقيل: الجمل الكسول. وقيل: أي دابة من دون والوا. المعجم.

ابن جُبير - ٦١٤

ترجمته: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبير بن سعيد بن جُبير بن سعيد بن جُبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام ابن مروان بن عبد السلام بن جُبير الكناني[١]، الداخل إلى الأندلس مع بَلج القشيري سنة ١١٣هـ / ٧٣١م.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م، وقرأ على أبيه ومشايخ بلده، وتقدّم في صناعة الشعر والنثر، وكان من علماء الأندلس في الفقه والحديث. قال عنه ابن الخطيب «كان أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، سريّ النفس، كريم الأخلاق»[٢].

كتب ابن جبير عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحّدي والي غرناطة. وتذكر بعض المصادر أنّه استدعاه ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه، فعدّ إليه بكأس، فأظهر الانقباض لأنه لم يشرب الخمرة قط، فأقسم السّيّد ليشربنّ منها سبعاً، ففعل ذلك مرغماً، فسلاّ له الأمير الكأس دنانير سبع مرّات، فحمل المال إلى بيته وقرّر أن يكفّر عن شربه بالسّفر إلى الحج بتلك الأموال.

ولكننا لا يمكننا الاطمئنان إلى صحّة الخبر لأن ابن جبير شرع في رحلته سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م، وكان الأمير أبو سعيد قد توفّي سنة ٥٧١هـ / ١١٧٩م، فمن المحال إذاً أن يكون الحج قد جرى في السنة نفسها، ومن المستبعد أن يكون الحج للسبب الذي ذكر لنا بين التاريخين من مدّة طويلة.

رحل ابن جبير إلى المشرق ثلاث مرات، أوّلها سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وفيها دوّن رحلته المعروفة. مات ابن جبير في الإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م.

رحلة ابن جبير:

١- **تسميتها:** ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أن اسم رحلة ابن جبير (رحلة الكناني)، وتابعه المستشرق كراتشكوفسكي، ولكنّنا نظنّ أنّ للرّحلة اسمين كغيرها من الرّحل، الأول: (رحلة ابن جبير)، وهذا العنوان ورد في أول

---

(١) انظر ولكننا نظنها في ... الرحلة بالإضافة لجبير ٢١٤، لكننا نرى ... بالإضافة ...

(٢) الإحاطة ١/١٣٠.

المخطوط الوحيد للرحلة، وجاء في خاتمته أن اسمها (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)، ولكن هذا العنوان هو اسم لكتاب آخر ألّفه ابن جُبير وذكره ابن عبد الملك المراكشي[1] ضمن مؤلفات ابن جبير.

أما الاسم الثاني للرحلة فهو (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، وهو الاسم الصحيح للرحلة.

٢- خط سيرها: خرج ابن جبير من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨هـ / ٣ فبراير ١١٨٣م، ووصل إلى الإسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر السفينة في البحر من مدينة سبتة. ثم اتجه جنوباً إلى القاهرة، فقوص، واتجه إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر، ومنها قطع البحر إلى جُدّة في طريقه إلى مكّة والمدينة.

وبعد تأدية فريضة الحج اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل، وعاد عن طريق سورية فمرّ بحلب وحماه، وحمص، والبقاع، ودمشق، وانتهى إلى عكّا، فاستقلّ أحد المراكب الجنوية عائداً إلى بلده، فمرّ بصقلية، ووصل إلى غرناطة في ٨ محرم من سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م.

٣- محتوى الرحلة: دوّن ابن جبير رحلته على شكل مذكرات يوميّة، استعمل فيها التاريخين الهجري والميلادي، فيذكر اليوم والشهر القمريين والسنة الهجرية، في حين كان يكتفي بذكر اليوم والشهر الشّمسيين من دون ذكر السنة الميلادية.

عني ابن جبير في رحلته بالنّواحي الدّينية فعُني بذكر مشاعر الحج بالتفصيل، ووصف الطريق بين هذه المشاعر بدقّة متناهية، وعَيّن المراحل الزّمنية التي استغرقته كل منها.

كما عني بالمظاهر الجغرافية من سهول وجبال وبحار وخلجان وأنهار، وشروق وغروب، وفصول السنة. وأجناس الناس وأشغالهم وصناعاتهم وزراعاتهم ومتاجرهم وغير ذلك.

ولم يغفل ابن جبير تصوير العلاقات التجارية بين المسلمين والمسيحيين في إبّان الحروب الصليبية ويشير غير مرّة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة، وانتقد بعض الممارسات التي كان يقوم بها رجال الضرائب المصريين الذين كانوا يضيّقون على الحجاج، ويفتّشونهم، ويكلّفونهم بالضّرائب عن كل ما معهم من مال من دون أن يتأكدوا من استحقاق الضريبة.

---

(١) نيل الابتهاج ص٤٥٠.

كما تكلم على المكوس التي كان على الحُجّاج أن يدفعوها لشريف مكّة نظير ما يُؤدّى لهم من خدمات بمكّة وعرفة وبقيّة المناسك.

ويلفت نظرنا عناية ابن جبير بالبحث عن المدارس والمارستانات، وهذا ليس غريباً على رجل عالم فقيه، وهو في كل هذا دقيق الملاحظة، سهل العبارة، واضح الأسلوب، يترك قلمه على سجيّته في معظم أجزاء الرحلة، ولا يلتفت إلى الصنعة إلا في أماكن قليلة عندما يصف مدينة ينشرح فيها فيعنى بالسجع والتوازن وتزيين الجمل بالمحسنات كقوله في وصف مدينة حلب: «بلدةٌ قدرها خطير، وذِكْرُها في كل زمان يطير، خطّابُها من الملوك كثير، ومحلُّها من التقديس أثير[1]، فكم هاجت من كفاح، وسُلّت عليها من بيض الصِّفاح[2]، لها قلعةٌ شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشَّبه والنَّظير في القلاع، تنزّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء...»[3]

لقد وصل ابن جبير بأدب الرحلة إلى قريب من ذروته، وأضاف إلى فن الرحلة صفحات من أجمل ما فيه، وأغزرها مادّة، وأقربها إلى روح العلم وأصدقها.

مختارات من رحلته:

وصف تفتيش الحُجّاج بالإسكندرية:

«فمن أوّل ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناءُ إلى المركب من قِبَل السُّلطان بما لتقييد جميع ما جُلبَ فيه، فاستُحضِر جميع مَن كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكُتب أسماؤهم وصفاتهم، وأسماء بلادهم، وسُئل كل واحد عمّا لديه من سلع أو ناضّ[4] ليؤدي زكاة ذلك كلّه دون أن يُبحث عمّا حال عليه الحَوْل من ذلك أو لم يَحُل، وكان أكثرهم متشخّصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم، فلُزِموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحَوْل أم لا..»

(١) الأثير: الشرف المذكور.

(٢) الصفاح: السيوف.

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٥.

(٤) الناضّ: الدراهم والدنانير.

مناقب الإسكندرية:

«ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمغارس[1] الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبّد، يغدون من الأقطار النائية، فيلقى كلّ واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومُدرِّساً يُعلّمه الفنّ الذي يريد تعلّمه، وإجراءً[2] يقوم به في جميع أحواله. واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتّى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكّل بهم أطبّاء يتفقّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدّام يأمرونهم بالنّظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء..» الرحلة ١٥

وصف أهل بغداد:

«وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلاّ من يتصنّع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء. يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمّن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصوّر كلّ منهم في معتقده وخلده أن الوجود كلّه يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوىً غير مثواهم. كأنّهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم، يستحبون أذيالهم أشراً وبطراً، ولا يغيّرون في ذات الله منكراً، يظنّون أن أسبق الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله، بمقتضى الحديث المأثور، في النار، يتبايعون بينهم بالذّهب قرضاً، وما منهم من يحسن لله قرضاً... لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلاّ على من ثبت له الويل من سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب، كأنّهم من بقايا مَدْيَن قوم النبي شعيب..» الرحلة ١٩٤

وصف الخليفة العبّاسيّ الناصر:

«أبصرنا هذا الخليفة المذكور، وهو أبو العبّاس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، ويتّصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله، إلى السّلف فوقه من أجداده الخلفاء، بالجانب الغربي أمام منظرته به وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشّط، وهو في فتاء من سنّه، أشقر اللّحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الزّواء، سنّه نحو الخمس وعشرين سنة، لابساً ثوباً أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه فلنسوة مذهبة

---

(١) المغارس جمع مغرس: مكان مخصص للغراسين والزراع والباحثين والدارسين.

(٢) الإجراء: الراتب.

مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيّمة المتخذة للباس مما هو كالفَنَك[1] وأشرف، متعمّداً بذلك زيّ الأتراك تعمية لشأنه، لكن الشّمس لا تخفى وإن سُتِرت..»

الرحلة ٢٠٣-٢٠٤

وصف دمشق:

«جنّة المشرق، ومطلع حُسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرّبناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلّت بأزاهر الرّياحين، وتجلّت في حلل سندسيّة من البساتين، وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتربّعت في منصّتها أجمل تربّع، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمّه، صلى الله عليهما، منها إلى ربوة ذات قرار[2] ومعين، ظلّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه[3] انسياب الأرقم[4] بكل سبيل، ورياض تُحيي النُّفوسَ نسيمُها العليل، تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم: هلمّوا إلى مُعَرّس[5] للحسن ومقيل، قد سمحت أرضها كثرة الماء حتى امتنعت إلى الظّماء، فتكاد تناديك بما الصُّمُّ العيّلاب: ﴿اركض برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ﴾[6]، قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة[7] بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدّت بشرقيّها خوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة فيد النظر، ولله صدقُ القائلين عنها: إن كانت الجنّة في الأرض فدمشق لا شكّ فيها، وإن كانت في السّماء فهي بحيث تُسامتُها[8] وتحاذيها»

الرحلة ٢٣٤-٢٣٥

وصف اتفاق النصارى والمسلمين:

«ومن أعجب ما يُحدَّث به أنّ نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربّما يلتقي الجمعان ويقع المصافّ بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم، شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون

---

(١) الفنك: حيوان يعيش في القطب.

(٢) الربوة: المكان المرتفع الذي ينبع منه الماء.

(٣) المذانب: جمع مذانب: مجرى السيل بين التلال.

(٤) الأرقم: الحيّات، الواحد أرقم.

(٥) المعرّس: المنزل آخر الليل للراحة.

(٦) سورة ص ٤٢

(٧) الهالة: ما يحيط بالقمر.

(٨) تسامتها: تحاذيها.

النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البرّ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفّ[1] قليلاً، وهو سَرارة[2] أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متّصل العمارة، يُذكر أنّه ينتهي إلى أربع مئة قرية، فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره.

واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجّار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض، وللنّصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم وهي من الأمنة[3] على غاية، وتجّار النّصارى يؤدّون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدُّنيا لمن غلب»

الرحلة ٢٦٠

(١) الشفّ: أقلّ.

(٢) سرارة الشيء: أفضله.

(٣) الأمنة: الأمن والأمان.

التّجاني

ترجمته: هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التّجاني[1]، ولد بمدينة تونس عاصمة الدولة الحفصيّة، بين عامي ٦٧٠ ٦٧٥هـ / ١٢٧٢-١٢٧٦م، وتربّى في حجر والده الأديب العالم، فأخذ عنه مبادئ القراءة والكتابة، واختلف إلى مجالس الشّيوخ في تونس[2] فأخذ عنهم علوم القرآن والحديث الشريف، والتفسير، واللغة والأدب، فحصّل علماً غزيراً جعله في مرتبة عالية.

اهتم عبد الله التّجاني باقتناء الكتب المختلفة النادرة، وورث عن عائلته التي عرفت بالعلم مجموعة قيّمة منها، فكان يعود إليها وينقل عنها، وكان دائم العودة إلى المكتبة الرئيسيّة للدولة الحفصيّة التي وفّر لها الملوك الحفصيّون الكتب النادرة والقيّمة.

وعندما بلغ التّجاني مرحلة الشّباب، وكان قد أصبح من العلماء المشهورين، انخرط في سلك الكتّاب في ديوان الإنشاء إلى جانب مجموعة من الكتّاب المشهورين، وربطته بهم علاقات مودّة تظهر جليّة في المراسلات بينه وبينهم.

ونظراً إلى نبوغه اختصّه الأمير أبو يحيى زكريا بن اللّحياني، وصحبه في رحلته لتفقّد أركان الدولة، وعيّنه كاتباً خاصاً له سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م. ثم عاد عبد الله إلى العاصمة تونس في صفر من سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م وتولّى رئاسة ديوان الرسائل حتى سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م، حين حصلت اضطرابات في أركان الدولة، واختفى على إثرها ذكر صاحبنا فلم نعد نقف له على خبر.

خلّف التّجاني عدداً من المؤلفات في اللغة والأدب[3]، تنمّ على تمكّنه من العلوم المختلفة، وتدلّ على طول باعه في الأدب.

رحلة التّجاني:

---

(١) اعتمدنا في ترجمة الرجل على المقدمة القيّمة التي صدّر بها الأستاذ حسني عبد الوهاب رحلة التجاني المخطوطة بالبيا وتونس ١٩٨١، وانظر شجرة النور الزكية ٢٠٦، والأعلام للزركلي ٤/١٢٥.

(٢) انظر مقدمة الرحلة ص (كو).

(٣) انظر مقدمة الرحلة ص (كز - كم).

تعدّ رحلة التجاني في الرّحل الداخليّة، ولعلّها الرحلة الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الإفريقيّة، والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثامن للهجرة.

بدأ التجاني رحلته من مدينة تونس قاطعاً الساحل التونسي فمرّ برادس والحمّامات، وسوسة، ثم صفاقس، ثمّ اتّجه جنوباً نحو قابس، فجزيرة جربة فيعرّف بها ويصف لنا عقائد أهلها وعاداتهم وتقاليدهم. ثم يدخل الواحات الجنوبيّة بقسميها: الشّرقي (مطماطة ونفزاوة)، والغربي (بلاد الجريد). ثم يعود مع أميره ويصل إلى طرابلس، ويزور مناطق زوارة وزواغة وزنزور ويصفها وصفاً دقيقاً، ويقيم بمدينة طرابلس مدّة يتصل بأبرز علمائها، ويحضر مجالس بعض محدّثيها، وبعد مدّة يسافر الأمير إلى الحج، ويعود التجاني إلى تونس، ويصف طريق العودة بدقة.

لم يكن التجاني يكتفي بوصف المدن والطُّرق إليها، بل كان يذكر أخبارها[1]، وأهم الأحداث التي مرّت بها، ويعرّف بأهم أبنائها القدماء والمعاصرين ممّن عرفوا بالفقه والعلم والأدب والسياسة، ويحدّثنا عمّن يسكنها من القبائل وما يتفرّع عنها.

ومما يميز عبد الله التجاني إيراده في رحلته بعض الوثائق التاريخيّة المهمّة، واهتمامه بتأريخ جملة من الأحداث التي تفرّد بذكرها في رحلته، وبذلك تصوّر هذه الرحلة البلاد التونسيّة في العصور الوسطى من حيث عناصر السكان، وحالتهم الاجتماعية والاقتصاديّة.

وكان يعتمد في وصف المدن والطرق على المشاهدة، ويعمد في كثير من الأحيان إلى المقارنة مع ما جاء في المؤلفات الجغرافية والتاريخية كالمسالك والممالك للبكري، وتاريخ ابن شدّاد، والكامل لابن الأثير، والذخيرة لابن بسام وأنموذج الزمان لابن رشيق القيرواني وخريدة القصر للعماد الأصفهاني.ولا يمكن أن نغفل الجانب الأدبي في رحلة التجاني، إذ نقف في الرحلة على نصوص شعريّة مهمّة تفرّد بذكرها، وأخرى نقلها عن كتب ودواوين أتى عليها الدهر، ولم نقف لها على ذكر، كنقوله من كتاب أنموذج الزمان[2] لابن رشيق، وتحفة القادم لابن الأبار[3]، وديوان الجراوي[4].

---

(١) انظر الكلام على سوسة وتاريخها وأبرز أعلامها في الرحلة ٢٥ وما بعد.

(٢) الرحلة ٢٢ ـ ٢٧.

(٣) الرحلة ٥٩.

(٤) الرحلة ١٢٧.

ومما تميز به التجاني أنه ذكر في رحلته كثيراً من المراسلات الإخوانية والعائلية[1]، وعرض ما جاء فيها من شعر ونثر، وكانت تتسم بالصنعة التي كانت سائدة لدى كتاب ذلك العصر.

وقد كتب التجاني رحلته بأسلوب جميل وعبارة أنيقة اعتنى بتزويقها، وجاء أسلوبه متراوحاً بين الطبع والصنعة ولكن صنعته من النوع المقبول الذي لا يُغرق فيه باستخدام المحسنات اللفظية إغراقاً كبيراً.

مختارات من رحلة التجاني :

وصف مدينة قابس

«.. وعلى قابس سور ضخم جليل من بناء الأول، ولها أرباض[2] واسعة، وجُلُّ أسواقها في أرباضها، وقد دار بسورها خندق متسع يُجرون الماء إليه إذا خافوا من نزول عدوّ عليهم، فيكون أمنع شيء لها، ولها واد يسقي بساتينها ومزارعها، ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها، وأصل هذا الوادي عينٌ خرّارة في جبل بين القبلة والمغرب منها، وأكثر جنّاتها فيما بين المدينة والبحر، وبتلك الجهة السّاحة المعروفة بساحة عنبر.

ومن المكاره التي حفّت بها جنّة قابس، ما يتعاهدها من الوباء، ويتناب ساكنها من الأمراض، وسبب ذلك فيما يذكر أهلها كثرة شجر الدُّفلى بها، فيكتسب الماء منها لدى جريه سُمّيّة ومرارة تضرّ بأبدان ساكنيها كثيراً، ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلاّ مصفرّة، وفي هذا البلد أيضاً فساد وتغيّر سببه كثرة عفوناتها.

وقد اشتهر عن أهل قابس ما اشتهر من بيع فضلاتهم، وهم يفرّون بذلك، ويدّعون شدّة احتياجهم إليها، وأن النخيل في بلادهم لا يثمر إلاّ به، ومن رسالة لأبي مطرّف بن عميرة في وصف قابس، وكان ولي قضاءها في مدّة الخليفة المستنصر رحمه الله: بلد غوطيّ البساتين، طوري الزيتون والتّين، فأمّا النّخل فجمع عظيم، وطلّع هضيم[3]، وسكك مأبورة[4]، ونواعم في الخدور مقصورة..». الرحلة ٨٧ ـ ٩٠

وصف سكان جزيرة جربة:

---

(١) الرحلة ١١٩ وما بعدها و١٨٤.

(٢) أرباض المدينة: ما حولها وما اتصل بها.

(٣) طلع هضيم: الطلع ثمر النخل، هضيم: ناضج. وهضيم: ناعم. وهضيم: لا شوك فيه. وهضيم: قال ابن سيده في «المخصص» ٨: ١١٨: الأجود أنها مذللة.

(٤) أي بالجص والآجر.

«.. وأكثر مساكن أهلها أخصاص[1] من النَّخيل، يجعل كلّ واحد منهم في أرضه واحداً أو اثنين أو أكثر من ذلك، ثمّ يسكنه بعياله، وليس لها بناء فالم إلاّ دورٌ قليلة، وهم ينقسمون إلى فرقتين؛ فرقة تعرف «بالوهبيّة» ورئاستهم في (بني سحومن) وأرض هذه الفرقة من الجزيرة الجهة الغربية فما والاها من جهة الشّمال، وفرقة تعرف «بالنكارة» ورئاستهم في (بني عزون)، وأرضهم الجهة الشّرقية فما والاها من جهة الجنوب.

وكانت مدينة جربة فاصلة بين أرضيهم، وكلا الطّائفتين خوارج غلاة في مذهبهم، مُكفّرون العصاة على ما هو معروف من مذهب الخوارج، لا كمذهب المعتزلة في امتناعهم من إطلاق اسم الكفر على من واقع كبيرةً ولم يتب منها، فإن المعتزلة لا تسمّيه كافراً ولا مؤمناً، وتسمّيه فاسقاً على حكمهم بخلوده في جهنّم، وكان المعتزلة يزعمهم توسّطوا في هذا بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السُّنّة..»

الرحلة ١٢٢ ١٢٣

التعريف بقبيلة بني يزيد:

«وبنو يزيد أربعة أفخاذ من دباب تحالفت وانتسبت على مدلول الزيادة لا إلى رجل مُسمّى بيزيد وهم: الصُّهبة، والحمارنة، والخرجة، والأصابعة، فأمّا الصّهبة ... بسكون الهاء – فبنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع بن دباب ، وأمّا الحمارنة، فبنو حمران بن جابر، إخوتهم ، وأمّا الخرجة ... بسكون الراء ... فجماعة من آل سليمان بن رافع بن دباب. أخرجهم بنو عمّهم آل سالم بن رافع من أرضهم فمالوا إلى محالفة هؤلاء، وساكنوهم بمنازلهم هذه، وكانت أرضهم أرض مسلاتة وما قارب منها.وأما الأصابعة: فهم منتسبون إلى رجل كانت له أصبع زائدة، ودباب يطعنون عليهم نَسبهم ويذكرون أنهم خارجون منهم».

الرحلة ١٣٤

بعض مراسلات التجاني:

«وأكثر الحقبه الطيّب الفاضل أبو إبراهيم بن حسونة في هذه الأيام من مخاطبتي بالنظم والنثر في أغراض شتّى وأنا أجربه عن ذلك كلّه.. وأذكر منه الآن قوله:

أعبد الله قُلْتَ ذوي المعالي	خصالك الله أيامـاً سعيده
ونلتَ منالَ آباءٍ كرامٍ	لهم في المجد آثارٌ حميده
أردتُ إليك إرسالاً بشعرٍ	لأسمعَ من جوابك لي مديده
فإنّك مستمدٌّ من بحورٍ	سواحلها غدَت مني بعيده
فإن جاوبتَ عن نظمٍ بنظم	بعثتُ بقطعةٍ أيضاً جديده
فلا أبقى لأطلب منك نظماً	ولا أبقيتَ تطلب لي قصيده

---

(١) الخصاص: جمع خصاصة، بيت من القصب أو الأغصان.

فأجبته عن ذلك:

أعـــرزُ كـــلَّ منقبـــةٍ حميـــده ... ومـــن لم تُلْـــفِ في الـــدُنيا نديـــده

أعِنْـــتَ علـــى النِّظـــام بحُســـن طبـــعٍ ... وأفكـــارٍ مؤيَّـــدة ســـديده

وتســـألني الجـــواب وإنَّ فكـــري ... ليقصـــر عـــن مجاريـــك المديـــدة

فمهِّـــد لي علـــى التقصـــير عـــذراً ... وهـــوِّن مـــن مطالبـــك الشـــديدة

ودم في عـــزّة وبلـــوغ قصـــدٍ ... وســـعدٍ دائـــمٍ وعـــلا جديـــده

الرحلة ١٧

ابن رُشيد-٧٢١

ترجمته: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسين بن محمد بن عمر بن رُشيد الفهري السبتي[١]، ولد بمدينة سبته في رمضان من سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م.

تلقى ابن رشيد دراسته الأولى في بلده على مجموعة من مشايخها[٢]، وأخذ عنهم علوم القرآن والتفسير، والحديث والنحو واللغة والأدب. ثم انتقل ابن رشيد إلى مدينة فاس التي كانت مركزاً علمياً مرموقاً، والتزم مجالس الشيوخ فيها، فحذق علوم الحديث. ولم يكتف ابن رُشيد بما حصّله في المغرب من علوم فرحل إلى المشرق حيث التقى عدداً كثيراً من المشايخ والعلماء والأدباء الذين ذكرهم في رحلته، وجمع عدداً وافراً من الإجازات في العلوم المختلفة. وبعد عودته من رحلته تصدّر لتدريس في بلده سبتة فدرّس الفقه والحديث، ثم تولى الخطبة بجامع غرناطة، واشتهر بين الناس فاستدعاه السلطان إلى المغرب، وعيّنه إماماً وخطيباً للجامع العتيق بمُرّاكش، ثم استقدمه إلى فاس وجعله من خاصّته إلى أن توفي في ٢٣ محرم سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م. وترك ابن رُشيد عدداً من المؤلفات في العلوم المختلفة كالنحو والبلاغة والعروض والقوافي والفقه والفهارس والأسانيد[٣].

رحلة ابن رشيد:

اسم الرحلة كاملاً: «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة». وتعدّ في أنفس ما كتبه ابن رُشيد، لما تضمنته من فوائد علميّة كثيرة، وقد وصل إلينا من هذه الرحلة نسخة خطّية واحدة غير كاملة، منسوخة بخطّ المؤلف ما عدا الجزء الثالث منها، فرأها عليه تلميذه عبد المهيمن الحضرمي كما يظهر من التقييدات عليها، والنسخة محفوظة بدير الإسكوريال بإسبانيا. ويقع المخطوط في سبعة أجزاء، ضاع منها اثنان، ووصل إلينا خمسة هي:

---

(١) الإحاطة ٢/٣٤٠، نفح الطيب ٤/٢٥٨، الضوء اللامع ٢/٢٩٧.

(٢) انظر: رحلة ابن رشيد ١/٩٦-٩٧.

(٣) فهرس الفهارس ٢/٣٥٠، رحلة ابن رشيد ١/٩٧، بغية الوعاة ١/٢٠٠.

– الجزء الثاني: يتضمن الحديث عن مدينة تونس عند الورود، وترجم فيه لستة عشر شيخاً وأديباً وعالماً من أهالي تونس والمقيمين فيها[1].

– الجزء الثالث: وهو جزء مبتور الأول والآخر يتحدّث عن مصر والإسكندرية عند الورود، وترجم فيه لعشرة شيوخ من أهالي الإسكندرية، وثلاثة وأربعين من أهل القاهرة[2].

– الجزء الخامس: وموضوعه الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور، وفيه يذكر ابن رُشيد مراحل سفره، ويصف تنقّلاته وحواراته مع الأصحاب، ويطنب في الحديث عن مناسك الحج، ولا يغفل ما التزمه في رحلته في التعريف بمن لقيه من الرجال، فترجم في الحرمين الشريفين لستة عشر شيخاً وفي مصر عند الصدور لأحد عشر شيخاً، منهم أربعة تكرر لقاؤه بهم، وترجم لأربعة شيوخ لقيهم بالإسكندرية[3].

– الجزء السادس: ويتعلّق بالعودة من الإسكندرية إلى تونس عن طريق طرابلس والمهدية، ويعرّف فيه بجماعة من الأعلام، لقي أحدهم في السفينة وترجم لاثنين لقيهم بمدينة طرابلس، وواحد لقيه بالمهدية وأربعة وثلاثين لقيهم بتونس، منهم عشرة تكرر لقاؤه بهم[4].

– الجزء السابع: ويتعلّق بالعودة من تونس إلى سبتة عن طريق بونة (عنابة)، ومالقه ورندة، والجزيرة الخضراء. ويتحدّث ابن رشيد في هذا الجزء عن مروياته ومجالسه ومراسلاته، ويترجم فيه لستة أشخاص، ويختم به الرحلة[5].

أمّا الجزآن الضائعان فهما الأوّل والرابع، ويضمّ الجزء الأول حديثه عن خروجه من مدينة سبتة ووصوله إلى المرية، ولقائه للوزير ابن الحكيم ت (٧٠٨هـ / ١٣٠٨م)، ودخوله بعد ذلك بجاية، ونظنّ أن ابن رشيد قد عرّف في هذا الجزء بعدد من المشايخ والعلماء الذين كانت تزخر بهم بجاية في نهاية القرن السابع الهجري، وترجم لهم الغبريني في كتابه (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية).

---

(١) طبع بتونس بتحقيق محمد الحبيب الهيلة.

(٢) طبع بتونس بتحقيق محمد الحبيب بلخوجة.

(٣) طبع ببيروت بتحقيق محمد الحبيب الهيلة.

(٤) لا يزال هذا الجزء مخطوطاً.

(٥) لا يزال هذا الجزء مخطوطاً.

على حين يضم الجزء الرابع حديثه عن بلاد الشّام التي اتجه إليها ابن رُشيد عند خروجه من مصر، ثم انطلق منها إلى الحجاز، ويبدو أنّه ترجم فيه لجماعة من العلماء لقيهم في طريقه إلى الحجاز، ويدلّنا على أسماء بعضهم (الاستدعاء الكبير) المطبوع بآخر الجزء الثالث من الرحلة.

خط سير الرحلة:

من خلال قراءتنا لما وصل إلينا من رحلة ابن رشيد، وما جاء في المصادر المختلفة نستطيع أن نحدّد خطّ سير رحلة ابن رُشيد، فقد خرج من مدينة سبته سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م قاصداً الحج، فانتقل إلى (المريّة) بالأندلس، ولقي فيها الوزير ابن الحكيم، الذي رافقه في رحلته، وانطلق الرّحلان في رحلتهما فوصلا إلى (تونس) عن طريق (تلمسان) و(بجاية)، ومنها انتقلا إلى (الإسكندريّة) ثم (القاهرة) التي وصلا إليها سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م، واتجها منها إلى (دمشق)، ومنها إلى (المدينة المنوّرة) (فمكّة المكرمة).

وبعد أداء فريضة الحج عاد رحالتنا أدراجه إلى القاهرة فالإسكندرية سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م، ومنها ركب البحر إلى طرابلس فالمهديّة بديار إفريقية التي وصل إليها في ربيع الأول من تلك السنة، وبلغ تونس في ربيع الثاني، وأقام بها عاماً كاملاً، ثم اتجه إلى مدينة بونة (عنّابة) ومنها أبحر إلى مالقة ورُندة والجزيرة الخضراء، ثم انتهى به المطاف في مدينة سبتة في جمادى الثانية من سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م.

منهج ابن رشيد في رحلته:

كان ابن رشيد حريصاً على الاتصال بالعلماء والشّيوخ، والأخذ عنهم في كلّ مدينة كان يحلّ فيها، واكتسب من ذلك علماً واسعاً، قراءة ورواية وسماعاً، ووقف على أمهات التّصانيف الحديثيّة وكتب العربيّة، وجرت بينه وبين من لقيهم من العلماء محاورات ومناقشات علميّة، ومطارحات أدبيّة، وكان اهتمامه بهذا الجانب من رحلته مهيمناً عليه، فلا تجده يصف المعالم والآثار والمدن إلاّ لماماً، وبقدر الحاجة، بل كان يصرف كلّ اهتمامه إلى ملاقاة الرجال وزيارة العلماء والمحدّثين والرواة في مجالسهم. وكان يحرص كذلك على زيارة قبور أئمة الحديث الذين يتّصل بهم السّند أو ينتهي إليهم[1].

---

(١) انظر ما قاله أبو الفضل الإمام في ناظر الأعلى في الإسكندرية، في نسب عالية.

وبهذا تعدّ الرّحلة بحقّ برنامجاً أو فهرساً شاملاً لما تضمّنته من تراجم وأسانيد وأسماء كتب، ومرويات، وهذا ما وعاه تلميذه عبد المهيمن الحضرمي حين أطلق على الرحلة اسم البرنامج[1].

وينصّ ابن رُشيد على أنّه لم يقصد من كتابة رحلته تأليف كتاب ذات منهج محدّد واضح، بل أراد أن يجمع ما دوّنه من ملاحظات على بطائق متفرّقة حول مشاهداته وقراءاته في رحلته، فضمّن تأليفه مسائل حديثية، ولطائف أدبيّة، وبيانيّة، وفقهيّة ونكت عروضيّة.

وقد استعار منهج المحدّثين وطريقتهم في الضبط، فتجلّى ذلك في الأسانيد والمسلسلات التي رواها عن الشيوخ في هذه الرّحلة، وفي الإجازات التي حصل عليها، فكان حذراً في النقل متريّثاً في الرواية، مثبتاً في التدوين، فتبيّن ذلك من كلّ ما ساقه من أخبار وروايات، ونصوص شعريّة ونثرية.

ونلاحظ أن ابن رشيد التبع في الجزئين الخامس والسّابع منهجاً مختلفاً إلى حدّ ما عن منهجه في بقيّة الأجزاء، فنراه يولي الناحية الجغرافية اهتماماً خاصاً في الجزء الخامس، فوصف الطريق التي سلكها الرّكب منذ خروجه من دمشق إلى الحجاز، ووصف البلدان التي مرّ بها كبصرى وحوران وتبوك والحجر، وكذلك وصف البلدان التي قطعها بين المدينة ومكّة، والأماكن التي تتّصل بمناسك الحج وأركانه، قال في انطلاق الركب من دمشق إلى المدينة: «.. وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصى عصر يوم الاثنين الحادي عشر من شوّال، وقد كنّا برزنا للسّفر غدوة اليوم، فاعتاق الكريُّ في بعض حوائجه إلى عشيّ اليوم، وعاينّا في ذلك اليوم عند خروج النّاس للوداع ما يُسيل الدموع، ويكاد يذهب بالقلب السّليم فكيف بالمصدوع، فبتنا تلك اللّيلة بالموضع المعروف بالقيساريّة على ضفّة النّهر، ورحلنا سحر اليوم الثّاني عشر، ونزلنا منازل بالطّريق سالكين إلى بُصرى، وهي مدينة حوران، وضبط هذا الاسم بضمّ أوّله، وإسكان ثانيه، وفتح الراء المهملة... وافتتحت بُصرى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لعام وأربعة أشهر مضت من خلافته فوافيناها بعد صلاة الجمعة في يوم الخامس عشر من شوّال، ورأينا بلداً محكم الأسوار، قديم الآثار، أبواب دوره من منحوت الأحجار ...»[2]

بينما نجد ابن رشيد في الجزء السابع يولي الناحية الأدبيّة اهتماماً خاصاً، ولا سيّما مطارحاته مع الأديب التونسي أبي الفضل النّحاني التي شغلت معظم المتفر السابع من الرحلة، ويبدو أن كلّ واحد منهما وجد في الآخر ضالّته،

---

(١) انظر دراسة عبد المهيمن الحضرمي على الرحلة على الصفحة الأخيرة من الجزء السابع.

(٢) الرحلة ٥/١٠٠.

فتبادلا الرسائل والمساجلات الشعرية الإخوانيّة، وكان كلّ واحد منهما معجباً بصاحبه، ومن نماذج رسائله قوله: «... ولا أغربُ من رسالتك البديعة المساق، المخجلة كلّ قلادة بما رُوِّقتهُ من حسن الانتظام والاتّساق، فقد أغربت وأشرقت وغرّبت وشرّقت، وقادتها النّواسم العطريّة، وافتقرت إليها المواسم السريّة والمباسم الحمريّة، وأنت تخلع عليّ فرائدها، وتحلب إليّ فوائدها، وتذكّرني في أمر التّصنيف، وتعرّفني وإيّاه بغير لام التّعريف، وتُشرّف هذا المجموع غاية التشريف...»[1]

أما ترجمته للشيوخ فكان يترجم للعَلَم فيذكر كُنيته واسمه، وما تميّز به من علوم وآداب، ثمّ يذكر شيوخه وما أخذ عن كلّ واحد منهم، ويذكر إجازاته وسماعه، والعلوم التي حصّلها. ومثال ذلك ترجمته للشيخ تاج الدّين الفَرّاني الذي لقيه بالإسكندرية فقد ذكر كنيته واسمه ونسبه، ونشأته، وحلاّه بما يستحقّ من صفات، ثم ذكر سماعه وإجازاته، وما أخذه عنه وعدّد تلاميذه[2].

أسلوب الرّحلة:

يتراوح أسلوب ابن رشيد في رحلته بين الأسلوب المرسل، والأسلوب المتصنّع الذي يكدّ فيه المؤلف ذهنه لإنشاء الجمل والعبارات المزخرفة بأنواع المحسّنات البديعيّة.

ويسود الأسلوب المرسل عندما كان يتناول بعض الأمور العلميّة والمناقشات الفقهية والحديثيّة، في حين كان يتأنّق في عبارته عندما كان يترجم لشيخ من الشيوخ، أو يصف بلداً أو متنزهاً، أو يطارح أدبياً من الأدباء.

وتتفاوت عبارته بين الطول والقصر، ويتأنّق ما وسعه في اختيار ألفاظه، واستعمال ألوان البديع كقوله في ترجمة ابن خَبّوش: «... وكان متفنناً في العلوم، منصفاً فيما يعنّ من الفهوم، متقدّم القدم في صناعة البيان، متمكّن اليد من ناصية الإبداع والإحسان، تلج دُور كلمه أصداف الآذان من غير استئذان، فريد في دهره، أمير في نظمه ونثره...»[3]

ويبدو من خلال ما اقتطفناه من ترجمة ابن خَبّوش حرصه الكبير على التزام السجع، واستخدام المحسنات البديعية كالجناس والترادف، ومراعاة التوازن بين الكلمات والجمل لإحداث إيقاع موسيقي، وتناسب صوتي.

---

(١) الرحلة ١/٧ إلى ١٠/أ.

(٢) الرحلة ٢/٥٣-٦٧.

(٣) الرحلة ١/٥٥.

بيد أننا نجد ابن رُشيد في بعض الأحيان يعتدل في استخدام المحسنات فيجيء أسلوبه أقرب إلى العفوية والطبع، وتتقبّله الأذن بارتياح، كقوله في وصف منار الإسكندرية: «.. ومن عجائب الإسكندرية منارها الذي يعجز عنه الواصف، ويحار فيه الواصف، وضخامته من داخله أكثر مما هي من خارجه، وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المربيّات...»[1]

فهو هنا يقدّم معلومات ولذلك لان أسلوبه، في حين أنّه في الترجمة يسجل موقفاً يريد أن يظهره بتزيين العبارة.

أمّا أهم النماذج الأدبية التي تظهر مميّزات نثره الفني في الرحلة فهي تلك الرسائل التي تبادلها مع أنداده في تونس، ومنها الرسالة التي بعثها إلى صفوه أبي الفضل التجاني التي يقول فيها: «.. فبالله يا ذا الفضائل، وربّ المقائل، انظر إليّ بعين الرّفق، وأنظرني إلى زمن اليُسر في أداء هذا الحق، فقد أفلستُ وأعسرتُ، ونصبتُ بديهتي وروّيتي وأكديتُ وأجبلتُ، ودع فكري ينزع قليلاً، فقد تركته عليلاً، وأنشقني من لدنك نسيماً بليلاً...»[2]

ففي هذه الرسالة يظهر التزام السجع ومراعاة الجناس، والميل إلى الإطناب والترادف، ويظهر الثراء اللغوي عند ابن رشيد في قدرته على اختيار اللفظة المناسبة لإكمال السجعات.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من مستوى ابن رشيد الأدبي الرفيع، لم يكن يتهافت على هذا اللون من الزخرفة اللفظية، ولم يقدم على جواب أبي الفضل التجاني بهذا الأسلوب الفني إلاّ استجابة لإلحاح الأصدقاء الذين طلبوا منه ذلك. ومن هنا فإن الأسلوب المرسل هو الغالب على الرحلة.

مختارات من رحلة ابن رُشيد

ترجمة ابن أبي الدُّنيا:

«وابنُ أبي الدّنيا هذا المؤرّخ هو الفقيه الجليل، العالم العامل المشاور، المفتي القاضي أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصّدفي، من رؤساء أهل إطرابلس ونزل تونس. معروف بالعلم والدّين والورع والفضل، وله تصانيف في أصول الدّين، وأصول الفقه، ونظم ونثر، اتفق الناس على فضله، ولي بأخرة قضاء الجماعة بتونس محمولاً

---

(1) الرحلة ٢/٩٤

(2) الرحلة ٢/٢٠٧

عليه. وبلغني أنه لم يحكم إلاّ أياماً قلائل نظر في الشُّهود فجرّح وعدّل وأسقط وأثبت. والتزم منزله مريضاً إلى وفاته وآب مُثاباً. وقيل لي: إنه دعا أن لا يحكم بين اثنين فأجيب.

وصلت إلى تونس وهو بحالة مرض متزايد، فقصدت بعض الطلبة المشتغلين بالرّواية هنالك — وكان له به اتصال — في رؤيته وسرت معه إلى منزله، فاستأذن ودخل وتركني في دكان إسطوانه. فمكث ساعة وخرج إليّ. وقال: إن الشيخ بحالة لا يُدخل عليه فيها. وما نصح في ذلك ولا أراه صدق في استئذانه. فإنّه بلغني أن الشيخ أبا محمد — رحمه الله — كان في تلك الأيام حريصاً على لقاء من وصل من المغرب في المركب الواصل، راغباً فيمن يستجيزه أو يأخذ عنه أو يسمع منه.

فلما كان في غدٍ عدت لأنظر من أتوسّل إليه ليدخلني عليه، فألفيت الشيخ — رحمه الله — قد توفي ووُضع في مصلاه، فحضرت جنازته، واشتدّ أسفي على فقده، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فكانت وفاته — رحمه الله — صبيحَ يوم الثلاثاء الثاني والعشرين لشهر ربيع الأول عام أربعة وثمانين وست مئة، وصُلّي عليه بالجامع الأعظم، جامع الزيتونة، عقب صلاة الظهر من ذلك اليوم، صلّى عليه أبو القاسم ابن عرفة الخطيب بجامع الزيتونة والإمام به. ودفن خارج باب البلد بالمدفن الكبير المعروف عندهم بالزلاّج..». رحلة ابن رشيد ٣/٢

زيارة قبور الأئمّة:

«.. وزرنا بالإسكندرية — حماها الله تعالى — قبر الإمام الزّاهد المحدّث، آخر الحفّاظ وبقيّة المحدّثين أبي الطاهر السِّلَفي داخل باب الأخضر على مقربة منه، وله سنام كبير عالٍ، وعلى مقربة منه قبر الزّاهد الإمام أبي بكر الطرطوشي — رحمه الله — وعلى قبره مكتوب: توفي الإمام الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد الفهري في جمادى الآخرة عام عشرين وخمس مئة. وبمقربة من الجدار الغربي قبر يقال: إنه قبر عبد الرحمن بن هرمز الأعرج رحمه الله...» رحلة ابن رشيد ٩٢/٣

وصف عمود السواري بالإسكندرية:

«.. ومن عجائبها أيضاً التي يحار العقل في التوصّل إلى وضعه، ويكلّ الرامق إليه بطرفه: السارية المعروفة عندهم بعمود السّواري. وهي خارج باب البلد، قائمة ببسيط من الأرض على قاعدة، وعلى رأسها قاعدة أخرى أخذ بعض

أصحابنا ارتفاعه بحضرتي فألقيناه مئة وثلاثين شبراً، وشبّرت قاعدته بشبري فكانت تسعة عشر شبراً في كل وجه من وجوه القاعدة...» الرحلة ٣/٩٥

ترجمة ابن خطيب المزّة:

«وممن لقيته بالقاهرة: الشيخ الأجلّ الفقيه المسند شهاب الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن العلم يوسف ابن يحيى بن يوسف ... وزاد بعض أصحابنا بعد يوسف بن أحمد بن سليم الدمشقي المزّي، بميم مكسورة بعدها زاي معجمة، منسوب إلى المزّة، موضع بغوطة دمشق — ويشهر بابن خطيب المزّة. وخطيب المزّة هو جدّه يحيى، ويعرف أيضاً بابن المعلم. سمع الكثير وأجيز له، وهو أحد الشيوخ الفضلاء الثقات الخيار، وتفقّه على مذهب الشافعي رحمه الله.

أخبرني — رضي الله عنه — أنه سمع سنن أبي داود من رواية اللؤلؤي على الشيخ أبي حفص عمر بن محمد بن معمر بن طَبَرْزَد الدارقزي. وقرأت أنا من السنن عليه أحاديث في الأحاديث التي خرجت له من أسمعته، وأظنها جزأين قرأتهما عليه...» الرحلة ٣/١٦٠

ذكر غريبة عنّت لنابه:

وما عنّت بل أغنت في معنى الآية الكريمة وأفتت: وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصّيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ [المائدة: ٩٤]

صحبني في الطّريق من المدينة على ساكنها الصّلاة والسّلام قاصدين إلى البيت الحرام أحدُ الشيوخ من شرفاء المدينة. فلمّا وافينا (رابغ) رأيت أمراً عجباً من تخلّل الوحش: الغزال والأرنب بين الجمال والرّحال بحيث يناله الناس بأيديهم، والنّاس ينادون: حرام حرام. والجوارح قد سُلسلت جيفةً تعدّي جاهل بعسف الجاهل[1]، فقال في ذلك الشّيخ الشّريف: تأمّل تر عجباً. هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق، يومّنا ونحن محرمون يمرّ به من الوحش ما ترى، فإذا عُدنا مُحِلّين لم نجد به شيئاً. فلمّا عدنا كان كما قال. فبان لي معنى الآية الكريمة ما لم يكن يخبر بالمشاهدة. وكلام المفسّرين على الآية معلوم يصدق على ما تناله الأيدي كالبيض والفراخ مما لا يستطيع أن يفرّ، وما يُنال بالرماح ونحوها ككبار

---

(١) عدوان الطّريق: أخذه على غير هدى.

الجاهل: من قلّ علمه، أو لم يهتد فيها.

الصيد. ثم رحلنا عنه منزلاً منزلاً إلى أن وافينا (خُلَيْصاً) يوم الأربعاء، ضحوة الثالث من ذي حجّة. فحلّلنا هناك ورفعنا عشيّ النهار... الرحلة ٥/٧٥-٧٦

الوقوف بعرفة:

«ورأينا في تلك الليلة عجباً فيما ابتدعته العامّة من الاستعداد والاحتفال بوقد الشّمع بطول تلك الليلة بالجبل القائم في وسط عرفات المعروف عند العرب القدماء بالإلال. وهو جبل مرتفع في أعلاه مسجد، تُنصب به رايات أمراء الرّكب، وقد صُنع له درج بالبناء من أمامه ومن خلفه، فيُرتقى إليه على طريق، ويُنزل من أخرى، وربّما التقى فريق مع فريق فيغصّ الجبل بالصّاعدين والنّازلين، وهو يتأجّج ناراً، ويتموّج بالبحر زخاراً، والطّرق إليه بالشّموع في بسيط عرفات كالسُّطور المذهبات، تتّصل به من كل الجهات، وأنت إذا نظرت إليه على بعد من الخيمات، تراه كشعلة واحدة وما يطول من الشّمع كأنّه ألسنٌ متعاضدة. فترى عجباً، صلداً عاد ذهباً أو صار لهباً..» الرحلة ٥/٨٧

وصف ينبع:

وهذا الموضع المعروف بينبع، بفتح أوّله وسكون ثانيه بعده باء معجمة بواحدة مضمومة وعين مهملة، كذا قيّده أبو عُبيد رحمه الله، والعامّة تقول: اليَنبوع، بزيادة واو وإلحاق أداة التعريف، وهي بُلَيدة حسنة كثيرة المياه والخضر والبساتين. وهي بين مكّة والمدينة، وكانت من بلاد ضمرة قوم عزّة كثيّر، وقد ذكره كُثيّر في شعره، وقد وصف غيثاً:

ومـــرّ فـــأروى يَنْبُعـــاً وجنوبـــهِ وقـــد جيسد منـــه جَيْـــدَةٌ فعبـــائر

قال أبو عبيد البكري – رحمه الله – وينبع عن يمين رضوى، لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر، وهي قرية كبيرة وبها عيون عذاب غزيرة، زعم محمد بن عبد الحميد الصبّاح أن بها مئة عين إلا عيناً. ووادي ينبع بَليل يصبّ في غيقة، قال جرير:

نظـــرتُ إليـــكَ بمثـــلِ عيـــنِ مُغـــزِلٍ قُطعـــتْ حبالُهـــا بأعلـــى بليـــل

وبسكن بنبع الأنصار، وجُهينة وليث» الرحلة ٥/٢٧٨

القاسم التُّجيبيّ- ٧٣٠

ترجمته: هو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التُّجيبي السَّبتي، ولد بسبتة سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م، ونشأ فيها، وحفظ القرآن بقراءاته المختلفة، ودرس كتب التفسير والحديث الشريف وعلومه المختلفة، والفقه والتصوّف، وعلوم العربية على مشايخ بلده[1]. ثم تنقّل بين مدن الأندلس والمغرب ومصر، والشّام والحجاز. وأخذ عن علماء هذه الأمصار، وسجّل ما أخذه عنهم، فتوسّعت مداركه العلميّة، وأصبح من العلماء المشهورين.

توفي القاسم بن يوسف التجيبي سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م.

رحلته:

قام التُّجيبي برحلة لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء، عرفت باسم «مستفاد الرّحلة والاغتراب»، وذكر المؤرخون أنّها في ثلاثة مجلّدات ضخمة[2]. غير أنّ الذي وصل إلينا منها هو الجزء الثاني الذي يتحدّث فيه عن مدينة القاهرة وآثارها ومن لقيهم من العلماء فيها، ووصف الطريق منها إلى البلد الأمين. في حين لا يزال الجزآن الأول والثالث مفقودين، وهما يضمّان كلام الرحالة على بداية رحلته وطريقه إلى مصر، وتتمّة الرحلة وفيها حديث عن الحجاز وبيت المقدس والشّام وطريق العودة إلى بلده.

قام الرّحالة التُّجيبي برحلته سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م، وأدى فريضة الحج سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م، وبذلك يكون أمضى سنتين في رحلته من بلده إلى الحجاز، وكان حريصاً فيها على لقاء العلماء والشُّيوخ في البلاد التي كان يمرّ بها وينهل من علومهم المختلفة، وأمضى سنتين في طريق العودة.

ويتضمّن الجزء المطبوع من الرّحلة، وهو الثّاني، ترجمة للشُّيوخ الّذين لقيهم في رحلته، ويذكر ما رواه عنهم، وبما سمعه منهم بأسانيدهم، ويصف ما رآه في طريقه من معالم وآثار ومشاهد، وبعض الجوانب الاجتماعية من عادات وتقاليد ومذاهب مختلفة.

---

(١) ذكر هو التجيبي في برنامج شيوخه الكثير.

(٢) ذكر ذلك ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة، والزركلي في الأعلام

وتضمَّن، هذا الجزء ترجمة لعدد وافر من الشُّيوخ الأعلام الَّذين لقيهم في رحلته. فترجم في القاهرة لأحد عشر شيخاً، وفي قوص ترجم لشيخين هما البهاء القفطي وسعد الدين بن الصلاح. وترجم بمكَّة لأحد عشر شيخاً من أهلها والمجاورين فيها. وتفاوتت تراجمهم في الطُّول.

ولم يغفل التُّجيبي وصف المشاهد والمقابر، فوصف في القاهرة روضة الإمام الشَّافعي[1]، وقبر ابني عبد الحكم[2]، وقبر عثمان بن صلاح الدين الأيوبي[3]، ووصف الجيزة، وأهراماتها[4]، وأبا الهول[5]، ومنية ابن خصيب[6]، ووصف مدن أسيوط وأخميم[7]، وقوص[8]، وعيذاب[9]، وجدَّة[10].

وبسط القول في مكة[11] فوصف مسجدها، والكعبة، والحجر الأسود، والملتزم والحطيم، والحجر والميزاب، ومقام إبراهيم، وبئر زمزم، ومنى، ووصف بعض جبال مكَّة، وعرض لمن لقيهم من علمائها.

اعتمد التُّجيبي الأسلوب المرسل في رحلته عموماً، فلم يُعن بالصنعة الفنِّية إلاَّ نادراً، حيث وردت بعض السَّجعات العفوية في أثناء حديثه عن مكان، أو التَّعريف بعلم من الأعلام.

فمن نماذج أسلوبه المرسل وصفه لمدينة عيذاب: «.. هذه البُلَيدة على ضفَّة بحر القُلْزُم، وليست بالكبيرة القطر، ولا بالأهلة العامرة بالخلق، وأهلها قوم من البجَّة، سود، والبُجَّةُ: من ولد حام بن نوح – عليه السلام – فيما يقال. وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام، نزلوا بين بحر القُلزم والنِّيل، فتشعَّبوا هناك شعوباً، وملكو ملوكاً، وقيل: بل هم من الحبشة، وقيل: بل هم قوم من فزارة، نفاهم أبو بكر الصِّدِّيق – رضي الله عنه – فنزلوا عيذاب. وقيل غير ذلك، والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(١) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٢.

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٥.

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٥.

(٤) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٤ ١٦٢.

(٥) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٧.

(٦) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٩.

(٧) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٩.

(٨) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧٣.

(٩) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٠٥.

(١٠) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢١٨.

(١١) [illegible]

وأكثر بيوتها أخصاص، وفيها أدور يسيرة مجصّصة ابتناها التُّجّار المدعوّون بالأكارم، لينزلوا بها إذا وصلوا من (عَدَن) إليها، أو من (قوص)، أو من غيرها من البلاد، وربّما ينزل فيها بعض الحجّاج إذا وجدها خالية منهم، ... وهي من أشدّ البلاد التي رأيناها حرّاً، لا يكاد أن يتنفّس فيها إلاّ ويخيّل إليه أن أحداً قد أمسك بأنفه، وكأن النار — نعوذ بالله منها — تلفح وجه الإنسان فيها. ومن العجب أن ماء بحرها حارٌّ أيضاً...

.. وأهل هذه البليدة السّاكنون بها يتصرفون عراةً رجالاً ونساءً، ولا يوارون شيئاً غير خرق زرق، أو جلود يستترون بها عوراتهم فقط، وشعور نسائهم بادية، وثُدْيَهن، ويذكر أنّهم لا يعاقبون على الزّنى، نعوذ بالله من ذلك، ولا يعارون عليه»[1].

ومن نماذج أسلوبه المتصنّع الذي يعنى فيه بالسّجع قوله في ترجمة ابن دقيق العيد: «... فمنهم إمام الأئمّة العالم العلم العامل الورع الكامل، نخبة الفضلاء علماً وحلماً، مظهر معاني العلوم استنباطاً وفهماً، والمحتوي على عمدة أصولها وفروعها حفظاً وحكماً، أبو الفتح محمّد بن الشّيخ الفقيه الإمام الفاضل العالم مجد الدّين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطّاعة القُشَيري النَّسب، المنفلوطي الأصل، اليَنْبُعيّ المولد، القوصي المَرْبى، القاهري المنزل، المنعوت بتقي الدين، المعروف بابن دقيق العيد...»[2].

غير أن الغالب على أسلوبه، الأسلوب المرسل، وقلّ أن يلجأ إلى الصنعة، وبذلك يخالف ذوق كتّاب عصره الذين أثقلوا كتاباتهم بالمحسنات اللفظية.

مختارات من الرحلة:

وصف المارستان المنصوري بالقاهرة:

«.. وبهذه القاعدة العلّية مارستان[3] عظيم القدر، شهير الذّكر، يتحيّر عنه أعظم قصر من قصور الملوك، مُعَدٌّ للمرضى وذوي العاهات، ابتناه الملك الأجَلّ المجاهد قلاوون الصالحي، الملقّب بالمنصور — رحمه الله — ووقف عليه أموالاً عظيمة، ورتّب فيها الأطبّاء والخزاج، ومن يعالج أمر المرضى، ويتفقّد أحوالهم بكرة وعشيّة، وجعل فيها من عقاقير

---

(1) مسالك الرحلة والأقطار، ٢٠٥ - ٢٠٦.

(2) مسالك الرحلة والأقطار، ١٦٠.

(3) مارستان: المستشفى.

الهند كثيراً مما لا يكاد يوجد إلاّ في خزائن الملوك وذخائرهم، رفقاً من الله تعالى بالمرضى في هذه المدينة، وفيه من الكسى والأغذية ما يناسب ذلك.

وعن يمين الداخل إليه روضة عظيمة، وضع فيها قبّة سامية في الهواء، مزخرفة بالذّهب الإبريز، ورتّب فيها طائفة من القرّاء، وجملة وافرة من أرباب العلوم، وأجرى لجميعهم أرزاقاً جمّة، من أوقاف عظيمة وقفها عليها...»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ٤-٥)

أبو الهول:

«... وبمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد، هائل المنظر، على صورة رأس الإنسان، مقابل إلى الأهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النّيل، ويدعوه أهل مصر بأبي الأهوال، ذرع عنق هذا الرأس عرضاً وأنا أنظر إليه، فألفي فيه نحو تسعة أقدام، ويزعمون أنه طِلّسم[1] للرّياح، وأنّه لو ذهب لأتلف الرّيح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك، وبما كان المراد به، وبما مرّ عليه من الدهور والعصور...» (مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٧)

قبر حوّاء بجُدّة:

«.. وعاينّا أيضاً بخارج هذه المدينة قبّة مبنيّة زعموا أنّ بها قبرَ أم البشر حوّاء عليها السّلام، وقد صوّر بداخلها صورة قبر، والنّاس يقصدون ذلك القبر للتّبرّك بزيارته، ويرون أن الدُّعاء عنده مستجاب، وأهل العلم يأبون أن ذلك موضع قبرها، ويقولون: إنّما هو موضع نزولها من الجنّة، وإن كان ابن إسحاق — رحمه الله — قد نقل أن مهبط آدم وحوّاء — عليهما السلام — كان على جبل يقال له: (واشم) من أرض الهند، وقال: بين قرى الهند اليوم الدهنج والمندل، فقد ذكر غيره من أهل العلم ما ذكرت، ولعلّه أصح.

وقال بعض أهل العلم: أُهبِطَ آدم عليه السلام بسرنديب من الهند بجبل يقال له: بوذ، وأهبطت حوّاء عليها السلام بجُدّة، وأُهبط إبليس بالأُبُلّة[2]، وأهبطت الحيّة ببيسان[1] وقيل: بِسجستان، وسجستان أكثر بلاد الله تعالى حيّات، والله تعالى أعلم» (مستفاد الرحلة والاغتراب ٢١٩)

---

(١) الطلسم: منار للكهرباء.

(٢) الأثار باقية إلى عصرنا في جزيرة سقطرى قرب اليمن.

بئر زمزم:

«.. هي زَمْزَمُ، وهو أشهر أسمائها، وزُمازِمِ، وزُمْزُمْ، وبرّة، والمضنونة، وتَكْتُم، وهمزة جبريل بتقديم الميم على الزّاي، وهزمة جبريل – بتقديم الزاي على الميم – والهَزمة: الغمزة بالعقب في الأرض، وشفاء سقم، وطعام طعم، وطيبة، وشراب الأبرار، ومكتومة، ومكنونة، والمُغْذية، والرّوى، وشبّاعة، وسقّاية الحاج، وحفيرة عبد المطلب، وركضة جبريل عليه السلام.

وأشهر أسمائها زمزم – كما قدّمناه – وسمّيت بذلك من كثرة الماء، يقال: ماء زمزامٌ وزمزم للكثير، والزَّمْزمة عند العرب: الكثرة والاجتماع. وقيل: بل من ضمّ هاجر لمائها حين انفجرت لها، وزمّها إيّاه، وقال ابن فارس اللغوي: زمزم من قولك زممت الناقة إذا جعلت لها زماماً تحبسها بها. وقال الحربيّ: سمّيت زمزم بزمزمة الماء، وهي صوته، وقيل: بل من زمزمة جبريل عليه السلام وكلامه عليها، وقيل: لأن الفُرس كانت تحجّ إليها قديماً في الزمن الأول وتزمزم عليها. والزَّمزمة: صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء، وبذلك كتب عمر – رضي الله عنه – إلى عمّاله أن انهوا الفرس عند الزمزمة. وبئر زمزم الآن داخل المسجد الحرام، وكانت قديماً خارجه قبل أن يزاد فيه، وقد قدّمنا ذلك. وعليها قبّة عظيمة هائلة، وفيها صنعة عجيبة من قريصة الخشب، وقد تأنّق الصنّاع فيها أي تأنّق، وقد قامت على أعمدة هائلة، وهي تقابل من الكعبة المعظمة المُلتزم والحجر الأسود، وركن القبّة خارج عن ركن الكعبة المشرّفة قليلاً، وبينهما أربع وعشرون خطوة...» (مستفاد الرحلة والاغتراب ٣٠٢-٣٠٣)

ليلة القدر في الحرم المكّيّ:

«ثمّ لما كانت ليلة سبع وعشرين من الشهر المذكور، وكانت ليلة القدر، أوقدت أركان صوامع المسجد الحرام بجملةٍ من السُّرُج، من كل جهة من جهاتها الأربع، وزيد في قناديل المسجد الحرام، وكثر في تلك الليلة إيقاد الشّمع بكل جهة ومكان، وأحضر الأمير الأكرم ابن الأصبهاني صهر الصاحب الخليلي جملة منه، فأوقدها بإزاء باب بني شيبة للقرّاء المذكورين، وحضر ختمتهم في تلك الليلة – أعني ليلة سبع وعشرين المذكورة – واجتمع لحضور هذا الختم جمع كثير من المكّيين والقادمين عليهم، وكنت فيمن حضر، فلمّا ختموا صعد أحد المصريّين منبراً قد كان أُعدَّ له هناك، فلمّا استوى عليه اندفع بعض القرّاء يتلو بين يديه آيات من الكتاب العزيز.... وكثر الازدحام على سماع هذا الخطيب من الرّجال والنّساء، ثمّ لما خطب الخطيب المذكور خطبة بليغة مناسبة للشهر المبارك والبقعة الطّاهرة، فلمّا فرغ من خطبته شرع في

(١) ع: ... مدينة مسطور.

الدُّعاء للسَّيِّد الشَّريف (أبي نمي)، ورفع في نسبه العليّ إلى أمير المؤمنين أبي الحسن علي - رضي الله عنهم - وعند ذكره لهذا النَّسب الشَّريف أمر له السيّد (أبو نمي) المذكور بخلعة حسنة حريرية، وعمامة حريرية مصفَّحة بالذَّهب، فدفع إليه جميع ذلك، وأمر بلباسها على المنبر ففعل والناس ينظرون إليه... ثم دعا الخطيب المذكور. وأمّن الحاضرون، وانفضّ الجمع..»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ٤٦٠-٤٦)

قال رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

ابن بطوطة-٩٧٩

ترجمته: هو أبو عبد الله، محمّد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن يوسف اللّواتي الطّنجي، الملقّب بشمس الدين، والمعروف بابن بطّوطة[١]. ولد بطنجة يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، في أسرة عرفت بالفضل والعلم، ونشأ في بلده، فأخذ العلوم الشّرعيّة عن مشايخ بلده، ونبغ بين أقرانه. رحل ابن بطوطة ثلاث مرّات[٢]، أشهرها رحلته الأولى المدوّنة (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، والمعروفة برحلة ابن بطوطة. وكان الدافع إلى القيام بها هو الحج إلى البيت العتيق، وكان عمره آنذاك اثنين وعشرين سنة. توفي ابن بطوطة على الأغلب سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م.

خط سير الرّحلة:

انطلق ابن بطوطة من مدينة طنجة بالمغرب الأقصى في رجب سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، فزار مراكش والجزائر وتونس وليبيا، ووصل إلى مصر فنزل الإسكندرية وانتقل إلى القاهرة، ولم يتمكّن من السفر إلى الحجاز بحراً من عيذاب كما جرت العادة لخلاف حصل بين القائمين على المراكب والممالبك، فغادر إلى القاهرة، وسافر منها إلى الشام ورافق الرّكب الشّامي إلى المدينة المنوّرة ومكّة فأدى فريضة الحج، ثم تابع رحلته إلى بلاد فارس والعراق والأناضول، ثم عاد إلى مكّة ثانية مروراً بالموصل وديار بكر، ثم انتقل إلى اليمن وعُمان والبحرين والأحساء، وعاد إلى مكة مرّة ثالثة.

ومن ثم قصد مصر ثم غادرها إلى فلسطين فالأناضول فشبه جزيرة القرم حيث أبحر إلى القسطنطونية برفقة الخاتون زوجة السلطان (أوزبك خان)، ثم غادر إلى الهند عبر بخارى وخوارزم وخراسان وكردستان وأفغانستان، وفي (دلي) شغل أحد مناصب القضاء، وهناك أرسله السلطان إلى ملك الصين مع وفد يحمل هدايا إليه، فهبّت عاصفة على المركب فأغرقته، ولم يعد ابن بطوطة إلى السلطان الهنديّ، بل أقام في إحدى الجزر قرابة سنة ونصف تولى فيها القضاء.

ثم قصد الصين لما سمعه عنها من غرائب، فمرّ بسيلان والبنغال وشبه جزيرة الملايو، ومن هناك عبر إلى جزيرة سومطرة، ثم اتجه إلى بلاد فارس فالعراق فسوريا فمكّة للمرّة الرابعة، ثم عاد إلى وطنه عبر مصر وتونس والجزائر، فوصل

---

(١) الإحاطة ٢/٣٧٤، ٣٧٥. الدرر الكامنة ٤/٤٨١. الأعلام ٦/٢٥٦ وما فيها من مراجع وأضافات عن الأعلام هذه

(٢) الأولى رحلته الموسومة بكتاب إلى إسبانيا والمغرب، والثانية إلى بلاد الترك وما وراء النهر، والثالثة إلى بلاد السودان

إلى بلده طنجة سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، ثم تحوّل إلى فاس حيث بلاط السلطان أبي عنان المريني، وهناك قصّ ابن بطوطة أخبار رحلته فأثار إعجاب السلطان بها، فأوعز إلى كاتبه ابن جُزَيّ الكلبي أن يدوّن ما يرويه ابن بطوطة في كتاب، فكانت الرّحلة التي بين أيدينا.

مضمون رحلة ابن بطوطة:

تحقّق لابن بطوطة في رحلته الجانب السياحي، والروحي والعلمي، وكان بولي اهتمامه بالجانب العجائبي، والاجتماعي فكان شديد الاهتمام بالنّاس وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيما العلماء والأولياء، في حين كان قليل الاهتمام بوصف المدن والأرض.

ومن الموضوعات الاجتماعية التي أعجب بها ابن بطوطة في دمشق كثرة الأوقاف التي شملت مختلف الشؤون الاجتماعية[١]، أما في بخارى فلفت نظره شواهد القبور التي نقش عليها أسماء علمائها وأسماء الكتب التي ألّفوها[٢].

ومن الجوانب الاجتماعية التي أثارت استغرابه في الصين والهند إحراق الموتى[٣]، ولاحظ إقبال أهل آسيا الصغرى على شرب النّبيذ دون حرج، لأنّهم يعتنقون المذهب الحنفي الذي يبيح شرب النبيذ[٤]. ويشير إلى المكانة العالية التي احتلتها المرأة في المجتمع[٥].

وحظيت بعض الجوانب الاقتصادية باهتمام ابن بطوطة فأشار إلى ادّخار أهل الصّين الذّهب على شكل سبائك[٦]، واستخدامهم للأوراق النقدية المصنوعة من الكاغد في البيع والشراء[٧]، وبراعتهم في صناعة الفخار الصيني، وإتقانهم فن التصوير[٨].

---

(١) رحلة ابن بطوطة ١/٢٥٨ وما بعد.

(٢) الرحلة ١/٤٠٢.

(٣) الرحلة ٢/٤٦٩ و٧١٨.

(٤) الرحلة ١/٣٦١ و٣٧٨.

(٥) الرحلة ١/٤١٧ و٣٦٥.

(٦) الرحلة ٢/٧١٩.

(٧) الرحلة ٢/٧٠.

(٨) الرحلة ٢/٧١٩ - ٧٢٠.

ومما يميز ابن بطوطة تعداده لأنواع السفن والمراكب[1]، ووصفها، وعدد بحارتها، والعادات المرعيّة فيها، وكذلك شؤونها الإدارية والماليّة. كما وصف طريقة استخراج اللؤلؤ، وهيئة الغواصين[2].

ورحلة ابن بطوطة أقرب ما تكون إلى المذكرات التي دوّن فيها كل ما مرّ به من أحداث وأحوال، واهتم صاحبها بالجانب السّياحي والجغرافي، ولم يغفل ذكر العلماء الذين صادفهم في طريقه، ومجالس العلم التي كان يحضرها، فذكر العلماء الذين لقيهم بتونس ومصر، ودمشق ومكّة والمدينة، وبغداد.

وتتسم الرحلة ببعض الاختلاط في المعلومات، ما أثار الشكّ في صحّة ما رواه ابن بطوطة، ولعل ذلك بسبب إملاء الرحلة من الذّاكرة، فلم يكن من السّهل تذكّر أحداثها مرتّبة منظّمة.

ويلفت النظر بعض المبالغات التي وردت في الرحلة، ولاسيما عند حديثه عن الأولياء والصالحين وكراماتهم، أو تلك المتعلقة بالبَحر والشُّعوذة، وقد يُعزى ذلك إلى نقله بعض القصص الشّعبي، ووقوعه تحت تأثير ما كان يروج بين النّاس من قصص وحكايات ونقلها من دون تحقق أو تثبّت.

أسلوب الرحلة:

كان ابن بطوطة عموماً حريصاً على تأدية المعاني، فابتعد عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة، إلا أنه كان يلجأ أحياناً إلى تحسين الكلام باختيار عباراته، وتزيينها ببعض السّجعات التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد، ولم تكن تسيء إلى أسلوبه كقوله في وصف شيراز: «.. هي مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، منيفة القدر، لها البساتين المونقة والأنهار المتدفّقة، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة، وهي كثيرة العمارة، منقنة المباني، عجيبة التّرتيب، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم، حسان الصور، نظاف الملابس، ليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها، وحسن صور ساكنيها إلا شيراز»[3].

فالكاتب يعنى باختيار ألفاظه وتنقيح عباراته، من دون الانسياق وراء الأسجاع المتكلّفة، وسرعان ما يتحرّر من السجع، ويعود إلى الأسلوب المرسل الذي يتّسم بالعفوية والوضوح.

---

(1) الرحلة 1/ 246، 312.

(2) الرحلة 1/ 301.

(3) الرحلة 1/ 212.

ومما يلفت النظر أن ابن بطوطة كان يشفع بعض الألفاظ الغريبة، أو الأعجميّة، أو المحلّية بشروحها أو بما يوضح المراد منها كقوله[1]: «.. وولدا الأمير هما شقيقان، والأكبر منهما اسمه تين بك، و«بك» معناه الأمير، و«تين» معناه الجسد، فكأن اسمه أمير الجسد، واسم أخيه «جان بك» ومعنى «جان» الروح فكأنه يسمّى أمير الروح.

وقد يوضح بعض الجمل الفارسيّة كقوله[2]: ويقولون بلسانهم: خرما وماهي لوت بادشاهي، معناه بالعربي: التّمر والسّمك طعام الملوك».

وقال يصف إحراق امرأة من الهنود لنفسها: «فرأيت إحداهنّ لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم: «ماوامونرا ساتي أزاطش من ميدانم أواطش است رهاكني مارا» وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام «أبالنار تخوّفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة»[3].

فكأن ابن بطوطة يريد أن يخبرنا بمعرفته بلغات البلاد التي مرّ بها.

وحظيت رحلة ابن بطوطة بعناية الباحثين مستشرقين وعرباً واشتغلوا بها ترجمة وتلخيصاً ودرساً، وطبعت مرات كثيرة في المشرق والمغرب.

مختارات من رحلة ابن بطوطة:

أوقاف دمشق:

«.. والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحجّ يُعطى لمن يحجّ عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنّ، وهنّ اللواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ. ومنها أوقاف لفكاك الأسارى. ومنها أوقاف لأبناء السّبيل، يُعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطُّرق ورصفها، لأن أزقّة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليها المترجّلون، ويمرّ الركبان بين ذلك. ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير. مررت يوماً ببعض أزقّة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمّونها الصّحن، فتكسّرت، واجتمع عليه النّاس، فقال له بعضهم: اجمع

---

(١) الرحلة ١/٣٧٤.

(٢) الرحلة ١/٢٩٩ وانظر ١/٢٠٤.

(٣) الرحلة ٢/٤٧١.

شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها، وذهب الرّجل معه إليه، فأراه إيّاها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيّد الغلام لابدّ له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب...» (رحلة ابن بطوطة ١/١١٨)

وصف أهل زبيد باليمن:

«.. ولأهلها لطافة الشمائل، وحسن الأخلاق، وجمال الصُّور، ولنسائها الحسن الفائق الفائت، وهي وادي الخصيب الذي يُذكر في بعض الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لمعاذ في وصيته: «يا معاذ إذا جئت وادي الخصيب فهرول». ولأهل هذه المدينة سبوت النّخل المشهورة، وذلك أنّهم يخرجون في أيام البسر والرُّطب في كلّ سبت إلى حدائق النّخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها، ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطّرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النّساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهنّ مع ما ذكرناه من الجمال الفائق والأخلاق الحسنة والمكارم، وللغريب عندهن مزيّة، ولا يمتنعن من تزوّجه كما يفعله نساء بلادنا، فإذا أراد السّفر خرجت معه وودّعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيّام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة، لكنهنّ لا يخرجن عن بلدهنّ أبداً، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل..» (الرحلة ١/٢٧٢-٢٧٣)

مغاص اللؤلؤ:

«.. ومغاصُ الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في بحور[1] راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر إبريل وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة. فيها الغوّاصون وتُجّار فارس والبحرين والقطيف. ويجعل الغوّاص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم وهي السّلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض يشدّه على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر السّاعة والسّاعتين[2] فما دون ذلك، فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصّدف هنالك فيما بين الأحجار الصّغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديدة عنده مُعدّة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه، فإذا ضاق نَفَسه حرّك الحبل، فيحسّ به الرجل الممسك للحبل على السّاحل فيرفعه إلى القارب فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا

(١) بحور: الجمع في قرح.

(٢) هذه مبالغة وقد جاء في الإسعاد لا يستطيع البقاء تحت الماء إلا دقائق معدودة.

باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر[1]. فيُجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السُّلطان خُمسه، والباقي يشتريه التّجار الحاضرون بتلك القوارب، وأكثرهم يكون له الدَّين على الغواصين، فيأخذ الجواهر في دَيْنه أو ما وجب له منه». (الرحلة ١

إحراق الهنود موتاهم:

«.. ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أنَّ كافراً من الهنود مات، وأُجِّجت النَّار لحرقه. وامرأته تحرق نفسها معه، وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفّار الهنود متزيّنة راكبة، والنَّاس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة: وهم كبراء الهنود، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها، فيؤذن لهم فيحرقونها... وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب غير واجب، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونُسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بالسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها». الرحلة ٢/٤٦٩-٤٧٠)

براعة أهل الصين في التصوير:

«وأمَّا التَّصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الرُّوم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك: أنّي ما دخلت قطّ مدينة من مدنهم ثم عدت إليها، إلاّ ورأيت صوري وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد[2]، موضوعة في الأسواق. ولقد دخلت إلى مدينة السُّلطان فمررت على سوق النقّاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زيّ العراقيين، فلمّا عدت من القصر عشيّاً مررت بالسُّوق المذكورة، فرأيت صوري وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط. فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه، لا تخطئ شيئاً من شبهه. وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك، وأنّهم أتوا إلى القصر ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمرّ بهم. وتنتهي حالهم في ذلك إلى أنَّ الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم، بعثت صورته إلى البلاد وبُحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أُخذ» (الرحلة ٢/٧٢٠)

المشعوذون في الصين:

---

(١) هذا خلط واضح، فالجوهرة توضع داخل الصدفة.

(٢) الكواغد: هي الكاغد بلغة أهل العراق

«وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة، وهو من عبيد القان، فقال له الأمير: أرنا من عجائبك، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال، فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيام الحرّ الشديد، فلمّا لم يبق من السَّيْر في يده إلاّ يسير، أمر متعلّماً له فتعلّق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً، فأخذ سكّيناً بيده كالمغتاظ، وتعلّق بالسير إلى أن غاب أيضاً. ثم رمى بيد الصّبيّ إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطّخة بالدم. فقبّل الأرض بين يدي الأمير، وكلّمه بالصّبيّ، وأمر له الأمير بشيء، ثمّ إنه أخذ أعضاء الصّبي فألصق بعضها ببعض، وركضه برجله فقام سوّياً، فعجبت منه، وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك، فسقوني دواء أذهب عنّي ما وجدت، وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي، فقال لي: والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو، وإنّما شعوذة..»

(الرحلة ٢/٧٣٠-٧٣١)

ترجمته: هو أبو الحسن، عليّ بن محمّد بن محمّد بن عليّ القرشي البَسْطيّ، الشّهير بالقلصاديّ[1].ولد بمدينة بَسْطة الأندلسيّة شمال شرق غرناطة سنة ٨١٥هـ / ١٤١٣م أو قبلها بقليل، ونشأ في بلده ذات الطبيعة الجميلة، وتلقّى دراسته الأولى على مشائخها، فأخذ عنهم علوم القرآن والحديث، وفروع الفقه، وقواعد العربية والحساب الذي له صلة وثيقة بالفرائض.

تردّد في أثناء إقامته ببسطة على غرناطة عاصمة مملكة بني الأحمر.

وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره رحل في طلب العلم إلى المغرب والمشرق ليتزوّد من العلم والمعرفة، فاتّجه أولاً إلى تلمسان ولقي أهم مشائخها وأخذ العلم عنهم.حظي القلصادي بشهرة واسعة في تلمسان فتصدّى للتدريس، وكان يحضر دروسه عددٌ غفير من الطلبة يدرسون عليه بعض الكتب التي ألّفها.ثم انتقل إلى تونس التي كانت مركزاً علمياً مرموقاً، و«كانت سوق العلم حينئذ نافقة، وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة»[2]، فالتحق القلصادي بمجالس علمائها وأخذ عنهم علماً وقرأ، وعمل في الوقت نفسه في التّدريس، ثم رحل إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالإسكندرية، وأقام بالقاهرة ستة أشهر في الذّهاب، وأكثر من ثلاثة عشر شهراً في العودة أمضاها في القراءة والإقراء.

أما في البقاع المقدّسة فقد اشتغل القلصادي بتأليف كتاب في الفرائض وهو «شرح فرائض ابن الحاجب»، وروى الحديث الشّريف عن بعض شيوخها.

وبعد هذه الرحلة التي استمرت خمس عشرة سنة، وحظي فيها صاحبها أطيب الثّمار العلميّة وخالط أقطاب عصره في المغرب العربي والمشرق، رجع إلى بلده بسطة، ثم انتقل إلى غرناطة فأقام فيها مشتغلاً بالتّدريس والتّأليف. إلى أن استشعر بالخطر الذي عصف بوطنه، فرحل إلى باجة إفريقية سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م حيث واصل نشاطه العلمي فيها

---

(١) ينسب لابن مريم (ت٨٤٣هـ)، نفح الطيب ٧/١٩٨، ٨ هجرة النور الزكية ١٦١، نيل الابتهاج ٣٢٩، الأعلام الزركلي ٥/٠٠، فهرس الفهارس ٢/٩٩٢، وتقدمه فرحله للأندلس. محمد أبو الأجفان وآخرون. تاريخ بن خلدون ٦/ الرحلة.

(٢) رحلة القلصادي ١٤٠.

إلى أن توفّاه الله سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م ودفن فيها. خلف القلصادي مصنّفات عديدة في الرياضيات، والفرائض، والفقه، والنحو، والعروض والمنطق، والقراءات والحديث[1].

رحلة القلصادي:

وسُمّت الرحلة بـ «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب»، وبيّن القلصادي الغاية من القيام بها في مقدّمتها فقال: «الحمد لله الذي جعل طلب العلم واجباً على البعض من المسلمين... وفرض الحج على المستطيع من المؤمنين.. ثم سُنّت العمرة وزيارة نبيّه عليه الصّلاة والسّلام تشريفاً له وتعظيما..»

فقد بين المؤلّف أنّ الذي حفزه على الرّحلة أمران: أداء فريضة الحج وما يتبعها من عمرة وزيارات، وطلب العلم والاستزادة منه.

كما كان يهدف من تأليفها التّعريف بمشايخه الّذين أخذ عنهم العلوم المختلفة، فالرّحلة إذن حجازية علميّة.

بدأ القلصادي رحلته بمقدّمة موجزة يشرح فيها الهدف من تأليف رحلته، ثم يذكر مشايخه الذين أخذ عنهم بتبسطة، وما أخذ عن كلّ واحد منهم، فذكر ستة نفر هم:

١- علي بن عزيز، ٢- محمد القسطرلي، ٣- أبو بكر البياز، ٤- أبو عبد الله محمد البيساني، ٥- جعفر بن أبي يحيى، ٦- علي اللخمي.

ثم وصف مدينة بسطة فحلاّها بأجمل الصّفات، ثم انتقل منها إلى مدينة وهران فتلمسان فتونس فجربة فطرابلس فالإسكندرية فالقاهرة فالطّور فينبع فرابغ فجدّة، ثم وصل إلى مكّة فقام بمناسك العمرة والتقى بعدد من أصحابه، وزار بعض المعالم كجبل ثور، وغار حراء، ومنى، ودبار الصّحابة ومقابرهم، ثم عاد إلى مصر وأخذ عن بعض شيوخها، ثم رحل إلى الإسكندرية وركب السّفينة إلى برقة، ومنها إلى طرابلس فتونس فوهران فتلمسان، ومنها رحل إلى المريّة، ومنها عاد إلى بلده بسطة.

---

(١) الرحلة ١، ٧.

تتسم رحلة القلصادي بالإيجاز، فهو لا يطنب في الوصف، ولا يقف عند الجزئيّات، ولا يتوسّع في ذكر الأحداث، وفي خصائص البلدان التي زارها، وفي الأمور الاجتماعية، وهذا يفسّر صغر حجم الرّحلة بالقياس إلى غيرها من الرّحل الحجازية.

ويهتمّ القلصادي بالتّاريخ لأحداث الرحلة ولاسيما عند وصوله إلى الأماكن المقدّسة، وعند قيامه بمناسك الحج والعمرة التي يفصّل فيها، ويهتم بذكر مشاهداته في الأماكن المقدسة أكثر من اهتمامه بمشاهداته في غيرها من الأماكن.

وعني القلصادي بالتّرجمة لشيوخه الذين بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين، وجاءت تراجمهم متفاوتة في الطُّول، غير أنّ الإيجاز غالب عليها لأنه لا يذكر أطوار حياتهم، ولا شيوخهم ومصنّفاتهم، بل كان يكتفي بذكر ما أخذه عنهم، ويحلّيهم ببعض الأوصاف التي تبيّن قيمتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية، ويذكر الكتب التي قرأها عليهم.

ونظراً إلى أهمية الرحلة – على صغر حجمها — فقد اعتمد عليها عدد من المؤلّفين[1] فنقلوا عنها تراجم الشُّيوخ الذين ذكرهم القلصادي، وأسماء بعض الكتب التي ذكرها في رحلته.

وللرّحلة أهمية وثائقيّة كبيرة لأنّها تصوّر لنا نشاط العلماء، وطرائق تدريسهم، والكتب التي كانوا يتداولونها، وفنون المعرفة التي كانت رائجة آنذاك.

أما أسلوب القلصادي في رحلته فقد تراوح بين الأسلوب المتصنّع المزيّن بالسّجع، والأسلوب المرسل البعيد عن التكلّف.

نماذج من رحلة القلصادي

ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد البياني:

«ومنهم الشيخ الفقيه الوجيه الخطيب سيدي أبو عبد الله محمد البياني، قرأت عليه رسالة الشيخ ابن أبي زيد وأواخر ألفية ابن مالك، والنصف الأول من الإيضاح للفارسي، وحضرت عليه عدّة كتب في الفقه والعربية وغيرها. وتوفي أواخر شوال عام ستة وسبعين وثمان مئة».

(رحلة القلصادي ٨٥)

---

(١) سيتم الكلام في القسم الأخير، والمتعلّق في نهاية الأمر، على من مرّ في الرحلة، وتحديد عددهم بـ ٣٣ شيخاً.

وصف مدينة بسطة:

«.. دار تخجل منها الدُّور، وتتقاصر عنها القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها، وما طبعوا عليه من كرم الشّمائل، لهوائها الصّحيح وفضائها الفسيح، وبحسبك فيها عدم الحرج، لأنّ داخلها باب الفرج.

ولذلك قال فيها ابن الخطيب: إنها محل خصيب، ومنزل حبيب، وكفاها بمسجد الجنّة دليلاً على البركة، وبباب المسك دليلاً على الطِّيب، ولها من اسمها نصيب، إذ هي بكر الطعام، وينبوع العيون المتعدّدة بتعدّد أيام العام».

(رحلة العلصادي ٩٢-٩٣)

القيام بمناسك العمرة:

«وحين أشرفنا على الكعبة الشريفة، رأينا ما يُدهش النّاظر، ويحيّر الفكر والخاطر، بما خصّها الله تعالى به من المهابة والتّعظيم، فطُفنا بها سبعاً، وصلينا الرّكعتين في مستقرّ الأمن والأمان، مقام أبينا إبراهيم عليه السّلام، ثم خرجنا من باب الصّفا إلى الصّفا، وسعينا سبعاً، وقد تمّت العمرة بالحلاق».

(رحلة العلصادي ١٣٢-١٣٠

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

نموذج مدروس

رحلة العَبْدريّ - ٧٢٠هـ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

١ - ترجمة صاحب الرحلة:

لم تفصح المصادر القديمة عن حياة العَبْدريّ، فقد أهمل أصحاب كتب التَّراجم والطَّبقات والفهارس، وأقدم من ترجم له ... فيما نعلم - ابن القاضي المكناسي في كتاب جذوة الاقتباس، غير أنّ هذه الترجمة جاءت مختصرة لا تكاد تفيد كثيراً، فهي لا تذكر تاريخ ولادته، ولا زمن وفاته، ولا تفصّل في أخبار نشأته. ويبدو أن ابن القاضي استمدّ ترجمة العبدري من رحلته، وكذلك فعل من جاء بعده وترجم للعبدري، فالرحلة - فيما نظنّ .. هي المصدر الرّئيسي الذي أخذ عنه كلّ الذين ترجموا للمؤلف، ولولاها لضاع ذكر العبدري فيما ضاع من تراث هذه الأمّة.

ومّما احتمال أن يكون ابن عبد الملك المرّاكشيّ ترجم للعبدري ترجمة وافية في كتابه «الذيل والتكملة» لما كان بينهما من علاقة وطيدة إذ «يبدو أنه جمعت بينهما بعض حلقات الدرس في مرّاكش، ولاسيما حلقة شيخهما قاضي الجماعة بمرّاكش أبي عبد الله محمد بن علي بن يحيى المدعو بالشريف»[1] ونجد العَبْدريّ يذكر ابن عبد الملك بقوله: «صاحبنا الفقيه الأديب الأوحد»[2] ويصف كتابه بالإتقان والإفادة، ولكن هذا الاحتمال يبقى رهناً بعثورنا على الجزء الخاص الّذي ترجم فيه للمحمّدين، وهو لا يزال في ذمة الأيام.

ولذلك كان لزاماً علينا أن نسعى وراء الأخبار وما استتر من دلالاتها لنجمع ترجمة أقرب ما تكون إلى الصّواب لهذا الأديب.

والعَبْدريّ كما جاء في صدر مخطوطات رحلته: محمّد بن محمّد بن عليّ بن أحمد بن سعود[3]، وينتهي نسبه إلى عبد الدّار بن قُصَيّ بن كلاب وإليهم نسبته: العَبْدريّ[4].

---

(١) تكملة الصلة لابن عبد الملك المراكشي، ترجمة رقم ٨٠٤، ٢/٤٧٦-٤٧٨.

(٢) الرحلة ٢٠٢.

(٣) يرجع في ترجمة العبدري إلى المصادر والمراجع الآتية:

- الأعلام الزركلي ٧/٢٦٠-٢٦١.

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي ٤/١٨٧-١٨٨.

أعلام المغرب العربي الدكتور عبد الرحمن حميدة ٤٠٧-٤٠٣.

- تاريخ تطوان عمر

- الرحلة الأدبي الفرنسي المستشرق الروسكي ٢/٢١٧.

تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/٢٨٧.

- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣/١٢٢.

- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لكونثالث بالنثيا ص ٢١٨.

تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ص ٣١٨ - ٣١٩.

- الخوارزمي لمحمد مصطفى الحاجي ص ٨٦-٨٨.

صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٨٦ - ٢٨٨.

- صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٨٦ - ٢٨٨.

- كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري ٢/٧٧٠ مقال للدكتور حميد بن الوزنة.

- كتاب المسالك والممالك للإصطخري ص ٩٦ مقال للدكتور محمد بن شنب.

- كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ٢/٧٤٠ مقال للدكتور محمد بن الوزنة.

- مجلة الدارة السنة الثالثة ١٣٩٧/٤ مقال للدكتور محمد بن الوزنة.

- مجلة المورد المجلد ٢ العدد ٤ ص ٢٢٧-٢٣٢

أمّا أصله فقد تناقضت الآراء فيه، فبعض الباحثين[1] ممن ترجموا له يعدّونه أندلسيّاً هاجر من الأندلس إبّان اشتعالها بالحروب والفتن، واستقر في حاحة على شاطئ المحيط الأطلسي. وبعضهم[2] يرى أن أسرة العَبْدريّ كانت تقطن في بَلَنْسية ثم هاجرت إلى المغرب، وأقامت فيه، وفيها كانت ولادة المؤلف.

ولعل هذه النشأة للعبدري في حاحة هي التي حملت الأستاذ الفاسي على القول: إنّ العبدريّ مغربيّ لا أندلسي[3]. وليس بين أيدينا ما يرجّح أحد القولين، وإنْ كنا لا نلمس في رحلته ولا في شعره ذكراً للأندلس يدلّ على تعلّق العَبْدري فيها، في حين كان يذكر مرّاكُش على أنها موطنه، فأجاب عندما سئل عن بلده بأنها مرّاكُش[4].

وإذا نظرنا إلى تراجم العبدريين في المصادر الأدبية وكتب التراجم المختلفة، فإننا نجد أن موطنهم بَلَنْسية[5]. ومن هنا أتته نسبة البَلَنْسيّ، ولعلّ هذا الأمر هو الذي حمل بعضهم إلى ردّ أصله إلى الأندلس، بدليل أنّ من رحل من المشرق من بني عبد الدّار سكنوا بَلَنْسية، فمن المحتمل أن يكون أصل قوم الرجل أقاموا في الأندلس، غير أنّ أهله الأدنين رحلوا إلى المغرب وأقاموا في (حَاحَة)، وهناك كانت ولادته ونشأته كما سلف.

ويرى الدكتور شوقي عطا الله الجمل أن العَبْدريّ ولد في فاس، وأن زوجه من قبيله حَاحَة[6]، وقد تفرّد بهذا الرأي، ويبدو أنه خلط بين رحّالتنا وبين ابن الحاج الفاسي[7] صاحب كتاب المدخل.

أمّا تاريخ ولادة العَبْدريّ وتاريخ وفاته فمجهولان، فكلّ ما نعرفه أنّه قام برحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة. وكان عندها في عنفوان عمره كما قال له شيخه أبو زيد الدبّاغ[1].

---

(1) ينظر: بروكلمان ١/٤٨٧ – ريالفا في تاريخ الفكر الأندلسي ٢١٨. وعمر رضا كحالة ٢٢٣/٣ والأستاذ أحمد بن عبدو في مقدمة تحقيقه لكتاب الرحلة ص ٥ – والدكتور عمر تدمري في تاريخ الأدب العربي ٥٠٠/٤.

(2) منهم: كراتشكوفسكي في تاريخ الخزانة ٣١٧/١ – والدكتور زكي محمد حسن في كتابه الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ١٣٢، والدكتور نقولا زيادة في الجغرافية والرحالات عند العرب ١٦٢ – والدكتور أحمد رمضان أحمد في كتابه الرحلة والرحالة المسلمون ٢٤٧.

(3) انظر مقال الدكتور محمد الفاسي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد. المجلدان ٩ و١٠ لسنة ١٩٦١-١٩٦٢ صفحة ٢ وما بعدها. ومقدمة محمد الرباط صفحة ب، جـ – ويلحق في كتاب المحاضرات الثقافية الأسبوعية الجزء الأول سنة ١٩٩٤ صفحة ٢٦-٥١.

(4) الرحلة ٢٠٢.

(5) نفح الطيب ٢١٩/٢، الذيل والتكملة ٧٢/٥، ٧٤، ٢٩٢ و٢٢٥/٥-٢٠٩-٢٩٤.

(6) جذوة المقتبس المقدمة ١١٥/٥.

(7) هو محمد بن محمد العبدري الفاسي، عالم زاهد، كان عارفاً بمذهب الإمام مالك توفي بالقاهرة سنة ٧٣٧ هـ. (الديباج المذهب ٤٢٧ – حسن المحاضرة ١٠٤/١).

فإذا افترضنا أنه كان حين ذاك بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره تكون ولادته في آخر العقد الخامس وأوائل السادس من القرن السابع للهجرة، ونظن أن وفاته كانت بعد سنة سبع مئة للهجرة وهذا قريب مما قدّره الدكتور عمر فروخ — رحمه الله — إذ جعل وفاته سنة ٧٢٠هـ[٢].

ويبدو أن الأمر قد التبس على الزركلي إذ صنع ترجمتين متتاليتين للعبدري[٣] على أنه شخصان، وكذلك فعل عمر رضا كحالة[٤]، وهذا وهم منهما، لأن الترجمتين لشخص واحد هو العبدري صاحب الرحلة.

وثمّة اختلاف آخر في كنية الرّجل، فبعضهم يكنيه أبا محمد[٥]، وبعضهم يكنيه أبا عبد الله[٦]، ولا حاجة للإطالة في الحديث عن هذا الخلاف، فقد فصّل فيه محمد الفاسي — والرّأي ما قال — وجعل كنيته أبا عبد الله.

أما كنية أبي محمد فقد تأتّت من ذكره لابنه محمّد في رحلته. ويؤيّد رأي محمد الفاسي ما جاء في صدر بعض نسخ الرّحلة المخطوطة، كما أنَّ البلوي الذي رحل إلى المشرق بعد العبدري بسنوات قليلة أورد له أبياتاً من قصيدة تائيّة[٧] وكناه أبا عبد الله.

٢ — رحلة العبدري:

— تسميتها:

اختلف الباحثون في اسم هذه الرّحلة فمنهم من يسميها رحلة العبدري، وبعضهم يسميها الرّحلة المغربية.

وإذا عدنا إلى النُّسخ المخطوطة المتوفرة لدينا من هذه الرّحلة، نجد أنَّ اسمها لم يكن واحداً في جميع هذه النُّسخ، فقد كتب على غلاف نسخة باريس «رحلة العبدري» وهي الرحلة المغربية، وقريباً منه ما كتب على غلاف نسخة تونس «رحلة الشّيخ العبدري».

---

(١) الرحلة ١٢٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣/٨٠٠.

(٣) الأعلام ٧/٣١ و ٣٢.

(٤) معجم المؤلفين ١٠/٢٤٤ و ٢/١٧.

(٥) منهم بروكلمان وابن جابر في مادة طرفة الطوار وزكي مبارك وعمر فروخ وبالنثيا وابن أبي شنب في مادة المغارب الإسلامية.

(٦) منهم محمد حقوف في شجرة النور الزكية ١/٢١٧ وابن القاضي في درة الحجال وحمدة بن تونس في الوافي في الأدب المغربي ٢/٢٩٢ وحسين بوسي في الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ٢١٨.

(٧) نام الشوق ١/١٠٥.

وهذا يدلنا على أنَّ الرِّحلة عرفت باسم صاحبها، وهذا أمر مألوف في الرِّحل عموماً والمغربية والأندلسية بشكل خاص، فقد كان يغلب على اسم الرِّحلة اسمُ صاحبها فتشتهر به، ويشيع ذلك على ألسنة النَّاس حتى يكاد يُنسى الاسم الحقيقي للرِّحلة، كرحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير ورحلة ابن رشيد، فقلَّ من يعرف أن اسم رحلة ابن جبير هو «تذكرة بالأثار عن اتفاق الأسفار» واسم رحلة ابن رشيد ملء العيبة بما اجتمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكَّة وطيبة.

ولذلك فإننا نرجّح أن يكون العَبْدريّ قد وضع اسماً لرحلته إلا أنه لم يحفظ ولم يعش طويلاً، وبقي اسم العبدري علماً على رحلته.

وقد ذهب هذا المذهب الأستاذ أحمد بن جدّو الذي نشر قسماً من رحلة العبدري في الجزائر فأشار إلى احتمال أن يكون اسمها الجملة التي ذكرها العَبْدريّ في مقدمة الرحلة: «ما سما إليه الناظر المطرف في خبر الرِّحلة إلى بلاد المشرق»[1].

أما الأستاذ الفاسي ناشر طبعة الرِّباط فيرى أنَّ العبدري سمّى رحلته «الرحلة المغربية» وإنما قصد بها أنَّه قطع كل بلاد المغرب في طريقه إلى بلاد المشرق، ولم يركب البحر كما كان يفعله غيره من الرحالين كابن جبير[2].

سبب الرِّحلة ومدتها:

كان وراء رحلة العَبْدريّ سببان حملاه على المضيّ فيها:

الأول – سبب ديني: وهو القيام بفريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، والاتصال بالمصوفة والصَّالحين، وقد صرّح العَبْدريُّ مراراً بأنّه كان ينوي الإقامة بمكة والمجاورة بها، وبأنّه قد اكترى المنزل وجهز لوازمه، وصرف الرَّكب إلى المغرب لولا حدوث فتنة هناك أرغمته على الرّحيل عن مكة[3].

الثاني – هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان حريصاً على البحث عن السَّنَد العالي فيما يأخذه عن هؤلاء العلماء والمحدّثين، ونرى العَبْدريّ في سؤال دائم عن الأحوال العلميّة والثّقافيّة في البلاد التي يمرّ بها،

---

(١) مقتطفات من رحلة العبدري، نشرها في مجلة أوراق الجزائرية، ج ٢، ص ٢٤٦ في المجلد الأخير، ١٩٥٣م، وقد أشار إلى ذلك أيضاً الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في مقدمته لطبعة الرباط، ص ٥.

(٢) انظر: الفاسي، الرحلات الحجازية الأندلسية، ١/١٤، ط١، ١٩٦٩م، مكتبة الأستاذ محمد الفاسي.

(٣) الرحلة ٣٩٠، ٣٩٢.

فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلاد طرب لذلك وانشرحت نفسه فينطلق لسانه ثناءً وحمداً كما حدث معه في تونس[1] وإذا لم يجد هذا النوع من العلماء يهجو بلسانه الذَّرِب هذه البلاد وأهلها كما صنع في قابس وطرابُلُس[2].

أما مدّة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين، ويذكر المحاثة حسن حسني عبد الوهاب — رحمه الله — أن العَبْدريّ زار تونس مرّتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م، وعند رجوعه سنة ٦٩١هـ / ١٢٩٢م[3] فعلى هذا يكون العبدري قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته.

ويؤكد هذا البَلَويُّ حين أورد أبياتاً للعَبْدريّ في رحلته فقال: «أنشدها في تونس في رجب الفرد سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م»[4] فمن المحتمل إذاً أن يكون العَبْدريّ قد عاد في هذه السّنة من الحجاز، وأقام في تونس سنة أخرى كما فعل نظيره ابن رُشيد، ويؤكّد هذا الاحتمال ما ذكره العَبْدريّ عن أهل تونس، وعن كياستهم وعلمهم فهو قد أعجب بعلمائها وبمجالسهم العلميّة، ويؤكّد ذلك قوله عند دخوله تونس بعد عودته من الحجاز[5]: «وقد أقمت بها مدّة حتى شفيتُ الحَشا العليل، ونقعتُ بوِرْدِها الغليل، وقطعت فيها المُدّةَ والأصيل، بمجالسة كلّ فاضل جليل، فما أنفصل عن عالم يوضح المَلَك مهما أجاب، إلاّ إلى صالح يُختَلَب به ذَرُّ الشحاب، ولا أغدو عن مجلس أدب كقطع الرياض، إلاّ إلى محفل وعظ يسقي الخدود بالدّمع الفيّاض، فقطعتها أياماً من غفلات الدّهر مختلسات، وانتظم لي شملُ أنسٍ طالما مني بالشّتات، فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته، ولا علم مشهور إلا أتيته».

فالرّحلة إذاً ذات هدف مزدوج ككثير من الرّحل الحجازية التي كان أصحابها يقصدون الدّيار المقدّسة لأداء فريضة الحجّ، ويغتنمون الفرصة ليلتقوا الشيوخ في المدن التي كانوا يمرّون بها، ويأخذون عنهم ما يتيسّر لهم من العلوم المختلفة.

---

(١) الرحلة ١٠٥.

(٢) الرحلة ١٨٠ و١٨٤.

(٣) مقدمة رحلة العبدري صفحة ط.

(٤) نيل الفرقد ٢/١٠٩.

(٥) الرحلة ١٨٩.

منهج العَبْدريّ في تأليف الرحلة:

وضع العَبْدريّ في مقدمة الرّحلة منهجه في تأليفها فقال[1]: «وبعد فإنّي قاصدٌ بعد استخارة الله سبحانه، إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسّر رسْمه ونسويده، مما سما إليه النّاظر المطرق، في خبر الرّحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال مَن بها من القطّان، حسبما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يُخجم معرّدا[2]، ولا يجمح فيتعدّى المدى، مسطراً لما رأيته بالعيان، ومقرراً له بأوضح بيان، حتى يكون السّامع لذلك كالمبصر....»

وقد كان العَبْدريّ وفيّاً لهذا المنهج الذي ارتضاه لرحلته، مطبقاً له، فقد وصف البلدان وصفاً دقيقاً بمبانيها، وآثارها، وكثيراً ما كان يُعرّج على أهلها، فيصف عاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم، ومستواهم العلمي، ولم يكن متساهلاً في نقد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق الناس، أو في عاداتهم، وخصوصاً فيما يتعلّق بالنّاحية العلميّة للبلاد التي كان يدخلها كقوله عن طَرابُلس[3]: «ثم وصلنا مدينة طرابُلس، وهي للجهل مأتم وما للعلم فيها عُرس، أقفرت ظاهراً وباطناً، وذمّها الخبيرُ بها سائراً وقاطناً» ويقول عن تلمسان[4]: «وأما العلم فقد درس رسْمه في أكثر البلاد، وغاضت[5] أنهاره فازدُجِمَ على الثّماد[6]، فما ظنّك بما وهي رسم عفا طلّله، ومنهلٌ جفّ وشْلُه[7]».

وهذا ما جعل بعض الباحثين يصف آراءه بالتّطرّف، لأنّ العَبْدريّ لم يترك بلداً دون أن يوجّه إليه نقده بصراحة. لا مداراة فيها ولا مواربة، كقوله في أهل الإسكندرية[8]: (... ومن الأمر المستغرب، والحال الذي أفصح عن قلّة دينهم وأعرب، أنهم يعترضون الحجّاج، ويجرعونهم من بحر الإهانة المِلْحَ الأُجاج[9]، ويأخذون على وفدهم الطُّرُق والفجاج[10]،

---

(١) الرحلة ٢٨.

(٢) المعرّد: الفرار، أي: لا يخالف دليل.

(٣) الرحلة ١٨٤.

(٤) المعرّد: الفرار، أي: لا يخالف دليل.

(٥) غاض: نقص.

(٦) الثماد: الماء يكون فيها قلة القليل.

(٧) الوشل: الماء القليل يتصلّب من صخر أو مدر، يقطر منه ولا يروي.

(٨) الرحلة ٤١٦.

(٩) الأجاج: الشديد الملوحة والمرارة.

(١٠) الفجاج: واحدها فج: الطريق الواسع بين جبلين.

ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النِّساء والرِّجال.....)، وكذلك ذمّه لأهل القاهرة وأخلاقهم[1]: «إذْ وَصَفَ القاهرة وأهلها وَصْفَ ناقد حاذق وكان قَوِيَّ الملاحظة فسجل ما رآه من العيوب التي أحسّها هو عند المصريين»[2].

ولعلَّ هذا النَّمَط لمصر وأهل مصر هو الذي حَمَل الدكتور حسين مؤنس على لوم العَبْدريّ، ونعته بالتَّطرّف والتّعقيد[3]، وتحامله عليه وعلى رحلته، ومحاولة الحطّ من قيمتها إذ قال: «وأما العَبْدريّ فقد أنفق ثلاثة أرباع الكتاب في كلام مضحك وساذج لا قيمة له»[4].

والواقع أنَّ العبدري كان يتمتّع بصفة الصَّراحة والصِّدق في كلِّ ما يقوله بخلاف غيره من الرَّحالين الذين تحدثوا أيضاً عن سوء المعاملة من رجال الحدود في مدينة الإسكندريّة، كابن جبير، والبَلوي، وغيرهم.

كما لجأ العبدري إلى ذكر الأخبار التي استفادها والأشعار التي أنشده إيّاها العلماء، لأنّه كان يكثر من الاستشهاد بالشِّعر وإيراده له ولغيره، وكثيراً ما كان يأتي بالقصائد كاملة، على طولها أحياناً[5].

وقام أيضاً بنقل بعض المعلومات المهمّة التي كان يراها تخدم غرضه من الكتب المختلفة، لتوضيح ما يذهب إليه، وإن لم يشاهدها عياناً على الشرط الذي اشترطه على نفسه في مقدمة الرِّحلة.

ولقي العَبْدريّ مجموعةً من المحدثين الذين سمع منهم كثيراً من الأحاديث الشَّريفة، وأثبت بعضها في رحلته، وأبدى عناية كبيرة بالسَّند العالي، كما سلف، وكان كثيراً ما يورد الحديث بسنده كاملاً.

أما تقسيم الكتاب فلا نكاد نلمح تقسيماً واضحاً له، ولكنّنا نجد في بعض الفصول التي كان كثيراً ما يلجأ إلى عقدها عندما يريد الوقوف على ظاهرة، والتفصيل فيها تفصيلاً يبعد قليلاً عن غَرَض الرحلة ومنهجها، مستطرداً في

---

(1) الرحلة ٢٧٤ وما بعد.

(2) المصدر نفسه ٢٧٦.

(3) انظر: في ظل الحضارة ٨٣.

(4) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ٥٢٠.

(5) انظر: الصفحات ٤٤ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ ١٧٦ ـ ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٦ من الرحلة.

حديثه عن بلد وما يختص به، أو عن تاريخه كما صنع في الحديث عن عجائب مصر ونيلها[1]، والحديث عن بناء المسجد الحرام[2]، والكعبة وأسمائها[3].

كما ترجم العَبْدريّ للشُّيوخ الذين لقيهم، وكان كثيراً ما يذكر تاريخ ولادة الشيخ، ورحلته في طلب العلم، ويشفع ذلك أحياناً بالحديث عن بعض طبائع الشَّيخ وعاداته[4].

وكثيراً ما كان العَبْدريّ يستطرد إلى بعض الآراء التي تستوجب منه مناقشة وتوضيحاً، كما صنع في مشاراكاته الفقهية، ومناقشاته العلمية[5].

مصادره في تأليفها:

تحتوي رحلة العَبْدريّ على معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية، بالإضافة إلى المعلومات الفقهية، لذلك نلاحظ تنوّع مصادره تنوعاً كبيراً ككتب السّيرة والحديث والتّصوُّف، وكتب الجغرافية والرّحل والتّاريخ، والدّواوين الشّعرية.

وقد صدر العَبْدريّ في ذلك كلّه عن طائفة من المصادر المتنوعة يأتي في أولها: المشاهدة، ثم الرّواية الشّفوية ثم المصنفات المختلفة، التي نقل عنها.

أمّا **المشاهدة**: فقد ظهر أثرها واضحاً في المعلومات الجغرافية عن المناطق والبلاد التي مرّ بها، وخصائصها العمرانية، وتضاريسها، وكان وصفه لها وصْفَ شاهد عيان، كما يصف لنا السّهولَ والجبال بأسلوب كلّه إشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ما هو طبيعي طلق. وهنا ينكشف العَبْدري عن جغرافي طبيعي لماح يُدرك بالنّظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل[6].

---

(1) الرحلة ٣١٦-٣١٢.

(2) الرحلة ٢٨٤.

(3) الرحلة ٢٧٥.

(4) انظر الصفحات ٢٩١-٢٩٧.

(5) الرحلة ١٥٦-١٥٠.

(6) انظر دراسة بلاشير في الأندلس ٥٢٣.

وقد حملت هذه الرّحلة طائفة من المعلومات والقضايا العلمية التي أخذها المؤلّف من **صدور العلماء مشافهة**، وقيّدها في رحلته فزخرت بها ووعت كثيراً منها مما لم نجده في غير هذه الرحلة، ومن ها هنا تزداد قيمة الكتاب العلمية، وتسمو درجة نحو الجودة والفائدة.

ولا ريب أنّ هذين المصدرين كانا المصدرين الأساسيين اللذين نهل منهما العَبْدريّ، وعوّل عليهما في تقييد رحلته، وتسجيل ما اعتلج في صدره عن تلك الرّحلة، وما شاهده خلالها، وما نقله عن العلماء الذين قابلهم.

أما المصدر الثّالث فهو **المصنفات** التي نقل عنها العَبْدريّ. وقد لجأ إليها مستعيناً بها على ما لم يشاهده، أو شاهده ولكنه يريد التّوكيد والتّوضيح والاستدلال، وسلك في نقوله عن المصادر طريقين:

الأول: أن يذكر المصدر ثم ما ينقله عنه.

الثاني: أن يورد النّقل، ثم يقول: حكى هذا فلان في كتابه كذا.

وهذه دقّة في التّصنيف، إذ يلجأ العَبْدريّ إلى نسبة الأقوال إلى أصحابها، وبهذا يمكننا مراجعة الأقوال في مصادرها الرّئيسية.

ويمكن أن نُصنّف مصادره التي نقل عنها ضمن الطّوائف التّالية:

١- المصادر الجغرافية والتاريخيّة: ككتاب «المسالك والممالك» لأبي عُبَيد البكري (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) و«أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرقي (ت ٢٥٠هـ / ٨٦٤م)، و«طبقات الأمم» للقاضي صاعد (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) و«مروج الذهب» للمسعودي (٣٤٦هـ / ٩٥٨م).

٢- كتب الحديث المختلفة: الصّحاح وغيرها، إضافة إلى كتاب «غريب الحديث» لأبي عُبَيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٩م) و«مشارق الأنوار» للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م).

٣- كتب السّيرة النبوية: «كسيرة ابن إسحاق» (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م) و«الرّوض الأُنف» لأبي القاسم السّهَيلي (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م) و«الاكتفاء» لأبي الربيع بن سالم الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م) و«الشمائل» للترمذي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٣م).

٤- كتب الفقه المالكي: «كالمدّونة» لعبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١هـ / ٨٠٦م) و«العُتبيّة» لمحمد بن العُتبي القرطبي (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م) و«التلقين» للقاضي عبد الوهاب (ت ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م).

٥- كتب التصوُّف: ككتاب «التشوُّف» لابن الزيّات (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م)، و«منار العلم» لأبي سعيد الحاجي المتزازي.

٦- الدواوين الشعرية والمجموعات: «كديوان المتنبي»، و«النّابغة» و«الحماسة»، و«بتيمة الدهر للثعالبي» (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م).

٧- كتب أخرى في القراءات والتراجم «كالتيسير» و«المقنع» لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م) وغيرها.

وقد لاحظ المستشرق كراتشكوفسكي كثرة نقول العَبْدري مما دفعه إلى القول[1]: «ومن المؤكد أنه على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتّجاه. وهو عندما يضمّن وصفه كلاماً من المسعودي أو البكري إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل إلى التّساؤل هل يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة؟».

ولا شك في أن المستشرق الرّوسي ليس محقّاً في تساؤله وحذره، لأنّ العَبْدري لم يكن يأخذ من المصادر بشكل اعتباطي، بل كان يعمل الحذر فيما ينقله، وكان يناقش في كثير من الأحيان ما ذكره غيره، ويناقشه، ويصوّب أخطاء الذين سبقوه، ونقد البكري وصوّبَ له غير مرة[2]، مما يدلنا على صحّة ملاحظاته ودقّتها، ولاسيما فيما يتعلق بالجانب الجُغرافي الذي يعتمد على المشاهدة.

أسلوب العبدري في رحلته:

من خلال قراءتنا لرحلة العبدري نستطيع أن نتعرف خصائص نثره الفنّي، ومكانته الأدبية، وهو في هذا النثر لا يخرج عن الأسلوب الذي كان سائداً في عصره، وهو أسلوب التصنّع والتزويق اللفظي، وإن كنّا لا نعدم مواضع ابتعد فيها العَبْدري عن هذا الأسلوب، وترك نفسه على سجيتها، فجاء أسلوبه مرسَلاً بعيداً عن قيود الصنْعة، وبذلك نرى صاحب الرّحلة لم يلتزم أسلوباً واحداً في رحلته بل زواج بين أسلوبي التصنيع والطبع.

---

(١) منهج الأدب الجغرافي العربي، ٢٠٨.

(٢) الرحلة ٤٠١-٤٠٢-٤٠٨.

طغى على أسلوب العَمْدري في رحلته الصَّنعة والتكلُّف فقد فشا فيها السَّجع والجناس وما إلى ذلك من المحسنات البديعية التي يَكِدُّ المؤلف فيها ذهنه، ويعمل فكره، ويقسو على نفسه ليلائم بينها، ويروِّق ألفاظه وجمله فيها.

ولما كان هذا الأسلوب طاغياً على الرِّحلة فإنَّنا سنعرض إلى أبرز خصائص أسلوبه الفنِّي مؤيِّدين كلامنا بشواهد موضِّحة ودالَّة على المقصد:

الإكثار من المحسنات البديعية كالسَّجع والطِّباق والجناس وهي أبرزها، وهو في السَّجع لا يكتفي باتِّفاق أواخر الفواصل في الحروف، بل ربَّما لجأ إلى الموازنة بين ألفاظ الجملتين فيأتي بسجعات صغيرة ضمن السَّجعة الكبيرة كقوله عند وصوله إلى المدينة المنورة[1]: «وفي ضحى يوم الاثنين الثَّامن والعشرين من ذي حجَّة وصلنا إلى معهدِ الفضائل المشْهورة، ومعقد الوية الدِّين المنشورة، وعتد المآثر المذكورة، مجمع محاسن الدَّارين، ومنبع مفاخر العَصرين، ومطلع سعادة الثَّقلين، روضة أزهار الأنام، ومشرق أنوار بدر التَّمام، وحمى كَرَم ما خامَ حوله خام، ولا سَام بصفقته سَام، حمى أدم فآدم عيشه القشف بإكرام، وأولاه مناه، ولولاه لاستمر أذاه ودام، ولاغرو أن كان أباه وقد أسماه عليه الله فالتُّرْبُ من التِّبت والقطر من العُمام. كم حوى من فخر محل حواه، كم نال من أثر أثر رؤاه، علا على كل شرف شُرُف إليه منتماه، بل غلت به الوهاد على الآكام. فحَرِيٌّ غدا لبدر الفضائل هالَةٌ، منزل إن نازلَهُ وصَّافٌ بالوَصف هالَه، فصاراي الوصول ولو كنت ابنَ أبي هاله. وضَجَّت من طول وصفي الأقلام... يا له محلاً هو لسلك الدُّنيا واسطة، فدع عنك الشَّام وحمْصَه، والعراق وواسطه، وبه تُمسي القلوب مقسطَّة وقد أصبحت قاسطة، وبه تحطّ أوزارُ من قَطن أوزار، وتُمحى الآثام».

فقد جاء المصنِّف بثلاث سجعات داخلية قصيرة ضمن السَّجعة الكبيرة، واعتنى بصياغة الجملة عناية كبيرة، ووشَّى جمله بأنواع البديع وحلاَّها بكثرة الفواصل، ما أكسب النص موسيقا داخلية يلَذُّ بها السَّمع وإن كان يظهر على أسلوبه التكلُّف في اصطياد الجمل ليحصل في نهايتها على سجعه تأتلف مع سابقتها أو لاحقتها.

ويقول واصفاً الإسكندرية[2] «مدينة الحَصانة والوثاقة، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة، كَلَّ عنها طِفْرُ الزَّمان ونائبه، ومَلَّ منها جيش الحَدثان وأحزابُه، فلم تَبْدُ عليها للزَّمان ضراعة، ولا وَكَسَت لها في معاملاته سلعة ولا بضاعة، ولا وقفت له موقفَ ذلٍّ يوماً ولا ساعة، بل ثبتت لحزبه ثبوتَ البطل، وصابرت كيده حتَّى اضمحلَّ سحره وبطل، ولم تُصغ أذناً إلى ما يوعد به من الحنا والخَطل، فهي واقفة وقوف الأطواد سامية بطَرْفٍ غير

---

(1) الرحلة ٤١٩-٤٢٠.

(2) الرحلة ٤٠٠-٤١١.

كليل، وجبلٍ غير منآد، آخذة من الكفر وأهله بالمخنق حتى أبدلتهم من الضّافي المرزّق الكدر المرنّق، فسامروا الأسف مسامرة النّدى للمُحلّق[1]، ودجا عليهم ليلٌ هجٍ ادفهمّ بعد نهارٍ سرور تألّق، واصطرم عليهم الأسى واحتدم فحالفوا الندم وقالوا عضو لا يتفرّق..»

فالعَبْدريّ هنا أسيرٌ للصّنعة، يلتزمها التزاماً كلّياً، ونجده يُعنى بالسّجع عناية بارزة، ويظهر هذا وراء الألفاظ ليحصل على سجعه تلائم سابقتها أو لاحقتها كم رأينا في قوله: «ولا وكست له في معاملاته سلعة ولا بضاعة» فقد اقتحم هذه الجملة ليتصيّد في نهايتها هذا المعطوف «ولا بضاعة» ليحقّق الانسجام مع «ضراعة» قبلها و«ساعة» بعدها، ولو استغنينا عنها لما تغيّر المعنى، ولكان التّرتيب كما يأتي: فلم نجد عليها للزّمان ضراعة ولا وقفت له موقف ذُلٍّ يوماً ولا ساعة».

وهو أرشق وأفضل وكانت الجملة الثانية تأكيداً للأولى وتثبيتاً وتبييناً لها[2] ونرى الرّأي ذاته في جملة «فلم تُصغِ أذناً إلى ما يوعد به من الخنا والخطل» التي يمكن الاستغناء عنها، فيكون قوله «بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل، وصابرت كيده حتى اضمحلّ سحره وبطل».

والعَبْدريّ يمضي على هذا النّسق من التّلاعب بالألفاظ، ورصف الكلمات والعبارات مما يزيد الأسلوب إرهاقاً والمعنى إبهاماً وغموضاً في بعض الأحيان.

والجناس من المحسنات التي أعجب بها العَبْدريّ واستهوته، فتراه يسعى وراءه تاماً أو ناقصاً، ولا يهتمّ من ذلك إلا مجال شكل العبارة، وإن لم يكن وراءها طائل فمن ذلك قوله[3]:«شملٌ غدا لبدر الفضائل هالة، منزل إن نازلة وصّاف بالوصف هالّه، فصاراي الوصول ولو كنت ابنَ أبي هالة.. وبه تحط أوزار من قطن أوزار».

وتضييق العَبْدري على نفسه بلزوم ما لا يلزم من الحروف جعل كثيراً من سجعاته من الجناس الناقص من ذلك قوله[1]: «يا له عملاً هو لسلك الدّنيا واسطة.. به تحمي القلوب مقسطة وقد أصبحت فاسطة» وقوله: «كلّ عنه ظفر الزّمان وناب وملّ منها جيش الخذلان وأحزابه».

---

(1) هو الملك المظفر صاحب ماردين الأيوبي.

(2) الوافي في الأدب، المقدمة ٣٩٠ ـ ٣٩٢.

(3) الرحلة ٤١٩ ـ ٤٢٠.

وكان **للطباق والمقابلة** حظ في أسلوب العبدري كقوله عن ملبانة[1]: «وأدى له من حكمة خطلاً، وكساه بعد الحير الأطمار.. وأحل حلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار». وقوله: «دجا عليهم ليل همّ ادلهمّ بعد نهار سرور تألّق».

ويكثر العَبْدريّ من **الاقتباس والتضمين**، فقد وهب البراعة في حسن التّصرّف في الأسلوب تجلّت في صور الاقتباس والتّضمين من الكتاب العزيز، والحديث الشّريف والحكم والأمثال، وما كان ينثره من أشعار في كتابه.

فمن أمثلة **الاقتباس** من القرآن الكريم قوله[2]: «وكنا قد تركنا السّلطان على الحركة إلى جهاد عكّة، وقد برز جميع عسكره خارج المدينة، فلما خرج مرض فمات من حينه، فسبحان من ﴿كلّ شيء هالك إلا وجهه﴾[3].

وقوله[4]: «واستبان لهم لما لاح في ليل خَبْطِهم نهار انّ بنيانهم كانّ ﴿على شفا جُرُفٍ هار﴾[5]، ولولا ما أتوقع من جدال المماحك، لم أشن وجوه الأوراق بهذه المضاحك، ولم أخلد لهاذ ذكراً في كتاب، بل أطويها، ﴿كطيّ السّجل للكتاب﴾[6].

ووشح العَبْدريّ جُمَلهُ بمقاطع من الأحاديث الشّريفة كانت تتلألأ في أثناء جمله كقوله[7]: «وقد يردع المسيء عن إساءته، ما يرى ويسمع من مساءته، ومن التّأديب ما كفّ المرء عن زلّله و«نيّة المؤمن أبلغ من عَمَلِه»[8].

وقوله[9]: «وقد دلّ ما نالوه من جسيم الملك كلّ ذي فطرة سليمة على حقارة الدُّنيا وخساستها» و«لو وزنت عند الله جَناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرعةَ ماء»[10] «إنّ الله يعطي الدُّنيا من يُحبّ ومن لا يحبّ ولا يُعطي الآخرة إلا لمن يُحبّ»[11].

---

(1) الرحلة ١١٩، ٤٢٠.

(2) الرحلة ٧٩.

(3) الرحلة ٥١٠.

(4) سورة الحشر من الآية ٨٨.

(5) الرحلة ١٨٢.

(6) سورة الأنبياء من الآية ١٠٤.

(7) الرحلة ١٩.

(8) حديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الأمثال ١/٤٠. والديلمي في الفردوس ٣/٤٤٩.

ويلجأ العَبْدري في كثير من الأحيان إلى أبيات الشِّعر أو أجزاء منها ويدخلها في مضمون عبارته ببراعة وإتقان، وربما غمض الأمر على الباحث فلم يستطع أن يردَّ مضمون العبارة إلى مصدرها كقوله[1]: «فوقف علينا خمسة أشخاص أثَّر فيهم الدُّؤوب، وعلا على ألواحهم الشُّحوب، عانقوا البراري والقفار حتى أخلصتهم خلوص العسجد بالنَّار وتخوَّفهم الخوف المطير للوسن، «كما تَخَوَّف عودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ»[2].

وقوله عن مدينة تونس[3]: «وبها من أهل الرواية والدراية عدد وافر، يجلو الفخار بهم عن محيّا سافر ويزيد علمهم وقد «ألقت ذُكاءُ يمينها في كافر»[4].

وقوله عن روضة السيدة نفيسة في القاهرة[5] «عليها رباط مشهور وعمل محمودٌ محشودٌ، تصبُّ بها دِيَمُ العناية الرَّبّانية وتجود، و«لأمرٍ ما يُسَوَّدُ من يسود»[6].

ولا يجد العَبْدري بأساً من نَثْر المنظوم في أثناء جمله كقوله عن مدينة طرابُلُس[7] «لا ترى بها شجراً ولا ثمراً، ولا تخوض في أرجائها حوضاً ولا نهراً، ولا تخلي روضاً يحوي نَوْراً ولا زهراً، بل هي أقفر من جوف حمار، وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس لناشئ منهم فضل لذي شَيْبة، ولا لذي الفضل منهم هيبة» فقد نثر العَبْدري قول كُثيِّر عَزَّة[8].

سواءٌ كأسنانِ الحمارِ فلا ترى ... لذي شيبةٍ منهم على ناشيء فَضْلاً

ومن أمثلة تضمينه الأمثال ببراعة قوله[9]: «فإن صحا مرَّة فخوطب قال: أنا ضيف عَمرو، وإن حُذِّرَ بأمر أو خُوِّفَ بزيد أو عَمرو قال وهو مشتعل الأحشاء بالجمر: دعوني فلا خوف و«لا حُرَّ بوادي غوف»[10].

---

(1) الرحلة ٢٢٦.

(2) أخرجه البخاري بإسناده، انظر كتاب الجهاد، باب ما جاء في مراد الله تعالى لله عز وجل رقم ٢٣٢١.

(3) انظر مسند ابن سهل ٣٨٧/١.

(4) الرحلة ٤٦.

(5) ضبط بعض المخطوط في عدة مواضع: «الخوف الدائر من» والمثبت من الرحلة.

(6) الرحلة ١١٤.

(7) ضبط بعض العبارة بن ضمن الملاي وصفحه عبدالكريم الفلاً وقدماً بعدها انظر الاصطلاحات ١٤٠.

(8) الرحلة ٢٢٧.

(9) ضبط بعض الأمثلة من قبله وصدره: «فعرفت على [illegible] الأسلي والمثبت (صبح).

(10) الرحلة ١٨٥.

(11) ديوانه ٢٨٤.

وقوله في عقبة أيلة: إن[3] «كثيراً من الحجّاج من ينجهز منها، ولكن الأمل ربما غرَّ فضرَّ، وقديماً قالوا: «عِنَّ ولا تَغْتَرَّ»[4].

كما يلجأ العَبْدريّ إلى **اصطناع ألفاظ العلوم** واستخدامها في نثره كألفاظ العلوم المختلفة، ومناسك الحج، والفقه، وأسماء الفقهاء، والأعلام من رجال الفكر والشّريعة، يقول عن مدينة بونة[5]: «ثم وَصَلْنا إلى مَدينة بونة، فوجدناها بلدةً بطوارقِ الغير مغبونة، مبسوطة البَسيط ولكنها برحف التّوالب مطوّيّة مخبونة»، فقد استخدم العَبْدريّ مصطلحات العَروض من بحور وزحافات وعلل.

ويقول عن القاهرة[6]: «تريك صورة ليلى في عين ابن الحُتَيْر، وتسفر لك خبرتها عن وجه كُثيّر وتبلّد الذكيّ التّحرير ونحيّر».

ويقول منكراً على أهلها اشتغالهم بالمنطق[7]: «فليت شِعري هل قرأه الشّافعيّ ومالك، أو هو أضاء لأبي حنيفة المسالك، وهل عارَكه أحمد بن حنبل، أو كان الثوريّ على تعلّمه قد أقبل، وهل استعان به إياس في ذكائه، أو بلغ به عمرو ما بلغ من دهائه، أو تمرس به قُسّ وسَحبان».

أما في **أسلوبه المرسل** فنجد العَبْدريّ يترك نفسه على سَجيّتها، وعبارته من دون قيد السّجع وتحسنات البديع، فتجيء واضحة سهلة، جليّة المعاني، بعيدة عن الغموض، خالية من زخارف الألفاظ والتصنع، ونلمح هذا في مجالات الوصف والمناقشات العلمية، وعند حديثه عن بعض الشّيوخ. من ذلك ما قاله معرّفاً ابن خميس التِّلِمْساني[8]: «وما رأيت بمدينة تِلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله بن محمد عمر بن محمد خميس، وهو

---

(1) الرحلة ١٢٩.

(2) الخلل في الحواشي إلى آخر الحديث ٧٢، الجمهرة ٢/٤٠٦، وينظر الدارمي ٢/٤٩٦.

(3) الرحلة ٢٤٠.

(4) المثل في الحيوان للجاحظ ٦/٤٤٦ الوسيط ١٢٤ = الدارمي ٢/٤٠٦.

(5) الرحلة ١٠٤. والمثل: حذاقة الرامح من مستعملي رماحهم في البسيط والراسخ والمرسن. والتوالب: جمع تولب: الجرو الصغير.

(6) الرحلة ٢٧٥. وليلى: هي ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير الخفاجي. وكثير: هو كثير بن عبد الرحمن الشاعر

(7) الرحلة ٢٨٤. ذكر الصفدي في الوافي بالوفيات الأوزاعي وسفيان الثوري وإياس بن معاوية قاضي البصرة وعمرو بن العاص وابن بن سعيد الأموي وعمرو بن العاص الذي يضرب به المثل في الدهاء والمكر والدهاء والدهاء.

(8) الرحلة ٥٣.

في السن، مولده عام خمسين، وله عناية بالعلم مع قلّة الراغب فيه والمعين عليه، وحظٌّ وافر من الأدب. وطبع فاضل في قرض الشعر».

ويصطنع العَبْدريّ هذا الأسلوب في ميدان الوصف الذي قلّما يبتعد فيه معظم كتّاب ذلك العصر عن السّجع، يقول في وصف مدينة القدس[1]: «والبلد مدينة كبيرة ومنيعة محكمة، كلها من صخر منحوت، على نَشَز غليظ، مقطوع بجهات الأودية، وسورها مهدوم، هدمه الملك الظّاهر خوفاً من استيلاء الرُّوم عليها وامتناعهم بها، والخراب فيها فاشٍ وليس بها نهر ولا بستان، وحواليها تلال مشرفة، وبها كنيسة معظمة عند النّصارى يحجُّونها في كلّ عام..»

ويقول في وصف المدينة المنورة[2]: «مدينة مليحة ظاهرة الشّراقة والرّونق، موضوعة في مستوٍ من الأرض على واد به غابةٌ عظيمة من النخل وأرضها سبخة، وبظاهرها حَرّةٌ سوداء ووعرة، وسورها قد أثّر فيه القِدَم، وتربته حمراء، ولها جملة أبواب لا أحصي عددها، والبقيعُ شرقيُّها، وجبل أُحد شماليُّها وهو جبل عالٍ إلى الحُمرة، وليس بمفرط العلو، وقُباء منها في جهة الشّرق تلوح مبانيه وصومعته من المدينة..».

فهذه النّماذج من نثر العَبْدري المرسل توضح أسلوبه الذي كان يتحرر فيه أحياناً من قيود السّجع والصّنعة، ولا نجد مميزات خاصة لهذا النثر، فهو يبسط فكرته بوضوح وجلاء، ويستعين بكل ما يستطيع من ألفاظ معبرة تؤدي المعنى المطلوب.

كما يدخل ضمن هذا الأسلوب المرسل أبحاثه الفقهية والفصول التي خصصها لمناقشة بعض المسائل العلمية، والقضايا المختلفة في اللُّغة والفقه والتّفسير[3].

وخلاصة القول: إن العبدري امتلك ثقافةً واسعة في علوم اللغة وفنون البلاغة جعلته يوشي أسلوبه بضروب البديع والبيان، وتمتلك قدرة على تحسين ألفاظه وجمله فقدّم لنا عبارات مسجوعة مفعمة بالمحسنات البديعية نشعر في قراءتها أن هذا الفن انقاد للمؤلف وامتلك زمامه فجاءت صنعته في الغالب أقرب ما تكون إلى السهولة، وما ذلك إلا لقدرة وتمكّن وثقافة ساعدت كلّها على أن تظهر لنا صنعة العَبْدريّ بلبوس حَسن ومقبول في الغالب، وهذا ما ذهب

---

(1) الرحلة ص ٤٦٨.

(2) الرحلة ص ٤٧١.

(3) ينظر الصفحات ص ١٨١، ١٨٨ - ١٨٩.

إليه كراتشكوفسكي إذ قال[1]: «فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلّف إلا أنه يكتب في نفس الوقت بحرية ويسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة المعجوجة التي تلتقي بها لدى ممثلي الأجيال التالية».

النقد في رحلة العبدري:

تميّزت رحلة العَبْدريّ بنظرات في النقد، تدنو في أغلب الأحيان — كما سنرى — من الصواب، بحيث يمكننا أن نعدّها حلقة ضمن حلقات النقد الأدبي في المغرب، وهذا ما جعل الدّكتور عبد العزيز قليقلة، يعقد للمصنّف فصلاً في كتابه «النقد الأدبي في المغرب»[2]. فلم يكد العَبْدريّ يترك جانباً إلاّ عالجه وأبدى رأيه فيه، ولم تكن أحكامه منصبّة على النقد الأدبي وحسب، بل إنها تعدّته إلى النقد اللغويّ والنحويّ والعَروضي وغيره بحيث بلغت هذه الوقفات النقدية في الرحلة نيّفاً وخمسين موضعاً نقدياً في المجالات الآتية:

آ- النقد الأدبي:

حفلت الرّحلة بالأحكام النّقدية الأدبية، وكانت هذه الأحكام تعتمد في الغالب على الذّوق في تمييز الجيّد من الرّديء، ولم يكن ذوق المصنّف فطرياً يعتمد على الارتجال بل كان ذوقاً يستند إلى ثقافة متنوعة ومقدرة على التدقيق والتمييز وإصدار الأحكام.

فمن ذلك أنّه كان يحكم بجودة المعنى وابتكاره، كتعليقه على بيتي محيي الدين المازوني[3]:

إذا مـا اللـيـالي جاورتْـكَ بسـاقطٍ ... وقـنـزُكَ مرفـوعٌ فعنـهُ ترحّـلي

ألم تَرَ ما لاقاهُ في جنْبِ جارِهِ ... «كبيرُ أناسٍ في بجـادٍ مُزمّـلِ»[4]

يقوله: «وهذا المعنى الذي ابتكره حسن جداً»[5].

ويعلق على أبيات ابن خطّاب المؤسيّ[6]:

---

(1) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، 1/360.

(2) النقد الأدبي في المغرب، 494-511.

(3) أحد الشروح لابن الفقيه الصغير بالإسكندرية.

(4) صدر هذا البيت من معلقة امرئ القيس، وعجزه: كأنّ ثبيراً في عرانين وبله.

(5) الرحلة 298.

(6) الرحلة 298.

اشـــكر لربّـــكَ وانتظـــر ... في إثـــر عُسْـــرِ الأمـــرِ يُســـرا

واصـــبر لكربـــكَ وادّخـــر ... في ســـتر ضـــرّ الفقـــر أجـــرا

فالـــدّهرُ يعثـــر بالـــورى ... والصـــبرُ بالأحـــرار أحـــرى

والـــوفر أظهـــرُ منْشـــراً ... والفقـــرُ بالأخيـــار يغـــرى

بقوله: «نظام هذه الأبيات يدل على باعٍ مديد، وطبعٍ فاضل ومقْولٍ مجيد»[2].

كما يُعلّقُ العَبْدريّ على بيتي أبي الطيّب الرُّندي[3]:

مـــلّت ظُبـــا الألحـــاظِ مُرْهفـــةَ علـــى ... قلـــبٍ أرقّ مـــن الهـــوى المكتـــوم

نَزعـــاتِ رامٍ وهـــي نزعـــةُ ريمـــةٍ ... شـــقّتْ صـــميمَ حشـــايَ قبـــلَ أديمـــي

فيقول: «وهذا أغرب ما يكون من الشعر وأرقّه، وأحسنه لفظاً ومعنى»[4].

ويُظهر هذا الحكْم النقديّ ثقافة المؤلف النظرية وتأثره برأي ابن قتيبة في ضروب الشعر[5].

ولم تكن وقفاته كلّها موجزة، ولكنه كان يطيل في بعضها، وربّما علّل كتعليقه على القصيدة الشّقراطسية[6] التي أوردها بتمامها في الرّحلة وجاءت في ثلاثة وثلاثين وستة بيت فقال: «قد أبدع هذا الناظم – رحمه الله – فيما نظم، وشرّف هذه القصيدة بقصده الجميل وعظّم، فراقت معنى ومنظراً، وشاقت حسّاً ومخبراً على أنه – رحمه الله – قد أكثر

---

(1) محمد بن جابر الله بن محمد بن عامر، الحافظ الأندلسي، كاتب، أديب، نال بالأندلس الوجاهة والثروة، ثم رحل إلى المشرق، فتوفي بطرابلس سنة ٦٩٩هـ. (الإحاطة ٢: ٢٦٧).

(2) الرحلة ٢: ٦٢.

(3) عبد الله بن رشيد بن صالح العبدري، أديب، شاعر، من أهل رُندة، ولد سنة ٦٠١هـ وتوفي سنة ٦٨٤هـ. (الإحاطة ٢: ٢٦٠).

(4) الرحلة ٢: ١٦٠.

(5) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١: ٧٤.

(6) القرطاسية: مدينة حسنة الذكر وجيزة.

(7) وهي من بديع الشعر وغرره، فإذا أنت قابلته لم تجد مثاله إلا في النادر.

(8) وهي من جيد الشعر وفاخره، وكثرت الأمثلة.

(9) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١: ٧٤-٧٦.

(10) تحميل الأعمال في مجموعة الرسائل على الله عليه وسلم، لعبد الله بن محمد الأندلسي، ت ٦٣٨هـ، ٢: ٣٢٨.

فيها لأجل الصِّناعة التَّصنّع، ونكلّف منها ما هو بعيد المرام شديد التّمنُّع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أغرق النّزع فخالف الغرض كقوله:

فويل مكة من آثار وطأته..... البيت.

وقوله:

وحل بالشام شوم غير مرتحل....»[1]

وكتعليقه على قصيدة ابن خميس التِّلمسانيّ البائية إذ قال:

«هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعاني، وألذّ من نغمات المثالث والمثاني، إلاّ أنّ مقطعها قلق ناب، لا يلين ولو مضع بضرس وناب، ليس يلتئم مما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السمع به يقلق وينزعج، وقد زاولته أن يلتحم فأبى وحاولتُهُ كي يلتئم فنبا»[2].

نلاحظ مما سبق سيطرة فكرة اللفظ والمعنى على المصنّف، فهو تناول الألفاظ والمعاني، وأكد أنّ الألفاظ مهذّبة بمفردها، ولكنّها تكون قلقة عندما تأتلف مع غيرها لتشكّل المقطع.

وقد عُرف المؤلف بالصراحة في نقده، لذا نراه إذا لم يرق له شِعْرُ شاعر صرّح بذلك، فعندما تحدث عن شعر ابن عربهة[3] قال: «وشعره مجموع ووقفت عليه بخطه، وأكثره فحقمة ما ترسل بغيث مُزْناً، وكما قيل: جعجعةٌ ولا أرى طِحْنا[4]»[5].

---

(١) الرحلة ١٢٣.

(٢) الرحلة ٨٩.

(٣) عبادة بن عابد بن عبادة القيسي الحضرمي، محدث أديب شاعر، ولد في الإسكندرية وولي خطابة جامعها سنة ٥٣٥هـ، له أخبار مع ابن القرطبرة (معجم الأدباء ٢٧٢/١٢ وانظر مصادره فيه).

(٤) المثل: أصل جعجعة لا أرى طحنا، (الفاخر لأبي عبيد ٢١١ فصل المقال ٤٤٨).

(٥) الرحلة ١٢٣.

ب- النقد البلاغي:

وهو وجه آخر من وجوه النقد، يعتمد على المعرفة بعلوم البيان والمعاني والبديع، وقد أكثر العَبْدريّ من الآراء النقدية التي تتعلق بالأنواع البلاغية، وكانت هذه الآراء تدلنا على علوّ كعب المصنف في هذه العلوم، فمن ذلك قوله في نقده للقصيدة الشقراطسية: (ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت «وجها زهاه الحسن أن يتقنّع»[1])[2].

ومن هذا القبيل نقده لقصيدة ابن النكون[3] في رحلته من قسنطينة إلى مراكش إذ علق على البيت:

بـــدور بـــل شمـــوس بـــل صـــباح نمـــيٌّ في نمـــيٍّ في نمـــيّ

فقال: «وقوله:

بُـــدورٌ بـــل شمـــوسٌ بـــل صَـــباحٌ

نزول مفرط وعكس للرتبة، فإنَّ الشمس أشهر من الصَّباح وأنور، والانتقال بالتَّشبيه من الأعلى إلى الأدنى أشبه بالذَّمّ منه بالمدح ولاسيما مع الإضراب.

وقوله:

إذا أنســـوني الولســـدانُ حُســـنا

ضعيف ساقط، لأنَّ التَّشبيهَ والتَّمثيل يجب أن يكونا في كل صنعة بما تعارفه أهلها، واشتهر عندهم، هذا على تقدير التقييد في الولدان، فكيف واللفظ مبهم مطلق، يدخل تحته كل ما يسمى ولداً»[4].

---

(1) ما ورد من قول عمر بن أبي ربيعة في ديوانه ١٢٨.

فلما التقينا وسلمت، تبسمت وجرى بما أخفي الحديث لنا علنا

(2) الرحلة ١٣٢، ١٣٤.

(3) الحسن بن علي بن النكون، الأديب الشاعر من أهل قسنطينة يعرف بابن الكفي وصفه العبدري بأنه من أهل الفضل والأدب كان حياً سنة ٦٠٢هـ (صلة الصلة ٢٨٠/٢، ذيل التكملة ٢٢٩/٤).

(4) الرحلة ٣١٠.

وقد يصحح المصنف للشاعر بعض الألفاظ التي استخدمها في شعره فهو ينقد ابن الفكون في قوله:

وحـلَّ رِبْـا الـرِّباطِ رِشـا رباطـي

فقال العَبْدريّ: «وقوله لفظ مختل جاف، ما جلبه إلا التجنيس، وإذا وجد الرِّشاء والرِّباط فما بقي إلا الضَّرب، وأيّ رِفْة مع هذه الألفاظ الجافية؟ ولو قال: رشا ارتباطي، لكان أقرب مع بُعده لأنه أراد التماسك والثبّت فالارتباط به ألبق»[1].

فالعَبْدريّ مع إعجابه بمذهب البديع يقرّ بأن التجنيس، والمحسنات البديعية تكون ساقطة ولا قيمة لها إذا لم تخدم المعنى.

وإذا تأملنا إشاراته البلاغية في علم البيان نجده يهتم بالاستعارة لما فيها من صور فنية تنقله إلى الإبداع والابتكار، يقول عن تخميس ابن خبيش[2] لقصيدة الشَّقراطسية:

«... وقد علق بذهني أول تخميس منها وهي قوله:

غـزْل الشَّـباب فضـى أن المشـيب ولي فمـا التغـزُّلُ مـن قـولي ولا عملـي
خمْـس الإلـه ومـدْحُ المصـطفى أملـي الحمـد لله منّـا باعـث الرُّسـل
هـدى بأحمـد منـا أحمـد السُّـبل

أمّا تمكّنها فلأنّهُ لما جرت عادة الشُّعراء بالافتتاح بالتغزّل، وطّأ بالافتتاح بغيره، مما ذكر من أنّ الوقت اللائق به التغزّل هو عصر الشَّباب، وأنّ اللائق بعصر الشَّيب هو ذكر الله، والإقبال على الحمد له، وأحسن الاستعارة في ذكر الولاية والعزل، ولما رأى أنّ البيت متضمّن لمعنيين: حمد الله تعالى، ومدح رسوله صلى الله عليه وسلم، وطّأ لهما معاً في

---

(1) المصدر نفسه ١٠٧.

(2) محمد بن الحسين بن يوسف بن قاسم بن يوسف بن خبيش، من سبتة الموحدي: فقيه أديب، شاعر (من أهل غرناطة، توفي تونس، أخذ عن جماعة منهم ابن الطراوة وتأدب به) توفي سنة ٦٧٩هـ. (معجم المؤلفين التونسيين ٢/١٤٥ وما بعدها من مصادر).

القسم الذي قبله حتى جاءت الأقسام والبيت في غاية التناسب، كأنها نظم رجل واحد، وما ذكر من الولاية والعزل في الشَّباب والشَّيب استعارة حسنة واقعة موقعها»[1].

والعَبْدريّ يحب البديع ويحبّذه، ويُفضّل أن يكون الأدب مرصّعاً به[2] فعندما وصف منبر المسجد النبوي استشهد بقول الشُّقراطسيّ:

حيّي فمات سُكوناً ثم مات لدن حيّي حنيناً فأضحى غاية المثل

ثم قال شارحاً وموضحاً:

«يعني أنه حين حيي بقرب النبي صلى الله عليه وسلم منه، كان ذا سكون، والسكون للميت، وحين مات بتحوّله عنه كان ذا حنين، والحنين للحيّ، وهذا بديع مليح جداً.

ولو روي: «فمات سكوناً»، بالتاء المثناة، لكان أبدع للمطابقة بين السكوت والحنين، ولكن الرواية فيه بالنون»[3].

ومن هذا القبيل الإجابة عن سؤال أحدهم حين سأله: لم كرر لفظ (إحداهما) في قوله تعالى: ﴿أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾[4] إذ قال:

«.. وهو أن إعادة لفظ إحداهما لتعادل الكلام وتوازن الألفاظ في التركيب وتماثل أقسام الكلام فيما اشتملت عليه من المفردات، وهو المعنى بالترصيع، ولكن هذا أبلغ وأبدع لأنّ الترصيع توازن الألفاظ من حيث صيغتها، وهذا من حيث تركيبها، وكأنّه ترصيع معنوي، وقلّما يوجد إلاّ في نادر من الكلام»[5].

وقد كشف العَبْدريّ في تعليقاته السابقة عن مذهبه الفني، وأنّه مذهب أهل البديع الذي ساد عصره، ولم تكن لديه القدرة على الانفلات منه كمواطنه ابن خلدون صاحب أسلوب الترسُّل[1].

---

(١) الرحلة ١٣٦.

(٢) المنزع البديع في التجنيس ٢٢١.

(٣) الرحلة ٥٥١.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(٥) تلخيص المفتاح ٤٢٧-٤٢٨.

ج- النقد اللّغويّ:

يُظهر مصنّف الرحلة مقدرة فائقة في فهم دقائق اللغة، ومعرفةً بأساليبها وألفاظها وتراكيبها، وتمكّناً من قواعدها، لذا كانت آراؤه في مجال اللغة تدل على ثقافته لأن النقد هو محكّ ثقافة المرء.

فما فتئ المصنف يتصدّى في مناسبات كثيرة لتصويب الأخطاء، ويناقش بعض الشُّعراء في بعض الألفاظ التي يستخدمونها في أشعارهم فنراه يقف عند قول الشّاعر ابن خميس التّلمساني:

فإمّـــا سمـــاءٌ أو خُصـــومُ تُســـراب

فيقول: «الوجه فيه: وإمّا تخوم تراب بتكرير «إما» بعد حرف العطف، وقلما يؤتى بها غير مكررة إلا نادراً كقول الشّاعر[٢]:

إمّا فتىً نال العُلا فاشتفى أو بطـلٌ ذاق الـرّدى فاسـتراح»[٣]

كما وقف عند قوله:

ويا برقـــا أضـــاء علـــى أوالٍ يمانيـــاً مســـتى جمـــت الشّـــآما

فقال: (.. أنكر غير واحد أن يقال الشآم بالمد في غير النسب، وليس إنكاره بشيء، وهو ممدود في شعر حبيب[٤] وقد ردّوه ولم يروه حجّة ونسوا قول النّابغة[٥]:

علـــى إســـر الأدلّـــة والبغـــايا وخفـــق النّاجيـــات مـــن الشـــآم

ويروى: من السّأم، بالمهملة جمع سامة، والحجّة في الرواية الأولى.

---

(١) النقد اللغوي في التراث، ٣٢١.

(٢) الشاعر هو الديوك الرومي والبيت من قصيدة في ديوانه ١/١٩٢.

(٣) الرحلة ٥٨-٥٩.

(٤) حبيب: هو أبو تمام الشاعر المشهور.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ١٦٣.

وكذلك أنكروا تشديد الياء من اليَماني لأنَّ الألف كالعوض من التشديد، كما رأوا المدَّ بزعمهم في (شام) عوضاً من تشديد ياء النَّسب، وإذا جاز مدّه في غير النَّسب جاز تشديد الياء مع المد، وقد أنشد المبرّد[1] على تشديد ياء اليماني مع زيادة الألف:

فأرعدَ من قبل اللقاء ابنُ معمرٍ وأبرقَ والبرقُ اليمانيُّ خوّانُ

وهذا البيت أيضاً شاهد لمن قال: أرعد وأبرق بالألف أي: تهدد. وأصله من الرَّعد والبرق، وقد أنكره بعضهم بالألف[2] وقال: إنما هو رَعَدَ وبَرَقَ بغير ألف، وكذلك رعدت السَّماء وبرقت، والصواب: أنهما لغتان وأشهرهما بغير ألف، وعليها قول الشاعر[3]:

فإذا خَلَلْتُ ودونَ بيتي سَارةٌ فابرق بأرضكَ ما بدا لك وارعد»[4].

ويقف العيدري عند بيت ابن خميس[5]:

أمُشْمِسةً قلبيَ المضنى احتداماً علامَ ذُدْتَ عنْ جفني المناما

فيقول: «وقوله: علاما ذدت الوجه فيه حذف الألف لأن ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر حُذِفَ منها الألف لكثرة الاستعمال، وفرقا بينها وبين الخبرية.

قال الله تعالى: ﴿فيمَ أنتَ من ذكراها﴾[6]، وقال جل شأنه: ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾[7].

فالمصنّف عندما يناقش هذه الآراء يسوق أدلته من القرآن الكريم وعيون الشعر العربي، ويستدل بآراء النحاة ويناقشهم فيها.

---

(1) الكامل ١٢٧٧.

(2) أنكره المبرد في الكامل ١٢٧٧ والأعلم كما جاء في شرح ديوان الطغرائي ١١٨.

(3) الشاعر هو الطغرائي والبيت في ديوانه ١٤٧.

(4) الرسالة ٦١.

(5) الرسالة ٦١.

(6) سورة النازعات ٤٣.

(7) سورة النبأ ٣.

ويورد العَبْدَريّ البيتين الآتيين[1]:

تكتُـسِـبُ العِلْـمَ وتلقـي في سَـقَطْ ثُمَّ لا تحفـظُ، لا تفلـحُ قَـطْ

إنمـا يفلـحُ مـن يحفـظُ مِـنْ بعـدِ فَهْـمٍ وتَـوَقٍّ مـن غَلَـطْ

ويُعلِّق عليهما قائلاً: «لم يُسمع في كلام العرب إدخال قطّ على الفعل المضارع، وإنما يُدخلونه على الفعل الماضي فيقولون: لم أفعل هذا قطّ، وذلك أن (لم) تصيّر الفعل في المعنى ماضيا، ولا يقولون: لا أفعله قط، لأنّ قط مشتقة من قطّ يَقطُّ: أيّ يقطع، فمعناه: لم أفعله في كلّ ما مضى من الزّمان وانقطع..» ويستدل على صحّة رأيه بقول الحريري في كتابه درّة الغوّاص[2].

كما كان للعَبْدَريّ ملاحظات نقديّة تمتُّ بصِلَة وثيقة إلى فقه اللغة[3] فعندما ذكر أبيات القاضي أبي حفص بن عمر[4]:

أَجعلْـتُمُ العُلمـاءَ خُمْـراً مُوكَّفَـهْ هـذا لأنْكـمُ أولـو تلـكَ الصِّـفَهْ

أجهلْـتُمُ صَـفَةَ الإلـهِ وفِعْلَـهُ ونَسَـبْتُموهُ لغَـيْرِهِ بالزَّخْرَفَـهْ

وأردتُمُ تنزيهَـهُ فَـوَقَعْتُمُ في الشِّـرْكِ والإلحـادِ والأمْـرِ السَّـفَهْ

خـالَفْتُمُ سُـنَنَ النَّـبِيِّ وصَـحْبِهِ وتبعتُمُ في الزَّيْـغِ أهـلَ الفَلْسَـفَهْ

عقب عليها بقوله: «خفف القاضي -- رحمه الله -- الخُمُر، والتخفيف في (فُعُل) مطرّد إلا فيما يلتبس، وهو هنا يلتبس بجمع أحمر، فينبغي ألا يخفف، ولم يُقرأ في السبع (كأنّهم حُمُرٌ مُستنفرة)[5] إلاّ بالتثقيل، ومن هذه الحجة أنكر

---

(1) الرحلة ٢٦١.

(2) درّة الغواص للحريري ١٣-١٤.

(3) الفقه اللغوي في التراث ٣٠٦.

(4) هو أبو حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن معمر الشلمغاني، قاضي قابس، له شعر حسن توفي حدود ٣٥٠هـ/٩٦١م. الصلة ٢/٤٠٧، والصدوف بالوفيات ٢٤/١٦٠ =أيضا: الرياض ٣٦١/٢.

(5) سورة المدثر ٥٠.

المحقّقون إسكان الباء في قوله صلى الله عليه وسلم: (اللّهمَّ إنّي أعوذ بك من الخُبُثِ والخَبائثِ)[1] لما كان إمكانه بالمفرد»[2].

ولانعدم بعض الملاحظات التي تدل على إتقان المصنّف علم النحو، فقد انتقد أحد مُدرّسي النحو في بِلِمْسان بقوله:

«.. وقد حضرت له مدرّساً مذكوراً عندهم يقرأ عليه باب التوكيد من «الجمل» فسمعته يقول: كلا للمذكرين، وكلتا للمذكرتين. وأعربوا قول ابن دريد[3]:

هُمُ الذينَ جرّعوا مَنْ ماحَلُوا...

بأن هم مبتدأ، والذين مبتدأ ثان، وجرعوا خبره، والجملة في موضع خبر الأول..»[4].

ومن هذا القبيل وقفته مع عرب برقة الذين يعجب من فصاحتهم فيقول:

«.. وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم»، ويعلّل ذلك بقوله: «لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره[5]» وهو تفسير علمي صحيح لأنّ الجماعات المنقطعة في ناحية تكون لغتها أكثر محافظة من غيرها، وهذا ما حمل القدماء على تأخير زمن الاستشهاد بشعر أهل البادية عن شعر أهل المدن والحضر.

وساق العَبْدريّ أمثلةً كثيرة على فصاحةِ أهل برقة — صغارهم وكبارهم منها قوله:

«.. وقد سألت بدوياً وجدته يسقي إبله في الخصوي عن ماء يقال له: أبو شمال هل مرّ عليه؟ وذكرته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل المغرب، فقال لي: نعم تطؤون أبا شمال، وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول، وليس في المغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك»[1].

---

(1) أخرجه الترمذي عن أبي، في كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا دخل الخلاء حديث رقم ٦.

(2) الرحلة ٧٦.

(3) قوله صدر بيت من مقصورته هجو (الدريد الحكم ترجمته ٤٠٨). والبيت كاملا: العادون (شرح المقصورة الدريدية ٥٤).

(4) الرحلة ٥٠.

(5) الرحلة ٢٠٦.

ومن أمثلة فصاحة أطفالهم قوله: «ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجّاج أمعكم شيء تبيعونه؟ وأثبت النُّون وسكّن الهاء للوقف..»[٢].

ويورد المصنّف أمثلة على استخدامهم نادر الألفاظ، وغريبها في حديثهم اليومي فيقول:

«.. وأمّا نادر ألفاظ اللُّغة وما جرت عادة أهل الغريب بتفسيره، فهم حتّى الآن يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أنّ شخصاً منهم وقف عليّ بموضع نزولي من محلّة الركب، وكانت التّرعة منه بعيدة فقال لي: يا سيّدي تدعني أظهر؟ أيْ أخرج»[٣].

ويقول: «وسمعت صبيّاً ينادي في الرّكب: يا حجّاج من يشتري الصّفيف؟ فلم يفهم عنه أكثر النّاس فقلت له: اللحم معك؟ فقال: نعم، وأبرز لحم ظَبْيٍ مُقدّد، وهذا اللفظ ذكره مالك رضي الله عنه في الموطأ[٤] وهمّم بتفسيره فقال بإثر الحديث: قال مالك: والصّفيفُ: القديد»[٥].

د- النقد العروضي:

تناول المصنف الجانب العروضي في غير موضع من الرّحلة ما يدل على جانب آخر من معرفته، فإذا مَرّت بشعر أحد الشعراء هفوةٌ عَرَّض بها أو ناقشها، فبعد أن يورد بيت الشّاعر ابن خميس التلمساني:

أمُشبِهةٌ قلبيَ المضنى احتدماً ... علامَا ذُدتَ عن جفني المناما

ناقش إثبات الألف في «علامَ» وعدّه خطأً نحوياً، وقال بعد ذلك: ولو حذف الألف منها لصح الوزن وكان الجزء معقولاً[٦] ولكنه زحاف قبيح»[٧].

---

(١) الرحلة ١٠٧.

(٢) الرحلة ١٠٧.

(٣) الرحلة ١٠٨.

(٤) الموطأ ٢١٠.

(٥) الرحلة ١٠٩.

(٦) فقال: لو حذف المخاسر الألف من مولاتان لصح المعاش وصحب الوافر (الخاسر ٢١).

(٧) الرحلة ٦٦.

وكذا في تخميس أبي عبد الله المصري القصيدة المنفرجة إذ قال: «أمّا ما خمس به أولاً قوله:

وأبي عَمْـــرٍو ذي النـــورين الـــ ... مـــستهدي المســـتحي البـــهيج

فغلط لا شك فيه، لأنه يؤدي إلى قطع همزة المستهدي، وبقطعها ينكسر البيت لزيادة حرفين على وزن الخبب... وأما قوله:

صـــلوات الله علـــى المهـــدي الـــ ... هـــادي النـــاس إلى الـــنُّهج

وأظنّه خفّف فيه الباء، وقطع الهمزة بعدها ليتأتى له التخميس، لأنّ الأقسام تبنى على التزم كحرف الرّوي، وذلك موجب للقد والإدغام يمنعه»[1].

وعندما أورد أبيات شيخه أبي العبّاس الغمّاز الآتية:

أيا ســـامعَ الشّـــكوى ويا دافـــعَ البلـــوى ... ويا كاشِـــفَ الأســـواءِ والبـــأس والضُّـــرّ
أســـيرُ خطـــايا يرتجـــي فـــكَّ أسْـــرِه ... وإن لم يكـــن أهـــلاً لِقـــائِكَ مـــن الأسْـــر
ومـــا لِيَ لا أرجـــو وإن كنـــتُ مُســـرفاً ... وأدري مـــن الصَّـــفْحِ الجميـــلِ الـــذي أدري

قال يراثرها: «أتى شيخنا – حفظه الله – بعرّوض البيت تامة وإنما سمعت مفبوضة، إلا أن الترصيع الذي في البيت ربما سوغ ذلك كما في التّصريع، وقد وقع مثله في شعر المتنبي ونُعِقِّبَ عليه»[2].

هـ– النقد التفسيري ونقد الشيوخ:

أظهر المؤلّف مقدرة كبيرة على فهم النّصوص القرآنية، وشارك في مناقشات كثيرة حول تفسير بعض الآيات، وكانت له آراء مصيبة[3] كما شارك في تفسير بعض الأحاديث الشّريفة[4].

---

(1) الرحلة ١٥٠.

(2) الرحلة ١٤٩.

(3) الرحلة ١٥٢، ١٥٦، ١٨٨، ١٨٩ – ١٩٠.

(4) الرحلة ١٧٠.

وبدا العَبْدريُّ جريئاً في آرائه بالشيوخ الذين قابلهم من حيث المستوى العلمي والسلوك الأخلاقي، فهو يصرّح بأنّه لم يأخذ الفقه عن ابن عُبَيد بطرابُلُس لأنّه قليل التوقير لمجلس العلم[1].

ويقول بعد أن حضر مجلسين لابن جَماعة قاضي بيت المقدس: «فلم أُحِلْ منهما بطائل، وكلّمته في أشياء تخبَّط فيها وتعسّف، فلم أجد من نفسي إذعاناً للأخذ عنه على قلة همّتِه في الرّواية»[2].

وحضر مجلس أبي محمد بن عبد السّيّد بطرابُلس فلم يفهم عنه إلاّ بعد مشقّة بسبب حبسة في لسانه، ووصفه بضيق الخُلق وعدم الرّواية[3].

وقال في أبي علي منصور بن محمد المشدالي بأنه «غير معنيّ بالرواية ولا له فيها حظ»[4].

ولا ريب أن مثل هذه الآراء لا تصدر إلا عن عالمٍ حاذق، عارف بالشُّروح ومستواهم العلمي، قادر على تقويمهم، وإعطاء كل ذي حقّ منهم حقّه.

كانت تلك بعض آراء العَبْدريّ النقدية وقد لاحظنا عليها الاعتماد على الذّوق المشفوع بمعرفة غنية، وملكة ثقفتها التجربة والخبرة، فالمؤلف لم يكن يقبل إلا ما وافق قواعد اللغة والبلاغة والعروض، وكانت نقداته يغلب عليها الإيجاز وقلّة التعليل، وإن كنا لا نعدم فيها تعليلاً أو قياساً أو استشهاداً أو مناقشة.

مضامين الرحلة:

تحتوي رحلة العَبْدريّ على مضامينَ متشعبةٍ تعْسُر الإحاطة بها جميعاً في هذا المقام، ولذلك سنقصر اهتمامنا على أبرز هذه المضامين، وهي المضمون الجغرافي، والمضمون الاجتماعي، والمضمون الأدبي.

---

(١) الرحلة ١٨٤.

(٢) الرحلة ١٧٧.

(٣) الرحلة ١٨٦-١٨٧.

(٤) الرحلة ١٧١.

آ- المضمون الجغرافي:

تحتوي الرحلات بشكل عام على معلومات جغرافية مهمة، من وصفٍ للمسالك والطرق والبلدان والآثار المختلفة، إضافة لما تصفه من مظاهر بشرية، وطبيعية، واقتصادية.

ورحلة العَبْدري كغيرها من الرّحل، تضم بين دفتيها معلوماتٍ قيّمةً في هذا الخصوص، فصاحبها يرسم لنا بدقّة الطّريق التي كانت تسلكها قوافل الحجّاج برّاً من المغرب إلى الحجاز، ويحدد لنا المراكز التي يحطّ فيها الحجاج رحالهم للاستراحة، ويعدد لنا المناهل التي يتوقّف فيها الحجاج للتّزوّد بالماء، كقوله بعدد المناهل التي في برية ما بين الحجاز ومصر، ويحدد المسافات بينها بدقة[1]: «وأما مناهل هذه البرية فمن البُرْكة إلى السُّويس ثلاثة أيام، وهي بئر غزيرة واسعة، وهناك ينقطع بحر الشرق فيدور السالك من ورائه ويتركه يميناً، ولا يزال محاذياً له إلى مكة... وماء السُّويس مِلْحٌ لا يكاد يُساغ لملوحته، وخباثة مطعمه، ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو أزيد قليلاً ماء يقال له: مَغْبوق، وهو ماء عذب طيب، ومن مغبوق إلى بئر النخل ثلاثة أيام، وهي بئر واحدة بكية ماؤها شروب...».

كما تطرق العَبْدريّ إلى وصف المدن والأنهار وكثير مما شاهده في طريقه، يقول في وصف بلدة آنسا[2] «وأما بلد انسا – جبره الله ... فهو بلد منفسحٌ منشرح في بسيط مليح، طيب التربة، يغلّ كثيراً، وبه ماء جار، ونخل وبساتين، وهو آخر بلاد السُّوس من أعلاه، متّصل بالجبل، مشرف على أرض السوس وكان فيما مضى مدينة كبيرة» وتحدّث عن نهر النّيل، وحدّد أيّام فيضانه وحاول تعليل ذلك[3].

كما أعار العَبْدريّ اهتماماً خاصاً لمشاهداته في أثناء تجواله داخل البلدان والمدن التي زارها، فوصف آثارها المختلفة، وتحدث عن الأضرحة والزوايا كوصف منار الإسكندرية[4]، وعمود السّواري[5]، والأهرام والبرابي[6] وروضة الإمام الشّافعي[7]، وروضة السّيدة نفيسة[8].

(١) الرحلة ٣٣٥.
(٢) الرحلة ٤٢.
(٣) الرحلة ٣١٢.
(٤) الرحلة ٢١٢.
(٥) الرحلة ٢١٢.
(٦) الرحلة ٢١٥.
(٧) الرحلة ٢٢٧.

كما وصف المساجد والأسواق، قال في وصف جامع الزيتونة بتونس[1]: «وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً، ودائرهُ مسقّف، ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجُدُر، وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شدّاً مُحكماً...»

ولم يغفل الإشارة إلى نواحٍ اقتصادية كحديثه عن غلاء الأسعار ورخصها، وعن تعامل عرب برقة بالمقايضة بالسّلع وعدم استخدام النُّقود بينهم[2].

ب- المضمون الاجتماعي:

نقف في رحلة العَبْدري على ملامح اجتماعية مهمّة قد لا نعثر عليها في غيرها، فصاحب الرحلة لم يكن يقصر لقاءه على العلماء، ولكنّه كان يختلط بأفراد المجتمعات في البلاد التي كان يمر بها ويجالسهم، ويتحدّث إليهم، مما جعله يطّلع على أحوالهم الاجتماعية من عادات وتقاليد، وأنماط معيشية.

فقد أخذ على أهل برقة استخدام نسائهم في البيع والشّراء فقال عنهم[3]: «ويستعملون نساءهم في البيع والشّراء، فلا يتوصّل الحاج إلى شراء القوت إلا بعرض مبتذل وحال ممقوت».

كما يخبرنا عن أزياء نساء بَرْقة بقوله[4]: «ومن العجب عندهم أنّ كل امرأة لابد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها البرقع، وهي تتخلل الناس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين ولا تهتم بستر ما سوى وجهها، كأن ليس لها عورة سواه، فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتّساخ، ومرصداً لعارض الأوساخ....»

ويحدثنا عن قوم من اليَمن يقال لهم السّرو[5]: «جفاة، بُداة، مُفرطو البداوة، عرب الألسنة، أدم الألوان، نحاف الأبدان، أكثرهم يجلب على ظهره، والعُرْي فيهم فاش إلا السترة، ولهم ألفاظ حوشية، والدّينار في لغتهم أربعة دراهم....».

---

(1) الرحلة ٣٩٦.

(2) الرحلة ١١٠.

(3) الرحلة ٢٠٣-٢٠٤.

(4) الرحلة ٢٠٤.

(5) الرحلة ٢٠٤.

ويشير العَبْدري إلى بعض الظواهر الاجتماعية، كالبخل عند أهل تلسان[1] وجهل أهل القِبْلَة وحسن ظنّهم بأهل الدين، وإيوائهم للغريب وحمايتهم للجار[2].

ولا يغفل الحديث عن المذاهب التي يعتنقها أهالي بعض البلدان، فأهل جَرْبَة «أصحاب مذاهب زيديّة»[3] وأهل بلدر رفضة[4].

ويُبدي العَبْدري اهتماماً خاصاً بالحديث عن البِدَع التي يعتقدها أهالي البقاع المقدسة، كحكمهم على من لا ينفذ من باب الغار بجبل ثور بأنه ولد زنى[5]، ويصوّر تزاحم الحجاج على الكعبة وبئر زمزم وغيرها[6].

ولا ينسى العَبْدري أنْ يصف لنا الأحوال الأمنية في الطرقات وانتشار قطاع الطرق[7]، ومعاملة الحجاج في الأماكن المختلفة[8]... إلى غير ذلك من الملامح الاجتماعية التي تستحق دراسة مستقلة.

ج- المضمون الأدبي:

غلب الجانب الأدبي على رحلة العَبْدري، لأن العَبْدريّ أديبٌ قبل أن يكونَ فقيهاً[9] فقد تضمّنت الرحلة كثيراً من الشعر والنثر والنقد، ما يجعلها مصدراً مهمّاً من المصادر الأدبية المهمة للقرن السابع الهجري.

لن نتعرّض لشعر العَبْدري، ولكننا سنحاول استعراض ما تضمنته هذه الرحلة من شعر لغيره من الشعراء، فقد ضمت هذه الرحلة نحو سبع مئة وألف بيت من الشعر له ولغيره، ودار هذا الشعر في أغلبه حول المعاني الدينية من زهد

---

(١) الرحلة ٢٨٩.
(٢) الرحلة ٩٨.
(٣) الرحلة ٩٣.
(٤) الرحلة ٨٨.
(٥) الرحلة ٣٤٦.
(٦) الرحلة ٣٩، ٢٩٩.
(٧) الرحلة ٢٩٩.
(٨) الرحلة ٥٠.
(٩) الرحلة ٢١٦.
(١٠) الرحلة ٢٥٣، ٢٥٤.

ووعظ ومديح نبوي.ويعود الفضل لرحلة العَبَدري في الاحتفاظ ببعض القصائد والمقطعات التي تفردت بها، أو قل وجودها في المصادر ،ومن هذه القصائد قصيدة ابن المولى التي يبلغ عدد أبياتها خمسةً وثلاثين بيتاً ، ومطلعها[1]:

أنسيمُ ريقكِ أخت آل العنبرِ هذا أم استنشاقةٌ من عَنْبرِ

وقصيدة ابن الفكون في رحلته من قُسنطينة إلى مَرّاكُش ؛ التي تبلغ اثنين وثلاثين بيتاً ، ومطلعها[2]:

ألا قُلْ للسّرِيّ ابنِ السّرِيّ أبي البَدْرِ الجَوادِ الأزْهَرِيّ

والقصيدة الشقراطسية لأبي محمد عبد الله بن يحيى الشّقراطسي ،وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون ومئة بيت، ومطلعها[3]:

الحمدُ لله منّا باعثِ الرُسُلِ هدى بأحمد منّا أحمد السُبُلِ

والقصيدة النبوية لعلي بن محمد بن منصور المالكي المعروف بابن المُؤَيّد التي يبلغ عدد أبياتها خمسة وخمسين بيتاً، ومطلعها[4]:

أجب دعوة الرحمن يا صاح تسعدِ وبادرْ لفرضِ الحجّ غيرَ مفنّدِ

وقصيدة السّخاوي النّبوية ، التي تبلغ خمسة وخمسين بيتاً ، ومطلعها[5]:

قِفْ بالمدينةِ زائراً ومسلّما واشكرْ صنيعَ الدّمعِ فيها أن همى

وقصيدته في ذكر خلفاء بني العبّاس التي مطلعها[6]:

سلامٌ على معنى الخلافةِ والهدى وحيث أقام الدينُ والفضلُ والعلمُ

---

(١) الرحلة ٦٨-٧٢.

(٢) الرحلة ٢٧-٢٩.

(٣) الرحلة ١١٨-١٢٣.

(٤) الرحلة ٢٣٤-٢٣٨.

(٥) الرحلة ٢١٨-٢٢٧.

(٦) الرحلة ٢٥٦-٢٥٨.

وتشطير حازم القرطاجني لقصيدة امرئ القيس ، وتبلغ ثمانين بيتاً ، ومطلعها[1]:

لعينيكَ قُلْ إن زرتُ أفضلَ مُرسَلِ قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ

إضافة إلى المقطعات التي لا نعثر عليها في موضع آخر.

وضمّنت الرّحلة نصوصاً نثرية نادرة ومهمّة كخطبة أبي حفص بن عمر السُّلَمي (ت ٦٠٣هـ) التي قال في مطلعها[2] «عبادَ الله، الدّينُ النّصيحة، فخذوها محضة صريحة، هُدِيَ الله هو الهدى، ومن اتّبع رسل الله اهتدى، فإياكم والفدماء، وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدثوا، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة. الأنبياء ونورهم، لا الأغبياء وغرورهم...» إلى آخر هذه الخطبة البديعة.

وبرنامج محمد ابن عبد الله بن داود بن خطّاب المرسيّ (ت ٦٣٦هـ) الذي عدد فيه أسماء الشّيوخ الذين لقيهم في مُرسية وأخذ عنهم، وبلغ عددهم عشرة شيوخ وذكر ما أخذه عن كل منهم[3].

وضمن العبدري رحلته بعض رسالة ناصر الدين بن المنيّر في بعض مناهل الحج وقال فيها[4]: «ولقد تجد النفوسُ إلى تلك القفار أنسا كأنها أوطان، وكأن لأشواقها على القلوب سلطان، وإن لتلك الثنيات صباحةً، وإن لمياهها ... وإن كانت ملحة - في القلوب ملاحةً..» إلى غير ذلك من النُّصوص النثرية النادرة.

وصفوة القول: لا يمكننا إهمال الرحلات باعتبارها مصدراً رئيساً من المصادر الأدبية لما تقدمه لنا من معلومات أدبية وتعتمد في الغالب على الرواية، إذ قلما نجدها في بقية كتب الأد

(١) الرحلة ٥١٤-٥٢٠.

(٢) الرحلة ٢٨٦-٢٨٨.

(٣) انظر البرنامج في الرحلة ٢٢.

(٤) الرحلة ٢٤٣.

السمات العامة للنثر الأندلسي والمغربي

بدأت الكتابة في المغرب والأندلس متناغمة مع مثيلاتها في المشرق ، فما يحدث في المشرق يجد طريقه إلى الأندلس، ويتردد صداه فيها ، ويأخذ به الأندلسيون فيما ينشئون من فنون النثر، ولا غرو في ذلك فالقبائل العربية التي وصلت مع الفاتحين كانت مصدر الاتجاهات الأدبية والثقافية في البلاد المفتوحة ، وأدباء الأندلس والمغرب وشعراؤها وكتابها أبناء هذه القبائل ، لذلك ساروا على نهج أهلهم في ما كتبوه من الفنون النثرية : خطابةً ، و توقيعاتٍ ورسائل ديوانية ، ووصايا ، ومناظراتٍ ، ومقاماتٍ...،وكان أدبهم الأول وظيفياً فطريا يتّسم بالبساطة والبلاغة ، ويمتاز بتوخي الإيجاز في القول ، والابتعاد عن التنميق والتكلف والزخرفة البديعية ، وبجانبة التعقيد والفلسفة.

وتغيرت الكتابات النثرية تغيراً كبيراً مع بداية الاستقرار الأموي ، وتطوّر النثر العربي هناك عبر مراحل متعددة ، فاهتدى الكتّاب بالأسلوب الحميدي ، إذ مالوا إلى الإطالة وتفصيل القول ، واستعمال التحميدات في المقدمات ، وخلتْ كتبهم الديوانية من السجع المصنوع ، والزخرفات ، من ترادف ، وتكرار ، وتوازن، وتصوير فني وموسيقي مبالغ فيه ، إذ لم تكن تلك الزخارف الفنيّة في غاية النثر – كما يبدو –

ثمّ تأثروا بأسلوب ابن برد الأكبر وابن دراج القسطلّي ، فنُبت بعض الرسائل الشخصية على السجع وامتلأت بالتصاوير واختيرت ألفاظها بعناية . وتأثر نفرٌ من الكتاب بطريقة ابن المقفع ، على نحو ما فعل الأديب ابن شُهيد في رسالة (التوابع والزوابع و (حانوت عطّار) .

وقلّد بعض الأندلسيين الجاحظ ، في الفكاهة والسخرية ، وكان ابن زيدون أكثر الأدباء تأثراً به في رسالتيه الجدية والهزلية ، فرسالته الهزلية إلى ابن عبدوس تموج بالتهكم والسخرية والحط من خصمه ، وتحكي تهكم الجاحظ وسخريته من ابن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير ..

واتجه آخرون إلى التحليل النفسي متكئين على التجارب الأخلاقية ، كما فعل ابن حزم الظاهري في كتابه(طوق الحمامة في الألفة والألاف) ، إذ مضى يحلل عاطفة الحب ، ويستشهد على صحة آرائه بتجاربه الشخصية وتجارب أقرانه من المجتمع الأندلسي .

وحاكى بعضهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، فاهتموا بالتأنق بالبديعي، واللفظ الأنيق ، وضروب البديع المختلفة التي سنّها ، وتجاوزوا المباح في استعمال السجع الرشيق في عبارات قصيرة موزونة ، وتكلّفوا في عناوين كتبهم وفي المقدمات أيضاً مثل : (مطمح الأنفس ومسرح التأنس) ، و (المقتبس من أخبار أهل الأندلس).

واستمرّت هذه المناهج ، وتفشّت في القرن الرابع الهجري ، وبخاصة في عهد هشام بن الحكم وحاجبه المنصور بن أبي عامر ، وظلّ أثر المدرسة الفنية المشرقية ظاهراً جلياً في إشراقة الديباجة ، وجزالة الألفاظ ، والقصد في التعبير ، ووصل إلى أعلى المستويات فنياً وإبداعياً ، فبسّط الأدباء المعاني وافتنوا ، وتأنقوا في أساليب التعبير وزينوها بالتوازن في العبارات والميل إلى التفصيلات حتى بلغ النثر مستوى مرموقاً .

وظهر النوع بالفاصلة القرآنية في مقامات الأندلسيين والمغاربة ، التي ترتكز على السجع تأسياً بالنص القرآني ، فأبدعوا مقامات اتسمت بالتكلف المفرط في السجع ، ولزوم ما لا يلزم ، من أبرزها المقامات اللزومية للسرقسطي الإشتراكوبي.

وفي زمن لاحق تأثروا بطريقة القاضي الفاضل ، فكبلوا كتاباتهم بقيودها ، وأطنبوا وأغربوا إلى درجة الافتعال ، وأكثروا من السجع المتسق ، وأفرطوا في التورية والبيان وضروب البديع الذي اتكأ في أصوله على طريقة ابن العميد ، مع الجنوح إلى الابتعاد عن البساطة والعفوية . وأكثروا من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والأمثال، والعلوم ، والأحداث التاريخية كثرة تبيّن مدارات ثقافتهم ؛ التي انحرفت صوب التقليد والجمود ، ووصلت حد الوهن والرودة ، فبهت النثر وشحب ، وصار مبتذلاً ركيكاً.

لكن الأندلسيين والمغاربة تجاوزوا تلك الحدود والقيود في أبنية النثر ومعانيه ، ولم يكونوا على منهج واحد ، فاتسمت بعض الكتابات برشاقة العبارة ، والبعد عن التكلف ، وشقّ أصحابها دروباً جديدةً أضافوا بها إلى النثر ما اقتضته ظروف حياتهم وبيئتهم الأندلسية ، وطوروا في كتاباتهم مع مرور الزمن ،فعبّروا عن تميزهم الحضاري والفكري ، وثقافتهم المتنوعة ، وخيالهم الخصب ، واجتهدوا في رصد آثار البيئة من كافة جوانبها الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية ؛ وأمست كتاباتهم مع مرور الوقت مهوى الأفئدة ، فيها ما يُعجب ويُطرب .

واستند النثر الأندلسي والمغربي عموماً إلى خيال دائم التحليق في فضاءات رحبة ، تُطلق الإسار للكاتب ، وتُعينه على التصوير الخلاب الذي يضجّ بالحركة والألوان إغراءً أو تنفيراً ، ليعكس مدى تأثرهم بالبيئة الاجتماعية والطبيعية الساحرة ، فجاء النثر أكثره ميّالاً إلى البساطة والرقة والتأنق والبعد عن التكلف والتعقيد ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في وصف دمشق في رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة بشكل خاص ، فقد استمد الكاتبان ألفاظهما السهلة الرقيقة من

جمال الطبيعة الساحر ، فصبغا رحلتيهما بألوان الأزهار الطبيعة ، وأضفيا عليها الجمال بالتأنق الذي ينسجم مع موضوع الوصف ، فجاءت الرحلتان رقيقتان عذبتان ، وانتقت منهما المفردات الوحشية أو الغريبة.

وحلموا على النثر من مشاعرهم الفياضة ، فجاء منسجماً مع طباعهم وأذواقهم وميولهم ، وأظهروا الجانب الحسي للصورة البيانية على هيئات متعددة ، أبرزها التشخيص ، وبثوا الحياة في الأشياء الجامدة ، فجاء نثرهم مفعماً بالحركة والحياة والرقة والعذوبة ، وتتابعت جمله في تنسيق يضفي عليه سهولة وسلاسة تُهوّن على المتلقي فهم النص، والاستمتاع بقراءته .

ولم يعد يخل الكاتب الأندلسي والمغربي بمطالع النصوص وخواتيمها ؛ التي كانت تبدأ في الغالب بالبسملة ، والتحميد، والصلاة على الرسول الكريم ﷺ، فضلاً النثر - في الغالب - من هذا الاستفتاح المعروف ، على اختلاف موضوعاته وأغراضه ، وتفاوتت بدايات النصوص النثرية بين الابتداء بالدعاء ، أو بالمنظوم ، و بين الدخول في الموضوع مباشرة ، أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار ، تبعاً لتنوع مقامات المكتوب إليهم ، واستخدموا الألقاب التي تناسبهم . وقد يبدأ الكاتب الأندلسي نصّه بالدعاء ، ويختمه بمثل ما استهل به ، ما يختلف في بعض جزئياته عما ألفناه في النثر المشرقي .

وكثيراً ما ألبسوا نثرهم ثوب القصة ، كما في المقامات ، وأقاموها على الحوار لما له من أثر فعّال في نفس المتلقي، وما فيه من تشويق للوصول إلى العقدة ما يثير المشاعر الإنسانية . ما اقتضى اتسام هذه الفنون بالإطالة والإطناب الذي يسعف الكاتب في بسط أفكاره ، وعرض مهاراته اللغوية والأدبية ، وثقافته المتنوعة .

ووظفوا حفوظاتهم في تزيين وتمتين نصوصهم النثرية فزينوا ما كتبوه بالآيات من القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ ، وغدت استشهاداتهم جزءاً لا يتجزأ عن نسيج النص ، فدل ذلك على سعة اطلاعهم على القرآن الكريم ، واستيعابهم لروحه في دعم حججهم ، وتأكيد صحة آرائهم ، وإضفاء هالة من القدسية على نثرهم .

وكان الناثر المجيد " كثيراً ما يضمّن رسائله أشعاره ، وأشعار غيره " [1] ، فالشعر ديوان العرب ، يدفع السأم عن القارئ من خلال الأثر الناجم عن الإيقاع الموسيقي للأبيات الشعرية ، وقد يحل الناثر الشعر في نثره بأسلوب فني بديع ليقوّي المعنى ، ويوثّق الأفكار ، ويدعم الآراء به .

---

[1] إحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم سعد بن حمد الأنباري الأندلسي الكلاعي ، تح رضوان الداية ، مطبعة الكتب بيروت ١٩٨٥م ، ص ٧١ أ

كما شغفوا بمأثور التراث العربي من الأمثال والحِكَم والأقوال النادرة ، على نحوٍ يُظهر امتلاكهم لأدوات الكتابة، وقدرتهم البارعة على الإفادة من ألفاظه ومعانيه وصوره .

واستخدموا الألفاظ ذات الإيحاء القوي ببراعة شديدة ، فكان لجرسها ورنينها تأثير بليغ في النفوس ، وعلى الرغم من السهولة التي طبعتها فإنّ بعضها جنح إلى الغرابة والتعقيد واتّسم بالصعوبة ، على نحو ما جاء في رسالتي ابن زيدون اللتين يعرض فيهما مقدراته اللغوية ، وحسن توظيفه للوحشي في نصوصه ، فهاتان الرسالتان تغصّان بالألفاظ الصعبة ، والمعاني الغريبة ، والمصطلحات والرموز ، والأسماء التي تحتاج إلى الشرح والتفسير لمعرفة دلالات استخدامها.

ومالوا إلى التراكيب الطويلة ، وغلبت على النصوص أساليب الإنشاء والخطاب بشكل واسع ، فاستخدموا صيغ النداء والتعجب والاستفهام والتسلسل والتمني والأمر النهي والتعجّب والقسم والتكرارات ، مع ما تؤديه هذه الصيغ من معان إضافية ، كالتوبيخ والتفريع والتهديد والدعاء والتيئيس والتهكم والتحقير .

وكان من أكثر الصيغ الإنشائية شيوعاً في نثرهم صيغة الدعاء ، والجمل الاعتراضية ، ونحو ذلك ، وغالباً ما ترد هذه الصيغ في بداية النص ونهايته .

ولجؤوا إلى أسلوب التوكيد ، فاستخدموا أدواته البلاغية. وعُنوا بالترابط بين الجمل باستعمال حروف الجر والاستفهام والنداء والعطف الخ .

وحلّق الخيال في اللوحات البيانية والبديعية ؛ التي تنهل من الطبيعة الأندلسية حيناً ، ومن التراث أحياناً كثيرة ، فجسّموا معانيهم عن طريق التشابيه والاستعارات والكنايات ؛ وأخرجوها في لبوس فني يبرهن على ملكاتهم ، وقدراتهم الإبداعية في التجسيم ، وميلهم إلى السهولة والوضوح في تثبيت المعنى المراد، والابتعاد عن التكلف والصنعة قدر المستطاع . واستخدموا السجع ، والجناس ، والطباق ، والمقابلة ، وما إلى ذلك من ألوان الترف الذهني ، والتنميق اللفظي ؛ لإخراج نصوصهم بأسلوب مؤثر .

وقد أسهم إحساسهم في استخدام **الجناس** في تحسين المعاني ، وأضفى على النص رونقاً من جرسه الموسيقي اللطيف والمؤثر في المشاعر ، وأصبح الجناس من ألوان البديع التي تنسجم مع طبع الأندلسي وطبيعة الأندلس ، لا يتكلفون استخدامه بل يأتي على ألسنتهم وأقلامهم عفوياً ، لذلك حرصوا على إشاعته في النثر ؛ ليبرز المعاني في حلة جميلة مؤثرة ، وليغني الإيقاع .

كما أسهم إحساسهم في استخدام **الطباق** في توضيح معانيهم ، " فالضدّ يكشف حسنه الضدّ " ، لذلك شاع الطباق في كلام الأندلسيين ، إلى جانب المقابلة ؛ لتزيين المعنى وتحسين العبارات ، فقابلوا بين صورتين متناقضتين لإظهار البَوْن بينهما .

ولجؤوا إلى الازدواج ليظهروا المعنى في نسق إيقاعي لا تمجّه الآذن ، ولا يجافيه الطبع ، متأثرين بوجوده في التنزيل العزيز، فاستخدموه في النثر عامة ، وفي المقامات خاصّة ، فأضفى على النثر جرساً موسيقياً عذباً ، يدل على قدرة الناثر على تحقيق الانسجام بين الألفاظ.

وتضافرت الجوانب المعنوية والجوانب الفنية في إعطاء النثر العربي في الأندلس والمغرب مكانةً لا يُستهان بها بين الآداب العالمية قاطبةً ، والآداب العربية المشرقية خصوصاً ، فمدّ الأدباء أعناقهم ، ورووا أقلامهم من ذلك النبع الدفاق الثرّ ، وتحدّث عنه المنصفون ، من كتاب العجم ،حديثاً شائقاً ، يحفزنا إلى العناية بأدب ذلك الفردوس العربي المفقود ، ليكون وردنا المورود في المستقبل القريب ، ولا يغني اهتمامنا بالشعر عن رعاية النثر وفنونه ، فقد بلغ فيه الأندلسيون والمغاربة ما يبيح تغيير قاعدة (الشعر ديوان العرب) لنزعم أن النثر ديوان العرب الأندلسيين والمغاربة.

ذكرنا عشرات المشاهير ، من أمثال : طارق بن زياد ، و عباد الرحمن الأمويين ، ومنذر بن سعيد ، و المنصور بن أبي عامر و القاضي عياض ، وابن تومرت ، و ابن الخطيب ، و ابن الزيات الغرناطي، وابن زيدون ، وابن شهيد ، وابن طفيل ، ابن حزم . وأبي حفص عمر بن الشهيد ، وأبي محمد بن مالك القرطبي ، وعبد الرحمن بن فتوح، وابن المعلم ، وأبي عبد الله بن شرف القيرواني ، وأبي عمر الزجال ، ولسان الدين ابن الخطيب ، والسرقسطي و الوهراني . و ابن برد الأصغر ، والجزيري ، وأبي الوليد إسماعيل الشقندي ، وأبي يحيى المعلم الطنجي ، وابن غرسية ، وابن حزم، وأبي عبد الله بن كليب ، وابن حجلة التلمساني ، ولسان الدين بن الخطيب..وأبي بكر بن العربي ، وأبي حامد الغرناطي، وابن جبير ، والتجاني ، والقاسم التُجيبي ، وابن بطوطة ، والقلّصادي ، وابن رُشَيد ... . ، واخترنا من نصوصهم النثرية ما اعتقدناه محققاً للغاية المرجوة ، ووزعناها في خمسة من الفنون و خمسة من الفصول وتناولناها تعريفاً ونشأةً ، وشروطاً، وآدابا ، وأنواعا ، وموضوعات ، وقمنا بدراسة تلك النصوص ونقدها وتحليلها بالحدود المتاحة.

وبقي نثر كثير لم نتناوله ، فغاب عن كتابنا أعلامٌ ومؤلّفات ، ونصوصٌ كثيرة ، فلن نسمع فيه زكزاً لابن عبد ربّه و العقد الفريد ، الذي لا تفتح فيه مقالة الصاحب بن عباد " هذه بضاعتنا ردّت إلينا " ، ولن تجد شيئاً من المقتبس لابن حيان مع أنّه " نموذج فريد في كتابة التاريخ كتابةً تحليليةً بصيرةً لامثيل لها عند العرب قبله ولا بعده ، وعلى شاكلتِهِ كتاب الذخيرة لابن بسام ...، ومذكرات الأمير عبد الله بن بلُّقين... " [٣] ، ومقدمة ابن خلدون وغيرها من الكتب و النصوص النثريّة .

وعلى الرغم من قلّة ما أتيناه ؛ فإنّا نظنّه القليل الذي لا غِنى عنه ، للدفع الحيف الذي لحق بالنثر نتيجة التنافس والدسائس ، والعصبيات ، ومحارق الكتب . ونعتقد جازمين أنه يقع في حقل خدمة التراث العربي الأندلسي والمغربي، فلم يعد مقبولاً أن يقوم الغربيون بخدمة تراثنا ،وإنصاف حضارتنا ، ويحدثونا عن مطلوع شمس الثقافة العربية عليهم ، وعن تأثرهم بقصص ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، وسندباد ، وحي بن يقظان ، وتقمصهم للشخصيّات العربية كالمعتمد والرميكية إعجاباً بهذه الشخصيات ، وتأثر قصص الصعلكة الإسبانية بالمقامات العربية ، ويعترفون بأثر الزجل والموشح الأندلسي في الشعر الإسباني والفرنسي والشعر الأوربي عامةً ...، كما يعترفون بتأثر مفكريهم وفلاسفتهم بفلاسفة المسلمين العرب ومتصوفتهم ، ويعترون بامتنان عن فضل ابن رشد ، وابن عربي عليهم ... ، ولا نقوم — نحن العرب — بهذا الواجب .

إزاء ذلك رأينا أنّ من واجبنا أن نعمل على نفض الغبار عن صفحات المخطوطات العربية القابعة في الأديرة وخزائن المدائن الأوربية ، بله العربية المغربية ، للتعرّف على تلك الكنوز وإبراز دورها في إثراء التراث الإنساني في جميع مناحي الحياة ، في الإدارة ، والدين والإلاهيات ، والموسيقى والغناء ، والزراعة ، والصناعة ، والرياضيات، والفلك ، والطب ، والعمران ، والآداب ... ، ما يتضاءل دونه جهدنا المبذول في هذا السفر الأكاديمي ؛ الذي جمعنا فيه من المصادر والمراجع الميسورة ما يغطي جانباً من احتياج مادتنا الثقافية الغنية بالمعارف والعلوم والآداب ، ليكون بداية مشروع أكبر وأحسن للبحث في أثر الحضارة العربية في أوربا والعالم ، ونعتقد أننا وضعنا لبنةً في صرح النثر العربي ، لبنة في الأساس ينهض عليها مشروع البحث النهضوي التعاوني المنظور ، الذي يتحقق بجهود المخلصين من أساتذة الأدب الأندلسي والمغربي جميعهم .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أسانيد الأحاديث النبوية الشريفة

المعاجم بأنواعها

ابن الأبار القضاعي

-التكملة لكتاب الصلة ، ، مجريط ١٨٨٩م والقاهرة ١٩٥٦م.

- الحلة السيراء ،محمد بن عبد الله القضاعي ،تح.حسين مؤنس ،القاهرة ١٩٦٣.

-الجامع الصغير، درا الفكر بيروت، ١٩٩٠م.

-المقتضب من تحفة القادم ، تحقيق. إبراهيم الأبياري ، القاهرة ...

ابن أبي أصيبعة

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ،موفق الدين ،تحقيق . نزار رضا بيروت ١٩٦٥.

ابن أبي الخصال

- رسائل ابن أبي الخصال ، تحقيق د. محمد رضوان الداية، ط١ دار الفكر، سورية، ١٩٨٨

ابن بسام الشنتريني

-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " ، تحقيق د. إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ١٩٧٨

- وتحقيقسالم مصطفى البدري ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان١٩٩٨.

ابن بطوطة

-رحلة ابن بطوطة، ، تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت ١٩٨١م.

ابن بكار ، الزبير

-"الأخبار الموفقيات " ، تحقيق سامي العاني،عالم الكتب ،لبنان ط١٩٩٦،٢.

ابن تاويت ،محمد

-الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٨٢م

ابن جبير الكناني

-رحلة ابن جبير ، دار صادر، بيروت ١٩٨٠م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد

- رسائل ابن حزم ،تحقيق إحسان عباس،، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٣.

-طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ،مطبعة الاستقامة ، القاهرة ،١٩٦٤

- الفصل في الملل والهواء والنحل ، تحقيق .إ حسان عباس، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .

-فضائل الأندلس وأهلها : ابن حزم ، وابن سعيد ، والشقندي ، تحقيق . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد القاهرة ،١٩٦٨.

ابن حيان القرطبي

-المقتبس من أنباء أهل الأندلس ،تحقيقمحمود علي مكي ،دار الكتاب العربي ،بيروت ١٩٧٣.

-وطبعة دار الآفاق، المغرب١٩٩٥م

ابن خاقان ، الفتح

-مطمح الأنفس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة بيروت ،١٩٦٣.

ابن خلدون

- المقدمة ، دار القلم ،بيروت ١٨٧٩.

-التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥١م.

ابن الخطيب لسان الدين

-الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧١م و.١٩٧٣م١٩٧٤.

- أعمال الأعلام ، تحقيق بروفنسال ،الرباط ١٩٣٤.

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٨٢م.

- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق أحمد المختار العبادي ،الاسكندرية١٩٨٣.

ابن دحية

- المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة ١٩٥٥

ابن رُشيد الفهري

-رحلة ابن رُشيد ، تحقيق محمد الحبيب الخوجة، ومخطوط لاسكوريال.

ابن سعيد الأندلسي

- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، دار الكتاب اللبناني١٩٨٠.

-الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٦٧م -"

-المرقصات والمطربات " ، دار حمد ومحيو ، بيروت ، ١٩٧٣

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،ابن سعيد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ،موليات القاهرة١٩٤٩.

- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق د. شوقي ضيف ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤.

ابن سودة ، عبد السلام

-دليل مؤرخ المغرب ، تطوان ، ١٩٥٠م.

ابن سيدة الأندلسي

- المخصص ، المكتب التجاري ، بيروت ١٣٢١هـ.

ابن شرف القيرواني ،محمد

- أعلام الكلام . من مجموعة الرسائل النادرة . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٢٦

ابن شريفة ، محمد

- أكاديمية المملكة المغربية ،السفر١٢ ،حول التسامح الديني

ابن شهيد

- رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م

ابن طفيل

-حي بن يقظان ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٩٠م.

ابن عبد ربه

-العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٩٥٢

ابن عذاري المراكشي

-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق بروفنسال،دار الثقافة بيروت . و المكتبة العلمية ، بيروت، ١٩٩٦م.

ابن فرحون المالكي

-الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، بيروت ، د.ت

ابن القاضي المكناسي

-جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، الرباط ١٩٧٤م.

-درّة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، تونس القاهرة ١٩٧٠م.

ابن قتيبة

-رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ،مطبعة التأليف والترجمة،مصر١٩٥٤

-الشعر والشعراء ، نشر دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٤ ، ١٩٨٠.

-عيون الأخبار ، ج ١، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ت

ابن مريم، محمد بن أحمد

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٩٠٨م.

ابن منظور الإفريقي

- " لسان العرب " ، دار صادر، بيروت١٩٥٥ و ١٩٦٨م.

ابن نباتة المصري

-سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ، نشر مكتبة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٧م.

أحمد ، أحمد رمضان

-الرحلة والرحالة المسلمون ، بيروت ، د.ت.

الأزرقي

-تاريخ مكة وأخبارها،افتخار الحرمين وأشعارهما ،ضمن مجموع عام رقم ٣٤٠٠،الظاهرية.

الأصفهاني ، أبوالفرج

-" الأغاني " ، علي بن الحسين ج١٨،ط.مصورة عن دار الكتب ،القاهرة ١٩٤٥.

الأصفهاني ، الراغب

-محاضرات الأدباء ، ج١،تح.عمر الطباع،بيروت،ط١٩٩٩،١.

الأصمعي ، أبي سعيد عبد الملك بن قريب

-" الأصمعيات "، اختيار ، تحقيق محمد شاكر وعبد السلام هارون ، نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٤

الألمعي، زاهر عواض

- مناهج الجدل ، بيروت ،د.ت .

امرؤ القيس

-ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٨م.

الباجي

- فصول الأحكام ، تح . أبو الأجفان ، دار صادر بيروت ، د.ت .

البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل

- صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

بديع الزمان الهمذاني

- "مقامات بديع الزمان الهمذاني" ، ط٢ ، المدني ، القاهرة ١٩٦٢ والمطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨

بروكلمان

-تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف، ١٩٦٥.

البغدادي ، أبو بكر

-الرحلة في طلب الحديث ، تحقيق نور الدين عتر، بيروت ١٩٧٥م.

البلوي ، خالد

-" تاج المفرق في تحلية علماء المشرق " ، تحقيق الحسن السائح، المحمدية بلا.

التجاني ، محمد بن احمد

- رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، تونس وليبيا ١٩٨١م.

التجيبي ، القاسم

-مستفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا وتونس ١٩٧٥م.

التركي ، عبد المجيد

-مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ١٩٨٦.

التهانوي ، محمد بن علي

- كشاف اصطلاحات الفنون ، دار صادر بيروت ١٩٦١.

الثعالبي

-" يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " ج ٤، دار الباز ، مكة المكرمة ١٩٧٩

الجاحظ

-" البيان والتبيين " ، تحقيق حسن السندوبي ، ط ٣ نشر المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٤٧

-وتحقيق.عبد السلام هارون،القاهرة ١٩٤٨.

جنثالث بالنثيا ، آنجل

-تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٥م.

الحاجري، طه

-دراسات عن ابن حزم ، ط٣،دار المعارف ١٩٨١.

حازم القرطاجني

-ديوان حازم القرطاجني ، تحقيق عثمان الكعّاك، بيروت ١٩٦٤م.

الحريري

-"مقامات الحريري " ، المطبعة العامرية ، القاهرة ١٣١٣هـ والمكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٢٦

حسن ، زكي محمد

-الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٥م.

حسين ، حسين يوسف

- " ابن بسام وكتابه الذخيرة " ، خريوش ،حسين ، ط دار الفكر ، عمان ١٩٨٤

حسين، محمد الخضر

-الرحلات ، تحقيق علي الرضا التونسي، القاهرة ١٩٧٦م

الحصري القيرواني

-"زهر الآداب " ، ط٤، تحقيق محمد عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢

حميدة ، عبد الرحمن

- "أعلام الجغرافيين العرب " ، دار الفكر دمشق ١٩٨٠م.

الحميدي ،أبو عبد الله محمد بن فتوح

- جذوة المقتبس ، تحقيق بروفنسال ،الدار المصرية ١٩٦٦.

الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن عامر

- " البديع في وصف الربيع " ، تحقيق هنري بيريس، الرباط ١٩٤٠.

الحميري ،محمد عبد المنعم

- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إ حسان عباس ،مكتبة لبنان ١٩٨٤.

الداية ،محمد رضوان

-" تاريخ النقد الأدبي في الأندلس " ، ط١ دار الأنوار ١٩٦٨

دياب ، د. علي

في الأدب العربي والأندلسي ،ط جامعة دمشق ٢٠٠٢-٢٠٠٣

راشد دياب

-" نقد الشعر عند الأندلسيين بين التأصيل النظري والتطبيق العملي" ، مخطوط الدكتوراه.

الزبيدي ،محمد بن الحسن

-طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣.

الزبيدي ، محمد المرتضى

- تاج العروس ، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦هـ.

الزركلي ، خير الدين

- الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢م.

الزمخشري

-" أساس البلاغة " ، ،دار الكتب العلمية ،بيروت ط.٢ ،١٩٨٧ .

-ودار صادر ، بيروت ١٩٦٥

- " مقامات الزمخشري " ،ط دار الكتب العلمية بيروت ١٣١٢

زيادة ، نقولا

-الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٨٠م

-الرحالة العرب ، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٦م.

زيدان، جرجي

-تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٣٦م.

زيادة، نقولا

الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت ١٩٨٠م... الرحالة العرب دار الهلال القاهرة ، ١٩٥٦

السرقسطي

-المقامات اللزومية " ،تحقيق حسن الوراكلي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ،ط٢ ٢٠٠٦

وتحقيق د. بدر أحمد ضيف ، ط القاهرة ١٩٨٢

السكوني ،علي

-عيون المناظرات ، تح . سعد غراب ، الجامعة التونسية ١٩٧٦.

سلطان ، جميل

-فن القصة والمقامة " ، ط دار الأنوار بيروت ١٩٦٧

سيبويه

-" الكتاب " ، ط باريس ١٨٨٥

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)

-" بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنُحاة " ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤م.،

السيوفي ، المصطفى محمد

-ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري " ، عالم الكتب بيروت ١٩٨٥

الشريشي

-شرح مقامات الحريري " ، ط١ نشر عبد الحميد حنفي ، القاهرة ١٩٥٢ و ١٩٥٣

الشكعة،مصطفى

- "الأدب الأندلسي " ،ط٥،دار العلم للملايين،بيروت ١٩٨٣.

الشنطي ،محمد صالح

- في الأدب العربي الأندلسي " ، دار الأندلس ، حائل ١٤٢٧

الصديق ، حسن

-حسن المناظرة في الأدب العربي والإسلامي ، بيروت ٢٠٠٠.

الصفدي، خليل بن أيبك

-تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٦٩م.

صفوان بن إدريس ، أبو بحر، عبد القادر مقداد

-زاد المسافر وغرة محيا الأدب ، دار الرائد العربي ،بيروت ١٩٧٠.

الضبي ،أحمدبن يحيى بن أحمد بن عميرة

-" بغية الملتمس " ، دار الكاتب العربي،القاهرة١٩٦٧.

- " المفضليّات " تحقيق شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤

ضيف ، شوقي

-تاريخ الأدب العربي ،شوقي ضيف ،دار المعارف،دار المعارف ،د.ت.

- " تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، الأندلس " ، دار المعارف بمصر، القاهرة ، ١٩٨٩

-"المقامة من فنون الأدب العرب " ط٤ دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤

-الرحلات ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٥م.

طاش كبرى زاده

- " آداب المولى آي المختر "، ضمن مجموع مخطوط القاهرية برقم٣٥١٦.

الطرابلس ،محمد الهادي

- خصائص الأسلوب في الشوقيات، مطبوعات الجامعة التونسية ، تونس ١٩٨١.

ابن طفيل ،

-حي بن يقظان ----

عبد الباقي ، محمد فؤاد

-"المعجم المفهرس لألفاظ القرآن " ، دار إحياء التراث العربي عن ط دار الكتب المصرية ، بيروت ١٩٤٥

العاملي

-حضرة الارتياح المغنية عن الراح " ، المطبعة التونسية ،نهج سوق البلاط ، عدد ٥٧ ، تونس ١٣٣٦هـ

العبادي ، أحمد مختار

-" المقامة في الأندلس " ، مقال في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية العدد ١و٢ مدريد ١٩٥٤ .

عباس ، إحسان

-تاريخ الأدب الأندلسي ، جزءان

" عصر الطوائف والمرابطين " ، ط٧ دار الثقافة بيروت ١٩٦٢ و ١٩٦٩

و" عصر سيادة قرطبة " ط٦ دار الثقافة بيروت ١٩٨١

العبدري ، محمد

-رحلة العبدري ، تحقيق محمد علي كردي، دار سعد الدين، دمشق ١٩٩٩م.

العربي ، أبو بكر

-العواصم من القواصم ، تحقيق عمار الطالبي ج ٢،بيروت،د.ت.

العسكري ، أبو هلال

-جمهرة الأمثال، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

العلي ، هلا

-المناظرات في الأدب الأندلسي ،إشراف د. فيروز مونسي ،٢٠٠٥.

الغبريني ، أبو العباس

-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية ، تح رابح بونار، الجزائر ١٩٨١م.

غريب ، جورج

-" أدب الرحلة " ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٢م.

الفتح بن خاقان

-قلائد العقيان ، تحقيق محمد العناني ، تونس ١٩٦٦

-مطمح الأنفس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة بيروت ،١٩٦٣.

الفراوي ،نعمة رحيم

-مقالات في آثار الشعوبية في الأدب العربي وتاريخه ،بغداد طبعة إشبيلية الحديثة .

فروخ ، عمر

-تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٣م.

القالي ، أبو علي

- " الأمالي " ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٣

القلصادي ، علي

-رحلة القلصادي ، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس ١٩٨٥م.

القلقشندي ،أحمد بن علي

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،دار الكتب المصرية ، القاهرة ، د.ت .

القونجي ،صديق بن حسن ،عبد الجبار زكار

- " أبجد العلوم " ،وزارة الثقافة دمشق١٩٧٨

القيسي، فايز عبد النبي

-" أدب الرسائل في الأندلس في ق٥هـ، " ،دار البشير١٩٨٩.

الكتاني ، عبد الحيّ

-فهرس الفهارس والأثبات، ، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت ١٩٨٦م.

كحالة ، عمر رضا

معجم المؤلفين ،دمشق ١٩٦١.

كراتشكوفسكي

- تاريخ الأدب الجغرافي ، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.

الكلاعي،أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الأندلسي

- "إحكام صنعة الكلام " ، تحقيق رضوان الداية،عالم الكتب بيروت ١٩٨٥.

كنون ،عبد الله

-" النبوغ المغربي في الأدب العربي " ، ط٢ دار الكتاب اللبناني ،بيروت ١٩٦١

مؤنس ، حسين

-تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط٢ ، مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٦م.

المتنبّي، أبو الطيب

-ديوان المتنبّي، تحقيق مصطفى السقّا وآخرين، القاهرة ١٩٣٦م.

ماردينى ،رغداء

- المناظرات الخيالية في أدب المشرق والأندلس ،دار الفكر،دمشق.

مبارك ، زكي

- " النثر الفني في القرن الرابع " ، ط١ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤

محفوظ ، محمد

-تراجم المؤلفين التونسيين " ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢م.

مخلوف ،محمد

-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، بيروت د.ت

المراكشي، العبّاس بن إبراهيم

- " الإعلام فيمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام " ، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٤م.

المراكشي

-المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م.
-وتحقيق محمد سعيد العريان ،مولبات القاهرة١٩٤٩.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٦٥
وتحقيق ابن شريفة، الرباط ١٩٦٧.
-البيان المغرب ،ابن عذاري أحمد بن محمد المراكشي ،تحقيق بروفنسال،دار الثقافة بيروت ، د.ت.

مرتاض ، عبد الملك

-فن المقامات في الأدب العربي " ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٨ ، والشركة الوطنية ، الجزائر ١٩٨٠

مسلم ، بن حجاج النيسابوري

-صحيح مسلم ،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٣ ،دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٥.

المسعودي

- "مروج الذهب ٤ أجزاء المكتبة التجارية الكبرى بمصر القاهرة ١٣٧٧هـ وطبعة طهران ١٩٧٠.

مصطفى ،احمد أمين

- المناظرات في الأدب العربي حتى نهاية ق٤هـ ،دار المعارف ،مصر.

المقّري التلمساني

-أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقّا وآخرين، القاهرة ١٩٣٩م
-"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب " تحقيق د. إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت ١٩٦٨ و ١٩٩٧م
-وتحقيق محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٥.

المكناسي، محمد بن عثمان

- " الإكسير في فكاك الأسير" تحقيق محمد الفاسي، الرباط ١٩٦٥م.

مكي ، الطاهر أحمد

-دراسات أندلسية ، ،دار المعارف ط١،د.ت.

المناوي ،محمد عبد الرؤوف

-التوقيف في مهمات التعاريف، ،تحقيق د. محمد رضوان الداية ،دار الفكر المعاصر ،بيروت ١٩٩٠.

المنوني ، محمد

-ركب الحاج المغربي، ، تطوان ١٩٥٣م.

الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمّد)

-مجمع الأمثال، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت، د.ت .

النابغة الذبياني

-ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق شكري فيصل، دمشق ١٩٦٨م.

النباهي (أبو الحسن بن عبد الله)

-المرقبة العليا أو تاريخ قضاة الأندلس، نشر لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ١٩٨٣.

-تاريخ قضاة الأندلس

النص . إحسان

-الخطابة السياسية في عصر بني أمية ، دار الفكر دمشق ١٩٦٥.

هارون. عبد السلام

-نوادر المخطوطات ، المجموعة ٣ ، ط٢، مطبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٣

الوضيفي،مصطفى

- " أصول التشيع " ،الدار البيضاء ،١٩٨٩ .

الوهراني

- " مقامات الوهراني ومناماته ورسائله "،تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نقش . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، مصر ١٩٦٨

ياغي ، عبد الرحمن

-رأي في المقامات " ، دار الفكر ، عمان ١٩٨٥ وبيروت ١٩٦٩*

ياقوت الحموي

- معجم الأدباء ، تحقيق احمد فريد الرفاعي ، القاهرة ١٩٦٣.

يوسف ،نور عوض

-فن المقامات بين المشرق والمغرب " مكتبة الطالب العربي ، مكة المكرمة ، ط٢ ، ١٩٨٦ و طبعة دار القلم بيروت١٩٧٩

اللجنة العلمية

الأستاذ الدكتور خالد علي حلبوني

الأستاذ الدكتور محمود سالم محمد

الأستاذ الدكتور محمد شفيق بيطار

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات الجامعية